الدكتور زكي نجيب محمود
أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة
وأستاذ زائر بجامعتي كارولاينا الجنوبية
وولاية وشنطن بالولايات المتحدة

أيام في أمريكا

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٩٥٥

الدكتور زكي نجيب محمود
أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة
وأستاذ زائر بجامعتي كارولاينا الجنوبية
وولاية وشنطن بالولايات المتحدة

أيام في أمريكا

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٩٥٥

مقدمة

هذه أيام من عام ١٩٥٣ — ٥٤ قضيتها فى أمريكا أستاذاً زائراً باثنتين من جامعاتها ، إحداهما جامعة كارولاينا الجنوبية فى الجنوب ، والأخرى جامعة ولاية واشنطن فى أقصى الشمال الغربى ، إذ أقمت فى كل منهما فصلا دراسياً ، فأتيح لى بذلك أن أقطع البلاد من شاطئ المحيط الأطلسى شرقا ، إلى شاطئ المحيط الهادى غرباً .

لكن أكثر اليوميات — بطبيعة الحال — قد كتبت فى مدينتى كولمبيا بولاية كارولاينا الجنوبية حيث أقمت الفصل الأول من العام الجامعى ، و بلمان بولاية وشنطن حيث قضيت الفصل الثانى ، هذا فضلا عن زيارتى لوشنطن العاصمة ، ونيويورك ، ونيوأورليـنز ، ولوس أنجلس ، وسان فرانسيسكو ، وسياتل ، وغيرها .

إن من أظلم الظلم أن تحكم على شعب بأسره حكما ما وأنت واثق من صدقه ، ذلك لأن الناس أفراد يختلف كل فرد منهم عن سواه ، وقد يتعذر جداً ، بل قد يستحيل أحياناً أن تدرك أوجه الشبه السارية فى الجميع ، والتى جعلت من مجموعة الأفراد أمة واحدة ذات طابع معين يميزها . . . و إذن فخير ما تستطيع قوله وأنت مطمئن إلى صدق قولك ، هو أن تصف خبرتك الشخصية مستنداً إلى الأفراد الذين كانوا لك مصدر تلك الخبرة ، فهؤلاء الأفراد فيما يقولونه لك وما يتصرفون

به فى وجودك ، هم الأساس الذى يمكّنك من تكوين فكرة يجوز لك فى حذر أن تعممها على بقية أفراد الشعب الذين لم ترهم ولم تسمع عنهم .

فى هذه اليوميات سجلت بعض خبرتى تسجيلا أمينا صادقا ، فوصفت من صادفته وما صادفته من الأشخاص والحوادث ، بالإضافة إلى ما أحسسته إزاء أولئك الأشخاص وهذه الحوادث ، وأردت أن أشرك القارئ العربى فى خبرتى ، فنشرت هذه اليوميات ، راجيا أن يجد فيها القارئ شيئا مما يود أن يقرأه عن الحياة فى أمريكا ، والحياة الفكرية بنوع خاص .

زكى نجيب محمود

الفهرس

١ - فى الطريق ، وفى الجنوب

الأربعاء ١٦ سبتمبر ١٩٥٣ (فى الطائرة) :

غادرت القاهرة ظهر اليوم ، وجلستُ فى الطائرة إلى جوار شاب فى مقتبل العمر حسبته عراقياً ، لـكنه سرعان ما تبين أنه من نيكاراجوا ، هو القنصل العام لبلده فى شرق الأردن واسرائيل ، يتكلم العربية متعثراً ... وما كدنا نعلو فى الجو فوق قطع السحاب الخفيف المبعثر فوق أرضية صفراء هى أرض الصحراء الغربية ، حتى مرّتْ بنا المضيفة باسمة توزع علينا قطع النعناع ؛ و بعد أربعين دقيقة أعلن الميكروفون فى الطائرة أننا الآن فوق مدينة الإسكندرية ، فنظرت فإذا بالإسكندرية لا تزيد على خطوط رفيعة مرسومة بالقلم الرصاص على الورق ؛ وهنا ذكرتُ من أعرفهم هناك من أهل وأصدقاء ، وقلت لنفسى : إذا كانت المدينــة الضخمة قد استحالت إلى هذه الخيوط الرقيقة ، فبأىّ منظار يمكن أن أرى الناس ؟ والإنسان فى هذه الحالة أَمْيَلُ إلى التسرع بالحـكم على نفسه بالتفاهة والضآلة ، فقليل من الارتفاع فى الجو يمحوه ، فماذا يكون أمره عند الرائى من أفلاك أخرى وأكوان أخرى ؟ لـكن الخطأ هنا هو نسيانه أن الطائرة التى مكّنَتْه من الصعود هى من صنعه ووليدة فـكره وطموحه وخياله الوثاب — إن أول سطر ينبغى أن يكتب فى كتاب ثورتنا وأن يُقرأ ألف مرة كل يوم ، هو أن نقرر لأنفسنا عن عقيدة قوة الإنسان وجبروته ، وأن نمحو من صفحات أذهاننا هذا الوهم الذى ما ينفكّ يعاودنا و يخيفنا ، وهو أن الإنسان مخلوق تافه ضعيف .

غادرنا صفرة الرمال إلى زرقة الماء ، فودَّعتُ بذلك وطنى ؛ وهبطنا فى أثينا وفى روما وفى زيورخ وفى باريس وفى شانُن بأيرلندة ، ومنها عبرنا المحيط الأطلسى ، ولهذا وقفت المضيفة تشرح لنا كيف تُلْبس معاطف النجاة إذا اضطرت الطائرة إلى الهبوط فوق الماء .

ركب الطائرة فى باريس قسيس أمريكى وجلس إلى جانبى ، طويل الجسم

عَريضُه ، حليق اللحية ، لا يدل على أنه من رجال الدين شيء في مظهره سوى الصدار الأسود ؛ فكان هذا أول أمريكيّ أتحدث إليه في رحلتي إلى أمريكا ؛ إنني مقدم على هذه الرحلة معتزماً أن أخبر الشعب الأمريكي عن كثب ، لا أتأثر في حكمي إلا بما أراه وما أسمعه ؛ ولما كان الشعب هو مجموعة أفراده ، فمن الأفراد الذين سألتقي بهم وأحدثهم ستتكون فكرتي الخاصة عن الأمريكيين ، و إذن فلأنصتْ جيداً إلى كل حديث ، ولأقرأ جيداً كل ما أراه على الوجوه من تعبير ؛ فهذا القسيس الأمريكي قد بدتْ منه علامات الطيبة القلبية منذ اللحظة الأولى ، كان على أسرع استعداد أن يعين كلما اقتضى الأمر أن يقدم معونة إليّ ؛ ولما شكرتُه ذات مرة على قدح القهوة الذي تناوله من المضيفة وناولني إياه ، اطّرد بيننا الحديث ، فسألتُه هل ذهبت إلى مصر ؟ فقال : لا ، إن أبعد ما وصلت إليه في أسفاري هو روما ، لقد عبرتُ المحيط مرتين ... ولما عرف أني مصريٌّ سألني : ما حقيقة الموقف بينكم و بين الإنجليز ؟ ثم سرعان ما تدارك قائلا : معذرة ، فأظنكم على صلة بالفرنسيين لا بالإنجليز ، فصححتُ له الخطأ وأفهمتُه أن المشكلة الرئيسية هي بيننا و بين الإنجليز ، فسألني : إذن فأنتم خاضعون لبريطانيا . وأنتم لا تريدونها أن تحكمكم ، أهذا هو الموقف ؟ فابتسمت قائلا : ليس في الأمر خضوع ولا حكم ، إننا دولة مستقلة حرة ، والأمر كله قائم على وجود قوة عسكرية لهم على جزء من أرضنا هي منطقة قناة السويس ، ونريد إخراج تلك القوة من هناك ؛ فانتقل فجأة إلى سؤالي عن عدد الكاثوليك في مصر . . . ومضينا في الحديث ، فعجبت إذ رأيتُ بدايته الدالّة على جهل شديد بمصر ، قد انتهت إلى نهاية دالة على كثرة معرفة وسعة اطلاع ، ولولا أنه مشغول العقل بالكاثوليكية إلى حد أعجزه عن التفكير في شيء إلا إذا مزجه بالكاثوليكية . لكان رجلا رفيع الثقافة .

قدّم لي سيجارة فاعتذرت شاكراً ، لأني لا أدخّن ، فقال : ولا أنا أدخّن

السجائر إلا فى رحلة كهذه ، لكنى بالطبع أدخّن السيجار ؛ وعرف أنى مشتغل بالفلسفة فسألنى عن الوجودية من جهة وعن الوضعية المنطقية من جهة أخرى ، وطلب منى أن أشرح له وجهة نظرى فى علاقة هاتين الفلسفين المعاصرتين بالكاثوليكية ، فهو يريد أن يعلم إن كان هو قد أصاب الرأى حين رأى أن هاتين الفلسفتين خطرٌ على الدّين ، فشرحتُ له رأيى فى الوجودية وفى الوضعية المنطقية ، لكنى رفضتُ أن أقول شيئاً فى علاقتهما بالدين ، تاركا له هذه الناحية من الموضوع يفيض فيها الحديث ما شاء ، لأنها تشغله أكثر مما تشغلنى ، وتهمه أكثر مما تهمنى .

وانتقل الحديث إلى الشيوعية ، فراح يستنكرها فى حماسة عجيبة ، فقد ثار هنا ثورة انفعالية لا يتوقعها السامع من رجل دينى طابعه الهدوء ، وقال وكأنه يخطب جمهوراً كبيراً أمامه مع أنه يتحدث إلى شخص واحد فى طائرة تشق ظلام الليل على ماء المحيط : إننى أعلنتها مراراً فى كنيستى ، بأننى مستعد لجمع التبرعات من أهل دائرتى الكنسيّة ، لأعطى المال المتجمّع لأى إنسان يحسّ فى نفسه الرغبة فى اعتناق الشيوعية ، فيسافر إلى الروسيا على حساب كنيستى ، و إذا استطاع الدخول فله الحق فى اعتناق المذهب الشيوعىّ الذى تمنّاه لنفسه ، أما إذا أوصدتْ دونه أبواب الروسيا وعاد بخُفَّىْ حنين ، ففيم إذن استمساكه بمذهب لا يريد أصحابه أن يفتحوا له أبوابهم لينضمّ إلى صفوفهم ؟

أطفئت المصابيح داخل الطائرة ، وراح المسافرون يصلحون من مقاعدهم ليناموا ، وأسندتُ رأسى ونمتُ ثم صحوتُ بعد ساعتين ، وشعرت ببرد خفيف فتدثرت ببطانية صغيرة موضوعة فى أعلى مقعدى ، ثم نمتُ مرة أخرى نحو ساعة .. الركاب نائمون ، أو همْ يتخذون ظواهر النوم .. ونظرتُ إلى المحيط ، فلم أر محيطا بالطبع لأننا على ارتفاع شديد ، لكنى رأيت جواً مُفَضّضاً فالظاهر أنها كانت ليلة مقمرة ، وأن ضوء القمر كان منعكساً على السحاب من تحتنا فأحدث هذا

اللون الفضى . . . إننى الآن أشعر برئتىّ حين أتنفس ، ولستُ أدرى أهى نتيجة محتومة بسبب الارتفاع ، أم أنها ظاهرة خاصة بى وحدى .

ظللت أنظر إلى الجو الفضى خلال الزجاج ، وقلتُ فى نفسى : ما أبعد الفرق بين إنسان و إنسان ! قارن بينك الآن وأنت تعبر المحيط على هذا النحو ، و بين كولمبس وهو يعبر المحيط نفسه ، لتعلم كم يكون الفرق بين الفرد المبدع الخلاّق المبتكر ، و بين الأفراد الذين يجيئون بعد ذلك فيتبعونه ! إن خيال رجل واحد ، وجرأته ، فتحت للناس عالماً جديداً ، وشقت لهم طريقاً جديداً ، وسرعان ما يختلط علينا الأمر فنظن ألا فرق بين من يبدع ومن يتبع ! سرعان ما يختلط علينا الأمر فى مصر فلا ندرك فرقاً بين مبتكر الطائرة مثلا و بين من يركب الطائرة على نموذج أمامه ! سرعان ما يختلط علينا الأمر فى مصر فلا نرى المسافة الشاسعة بين عالِم يبحث و يصل إلى النتائج الجديدة و ينشر هـذه النتائج و بين من يأتى بعد ذلك ليقرأ هذا المنشور و يدرسه و يفهمه ، فنقول لأنفسنا : إن منهم علماء ومنا علماء ولا فرق بين شعب وشعب ولا بين شرق وغرب ! ... لـكن الفرق يا صاحبى هو نفسه الذى يقع بينى و بين كولمب فى عبور المحيط — عَبَره هو لأول مرة مغامراً مخاطراً متخيلا متعقلا ، وعبرته بعده تابعاً فلا مغامرة ولا مخاطرة ولا خيال ولا فكر .

الخميس ١٧ سبتمبر سنة ١٩٥٣

أخذت تباشير الصبح تنتشر حولنا بعد أن قطعنا فى سواد الليل أكثر من خمس عشرة ساعة ، لأننا نتجه غرباً ، كما تتجه الشمس ، فنحن والشمس نسير فى اتجاه واحد كأنما نحن معها فى سباق لا نريدها أن تلحق بنا ، لـكنها فى سـيرها أسرع من طائرتنا ، فلحقت بنا بعد ظلام طويل ، ونظرتُ عند إشراقها فإذا نحن سائرون فوق سحاب كثيف : منظر غاية فى الروعة والجمال ، فكأن ما تحتنا من سحاب جبال من رغاوى الصابون ، أو أكداس من دخان أبيض .

بدأتُ الحديث مرة أخرى مع القسيس الذى يجلس إلى جوارى ، ولم نكد نتحدث حتى طرق الكاثوليكية من جديد يحدثنى فيها ، و يطلب منى فى إلحاح أن أقابل القسيس الكاثوليكى فى البلد الذى سأحلّ فيه ، وهو كولومبيا من ولاية كارولاينا الجنوبية ؛ وعاد مرة أخرى يستوثق منى الرأى فى بعض نواحى الفلسفة المعاصرة من وجودية ووضعية منطقية ليرى كيف يمكن للدين أن يتقى مواضع الخطر ؛ وقال لى آخر الأمر : إنك لن تجد الأمريكيين كلهم من أمثالى ، تحدثهم مثل هذا الحديث العالى فيفهمونك ، فقد تقول لهم : « وضعية منطقية » ، فيسألونك : كم طابقاً تكون هذه العمارة ؟ فأنبأُته بأن زعماء هذه الحركة الفلسفية هم اليوم فى أمريكا ، ونحن إنما نَتْبع ولا نجيئهم فى ذلك بجديد .

وهبطت بنا الطائرة فى جانْدَرْ بكندا وكان الجو بها بارداً ممطراً ، وجاءتنا فى الطائرة موظفة تطّلع على ما عندنا من شهادات التطعيم ضد الجدرى فكان الركاب جميعاً يحملون شهاداتهم إلا واحداً ، هو من رجال السلك السياسى فى بلاد المكسيك ، فنزلنا جميعاً من الطائرة إلا هو ، فقد أمروه ألا يغادر مكانه ... مكثنا باستراحة المطار برهة قصيرة ، وهناك رأيتُ آلة تمسح الأحذية ، تضع فيها بنْسَيْن فتدور ، فتضع حذاءك فى موضع منها حيث يُطلى ، ثم تضعه فى موضع آخر حيث يلمع .

واستأنفنا الطيران من جاندر إلى بوسْتُنْ ، وكذلك استأنف جارى القسيس حديثه معى ، وسألنى إن كنتُ قد سمعت الأب شين وهو يذيع فى الإذاعة المصورة ، فقلت إنى لم أسمعه ولم أسمع به ، فقال إنك لن تقيم فى الولايات أسبوعا واحداً دون أن يملأ سمعك لأن له شهرة واسعة فى الإذاعة بنوعيها : الصوتية والمصورة ، ووصف لى كيف أن للرجل طريقة فى الإلقاء تجذب السامعين بما له من ملامح و إشارات وصوت ونبرات ؛ ومن لطيف ما قاله لى عنه أن الأب شين هذا قد أجرى تجربة فى الإذاعة ، مؤداها أن توضع إذاعته فى نفس اللحظة التى

يذيع فيها مهرّجٌ مشهور يحبّ الناس أن يضحكوا لنكاته ، وأراد الأب شين بهذه التجربة أن يرى أيهما أكثر اجتذاباً لأسماع الناس : واعظ ينطق بالحكمة الدينية أم مهرج يلهو ويضحك ، فكان للأب شين الغلبة ، وإذن فلا يزال الأمريكيون بخير من حيث احترامهم لعقيدتهم الدينية ورجالها .

وصلنا مطار نيويورك بعد طيران دام ثلاثاً وثلاثين ساعة ، وكنتُ قد احتفظت في ساعتي بوقت القاهرة ، فكانت الساعة عليها عندئذ الثامنة ، فأرجعتُها ستّ ساعات لتدلّ على وقت نيويورك ، ووجدت سيدة تسأل عني جاءت لتستقبلني ووجدتُ معها قائمة بأسماء الغرباء الذين ينتظر وصولهم اليوم ، أعطتها إياها وزارة الخارجية ، وسرعان ما علمت أن السيدة تنتمي إلى جمعية تطوعية جعلتْ مهمتها استقبال الغرباء من أساتذة وطلاب ، ليمهدوا لهم طريق الاستقرار في بلادهم حتى لا يضلّوا السبيل كما يضلّ كل غريب ليس له هادٍ يهديه ؛ وقد يظن السامع أن هذه هي الجمعية الوحيدة التي أخذت على نفسها هذه المهمة الإنسانية ، لأنه في الحقيقة يكفي أن تفكر جماعة واحدة في التطوع لمثل هذا العمل ، لكنني دهشت حين أعطتني السيدة قائمة بأربعة وثلاثين عنواناً لأربعة وثلاثين جمعية تطوعية ، كلها تألفت لهداية الزائرين الغرباء !

خرجتُ من مكان التفتيش الجمركيّ ، ووقفتُ أنتظر السيارة العامّة التي تنقل المسافرين من المطار إلى المدينة ؛ وهنا جاءني الشرطيّ فحيّاني بقوله : لا شك أنك مغتبط لعودتك إلى أرض الوطن ، فهذا شعور أحسستُ به أنا لما عدتُ إلى الوطن بعد غَيْبة ؛ فقلت له : أنا مغتبط لوصولي ، ولكني زائر وليست أمريكا بوطني ؛ فراح الشرطيّ يحدثني حديثاً يفيض ودًّا وطيبة قلب عما ينبغي أن يكون بين الناس من إخاء مهما اختلفت أوطانهم وسأل متعجباً لماذا تنشأ حرب بين قوم وقوم كالحرب الكوريّة مثلا ؟ ألا يريد كل رجل أن يعيش بين أهله ؟ وقال لي الشرطي فيما قال : إنه إيطالي ، فلم أفهم لأول وهلة ما ذا يريد ، ولو أنه بالطبع

يقصد أنه من أصل إيطالى ، لكننى لم أخلُ عندئذ من دهشة أن يذكر الأمريكىُّ أصله الأوروبىّ أول ما يذكره عن نفسه من حقائق — وجاءت السيارة فأعاننى فى حمل حقائبى وأوصى السائق بى خيراً ودلَّه على أقرب مكان للفندق الذى علم أنى سأقيم فيه .

لقد تحدثت حتى الآن مع ثلاثة : القسيس فى الطائرة ، والسيدة المتطوعة فى المطار ، وهذا الشرطىّ ؛ ولو كان هؤلاء عيّنةً للشعب الذى جئت لزيارته ، فهو إذن شعب ودود كريم طيب مُعين .

الجمعة ١٨ سبتمبر :

صحوت مبكراً ، ونزلتُ لأرى شوارع نيويورك وهى فى هدوء الصباح ، ولبثت أطوف على مهل ، شاخصاً ببصرى هنا ، لامساً بأصابعى هنا ، واقفاً عند مفترق الطرق هناك ! حتى إذا ما حان موعد العمل فى المكاتب قصدتُ إلى مؤسسة چون وتْنى فى المبنى الضخم بميدان روكفلر ، وهى المؤسسة التى منحتْنى منحةً سخيَّةً لأقيم فى أمريكا عاماً دراسيًّا ، أحاضر فى اثنتين من جامعاتها : فى جامعة كارولانيا الجنوبية بكولمبيا خلال النصف الأول من العام ، وفى كلية الدولة بولاية وشنطن فى النصف الثانى من العام . استقبلتنى الآنسة « ل » ، وهى فتاة فى نحو الخامسة والعشرين من عمرها ، أو قد تزيد قليلا ، سمحة الوجه ، جميلة الملامح ، مهندمة فى أناقة واحتشام ، تبدو عليها علائم التهذيب والثقافة ؛ استقبلتنى بترحاب شديد ، وأعطتنى القسط الأول من منحتى المالية ، ودعتْنى على الغداء مع مدير المؤسسة الدكتور « و » . . . وفى الدقائق القليلة التى صحبتْنى فيها الآنسة « ل » لتعينَنى على صرف راتبى من مصرف فى أسفل البناء ، أنبأتْنى عن چون وتْنى صاحب المؤسسة ومانحى للنحة المالية أنه رجل فوق الأربعين بقليل ، وقد كسب أمواله الطائلة من سباق الخيل ، حتى اقترن اسمه بالسباق فى

أرجاء البلاد كلها ، فأراد أن يغيّر مَنْحَى حياته ليكسب لنفسه شهرة عن طريق آخر ، وبدأ عدَّة أعمال ، من أهمها إنتاج الطعوم المثلجة المعبّأة ، وهو الآن فى هذا المجال التجارى قد بلغ أوج الشهرة . . . تذكرت عندئذ أننى حين كنت أتحدث فى الطائرة إلى جارى القسيس ، وأنبأته أننى أستاذ زائر بمنحة من چون هِي وتْنى صاحب الملايين ، سألنى القسيس : أهو وتْنى رجل السباق ؟ فقلت له : أى سباق ؟ لا أظن ذلك فهو رجل كل ما أعلم عنه أنه مشجّع للعلم والعلماء .

تركتُ الآنسة « ل » لأعود إلى مكتب المؤسسة ساعة الغداء ، وقبل أن أسير فى شوارع المدينة ، جلستُ على مقعد قريب ، ونشرت الخريطة أمامى لأرى أين أسير ، وحددت لنفسى ثلاثة مواضع أزورها هذا الصباح : عمارة إمپاير ستيت التى هى أعلى بناء فى العالم ، والمكتبة العامة ، و بناء جمعية الأمم . . الحق أنك لا تلبث فى نيويورك أن تتعود ناطحات السحاب ، كأنما أنت مقيم فيها منذ أول نشأتك ! فهى كما عهدناها فى الصور وعلى الشاشة حتى ليخيل إليك ألا جديد .

دخلتُ المكتبة العامة فإذا بها فوق كل خيال من الأناقة والفخامة والنظافة والذوق ، وقد رأيت على بابها إعلاناً عن معرض لمخطوطات إِمِرْسُن ، فجعلته هدفى من الزيارة ، ووقفت فى غرفة المعرض أنظر إلى الصفحات المنشورة فى صناديق الزجاج بخط إمرسن ، وقرأت له بضعة خطابات وجدت خطه فيها غاية فى الوضوح . إن القارئ ليعجب أن يقرأ للأديب العظيم مثل إمرسن خطابات خاصة كأنه رجل عادىٌّ له ما لسائر الناس من توافه وصغائر فى حياته ! . . جلستُ على مقعد فى بهو من أبهاء المكتبة ، ودرت ببصرى بين الجدران والسقف والأرض ولسوء حظى عندئذ جاءتنى صورة المكتبة العامة بباب الخلق فى القاهرة ! جاءتنى هذه الصورة فانتفضتُ مذعوراً ، فقد نسيتُ أن الفرق بين قوم وقوم قد يبلغ هذا البعد كله ! نعم إننى أظلم بلدى فى هذه المقارنة ، لأننى أوازن

بين شعب هو أغنى الشعوب قاطبة ، وشعب هو من أفقر الشعوب ؛ هذا حق ، لـكن الذى عجبتُ له أن نتطوع أحياناً بتفريج الأجانب الزائرين على مكتبتنا العامة فى باب الخلق ! كأن مكتبتنا تلك موضع فخر !

إننى أنظر إلى الناس فى الطرق ، فلا أجد ما توقعتُه من علامات السرعة والانشغال ؛ فقد كنت قرأتُ لـكاَتب مصرى زار نيويورك وكتب لنا عنها أنه كلما سأل أحداً فى الطريق سؤالا امتنع عن الإجابة معتذراً أو بغير اعتذار ، لأن الجميع فى رأيه يسيرون وكأنهم يَعْدُون عَدْواً ، ليس لديهم الوقت الذى يقفون فيه ليجيبوا السائل عن سؤاله . . . إننى لم أشهد شيئاً من ذلك ، فهم ناس كسائر الناس ذوى القلوب الطيبة ، تسأل من شئت منهم فيقف لك محتملا لغتك المعتثرة ، ليفهم قولك ثم يهديك بقدر ما فى مستطاعه أن يهدى .

تناولت الغداء مع الدكتور « و » والآنسة « ل » من مؤسسة وِتْنى ، وكان حديثنا على مائدة الغداء يدور معظمه حول سؤال سألنى إياه « و » ، وهو : ما رأى المصريين فى الأمريكيين ؟ فقلتُ له صادقاً : رأى المصريين عن الأمريكيين لسوء الحظ مأخوذ من السينما ، فالأمريكى عندهم — كما هو عند العالم أجمع — رجل غنىٌّ قليل الثقافة غريب النزوات ؛ وأضفتُ إلى ذلك قولى إن تقدير المدنية الأمريكية مختلف عليه ، فمن الناس من يرفعها ومن الناس من يخفضها ؛ فقال الدكتور « و » : التبعة فى ذلك كله واقعة على من يستعمل الألفاظ بغير تحديد لمعانيها ، فما معنى « مدنية أمريكية » ؟ من هو « الأمريكى » أولا ، وما هى « المدنية » ثانياً ؟ أتظن أن الأمريكيين كلهم سواء ؟ إنك ذاهب إلى الجنوب ، وسترى طرازاً من الناس ولوناً من العيش ووجهة للنظر تختلف كثيراً عما تراه فى نيويورك ، وعما تراه فى وسط البلاد وفى غربها ، فمن هو « الأمريكى » من هؤلاء ؟ ثم ماذا يقصد على وجه التحديد بقولهم « مدنية أمريكية » ؟ . . .

ومضى « و » فى حديثه على هذا النحو ، فوجدته يتفق مع طريقتى فى التفـكير

كل الاتفاق ، لأننى من القائلين بوجوب تحديد هذه الألفاظ الغامضة التى تُلقى فى الحديث جزافاً .

قلتُ له : إن المتحدثين عن « المدنية الأمريكية » يقصدون على الأرجح مدنية تقوم على العلم دون الجانب الإنسانى من عقيدة وفن وما إلى ذلك ، فقالت الآنسة « ل » : هـذا لسوء الحظ رأى شائع عنا فى أنحاء العالم كله ، ولذلك ترى أولى الأمر منا يبذلون اليوم جهود الجبابرة فى زيادة الاهتمام بالإنسانيات فى التربية والتعليم .

وسئلت عن رأى رجال العلم عنـدنا فى الإنتاج العلمى الأمريكى ، فقلتُ صادقاً مرة أخرى : إن رجال العلم عندنا أميل إلى اتهام الانتاج الأمريكى بالضحولة مع أنهم مخطئون ، فقد قال لى يوماً رجل من المشتغلين بعلم النفس فى مصر عن علماء النفس الأمريكيين إنهم سطحيون ، مع أنك لا تراه يقرأ إلا مراجع أمريكية ! قالت الآنسة « ل » : و بماذا تعلل هذه التهمة إذن ؟ قلتُ : لعلها مسألة نسبة ؛ فالأمريكيون ينتجون أكثر من غيرهم ، و بالطبع يستحيل أن يكون كل الإنتاج جيداً ؛ فإذا فرضنا مثلا أن كل خمسة كتب بينها كتاب واحد جيد ، فيكون الأثر على المتتبع لهذا الإنتاج هو أن القِلّة جيدة والكثرة رديئة ، مع أن هـذا القليل الجيد هو فى ذاته أكثر مما ينتجة أى بلد آخر . . . فأعجب الدكتور «و» بهذا التعليل وقال : مصداقاً لما تقوله أضيف ما يأتى : الأمريكيون أغنى من سواهم ، فالنتيجة هى أن يخرج منهم لزيارة البلاد الأخرى عدد كبير من أوساط الناس ؛ فإذا فرضنا مثلا أن كل خمسة أشخاص يزورون البلاد الأجنبية بينهم شخص واحد ممتاز وأربعة من الأوساط الوسطى ، فسيكون أثر ذلك على الشعوب الأخرى هو أن أقلية قليلة من الأمريكيين ممتازة ، وأما كثرتهم الغالبة فدون مرتبة الامتياز فى ثقافتها وأخلاقها ؛ ولما كانت البلاد الأخرى — كانجلترا

مثلا — لا يستطيع الخروج منها إلا الممتاز فستقول عنهم الشعوب الأخرى إنهم شعب ممتاز .

هكذا تحدثنا على مائدة الغداء ، حتى إذا ما فرغنا علمتُ أن الآنسة « ل » قد أعدَّتْ لى زيارة لقسم الفلسفة بجامعة كولمبيا بنيويورك ، وقالت إنى سأقابل هناك الأستاذ إروِنْ إدمان الذى يريد أن يتحدث إلىّ — فسررت كل السرور أن تتاح لى فرصة لقاء رجل كنتُ أقرأ له وأنا فى القاهرة ، ولو أننى لا آخذ فى الفلسفة مأخذه ؛ وكان موعد اللقاء الساعة الثالثة . ركبتُ السيارة العامة وقصدت إلى الجامعة ، وفى الساعة الثالثة تماما نقرت على باب غرفة الأستاذ ، وجاء الأستاذ وتلقانى لقاء عجيباً ، فقد كان يظن أننى طلبتُ لقاءه لاستفسر عن شىء معين ، وكنت من ناحيتى أظن أنه طلب لقائى ليستفسر عن شىء معين ، وهكذا بدأت الزيارة بسوء تفاهم عند الطرفين ، ولم تكن زيارة موفقة ؛ ولعل أهم ما دار فيها من حديث أنه سألنى عن اتجاهى الفلسفى ، فلما قلتُ له إننى وضعى منطقى ، قال : إننى لسوء الحظ مصاب بالعمى نحو الوضعية المنطقية فلا أرى فيها شيئاً ، فأنا مختصّ بعلم الجمال ، وليت الأستاذ فلان كان هنا لتلتقى به لأنه يتجه فى الفلسفة وجهتك ، وودعته وانصرفت .

ذهبتُ فى المساء إلى « السنراما » — وهى نوع من السنما جديد — فوجدتُ أن الشاشة فيها مقوسة قليلا ، ولم يكن المعروض رواية متصلة ، بل مناظر متفرقة . بدأ العرض برجل يعلن ظهور هذا الطور الجديد فى صناعة السنما ، و بعد استعراضه لمراحل التطور فى فكرة تصوير الحركة منذ عصر الكهوف ، بدأ عرض الصور المجسَّمة : فمنظر لحديقة ألعاب ينتاب المتفرج خلاله شعور خفيف بأنه ينزل فملا ويصعد على القضبان كأنه هو الراكب فى العربة الصاعدة الهابطة ؛ ثم منظر لقلعة إدنبره فى اسكتلندة ومعها فرقة لموسيقى القِرَب الاسكتلندية ، ومنظر آخر فى مدريد بإسبانيا به رقص وغناء شعبى ومصارعة ثيران ، ثم جولة فى شوارع

البندقية بإيطاليا ، وأجمل العروض جميعاً منظر مأخوذ من أوپرا عايده كما مُثّلت في دار الأوپرا بروما ، وبعد ذلك عرضت مناظر من أمريكا نفسها : من فلوريدا ، ومن جبال روكي ... والخلاصة أنهم قد نجحوا إلى حد بعيد في تجسيم الصور وإظهار البعد الثالث ، وبهذا التجريد قفزت صناعة السنما قفزة جديدة وهكذا أراد الله لهؤلاء الناس أن يقودوا ولنا أن نتبع ، أراد لهم أن ينتجوا ولنا أن نستهلك ؛ ولكي نخدع أنفسنا زعمنا لأنفسنا أن لهم مدينة ولنا مدينة أخرى ، فمدنيتهم مادية ومدنيتنا روحية !

السبت ١٩ سبتمبر :

سرتُ في شارع برودواي عند أول المساء ، فكأنما كنت أشق طريقي في بحر زاخر من الأجساد البشرية ؛ معظم الناس يبدون بغير هدف يقصدون إليه ؛ وقد سمعت رجلاً يوقف زملاءه ليسألهم : إلى أين نحن ذاهبون ؟ أم نظلّ نسير في الشوارع على غير هدى ؟ . . . فقلتُ في نفسي : ما أبعد هـذا عما سمعته عن أهل أمريكا بصفة عامة ، ونيويورك بصفة خاصة ، فقد قيل لي إنك واجدٌ شعباً لا يفتر عن العمل لحظة ، ولا يترك نفسه للفراغ لحظة !

ووصلتُ في طريقي إلى دار فخمة عليها اسم « راديو سِتي » وقف أمامها الناس صفا ينتظرون دَوْرهم للدخول ، فوقفتُ في الصف ، وجاء دوري فدخلتُ . . ما هذه العظمة كلها التي تحيط بي على الأرض والجدران والسقف ؟ سجاد فاخر وطلاء وزخرف وإضاءة تبهر النظر وتهول النفس ؛ والعجيب حقا أن يكون الدخول لهذه الدار الفخمة بمثل الأجر الزهيد الذي دفعته ! ورأيت هناك فلما سنمائياً جيداً ، هو فلم « نزهة في إيطاليا » Roman Holiday ، الفلم السنمائي عرضٌ غنائي راقص ، وهو عرضٌ يستحق وحده أضعاف الأجر الذي دفعتُه ، ومن أغرب ما عرض منظر لرجل معه حقيبة تحتوي فيما يتوهم الرائي رجلاً آخر ،

وتُفْتح الحقيبة الصغيرة فيخرج منها بالفعل رجلٍ مع أن الحقيبة لا تسع قطا صغيراً ؛ ويخرج الرجل من الحقيبة فيدهش النظارة بقدرته على تقليد الأصوات التى تحدث فى عملية صيد الثعالب ، إذ تسمعه يقلّد عدة أصوات دفعة واحدة : صوت الثعالب والكلاب والجياد والصيادين !

الأحد ٢٠ سبتمبر :

جريدة « نيو يورك تايمز » : يوم الأحد أعجوبة لا بد أن تنتزع منك الضحك إذا لم تكن قد رأيتها ... فهى حِمْل ضخم ، يساوى حجم جريدة « الأهرام » ثلاثين مرة أو أربعين ... إنها جريدة جديرة بكل إعجاب ، فإذا كانت الصحافة مرآة الرأى العام حقا ، وإذا كانت « نيو يورك تايمز » مرآة للرأى العام الأمريكى ، إذن فهو رأى عام قد ارتفع إلى درجة بعيدة من الرصانة والرزانة والدقة وضبط العاطفة وصدق الحكم ؛ تقرأ المقالات فيها فتكاد لا تجد فيها لغواً أو تكراراً مملولا أو طنطنة فارغة ، كل مقال فيها رأى صلب متماسك الأطراف ، متسق الأجزاء ، فيه أصالة ؛ وحسبك منها هذه الخلاصة السياسية الأسبوعية التى تنشرها لتلخص لك فيها سياسة العالم فى أسبوع :

خرجتُ فى الشوارع لأرى كيف تكون نيو يورك يوم الأحد ، فلم أجدها فى صمت لندن يوم الأحد ، فى شوارعها حركة خفيفة ؛ ونزلت إلى جوف الأرض لأركب القطار التحتىّ على سبيل اكتساب الخبرة دون أن يكون لى هدف معيّن ، فعجبت لهذه الوصمة فى مدينة عظيمة كل ما فيها فخم ضخم كأنه لسان صامت يتحدّى العالم أن ينتجوا مثله ، أما هذا القطار التحتىّ فغلطة فى كتاب ! إنه قديم قذر يرتجّ فى السير وعليه كثير من دلائل الإهمال .

الاثنين ٢١ سبتمبر :

غادرت نيويورك بالطائرة قاصداً إلى كولمبيا بولاية كارولانيا الجنوبية حيث أحاضر فى الفلسفة مدة النصف الأول من العام ؛ ومررت فى طريقى مرورا خاطفاً بوشنطن حيث قابلت الدكتورة « إ » وتحدثت معها فيما أنا مكلّف بعمله أثناء زيارتى ، كما مررت مروراً سريعاً بأصدقائى فى مكتب البعثات والسفارة ... واستأنفت الطيران إلى كولمبيا فبلغتُها عند الغروب ، وكان يستقبلنى فى المطار العميد « ن » والدكتور « ش » ، وهما من رجال الجامعة الأعلام ، فما كان أشد دهشتى ، بل حيرتى ، حين رأيت هذين الأستاذين الجليلين يسبقانى إلى حمل حقائبى ووضعها فى سيارة الأول ، ثم صحبانى إلى الفندق الذى نزلتُ فيه ... الحق أننى ساعتئذ تخيلتُ أستاذاً أمريكياً يزور مصر كما أزور أنا اليوم أمريكا ، ثم سألتُ نفسى : مَنْ من رجال الجامعة عندنا يفكّر فى استقباله فى المطار كما استقبلنى هذان السيدان ، ويظل يرعاه حتى يطمئن على استقراره ؟ ... لكننا نغمض الأعين عن هذه الأمثلة الإنسانية ، ونصر على أن نمضى فى صياحنا — لأن الأمر لا يعدو الصياح — بأن هؤلاء الناس يعيشون فى مدنية مادية ليس فيها شىء من القيم الإنسانية ، أما نحن فنترع وننعم بمدنية روحية !

الظاهر أن الفنادق هنا متشابهة التأثيث والإعداد ، فغرفتى فى هذا الفندق الذى نزلتُ فيه شديدة الشبه بالغرفة التى نزلتُ بها فى نيويورك ، وحسبى الآن من أوجه الشبه وضع الإنجيل على المكتب فى كلتا الغرفتين ... إننى لأرجو ألا تفلت منى أمثال هذه الأشياء الصغيرة الدالّة على مغزى كبير ؛ فهأنذا أرى الأدلّة تتراكم على أننى إزاء شعب متديّن وقد كنت أظنه غير ذلك ... تُرى ماذا يقول زائر أمريكى فى مصر لو نزل فى فندق سميراميس مثلا ، فوجد القرآن موضوعا أمامه فى كل غرفة ؟

لم أكد أستقر فى غرفتى دقائق حتى دق التليفون ، والمتكلم هو الدكتور « ف » أستاذ الفلسفة بالجامعة يهنئنى بسلامة الوصول ويقترح اللقاء إذا لم يكن عناء السفر يحول دون ذلك ، فرحبت بزيارته ... الدكتور « ف » من الذين أكسبتهم الدراسة الفلسفية تنبهاً ذهنياً وصحواً فكرياً تراهما فى لمعة عينيه ؛ فالدراسة — فيما شهدت من خبرة الحياة — إما أن تؤدى بصاحبها إلى هذا التنبه والصحو ، وإما أن تميل بصاحبها نحو الفتور والذهول ... والدكتور « ف » من الصنف الأول — رحّب بمقدمى وأخذنى فى سيارته إلى مكتبه بالجامعة ؛ ومكتبه هناك هو نفسه مكتبته — كما هى الحالة بالنسبة للأساتذة جميعاً — فجدران المكتب الأربعة مغطاة برفوف الكتب ؛ مكتبه هو مكان عمله ودراسته على السواء ؛ لكل أستاذ مثل هذا المكتب الذى وضع فيه عُدَّته من كتب وأوراق ، فإذا قيل للأستاذ أن يتصل بطلابه كان للقول معنى ، لأنه مستقر هناك وللطالب الذى يريده أن يسعى إليه فى مقره ذاك ؛ فهل يمكن أن أرى ذلك وألا أقارنه بحالنا فى القاهرة ؟ أساتذة الفلسفة جميعاً محشورون فى غرفة واحدة لا تسع إلا منضدة واحدة ؟ أين يجلس الأستاذ ليعمل ؛ أين يجلس حتى لا يجد نفسه مضطراً إلى العودة مسرعا إلى منزله بعد إلقاء محاضراته ؟ أين يجلس ليقال له بحق أن يتصل بطلابه ؟ إننا نقول كلاماً لا نعنيه .

تحدثت مع الدكتور « ف » فى المحاضرات التى سألقيها عن الفلسفة الاسلامية فوجدت أن الناس يرقبون هذه المحاضرات ليعلموا بها ما لم يكن يعلمون عن الإسلام وعن العرب وعن الشرق الأوسط بصفة عامة ؛ كثير من الأساتذة رتبوا حضورهم هذه المحاضرات ، بل كثير من أفراد الناس خارج الجامعة طلبوا الحضور . لقد أعلنت الجامعة قبل حضورى عن محاضراتى فى الفكر العربى ، فكان ذلك حافزاً لكثيرين جداً من الناس أن يُعدّوا أنفسهم لها .

الثلاثاء ٢٢ سبتمبر :

خرجتُ مع الصباح الباكر ، فوجدت مدينة كولمبيا على نمط وشنطن مع الفارق فى اتساع الرقعة ؛ فهى مبان وطيئة نظيفة ، وشوارع غاية فى الاتساع ؛ وكل منزل من منازلها — ومنازلها خشبية مطلية باللون الأبيض — تحوط به الحدائق ، فأمام المنزل حديقة وخلفه حديقة ، وله حديقة فى كل من جانبيه ؛ لهذا تنظر — خصوصاً إذا نظرت من رابية عالية — فترى المنازل البيضاء تطل من الخضرة إطلال الزهور البيضاء فى بستان فسيح .

دق التليفون فى غرفتى عصراً ، وإذا بالمتكلم عربى يقول : الحمد لله على السلامة يا أستاذ ، أنا فلسطينى هنا وأريد رؤيتكم ؛ فنزلت له فوراً ؛ وجدت شابين ، هذا الفلسطيني يصحبه لبنانىّ ؛ أما الأول فممّن شتّتَت الحوادث الأليمة أسرته فى فلسطين ، فجاء إلى هذه البلاد يسعى نحو الرزق والعلم فى آن معاً ، إنه يعمل فى الصيف ليكسب قوت العام ونفقات الدراسة خلال أشهر الشتاء والربيع ؛ إنه رجل بكل معانى الرجولة الصلبة القوية ؛ وأما زميله اللبنانى فعلى كثير جداً من رعونة الصبيان مع أنه لا يصغر الفلسطينىّ عمراً ؛ حياته ميسَّرة نسبياً — وقد علمه اليسر أن يتميّع . على كل حال فرِحْتُ بلقائهما وبالحديث معهما ساعة من زمان ؛ إن إخاء العربىّ للعربىّ أمر لا يشعر به الإنسان على شدته وقوته إلا فى مطارح الغربة ، فعندئذ يبدو فى وضوح كيف أن العربى والعربى شقيقان ، بالقياس إلى سائر الشعوب .

كنت فى غرفتى فى المساء أقرأ وأكتب ، وإذا بى أسمع دقا شديداً على باب الغرفة المجاورة لغرفتى ، وأسمع نداء عاليا ؛ ثم تحول الدقّ إلى باب غرفتى ، فقمتُ وفتحتُ الباب ، وكنت إذ ذاك أرتدى ملابس النوم (البيچاما) وإذا بى إزاء ثلاثة رجال فى حالة من المرح الشديد ، ولعلهم أرادوا — مدفوعين بمرحهم هذا —

أن يشركوا سواهم معهم ؛ فلما فتحتُ الباب صاحوا : ها أنت ذا يا جو ؛ وأخذوا يجذبوننى من يدى جذباً لم أقو على مقاومته ، فجعلتُ أرجوهم أن يتركونى لعملى ، لـكنهم يمضون فى شدّى قائلين : تعال هنا يا جو ، حتى أخرجونى أمام غرفتى ؛ ولما رأوا على وجهى علامات الانقباض ، مع أنهم كانوا يتوقعون منى ضحكا ومرحا ، تركونى قائلين بعضهم لبعض : الظاهر أن ليس له نصيب فى حياة المرح... عدت إلى غرفتى وأقفلتها ، لـكنى لبثت مدة طويلة لا أستطيع استئناف ما كنت أكتبه .

الأربعاء ٢٣ سبتمبر :

اليوم مشرق جميل ؛ كل شىء يبدو أمام عينىّ رائعاً ، وأحس قلبى ينبض نبضة النشوة والفرح ؛ قمت مبكراً وأخذت أتطلع من وراء النافذة ، وللنافذة غطاء من السلك وقاية من البعوض ؛ كل شىء مشرق راقص ، وفتحت الراديو لأسمع موسيقى فتضيف إلى نشوة هذا الصباح .

وألقيتُ اليوم أول محاضراتى عن الفلسفة العربية ؛ جعلت المحاضرة تحليلا لخصائص الفـكر العربى إن كانت له خصائص تميزه عن فكر الغرب ؛ وأحسست بنجاح وثقة فى نفسى وفيما أقول ... وكان بين الحاضرين السيدة « ش » التى استرعت انتباهى منذ اللحظة الأولى ، بل قبل اللحظة الأولى ، لأنها جاءتنى قبل بدء المحاضرة تسألنى عن المـكان الذى سأحاضر فيه . عرّفتنى بنفسها تعريفاً وافياً وطلبتْ منى أن أنطق لها باسمى لتنطقه صحيحاً ، وقالت إنها هى وزوجها — وهو ضابط فى مستشفى عسكرى بسلاح الطيران — قد وضعا خطة حياتهما على أن يقيما بمصر حيناً ، وهما يريدان أن يعلما عن مصر كل ما يمكن العلم به ؛ عليها علامات الذكاء ، ولا بد أن أضيف إلى ذكائها جاذبية الأنوثة فيها ؛ وكل شىء فى ثيابها وحليها ينمّ عن ذوق جميل ... الظاهر أنه مهما كان الـكاتب

صريحاً ، فلا بد أن تنقصه الصراحة ، لأننى أشعر برغبة فى أن أخفى شيئاً من شعورى ، وهو أنى اغتبطت فى نفسى لما وفِّقت إليه من طلاقة لسان وحضور بديهة فى المحاضرة الأولى لأظفر بالرضى من هذه السيدة التى جعلت هدفها مصر .

طاف بى الدكتور ش — وهو رئيس قسم الفلسفة وأستاذ لعلم النفس — على مدير الجامعة وعمدائها ومن كان من أساتذتها بنادى الأساتذة ؛ وفى النادى جلسنا نحو ساعة هناك حيث شربنا القهوة وتحدث إلىّ الحاضرون وتحدثت إليهم ؛ وكاد الحديث كله أن يكون عن الثورة المصرية الأخيرة ورجالها ، وجعلت أشرح لهم بعض ماغمض عليهم من نواحيها .

الأحد ٢٧ سبتمبر :

ذهب أفراد الأسرة التى سكنتُ بمنزلها إلى الكنيسة ، و بقيت وحدى ، فجلست فى الشرفة الخارجية أقرأ الجريدة المحية الصباحية ؛ ففى كولمبيا جريدتان أساسيتان : إحداهما تصدر فى الصباح والأخرى فى المساء ، وجريده الأحد ضخمة : تبلغ حجم جريدة الأهرام نحو عشر مرات .

نظرة سريعة لهاتين الصحيفتين المحليتين كفيلة أن تدل على مدى اللون الإقليمى ، فهى تعنى أولا بشئون الولاية — ولاية كارولانيا الجنوبية — و بعد ذلك تأتى شئون سائر الولايات وشئون العالم الخارجى .

كنت وأنا فى مصر أضيق صدراً بالروح القَبَليَّة الشائعة فى صحفنا ، حتى المهم منها ، فتراها تخصص فراغا كبيراً لأخبار الأفراد : هـذا سافر وهذا تزوج وذلك وافته منيته ، وهؤلاء ارتقوا فى مناصب الدولة ودرجاتها وما إلى ذلك مما لم يكن ينبغى أن يشغل فراغا من صحيفة تعلو على أمثال هذه التوافه ؛ فلما وجدت شيئاً قريباً من هذا فى الصحيفة المحلية هنا — و بالطبع ليس الأمر كذلك فى صحيفة كبرى مثل نيو يورك تايمس التى تصدر فى نيو يورك — أدركتُ أنه كلما ضاقت

دائرة اهتمامات الناس فى مجتمع ما ، جاءت صحفهم ملوّنة بلون إقليمى محلىّ كأنها نشرات ، أما إذا اتسع الأفق وارتفعت الثقافة ، نشرت الصحف بالتالى شيئاً كما حول العالم واهملت الصغائر من أخبار الأفراد .

فالناس هنا كما رأيتهم من اللمحات السريعة التى اتيحت لى حتى الآن ، يكادون يغلقون نوافذهم للعالم الخارجى ، لا يعلمون عنه إلا القليل وأقلّ من القليل ، بل لا يكادون يأبهون بما يجرى فى الولايات الأخرى البعيدة من الولايات المتحدة نفسها ؛ وصحيفتاهم "The State" الصباحية ، و "Columbia Record" المسائية مرآة لهذا كله ؛ فأهمّ للصحيفة وللناس أن تملأ صفحة بأسرها أو صفحات كاملة كل يوم بصور العرائس اللائى تمت خطبتهن أو تم زواجهن من أن تنشر أنباء الثورة المصرية مثلا على شيء — ولو قليل — من التفصيل .

جلست فى شرفة الدار عصراً ، فجاءت سيدة الدار وفى يدها طعام ملفوف فى ورقة صفراء ؛ وقفت تقول لى إنها ذاهبه إلى الحديقة لتطعم الديدان ؛ فنظرتُ إليها نظرة فيها دهشة وسؤال ، فقالت : نعم ، إنى أطعم الديدان ؛ فى حديقتى مجموعة كبيرة منها ، أواليها بالطعام ؛ إننى أعطف عليها ، كنت منذ سنوات أقشعر منها وأخشاها ، لأنها ستأكل جسدى بعد الموت ، لكنى الآن أعطف عليها ، فأقل ما يقال فيها أنها تنفع تربة الأرض للزراعة دون أن يلحقنا منها أذى ، قليلة هى الأشياء التى تنفع ولا تؤذى ، لهذا أذهب كل يوم إلى حديقتى وأطعم مجموعة كبيرة من الديدان هناك .

قلتُ لها : إننى اسمع مواء قطة لا ينقطع ، يأتى إلى غرفتى من النافذة الخلفية ، فهل فى الحديقة قطة حبيسة ؟ فقالت : لا ، هـذا صوت طائر صوته يشبه المواء ؛ إننى لا أطعم القطط ولا أحبها لسبب واحد وهو أنها تأكل العصافير ؛ إن لى صديقا اسمه كذا ، يحب العصافير حبا جما ، ولهذا ألف جمعية تعمل جهدها للتخلص

من القطط صيانة للعصافير وحماية لها ؛ لكن الجمعية جعلت مبدأها ألا تؤذى قطًّا بل هى تجمع القطط فى مكان ما استطاعت إلى ذلك سبيلا ، وبهذا تعيش القطط وتعيش العصافير ، وصديقى هذا يعطى دولاراً (ريالا) لكل من أعطاه قطة يضمها إلى معسكر القطط .

الثلاثاء ٢٩ سبتمبر :

صاحب البيت قسيس متقاعد ، كان واعظا فى كوريا والصين حيث قضى الشطر الأكبر من حياته ، واسمه « م » . . . ما أعجب هذا الرجل فى شدة طيبته وتواضعه واستعداده الحقيقى للخدمة والمعونة ؛ وقد ذكّرنى بالقسيس الذى التقيت به فى الطائرة من باريس إلى نيويورك ؛ فهل يجوز لى من هذين المثلين أن أعمم الحكم وأقول إن رجل الدين فى المسيحية رجل دين حقا من حيث التواضع والتضحية بالنفس فى سبيل غيره ؟ هل يجوز لى أن أقول بناء على هذه الخبرة القليلة مع هذين الرجلين إن رجل الدين عندهم لا يعتقد فى دينه فقط ، بل يحياه ويتمثله .. وهنا كدت أكتب : « وأما رجل الدين عندنَا . . . » لولا أنى اعترضت على نفسى قائلا : ليس عندنا « رجل دين » بالمعنى الدقيق لهذه العبارة ، فكل مسلم رجل دين بمعنى أن كل مسلم مسئول عن دينه أمام ربه . . . وعلى كل حال أرانى مدفوعا إلى كتابة هذه العبارة : « إن من يسمون عندنا برجال الدين ، قوم حفظوا قواعد الدين ودرسوها كما تدرس الرياضة أو الجغرافيا ، لكنهم قلّ أن يحيوها بحيث تتمثل حيّةً فى أشخاصهم » .

اتصل بى الدكتور « ش » رئيس قسم الفلسفة بالجامعة ، لينبئنى أنه سيرتّب أربعة اجتماعات فى منزله ، فى أيام حددها لى ، بحيث يدعو فى كل اجتماع مجموعة من الأساتذة ليعرفونى وأعرفهم ، فشكرته فى حرارة وإخلاص على هذا الكرم الأصيل . . . إن الدكتور « ش » مثل نادر للرجل المهذب المؤدب ؛ إننى والله

كلما رأيت رجلا كهذا ، كيف يقدم لى المعونة مضحياً بوقته وجهده ، أعجب لنفسى أشد العجب أن يشيع عن القوم إنهم ماديون فى نزعاتهم وفى حياتهم ، وأننا — نحن المصريين ! ! — روحانيون ! ليس الأمريكيون معنى مجرداً فى الهواء ، بل هم ناس ، فإذا أردت أن تقول عنهم شيئاً فأمسك القول حتى ترى أفرادهم وتتحدث إليهم لترى بنفسك إن كان « الدولار » وحده هو دائماً رائدهم فى سلوكهم كما يشيع عنهم ، أم أنهم مدفوعون إلى سلوكهم فى كثير جداً من الأحيان بمعانٍ إنسانية سامية نبيلة . . . لماذا جاء الدكتور « ش » هذا مع العميد « ن » ليقابلانى فى المطار ؟ لماذا يتسابقان على حمل حقائبى ؟ لماذا يرتّب لى هذه الحفلات الأربع فى منزله ؟ لماذا يحمل إلىّ بنفسه الكرسىّ الثقيل من طابق فى البناء إلى طابق حتى يعدّ لى مكانا مريحا ؟ لماذا يدور بى فى سيارته ساعات ليبحث لى عن سكن أستقر فيه ؟ هذا أمريكىٌّ ، فهل دفعه إلى هذا السلوك كله حب « الدولار » ؟ أم دفعه قلبٌ كبير وشعور نبيل ؟ إننى فى هـذه اليوميات لن أكتب إلا خبرتى الشخصية المباشرة وسأصمّ أذنى بعد الآن حتى لا أسمع هذه الأحكام الجائرة التى يلقيها الناس جزافا على شعوب بأسرها .

لو سئلت عن الأمريكيين لأجيب فى حدود خبرتى ، لقلت بغير تردد إنهم يمتازون بحسن العشرة وكرم الضيافة ؛ فيستحيل أن أجلس فى مطعم ثم يأتى من يشاركنى فى المائدة دون أن يُحيّى تحية طيبة وأن يبدأ الحديث ؛ و إذا انقطع حبل الحديث بيننا فانقطاعه دائما يكون من ناحيتى لا من ناحيته .

الأربعاء ٣٠ سبتمبر :

كان الدكتور « ز » قد لاحظ لى — وأنا فى القاهرة — قائلا إن المشكلة الجنسية فى أمريكا محلولة بالزواج المبكّر ، والظاهر أنه قد أصاب فى ملاحظته ؛ فالطالبات اللائى يحضرن لى محاضراتى كلهن متزوجات ، وكثيرون جداً من

الطلبة متزوجون ؛ وملاحظاتى فى هذا الباب تزداد اتساعا ، فأزداد بذلك وثوقا أن الزواج هنا إنما يكون فى سن مبكّرة جداً ، فى العشرين أو نحوها ، وأنك تكاد لا تعثر فوق هذه السن على رجل واحد أو امرأة واحدة غير متزوجة ؛ وقد جاء ذلك الزواج المبكر بنتيجتين : أولهما استقامة الأخلاق استقامة لا تطرأ ببال أحد خارج البلاد الأمريكية ! ألا ما أظلم الناس فى أنحاء العالم حين يحكمون على الأمريكيين بتحلل الأخلاق ! لكنها السنما هى التى أوحت إلى الناس أن الحياة فى أمريكا كلها مصورة فى حياة الممثلين والممثلات على الشاشة البيضاء ! . . . الأخلاق فى أمريكا أقرب إلى التزمّت منها إلى التحلل ، والسبب الأول فى ذلك استمساكهم بالدين لدرجة لا يحلم بها إنسان من الشعوب الأخرى ، ثم تفرع عن ذلك سبب ثان وهو الزواج المبكر واستتباب الأسرة .

وأما النتيجة الثانية للزواج المبكر فهى أن يتزوج الزوجان فى سن متقاربة إن لم تكن متساوية ، وذلك مقبول حين يكونان فى العشرين والثلاثين ، أما حين تتقدم بهما السن إلى الأربعين والخمسين ، فالرجل يظلّ على شبابه على حين تهرم المرأة ، فترى الزوجين عندئذ فيخيل إليك أنك إزاء رجل ووالدته لا رجل وزوجته ، ومن هنا كثيراً ما ينشأ الطلاق فى سن متأخرة ، ولذا تسمع عن نسبة عالية فى الطلاق بين الأمريكيين .

لم أكن أتصور أن تبلغ الإذاعة هنا هذه الدرجة كلها من السخف بسبب الإعلانات التجارية ؛ فلست أبالغ إذا قلت إنه بعد كل إذاعة تستغرق خمس دقائق يذاع إعلان تجارى ؛ الإعلان يتخلل الأحاديث والغناء والموسيقى ، فلا يمكن أن تفتح الراديو وتستمتع باذاعة متصلة فى شىء واحد مدة نصف ساعة مثلا ؛ بل إن الذى يتولى البرنامج الإذاعى كثيراً ما يكون هو المحل التجارى الذى يعلن عن نفسه ؛ فمثلا تعلن سيارات شفروليه عن نفسها فى نصف ساعة ، فتعدّ لذلك برنامجاً إذاعياً ، فيه أغان وفيه موسيقى ، و بعد كل بضع دقائق من الأغانى

الموسيقى يقطع المذيع مجرى الشىء المذاع ليقول شيئاً عن سيارات شفروليه وهكذا ؛ حتى الأخبار ، تتولى إذاعتها شركات تجارية لتنتهز فرصتها وتعلن عن نفسها خلال إذاعة الأخبار .

أضف إلى ذلك أن الإذاعة تصبغها صبغة محلية إقليمية ؛ ففى كولمبيا وحدها أربع محطات إذاعية ، كلها محطات تجارية ، أعنى أنها ملك أفراد أقاموها لتكون مصدر كسب ؛ و بطبيعة الحال يكون الكسب من الإعلانات التجارية ، و إذن فالبرامج الإذاعية قائمة على هذا الأساس ؛ ولا بد أن تكون معظم الشركات المعلن عنها فى كولمبيا أو ما يجاورها من بلاد .

بصفة عامة ألاحظ أن النزعة الإقليمية قوية جداً فى أمريكا ؛ فأهل كارولانيا الجنوبية يتعصبون لها أولا باعتبارها هى الوطن المباشر ، كالذى نسمع عنه أحياناً فى مصر من تعصب أهل الصعيد لصعيدهم وأهل الوجه البحرى لبلادهم ، أو من تعصب أهل المديريه الفلانية لمديريتهم .

الأحد ١٤ أكتوبر :

كنت أقرأ جريدة الصباح فى شرفة المنزل ، وجاء الأب « م » (رب الدار التى أسكنها) تصحبه سيدة فى نحو الثلاثين من عمرها ؛ تبادلنا التحية ، وسألتنى السيدة : من أى بلد أنت ؟ فقلت : من مصر — دخلا المنزل ، و بعد قليل عادت السيدة وحدها واستأذنت بالجلوس وبدأت الحديث معتذرة إذا كانت قد قطعت علىّ قراءتى ... ولم نكد نبلغ من الحديث شوطاً قصيراً حتى علمتُ أنها ابنة الأب « م » نفسه ؛ وأنها مصابة بمرض عقلى ، ولذا فهى تقيم فى المستشفى إقامة شبه دائمة ، إذ هى هناك منذ ثلاث سنوات ؛ وأخذت المسكينة تشكو إلىّ من سجنها فى المستشفى الكريه ، قائلة إنها لا تطلب سوى أن يقولوا لها فى أمانة و إخلاص ما علّتها ، ثم سألتنى : أتظنهم يجرون علىّ التجارب ؟ ترى هل يبقوننى

فى هذا السجن بقية عمرى ؟.. إن حديثها عادىّ لا أثر فيه لانحراف عقلى ، ولولا أنها أنبأتنى نبأها لما ظننت بها مرضاً ، لو استثنيت عبارة واحدة قالتْها فدلّتْ بها على اضطراب عقلها ، وذلك أنى سألتها : أنتِ إذن ابنة الأب « م » ؟ فقالت: يقولون ذلك ، لكنى أرانى أقرب شبهاً بخالى ، فلا يبعد أن أكون ابنته !.

جاءت أمها عائدة من الكنيسة ، فاحتضنتها فى حرارة وقبّلتها فى حنان ؛ فالذين يظنون فى مصر أن حب الأمومة مقصور على المصريات يكفى أن يروا كيف استقبلت هذه الأم ابنتها .

قالت لى « ب . م » (وهو اسم فتاتنا المريضة) إنها ترى أحلاماً مزعجة كل ليلة ، قلت لها : و بماذا تحلمين ؟ قالت : أحلام فظيعة ؛ كثير منها عن الرجال ... قلت فى نفسى ما أتعس حال الإنسان بما فرض على نفسه من قيود جنسية تحتج عليها الطبيعة فى مثل هذه المسكينة ..

وجاءت ساعة العصر فأرادوا أن يعيدوا فتاتنا المريضة إلى مستشفاها وهى تضرع إليهم ألا يفعلوا ؛ إنها تبكى وتقبّل أقدامهم أن يبقوها بينهم وألا يعيدوها لتكون مجنونة من المجانين ، والوالدان يديران وجهيهما بأعين باكية حتى لا يريان ضراعة ابنتهما ؛ وأنا الغريب لم أحتمل المنظر فصعدت مسرعا إلى غرفتى ... ها هنا صراع بين عاطفة وعقل ؛ إننى من أشد أنصار العقل على العاطفة ، لكن ذلك فى الكلام والكتابة ، أما فى سلوكى العملى فأضعف من أن أحتمل منظراً كهذا ، وأقسم أنى لو كنت ذا أمر لأبقيت فتاتى معى وليكن من سلوكها فى دارى ما يكون ... لكن الأب « م » استعان بابنه الشاب على ابنته الضارعة ، فأخذ الأخ أخته فى سيارته وانصرف بها إلى المستشفى .

جلس معى الأب « م » وزوجته فى شرفة المنزل ، وسرعان ما فتحا موضوع بنتهما « ب » فتحدثنا طويلا فى أمرها ؛ أنبأنى أن مرضها نتيجة صدمة عصبية أصابتها لسبب لا يدريان ما هو ، وظواهر مرضها شدة فى الخيال حتى لتتوهم

الأوهام وتحسبها حقائق ... سألتُ الوالدين : هل فى الأمر مشكلة جنسية ؟ فانطلقت الزوجة تؤكد أن ابنتها كانت متروكة حرة التصرف فى أمر نفسها ، ولم يكن لها دخل فى حياتها ، فلم يعملا على كبت طبيعتها وغريزتها ؛ وقالت إن « ب » كانت تدرس فى وشنطن وحدها ، وكانت على أتم حرية فى اتصالها بالأصدقاء الشبان ، لكن الغريب فى أمرها هو أنها حتى الخامسة والعشرين من عمرها — وهى الآن فى الحادية والثلاثين — كان يتودد إليها الشبان فلا تلقى لهم بالا ؛ و بعد أن أصابتها هذه المصيبة أخذت تهذى بالرجال ! فقلت لها : الأمر واضح ، فقد كانت مكبوتة بحكم ضواغط التربية لا بحكم أنكما ترقبانها أو تمنعانها ، نشأت فى جو دينى أوحى لها بالتزمت ثم نادت طبيعتها فعجزت عن متابعة المستوى الخلقى الذى يطلبه المجتمع .

إن أمثال « ب . م » هذه من المصريات آلاف ، بل عشرات الآلاف ، إننا نظن أننا ما دمنا قد كمنا الأفواه فلا تنطق بالرغبة الطبيعية وما دمنا قد حبسنا الأجساد فلا تنطلق مدفوعة بالغرائز ، فقد حُلّ الإشكال وانتهى الأمر ، لكننا بغرائزنا المكبوتة مرضى لا نفكر تفكيراً سليما ولا ننتج إنتاجاً قويما . ألا فليعلم من لا يعلم أن فقرنا العلمى والفنى ، وأن قلقنا الاجتماعى ، كله راجع ولو إلى درجة ما إلى عدم تنظيم العلاقة بين الشبان والشابات ؛ إن الله قد أراد لنا أن نكون مجتمعاً ذا جنسيْن ، فمن أراد له أن يكون غير ذلك فليحتج على الله وليمسك عن كل أمل فى إصلاح حقيقى يتناول المجتمع من أسسه وأصوله .

المنزل الذى اسكنه مجاور لمتحف الفنون ، وقد رأيت المتحف مُضاء عند عودتى من مشية قصيرة ، فدخلته لأنظر ما به من معروضات فنية ، و إذا بالمتحف حفلة افتتاح ، فقد وقف عند المدخل صف طويل من الرجال والسيدات يستقبلون الزائرين ، والبيانو يعزف أنغاما حالمة ، وعلى مائدة طويلة أنواع من طعام وشراب .. والمعرض الذى يحتفلون بافتتاحه الليلة هو لفنان اسمه يوچين تومسُنْ ، ولوحاته

تعرض فى ولاية كارولانيا الجنوبية لأول مرة ، وهو ليس من رجال المدرسة الحديثة فى التصوير ، بل هو أقرب جداً إلى الفن فى صورته الكلاسيكية وأعنى بذلك أنه يرسم الأشياء والأشخاص كما تبدو لعينه ، وليس غرضه من التصوير تأليفاً بين الألوان كما هى الحال عند أصحاب المدرسة الحديثة .

لكن الدور العلوى من المتحف ملىء بانتاج الفنانين المحدثين من أهل الولاية نفسها ، فهاهنا تجد الاتجاهات الحديثة متمثلة كلها جنبا إلى جنب ، فترى فناناً يتابع بيكاسو ومدرسته ، وآخر يرسم على طريقة التأثيريين ، وثالثاً يرسم على طريقة الفن المنقوط وهكذا . . . إننى لا حقّ لى حتى الآن أن أحكم على الفن الأمريكى ، لأننى لم أر منه إلا القليل ، وفى عزمى أن أدرسه دراسة أوفى حين أزور المتاحف الكبرى فى وشنطن ونيويورك وشيكاجو ؛ لكنى أقولها الآن متحفظاً ، وهى أن الأمريكيين لم ينشئوا لأنفسهم مدرسة فنية خاصة بهم ، بل نقلوا المدارس الأوربية وتابعوها ، ثم ظهرت فردياتهم وشخصياتهم فى حدود المدارس الأوربية .

الخميس ٨ أكتوبر :

كان اليوم موعد الاجتماع الثالث من الاجتماعات التى يعقدها الدكتور «ش» فى منزله احتفالا بقدومى ، وقابلت هناك القائمقام الأمريكى « هـ » الذى كان فى تركيا ملحقاً عسكريا وجاء منذ قريب ، ونيط به إدارة قسم جامعى خاص بالعسكريين . سألنى إن كنت أعرف « م . ش » فأجبت بالإيجاب ، فتحدثنا عنه قليلا وذكره كلانا بالخير والثناء ؛ ثم قال لى القائمقام « هـ » إن المحتفلين بتوديعه فى تركيا أعطوه نسخة خطية قديمة من القرآن ، ويحب أن ألخصها له لأحدد تاريخها ؛ فأخذت منه الكتاب ، وبالطبع اكتفيت بنظرة واحده لأعرف

أنه كتاب فى النحو العربى وليس قرآنا ؛ ووعدته أن أكتب له مذكرة تفصيلية عن المخطوط .

الجمعة ٩ أكتوبر :

قرأت قصة جيدة فى مجلة « پوست » عنوانها «رجل بين فتاتين» ، وخلاصة القصة التى يهمنى تسجيلها ، هى إن إحدى الفتاتين كانت لا تميل بطبعها إلى البقاء فى البيت زوجة وأماً لأطفال ، وتريد إذا ما تزوجت أن يكون العمل ميدان نشاطها ، وهى فوق ذلك لعوب تحب السهرات الأنيقة والمطاعم الفاخرة وما إلى ذلك ، وأما الفتاة الأخرى فتعمل انتظاراً للزواج ، وتؤثر لنفسها إذا ما تزوجت أن تجعل من دارها مملكة لها ؛ الفتاتان تعملان مع الفتى فى مكتب واحد ، والأولى تبادله الحبّ علنا ، والثانية تحبه ولا تفصح عن حبها ؛ و بعد تحليل رائع يشرح النفوس الثلاث ، انتهى بنا الكاتب إلى موقف وقف فيه الفتى موقف الذى يختار ، لكنه لم يلبث أن اختار لحياته الفتاة الثانية ، فتاة البيت التى ترى عزتها وسعادتها فى زوجها وأبنائها ، ولا تزيغ بصرها الحفلات والسهرات والارتقاء فى ميادين العمل الخارجى .

والمهم عندى هو أنه إذا كانت هذه القطعة الأدبية تصور الأمريكىّ فى ميوله ونزعاته ، كان الأمريكى أميل إلى زوجة لا تعمل ؛ وإذن فلا يزال الرجل هو الرجل أينما كان ، ولا يزال المثل الأعلى الذى يطمح إليه الزوج أن يكون هو عائل الأسرة ليكون سيدها .

السبت ١٠ أكتوبر :

الأب « م » وزوجته يشرفان على نشاط اجتماعى فى الكنيسة التى يتبعانها كل سبت فى المساء ؛ أعلم ذلك ولا أدرى على وجه الدقة ما نوع هذا النشاط ؛

وقد دعانى الأب « م » اليوم أن أصحبه إلى كنيسته ، وهى الكنيسة البرز بتريانية ، ففعلت . . . ذهبتُ فإذا بى أرى ما لم أتوقعه فى كنيسة ، إذ رأيت ندوة ملحقة بالكنيسة ، وعرفتُ أنها مكان لنشاط اجتماعى كل مساء ، وأما مساء السبت فهو خاص بالجنود ؛ ففى كولمبيا معسكر كبير للجنود وهم فى مرحلة التدريب ، فتوجّه إليهم الدعوة أن يحضر منهم من يحضر إلى ندوة الكنيسة فى هذا الموعد ، وتُدعى طائفة كبيرة من الفتيات ليكون الاجتماع طبيعيا مؤلفا من الجنسين ؛ وما هو إلا أن دارت أقراص الحاكى بالموسيقى ودار معها الرقص ! وفى الندوة استعداد للألعاب المختلفة كالپنج پونج والشطرنج ؛ وكذلك أعدت مائدة كبيرة عليها القهوة والشاى والكوكا كولا وأنواع الشطائر والفطائر لمن يريد شرابا أو طعاما بغير ثمن .

قال لى الأب « م » وهو يشرح لى أوجه نشاطهم فى كنيستهم هذه : إن كثيراً من الكنائس الأخرى لا توافق على أن نقيم فى الكنيسة رقصاً ، ولكن كنيستنا لا ترى أبداً ما يمنع أن يحيا الإنسان حياة مرحة ما دامت حياة شريفة

الأحد ١١ أكتوبر :

دعتنى ربة الدار التى أسكن فى بيتها ، على غداء اليوم ، ودعت معى فتاة عراقية تَدْرُس هنا فى إحدى كليات البنات ، وكذلك دعت السيدة « س » أرملة قائمقام كان فى الجيش الأمريكى ، وهى لا تذكر زوجها إلا بلقبه « كيرنل فلان » .

الغداء المقدم فيه كَرَمٌ كثير ، والطعام جيد ؛ بدأنا بالصلاة ونحن جلوس على المائدة — ولم أجلس على مائدة طعام حتى الآن دون أن يبدأ الجالسون أولا بالصلاة — والصلاة دعاء قصير مؤدّاه شىء كهذا : « اللهم يا من وهبتنا هذا النعيم ، أعطنا من نعيمك دائما ، وبارك لنا فى خبزنا » .

قالت الفتاة العراقية — ولها من سحر الشرق قسط موفور — إنه إذا ما جاء إلى إحدى فتيات الكلية فتاها فى موعد مضروب ، فيندر جداً أن تكون قد أتمتْ إعداد نفسها ، بل لا بد أن تطلب إليه الانتظار بضع دقائق ؛ فقالت السيدة « س » — وهى من ألطف من رأيتُ فى حياتى فكاهة — هذه هى العادة دائماً ؛ يستحيل أن تُشْعِرَ الفتاة فتاها بأنها قلقة تنتظره فى أرق وتعجّل ؛ ثم قالت : إن حفيداتى حين يكن معى فى منزلى إذا ما جاء إلى إحداهن فتاها ، ادَّعتْ أنه ينقصها بضع دقائق ، مع أننى أراها على أتم استعداد لا ينقصها شىء حتى قبل أن يحين الموعد بثلاثة أرباع الساعة على الأقل ؛ وتصرف الفتيات إزاء التلفون ادعى إلى العجب ، فإنى قد أرى حفيدتى جالسة تنتظر إلى جانب التليفون رسالة من صديقها ، حتى إذا ما دق التليفون أمسكت حيناً عن الردّ ، ثم يدق التليفون مرة ثانية فلا تردّ ، وتردّ فى الدقة الثالثة أو الرابعة ، وذلك خشية أن يظن الفتى أنها كانت تنتظر قلقة حديثه هذا .

وفى الساعة الخامسة جاءنى الدكتور « ن » أستاذ علم النفس ، وأخذنى بسيارته إلى نادٍ سياسى — أو ما كنتُ أظنه كذلك — داعياً إياى أن أقول كلمة عن جمعية الأمم المتحدة ، وذهبتُ وإذا أنا فى ندوة تابعة لكنيسة ، أظنها الكنيسة المنهجية (مثودِسْت) ؛ فضممتُ خبرة اليوم إلى خبرة الأمس ، وبدأت أدرك أن الكنيسة فى أمريكا قد سارت شوطاً بعيداً جداً نحو أن تكون ندوة اجتماعية ؛ تلقى فيها المحاضرات وتنعقد فيها الاجتماعات ... تحدثت إلى الحاضرين فى شعور أهل الشرق الأوسط عامة إزاء جمعية الأمم بأنها خيبت رجاءهم ، فقد نجحتْ هذه الجمعية فى نشاطها الصحى والاجتماعى والتعليمى وما إلى ذلك ، أما الجانب السياسىّ منها فقد انهار انهياراً ، حتى أن رؤساء الدول الكبرى ليؤْثرون الآن أن يصفّوا مسائلهم فى اجتماعات خاصة لا شأن لجمعية الأمم المتحدة بها .

وبعد الكلمة وزِّعت أقداح القهوة والبسكويت ؛ وفى أثناء ذلك تقدمت

منى سيدة كهلة تسألني : إلى أى كنيسة تنتمى ؟ وهو سؤال سئلته مئات المرات ، يكاد يكون أول سؤال يلقى علىّ كلما قابلتُ أحداً ، مما يدل على مدى انشغال رءوس القوم بالكنيسة والدين ؛ فأجبتُها : أنا مسلم ؛ فلم تفهم كلة « مسلم » ، لأنها على الأرجح قد تعودت الكلمة المألوفة عند المسلمين فى الغرب ، وهى كلة « محمّدى » ، لكنى أكره أن أستعمل هذه الكلمة ، لأنها من اختراع المستشرقين فيما أعتقد ، أرادوا بها نسبة عقيدتنا الإسلامية إلى شخص محمد ، ليبعدوا بها عن العقيدة الموحى بها من عند الله ؛ فلما لم تفهم كلة « مسلم » اضطررت أن أقول المعنى بكلمة « محمدى » التى فهمتها ، وشرحت لها لماذا أوثر لفظ « الإسلام » على لفظ « المحمدية » ... وانتهى الاجتماع بأناشيد دينية أنشدها الحاضرون مع عازفة على البيانو .

الاثنين ١٢ أكتوبر :

إننى فى الحق شديد الإعجاب بالسيدة « ش » ، و يسعدنى أنها تحضر محاضراتى الإسلامية فى اهتمام شديد ؛ إنها ممتازة الذوق فى اختيارها لثيابها ، وهى تلبس كل مرة قرطا جديداً يناسب وجهها و يبرز جمالها ؛ وقد كلّفت الطلبة بكتابة مقال فيما درسوه ، فكان مقالها أدق ما كُتب وأوفى وأجود ؛ و إذن فلها إلى جانب أنوثتها الجذابة ذهن صاف وأسلوب مستقيم . هى فى نحو الثلاثين من عمرها ، تخرجت منذ بضع سنوات ، وهى تعدّ نفسها لدرجة الأستاذية فى الفلسفة ؛ قالت لى بعد محاضرة اليوم التى قارنت فيها بين مبادئ المعتزله ومبادئ المسيحية التى شاعت فى القرن الخامس الميلادى : إننى لم أشهد فى حياتى أستاذاً أقدر منك على تبسيط المعقد وتوضيح الغامض ، وتمنَّتْ لو أتيح لها أن تحضر لى محاضراتى الأخرى فى الفلسفة اليونانية ، فكان لهذا نشوة فى نفسى ، فما أحب الثناء للإنسان ، خصوصاً إذا جاء من فاتنة ذكية مثل السيدة « ش »

وفى المساء ألقيت فى النادى الفلسفى محاضرة عن الوضعية المنطقية . . . إننى أصبحتُ لا أستريح إلى الدكتور « ف » أستاذ الفلسفة لأن له ملاحظات أشك فى أنها تنطوى على قصد طيب ؛ فمثلا أشاع أننى لولا دراستى فى انجلترا لما أبديت الذى أبديته من قدرة ، فما كان يمكن — فى رأيه للناس — أن تخرج مصر دارساً مثلى ؛ مما اضطرنى يوما أن أعلن فى محاضرة قلتها ، إننى بخيرى وشرّى صناعة مصريه ، ذهبتُ إلى انجلترا بعد أن بلغ سنى الأربعين وبعد أن أخرجت ستة عشر كتابا . . . وكان اليوم له تعليق أثار غيظى لكنى كتمت الغيظ فى نفسى وناقشته بأعصاب يبدو عليها الهدوء ، وذلك أنه فى المناقشة التى أعقبت محاضرتى فى النادى الفلسفى ، انتهز فرصة ذكرى لأوجست كونت فقال إن أوجست كونت لا يظن خيراً بالمدينة العربية كلها . . . فأجبته بعد صمت قصير استجمعت فيه هدوئى : أنا لا أعرف أنه قال شيئاً من ذلك ، وسأفرض أنه قال فأحكم عليه فى هذه النقطة بأنه قد بعُد عن كل روح فلسفى صحيح ، فليست المدنيّة كلمة ترسل إرسالا بغير حساب ؛ المدنية دين وأدب ، وفن وحكومة ، وعلم ونظام عيش وغير ذلك ؛ فكم قرأ أوجست كونت من الديانة الإسلامية ليحكم ؟ وكم قرأ من الأدب العربى فى أصوله ليحكم ؟ وهل درس دقائق الفن العربى وتفصيلات الحكومة العربية ليحكم ؟ أم قالها قولة من لم يدرس ولم يحلل ؟ إن كان قد فعل ذلك فليس هو بالفيلسوف المسئول فى قوله هذا . . . وبالطبع كنت فى ذلك بمثابة من يقول إياكِ أعنى واسمعى ياجارة ؟ فالدكتور « ف » إنما يحتمى بأوجست كونت ، لكنه يريد أن يقول هو عن المدنية العربية هذا الحكم ؛ ولو قاله عن دراسة لما كان ثمة ما يدعو إلى لوم ؛ لكن أسباب الدراسة بالطبع لم تتهيأ له ، لأنه على الأقل لا يعرف اللغة العربية ليقرأ أصول المدنية العربية .

إن من أظهر المعالم التى يلاحظها الإنسان فى الأمريكيين مما يثير دهشتة أول الأمر ، نسبة الأمريكىّ نفسه لأصله الأوربىّ ؛ فكلما أخذت فى التحدث إلى واحد

منهم كان الأرجح أن يذكر لك فى حديثه أنه انجليزى أو إيطالى أو فرنسىّ الخ . فلا غرابة أن تجد فى صحافتهم اتجاها نحو تقوية «التأمْرُك» وفى ذلك قرأتُ مقالا للكاتبة المعروفة لنا بشدة عطفها على الشرق الأوسط ، «دوروذى تومْسُن» تقول فيه إنهم بحاجة إلى بث الدعاية لروح « التأمْرُك » هذه فى نفوس الأمريكيين ؛ فلو فرضنا مثلا أن حربا قامت فى تشيكوسلوفاكيا — هكذا قالت الكاتبة — فليس من الإنجليز أو الفرنسيين من يحس أن حربا قامت فى وطنه وبين بنى جنسه ، أما الأمريكيون فغير ذلك ، لأن منهم من لا يزال إخوته وبنو عمومته هناك ، فهو أمريكى بقوميته وجزء من شعوره ، لكن الجزء الباقى من شعوره ملتفت إلى أهله الأولين ، وكيف ينسى وهم لا يزالون معه فى تراسل وتزاور .

وقد جمعتنى الصدفة على مائدة عشاء بسيدة إيطالية الأصل ورجل إيطالى الأصل كذلك ؛ بعد أن عرف كل منهما الآخر راحا يتحدثان عن إيطاليا بما يدلّ على شدة حنينهما ؛ قالت السيدة إنها تزور إيطاليا فى إجازاتها مرة كل سنتين ، فقال الرجل إنه كذلك يفعل ؛ الرجل صانع لثياب السيدات ، وله مصنع به مائة عاملة ، فسألته السيدة : كم إيطالياً فى مصنعك ؟ فقال : كلهم بالطبع إيطاليون ؛ وفهمتُ من الحديث أن السيدة مشتركة فى جمعية تجمع الإعانة للمشردين من أبناء إيطاليا ، وأقامت الجمعية فى جهة ما بإيطاليا بلداً جديداً يكون مجالا لتربية هؤلاء الأبناء ... هذان أمريكيان ، لكن هل يعقل أن يخلوا من كل عطف على إيطاليا إذا ما نشبت حرب مثلا بين إيطاليا وأمريكا ؟ .

كل ذلك دعانى إلى التساؤل ؟ هل تكون « أمريكا » أكثر من أرض بها مصالح أهلها ، يحبونها بمقدار ما هى مصدر نفع لهم ؟ بعبارة أخرى ، هل أصبحت أمريكا « وطناً » لأبنائها بالمعنى الذى يفهم من كلمة « الوطن » فى العالم القديم .

السبت ١٧ أكتوبر :

كم نتعجل فى أحكامنا على الشعوب حين نلق القول جزافاً بغير سند أو دليل ! إن الحكم على رجل واحد هو — عند من يحاسب نفسه — أمر عسير ، فما بالك بالحكم على شعب قوامه مائة وستون مليونا من الأنفس ؟ ! فكثيراً ما سمعت من مصريين زاروا أمريكا قبل أن أزورها ، أن روابط القربى هنا ضعيفة ، حتى ليكاد الوالد يهمل ولده والولد يتنكر لوالده ؛ لكننى لم أشهد علامة واحدة تدل على ذلك ، بل كل ما شهدته دليل ناهض على أن روابط الأسرة قوية متينة . . . أقول هذا بمناسبة ما رأيته اليوم فى جريدة الصباح ، إذ رأيت صورة لوالد يجلس على مقعد فى الطريق ؛ والمقعد موضوع بحيث ينظر الرجل من نافذة بناء إلى جواره — والبناء هو مستشفى — فيرى ولده المريض وهو على سريره فى المستشفى وقالت الصحيفة إن الرجل قد لبث — حتى صدور صحيفة هذا الصباح — يومين كاملين فى جلسته تلك ، ناظراً إلى ابنه لا يتحول عنه ؛ وسئل الوالد : ماذا يدعوك إلى هذا العناء كله ؟ إنك قد تعرض نفسك للأذى بهذا الجلوس فى العراء ليلا ونهاراً ، فبكى الرجل وقال : قال لى فلان (وهو ابنه) حين جيء به إلى هنا : « ابق معى يا أبى » فلا يسعنى سوى البقاء إلى جانبه كما أرادنى أن أفعل ؛ وإذا كان مقامى إلى جواره فى المستشفى متعذراً ، فأقرب نقطة إليه هى هذا المكان من الشارع بالقرب من نافذة غرفته ؛ قيل له : لكنك بحاجة إلى النوم والراحة بعد يومين كاملين لبثت فيهما جالساً على هذا النحو المضنى ؟ فأجاب : ليس بى أقل رغبة فى نوم . . .

أهذه مشاعر أب يعيش فى شعب لا يعبأ بالعواطف الأبوية ؟

دعانى مستر « ه » إلى مصاحبته فى رحلة إلى الريف ، لنقضى عطلة الأسبوع ؛ وحدد لى موعداً فى الساعة الواحدة أمام متحف الفنون . لم أكن قد رأيت هذا

الرجل العجيب ، إنما تم التعارف بالتليفون ؛ فلما جاء الموعد رأيتنى إزاء رجل فى الخامسة والستين ، ممتلئا بالحيوية والنشاط ، لا تمضى عليه دقيقة واحدة دون أن يضحك من كل قلبه ؛ تظهر عليه البساطة الشديدة فى حديثه وثيابه ونكاته ، لكنك لا تلبث أن تنفذ ببصرك إلى قلبه فترى قلبا مليئاً بالهموم ، وقد ظن أنه الضحكات المتواليات قادرات على إزالة همومه ... رحّب بى ترحيباً كريماً ، ودخل بى إلى متحف الفنون من بابه الخلفىّ الخاص بموظفى المتحف ، وصاح بأعلى صوت : أين هؤلاء البنات ؟ ! فعجبت أول الأمر أن أراه يستبيح هذا الصياح فى مكان كهذا ،لأننى لم أكن أعلم على وجه الدقة مع أى رجل أنا الآن ... أجابه الدكتور « ك » (وهو مدير المتحف) من داخل المتحف صائحاً بعبارة لم أتبينها ؛ فعاد مستر « ه » إلى صياحه : لا ، أنا لا أريدك أنت ولا أسعى إلى رؤيتك ، فما لك من قيمة عندى ، إنما أردت البنات ! وكنا فى هذه اللحظة قد بلغنا مكتب الدكتور « ك » مدير المتحف ، فسلّمْنا ، وعندئذ جاءت فتاة ، فصاح صديقنا « ه » : « أهلا » وقال : هاهى ذى « م » ؛ تعالى يا « م » فهذا هو ضيفنا الدكتور محمود جاءنا من مصر ، ميصحبنا فى رحلة اليوم . . . و « م » هذه فتاة فى الثالثة والعشرين ، تحمل درجة فى الفنون الجميلة ، وتعمل فى المتحف ، وفنّها هو زخرفة الخزف ؛ وهى وسط فى جمالها ، مليئة الجسم نوعا ، لو قيل لى أنها مصرية لصدَّقْت لأنها تشبه مصريات كثيرات فى بشرتها وسواد عينيها ؛ ودقائق قليلة جداً تكفيك أن تعلم كم بلغت « م » من قوة الشخصية والثقة بالنفس ؛ فهى تنظر إلينا نحن الكهول بالنسبة لها ، وتحدثنا ، كأنها تنظر وتتحدث إلى صغار ! صوتها واضح ، وتعبيرها واضح ؛ لا يغرّها أنها تعلم ، ولا يخجلها أنها تجهل .

خرجنا من المتحف نحن الثلاثة : فتاتنا « م » ومستر « ه » وأنا ، وركبنا سيارة « ه » وبعد قليل وقفت بنا السيارة أمام منزل فى الطريق ، فنزلت « م » صامتة وعادت ومعها سيدة عمرها بين الخمسين والستين ، هى السيدة « ب » فسلّمْنا

وتعرَّفنا ؛ وقد عرفت أنها مديرة المطبعة فى الجامعة ، فهى المسئولة عن كل ما تخرجه الجامعة من مطبوع ومنشور ؛ والسيدة « ب » هى الزميلة الرابعة فى رحلتنا اليوم .

لست أدرى فى الحقيقة ماذا أقول وماذا أَدَعُ من ألوف التفصيلات التى انطبعت فى ذهنى من هذه الرحلة ، ولذلك فإنى سأترك القلم يكتب ما يطفو على سطح الذاكرة من تفصيلات ؛ وأول ما أبدأ به هو شخصية هـذا الرجل العجيب مستر « هـ » أمرح مخلوق على ظهر الأرض ؛ يستحيل أن ترافقه دقيقة واحدة دون أن ينفض عنك الخجل ويدفعك إلى الضحك وإلى المرح دفعاً ؛ إنه لاينقطع عن الصياح والزئاط كأنه الطفل الصغير يلعب على شاطىء البحر فى الرمل والماء ؛ وهو من أغنياء المنطقة ، ويعتز بأسرته التى هبط منها ، فهو وحده الآن يملك نحو ستين ألفاً من الفدادين ، ويدير عملا واسعاً فى كولمبيا ، ثم هو فوق ذلك محام وعضو فى مجلس شيوخ الولاية ومشهور فى الناس .

جلست إلى جانبه فى السيارة ، وجلست السيدة « ب » والآنسة « م » فى المقعد الخلفى ؛ وهو ترتيب يخالف التقاليد ، إذ كان ينبغى أن تجلس سيدة فى المقعد الأمامى ، لـكنهم اتفقوا على ذلك لتتاح لى فرصة الرؤية الكاملة ، والاستماع إلى ما يقوله مستر « هـ » تعليقاً على مشاهدات الطريق .

أشار إلى شجرة تحتها صخرة ، وقال إن لهذه الصخرة قصة محزنة ، ففى الحرب الأولى فقدت أم ابنهـا وجاءها خبر موته ، فلم تلبث أن مَسَّها الجنون ، وصور لها جنونها أن قد جاءها من ولدها خطاب يقول لها فيه إنه آت إليها فى الطريق راكباً إحدى السيارات العامة ، ولذلك فهى تنتظر قدوم تلك السيارة العامة التى تحمل ولدها ، تنتظرها يوما بعـد يوم ، وقد ظلت خمسة عشر عاما لاتنقطع يوما واحداً عن المجىء إلى هذه الصخرة ، والجلوس طول النهار حتى مغرب الشمس ، ومعها قليل من طعام ، وإبرة وخيط ؛ وكلما مر بها إنسان فى الطريق ، قالت له : « إننى أنتظر ولدى ، إنه قادم فى سيارة عامة ، كتب إلىّ يقول هذا ... » إننى أكتب

هذه القصة دليلا على الأواصر العاطفية الشديدة التي تشد قلوب الأسرة الواحدة بعضها إلى بعض ؛ فليس الأمريكيون كما يقول عنهم الناس قوما فى صدورهم قلوب من حجر ، يعبدون « الدولار » وحده ويسبحون بحمده ! .

فى تاريخ هـذه الولاية — ولاية كارولاينا الجنوبية — قائد مشهور اسمه ماريون ، تراه مخلداً فى التماثيل ومذكوراً فى أسماء الشوارع ، ويطلق اسمه على بحيرة كبيرة ... وقد مررنا على مزرعة كبيرة فقال مستر « ه » : إنها مزرعة كانت لأسرة ماريون ، ورثها الولد الأكبر حسب قانون الوراثة السائد عنـدئذ ، وكان القائد ماريون هو الولد الثانى فى أسرته ، فلم يرث شيئاً ، ولولا ذلك لما خرج للحرب واشتهر ؛ ثم خرج مستر « ه » يدافع عن ذلك النظام فى الوراثة على أساس أنه من جهة يحافظ على ملك الأسرة فلا يتجزأ ، ومن جهـة ثانية يهىء فرصة الظهور فى الميـادين الأخرى أمام الأبناء الآخرين ؛ وكان موفقاً فى ضرب الأمثلة من أسرات كثيرة ذاكراً أسماء رجال اشتهروا لأنهم كانوا الأبناء الثوانى أو الثوالث ، فخرجوا يسعون فى الأرض عملا وإنتاجا وذيوع صوت ... لـكن هذا النظام قد تغير الآن هنا وأصبح الميراث قسمة متساوية بين جميع الأبناء .

الطريق كله — وقد قطعنا طريقاً يقرب من المسافة بين القـاهرة إلى الإسكندرية قاصدين إلى خزان على بحيرة ، اسمه خزان سانتى كوپر — الطريق كله خضرة وأشجار باسقة ؛ ومررنا بحقول مزروعة قطناً وقصباً ؟ فهذه ولاية تزرع قطنـاً وتنافس مصر فى قطنها ، لـكن شتان بين قطن وقطن ؛ فالنظرة السطحية تدلنى — ولا أستطيع أن أنظر إلا هذه النظرة السطحية السريعة لأننى قليل الخبرة بالزراعة — تدلنى على أن قطنهم ظاهر الضعف بالنسـبة إلى قطننا ، فلست ترى حقل القطن وقد نضجت ثمـاره غزير المحصول غزارة القطن المصرى ؛ والأرض حمراء كأنها مغطاة بمسحوق الطوب الأحمر .

وصلنا بالسيارة إلى باب خشبي يعترض الطريق ، مفتاحه مع مستر « ه » وهو إذا ما انفتح دخل الداخل فى غابة كثيفة الشجر ؛ وطلب مستر « ه » من الآنسة « م » أن تفتح الباب وقد ناولها المفتاح ، فهممتُ أنا أن أفعل ذلك لأوفر على الآنسة عناء النزول ، فقال لى مستر « ه » ضاحكا مازحا : اسمع منى الرأى فأنا أكبر منك وأخبرُ بالنساء ، يخيل إلىّ أنك قليل الخبرة بهن ، فهأنت قد أحضرت معك صندوقا من الشيكولاتة ، وأخذت توزع على هاتين المرأتين من حلْواك طول الطريق ، ظانا أن الحلوى تكسب النساء ، لكن كسب النساء له طريق واحد ، وهو إذلالهن بالعمل ؛ وأنا أحب تشغيل النساء بما أكلفهن من أعمال يؤدّينها ... والتفت إلى « م » وقال فى لهجة الجدّ المصطنع : « م » ! انزلى وافتحى الباب ! » ونزلت « م » وضحك الجميع .

دخلنا إلى طريق ضيق يشق الغابة الكثيفة ، ووقفنا عند بيت فى قلب الغابة كان على شرفته سيدة متقدمة فى السن نوعا ما ، اسمها « س » وفتاة وفتى وطفل صغير ؛ فتصور هذا الرجل المرح كيف دخل البيت صائحا مهللا ، يمسك هذه ويقبل تلك ويرحب بهذا ؛ جلسنا على الشرفة نضحك كلنا لكل لفظة يقولها « ه » ولكل حركة يتحركها ، وأتوا لنا بأكواب الشراب ، وبينا نحن جلوس استعادونى النطق باسمى ، فلفظة « محمود » صعبة جداً عليهم أن ينطقوها ، فما هو إلا أن أخرج مستر « ه » من جيبه حزمة من قصاصات ، واسمى مكتوب على كل قصاصة منها ! وبعثرها بين الجالسين قائلا : هاكم ! توقعتُ أن يسألنى كثيرون أثناء الرحلة عن اسم الدكتور محمود ، فطلبت من سكرتيرتى أن تدق اسمه على آلة الكتابة فى عشرين أو ثلاثين صورة ، فكلما سألنى سائل عن اسمه أخرجتُ له واحدة من هذه القصاصات . . . أضحكنى هذا المنظر . . . عرفت أن السيدة « س » هى صديقته والفتاة هى ابنتها والفتى هو زوج ابنتها ؛ وهو فنان يشتغل فى متحف كولمبيا مع الآنسة « م » .

قال مستر « ه » هلموا بنا لعلنا ندرك ساعــة من ضوء النهار نستحم فيها فى البحيرة ؛ والظاهر أنه خلق هـذا العذر لنترك هذه الدار ونقصد إلى أكشاكه الخشبية على شاطىء البحيرة حيث سنبيت الليل ، لـكن أصحاب الدار دعونا على العشاء ، وطلبوا منا أن نذهب لنعود إليهم فى الساعة السابعة .

ذهبنا إلى مكان منعزل على شاطىء البحيرة ، فيه نحو ستة أكشاك خشبية ، فيها كل ما يتصوره الإنسان من أسباب الراحة ، لـكن هـذه الأشياء مهوشة الترتيب إلى درجة تضحك ، فلو تعمد إنسان أن يضع الأثاث فى خلط وهرجلة لما عرف كيف يبلغ هذه الدرجة منهما ، لـكنك تجد كل ما تريد : آلات التبريد وآلات التدفئة لاعدد لها ، وأطباق وأوان وطعام الخ الخ ؛ خصص كشكا للسيدتين وآخر لى ، وكان له هو كشك كبير أقرب إلى المنزل الصـغير ، فيه غرفة الطعام والمطبخ وشرفة للجلوس وغرفة للكتب . إن الزائر لايملك سوى أن يضحك ضحكا متواصلا لما يراه فى منزل مستر « ه » هناك ، لأنه يجمع فيه أشـياء عجيبة ، يضعها على المناضد و يعلقها على الجدران ؛ فلا بأس عنده مثلا من أن يضع قطعة من الحديد الصدىء أو يعلق حذاء بالياً على الجدار ! ومن هذه الأشياء ترى ، لا أقول مئات ، بل ألوفا ، كأنما منزله هذا دكان يبيع منوّعات قديمة ! وهو يضحك معك على نفسه ، و يقول أنه يجمع معظم هذه الأشياء من أكوام القمامة .

جاء وقت العشاء فذهبنا إلى منزل الأسرة الداعية ، والمنزل من الداخل آية من آيات الفن وحسن الذوق فى بساطة : هدوء وعزلة فى قلب الغابة ، كأنما أنت فى محراب راهب عابد ، والأضواء فى غرفة الجلوس وغرفة الطعـام خافتة توحى بالاسترسال فى حُلم جميـل ، وعلى مائدة الطعام وضعوا الشموع ؛ و بدأنا طعامنا بالصلاة — كما هى العادة التى لم تشذ مرة واحدة على أية مائدة شهدتها — وكان معظم الحـديث معى عن الفلسفة أولا واتجاهاتها ، ثم عن الفن المصرى القديم ، يسألوننى عنه فى خبرة وفى دقة ، لأن بيننا اثنين من دارسى الفن ، وحسبونى ملمًّا

بدقائق الفن المصرى ما دمت مصريا ، وعلى كل حال فقد وفقنى الله فى إجابة معظم ما وجهوه إلىّ من أسئلة فى هذا الباب .

عدنا بعد العشاء إلى أ كشا كنا على شاطئ البحيرة ، مارّين بأقرب مدينة لنشترى طعاما للغد ؛ مستر « ه » معروف للناس جميعاً ، يقابلونه بالترحاب والتكريم ؛ قال لى صاحب الدكان الذى وقفنا فيه نشترى حاجاتنا : إن مستر « ه » هذا رجل عجيب ، يحب صرف ماله على الناس ، لا تراه فى أى مكان أو فى أى بلد إلا ومعه جماعة من ضيوف ؛ إنه ثرىٌّ كثير الكسب لكنه كثيراً ما يقول ، وهو ينفذ ما يقوله ، إن المال إنما كُسِبَ ليصرف . ولما تركنا الدكان ، قال لى مستر « ه » هل رأيت هذا التاجر ؟ إنه قاتل ! قتل على الأقل خمسة أشخاص ، ومع ذلك لم تثبت عليه جريمة ؛ كان فقيراً معدما ، وكسب من جرائمه مبلغا لا يقل عن نصف مليون دولار ، وبدأ تجارته هذه واطرد نجاحه وأصبح ذا اسم فى المجتمع . . . ثم سكن مستر « ه » قليلا وقال : أليس هذا من سخرية القدر ومضحكاته ومحزناته معاً ؟

جلسنا العشية فى شرفة مستر « ه » ؛ الظلام ضارب من حولنا فلا نعرف البحيرة القريبة منا إلا من أصوات موجها ، واستأنفنا الحديث الذى بدأناه فى منزل السيدة « س » عن الفن ، إلا أنه الآن حديث عن الفن المعاصر ، وكان « ه » و السيدة « بْ » يعارضان فى تهكم ألوان الفن المعاصر ، وانطلقتُ مدافعاً فى حرارة كأنما أنا واحد من هؤلاء الفنانين المعاصرين ، دخلت الآنسة « م » صامتة لا تنطق إلا بالقليل حينا بعد حين . . . لم أكن أدرى أن حديثى فى الفن قد غزا قلب « م » غزواً ، وأصبحتْ تنظر إلىّ نظرة الإعجاب الشديد ، وتتلمس من شفتىّ كل كلمة أقولها ؛ وما أكثر ما يكون الحب عند هؤلاء الناس قائما على مثل هذا الإعجاب !

إننى كلما ازددت معرفة بمستر « ه » عرفتُ أنه عالَم بأَسْره ، عالَم غريب ،

قال لى : كان لأبى مكتبة كبيرة وفيها كتب ذات قيمة أثرية عظيمة ، ويكفى أن تعرف أن كتابا واحداً عُرِضَ لى فيه عشرة آلاف دولار ، ومع ذلك رفضتُ بيعه ، وأهديتُ المكتبة بأسرها إلى جامعة كارولانيا الجنوبية ؛ وكذلك ترك أبى وجدّى صوراً فنية ذات قيمة عظيمة — أخذ يذكر بعضها بالاسم — فأهديتها إلى متحف الفن بكولمبيا ، وهى هناك الآن تملأ أكثر من غرفة (ومن هنا أدركت سر دالّته على المتحف وأهله) . . . ثم أضاف قائلا : إننى رجل صريح مع نفسى ؛ إننى لا أميل ميلا حقيقياً للكتب أو الصور ، فلماذا أبقيها فى دارى غير منتفع بها ؟ لماذا لا أمتع بها أكبر عدد ممكن من الناس ؟ كانت زوجتى تختلف معى فى النزعة ، فهى تميل إلى الارستقراطية والظهور ، وأما أنا فرجل بسيط ، أريد أن أعيش كما تريدنى طبيعتى أن أعيش ، لا تكلف ولا تصنّع .

أردنا ونحن جلوس فى الشرفة أن نشرب القهوة ، فكان لا بد أن يقوم بإعدادها أحدنا وأن يتعهد بغسل الأقداح أحدنا ، فألححتُ فى أن أشترك فى هذا أو فى ذاك ، فقال مستر « ه » مازحا : بالله لا تتلف علينا النساء بأدبك ، أنت وأنا رجلان ، مهمتنا أن نجلس هنا فى الشرفة نشرب الشراب وندخن السيجار ، وأما هاتان فامرأتان تؤديان لنا واجب الخدمة فى ولاء ، أليس كذلك يابنات ؟ فتجيب السيدتان فى ضحك : لا شك فى ذلك .

وسأل مستر « ه » من ذا يقوم غداً بإعداد الإفطار ، فعرضتْ كلّ من السيدتين أن تقوم بهذه المهمة ، فينظر إلىّ مستر « ه » ضاحكاً وهو يقول بمرحه المعهود : هل رأيت ؟ أقعد مستريح البال ، أنت وأنا رجلان ، نشرب وندخن السيجار ، وهما تطهيان لنا وتغسلان الأطباق والأقداح ، هيا يابنات !

الأحد ١٨ أكتوبر :

أقرب قرية إلى مكان أكواخنا الخشبية هى قرية بنوپولس ، وباسمها يعرف

المكان ، والذاهب إلى الأكواخ على شاطئ البحيرة يمر بمكتب بريد ريفي قديم يقع على حافة الغابة التى نتخللها لنصل إلى البحيرة ؛ فكلما مررنا بالسيارة أمام هذا المكتب فى جولاتنا ، أشار مستر « ه » إلى مكتب البريد ضاحكاً ضحكا عاليا وقال : صندوق الخطابات هنا فَتْحَتُهُ عمودية (العادة طبعاً أن تكون فتحة الصندوق أفقية) هذه الحقيقة البسيطة يقولها مستر « ه » كلما مررنا هناك ، وفى كل مرة يضحك ضحكا عاليا ، لا يملّ من التكرار ، ولا ينقطع عن الضحك فى كل مرة كأنه فى كل مرة يكشف كشفاً جديداً ؛ وهذا كله دال على بساطة نفسه وعدم التعقّد فى نفسيته ؛ والحق أنى أصبحت الآن أَمْيَلَ إلى وصف الشعب الأمريكى كله بهذه الصفة ، وهى انطلاقه انطلاقا حراً فى التعبير عن نفسه (ذلك بالطبع إذ جاز أن نصف شعباً بصفة من الصفات) ؛ الأمريكىّ ذو نفس شفافة أقرب إلى نفس الطفل فى شفافيتها ، ليس فيها القيود الداخلية التى تمنعه من القول والسلوك على نحو حر طليق يعبّر عن فرديّة الفرد إلى أقصى حد مستطاع فى مجتمع ؛ لا غرابة أن يلبس رئيس جمهوريتهم قميصاً مشجَّراً ملونا ، ولا غرابة فى أن يضحك مستر « ه » لما هو تافه فى نظر المأزوم من الوجهة النفسية ، الذى يلجم نفسه عن المرح والضحك إلى أن تهتز له الأرض وما عليها من أثقال !

أعدت لنا السيدتان « ب » و « م » طعام الإفطار ، فلما جلسنا على المائدة طلب منى مستر « ه » أن أصلى صلاة الطعام على طريقتنا — والصلاة المقصودة دعاء بأن يديم الله نعماءه وبركاته — فتمتمتُ بالبسملة . . . بدء الأكل بالدعاء أمر لا بد منه حتى عند مستر « ه » الذى يخيّل إليك أن قد خلا قلبه من كل إيمان ! وهذا هو الشعب الذى يقال عنه إنه يعبد « الدولار » !

وأبدت الآنسة « م » رغبتها فى سباحة وتجديف ، فأسرعنا بسيارة مستر « ه » إلى منزل صغير فى جوف الغابة ، يسكنه الحارس على أملاك مستر « ه » فى هذه المنطقة ، ليطلب إليه أن يجىء إلى البحيرة بقارب ، وقال لنا مستر « ه »

عن هذا الرجل إنه مكثار فى العيال ، فله فى كل عام مولود جديد ، تعالوا نسأل الرجل وزوجته كيف يستطيعان إنشاء مولود جديد فى كل عام . . . يقول ذلك مستر « ه » مرة بعد مرة ، ضاحكا فرحا مرحا . . . وما هو إلا أن جاء إلى شاطئ البحيرة هذا الحارس فى سيارة نقل كبيرة تحمل القارب المطلوب ، وجلست إلى جانبه زوجته وطفلان من أطفاله الكثيرين .

وفى الضحى ذهبنا إلى محطة توليد الكهرباء المقامة بين البحيرتين ؛ مشروع جبار ، فقد رفعوا مستوى الماء فى إحدى البحيرتين بطرق صناعية ، ليصبّ ماؤها فى البحيرة الأخرى متدفقاً ومولّداً الكهرباء . . . أخذ المهندسون يشرحون لنا ما يستحيل على مثلى أن يفهمه ، حتى لقد قالت السيدة « ب » : إنى والله لأعجب أن يكون فى الدنيا إنسان واحد يفهم عنهم هذه الأشياء التى يشرحونها !

الحق أنى قد امتلأتُ بشعور حقيقى لا تكلف فيه ، أننى واحد من فئة لا فائدة منها ، وأعنى أولئك الذين قضوا حياتهم فى دراسات نظرية لا تشبع جائعاً ولا تكسو عاريا ، ولا تتقدم بها الدنيا قيد أنملة أو تتأخر قيد أنملة . أنظر إلى هذه الأنابيب التى تلتوى على بعضها كأنها أمعاء حيوان ضخم ، وإلى هذه المصابيح وهذه المفاتيح وهذا الصوت الذى يطنّ فى جنبات المكان ، وإنى لأقول لنفسى إذ أرى وأسمع : أى مجنون فى الدنيا يرى هذه الأشياء تُصْنَعُ وتقام ، يصنعها العقل البشرى ، ثم يختار لحياته أن تُقضى فى تحليلات لفظية وشطحات خيالية نظرية كما أقضى حياتى ؟ ! كان المهندسون كلهم شبانا صغاراً ، ومع ذلك أنبأنى مستر « ه » أن أقل راتب للواحد منهم هو ثلاثون دولاراً فى اليوم ، أى نحو اثنى عشر جنيهاً أو يزيد !

كان مستر « ه » موضع احترام الناس هناك ، فهو رئيس المشروع ، يعرف عنه كل شىء على الرغم من أنه محام درس القانون ولم يدرس هندسة ؛ جاءه مهندس وعرّفه بنفسه قائلا : ألا تذكرنى يا مستر « ه » ؟ أنا الذى جئتك فى

مكتبك بنيو يورك عام كذا لتوقّع لى على إذن الصرف ، صرف مليون و نصف من الدولارات لهذا المشروع ؛ أتدرى يامستر « ه » ماذا كنت أقول لنفسى وأنت توقّع الأوراق ؟ كنت أقول : توقيع هذا الرجل الذى أمامى يساوى ملايين الدولارات ، فهل يأتى يوم أرى فيه توقيعى بمثل هذه القيمة ؟ وجعلتُ ذلك منذ ساعتئذ أملى ومرتجاى . . . وأخذ مستر « ه » يحكى لنا كيف استغرق التوقيع يوما بأكمله من الصباح إلى المساء ، إذ كان لا بد من توقيع كذا ألفا من الأوراق ، ومن كل ورقة اثنتا عشر نسخة ، فكان يستخدم لذلك قلما كهربائيا ، إذ أماله فى يده ، مال معه اثنا عشر قلما أخرى بطريقة آلية ، وإذا وقّع على ورقة بالقلم الذى فى يده ، وقَّعت بقية الأقلام على بقية النسخ بصورة آلية .

خرجنا من محطة توليد الكهرباء ، فقلت وأنا أزفر زفرة المتحسر : ما أتفه دراستى أمام هذه المنشئات العظيمة ، فقالت لى السيدة « ب » : أنا لا أوافقك ، فدراستنا إنسانية ، وبغير مشاعر الإنسان لا تساوى هذه المنشئات شيئاً ، فلولا أن النساء قد أحببن الماس لصار الماس حجراً خسيساً .

كثيرون وقفوا بقواربهم يصطادون السمك قرب السدّ الذى يفصل البحيرتين ، فالسمك كثير جداً هناك ، تراه جماعات جماعات قرب سطح الماء ؛ وقفنا ننظر ، لكن ما أبعد الفرق بين نظر ونظر ، فرجل كمستر « ه » يرى حين ينظر ، أما أنا فأنظر ولا أرى ! فمثلا يهبط طائر أبيض ويمس الماء مسا خفيفاً ثم يعود إلى الطيران ، فيكون ذلك عندى أن طائراً أبيض يطير هابطاً صاعداً ، أما عند مستر « ه » فهو الطائر الفلانى ، ينزل ليلتقط السمك الصغير و يطير به مسرعا ؛ وأنظر إلى السمك يتلوى قريباً من سطح الماء ، فلا يزيد هذا المنظر فى عينى على ذلك ، أما عند مستر « ه » فهو سمكة من النوع الفلانى قد التقمت سمكة من النوع الفلانى ، ثم يضيف قائلا : إن السمكة الآكلة تعرف كيف تأكل فريستها ،

فهى تبدأ بالرأس لا بالذيل ، حتى تقضم الرأس فتقضى على المقاومة ، ولا تتعرض لضربات الذيل داخل حلقها .

عدنا إلى أكواخنا الخشبية فى مكانها الهادئ على البحيرة ، ورأيت فى الطريق عدداً كبيراً من السيارات التى تجر وراءها قوارب الصيد ، فترى صاحب السيارة قد انطلق ، ووراءه قارب مُرَكَّب على عجل كعجل السيارة نفسها ، قاصداً إلى حيث يصيد السمك فى عطلة الأسبوع ؛ ولما لمحت سيارة تقودها فتاة وحدها ، وتجر وراءها قاربا مشدوداً إلى سيارتها ، قلت لنفسى : ما شاء الله كان ! فهى صاحبة سيارة أولا ، وتعرف كيف تقودها ثانياً ، وثالثاً لها قارب ، ورابعاً تعرف كيف تشد القارب إلى السيارة ، وخامساً تعرف على الأقل رياضة واحدة من سباحة أو سماكة أو تجديف ، وسادساً هى فتاة وحدها فلا حارس ولا رقيب . . . وعلّقت على ذلك لنفسى قائلا : هذه هى المدنيّة الغربية متمثلة فى فتاة .

قالت السيدة «ب» تعليقاً على كثرة السيارات فى الطريق ، إن عدد السيارات يزداد ازدياداً شديداً ، فأجابها مستر « هـ » بأن أمريكا رغم ذلك لا يزال أمامها فى هذا المضمار طريق طويل حتى تنتج لكل فرد سيارة ، فبينما الإنتاج الآن هو سيارة واحدة كل خمس ثوان ، (أى ٢٨٨ سيارة فى اليوم) فإنها تنسل من السكان سبعة آلاف كل يوم .

همّوا أن يسبحوا فى البحيرة ، ووزع علينا مستر « هـ » أردية السباحة فقلت إنى لا أسبح ، وسأقف لكم على الشاطئ أنظر . . . فانفجر مستر « هـ » ضاحكا وراح يبلّغ هذه النكتة الكبرى لزميلتنا « ب » و « م » كأنما هى أعجوبة من أعاجيب البشر !

لو استرسلتُ فى تفصيلات الرحلة لما انتهيتُ من وصفها ، حسبى ذلك منها .

وبدأنا طريق العودة عصراً ، وبينا نحن عائدون انعرج بنا فى الطريق مستر « هـ » إلى جوف الغابة فى موضع ما ، فسألناه : إلى أين ؟ قال : زرعتُ شجرة

جوز هنا فى التاريخ الفلانى ، وأرعاها كلما مررت فى هـذا الطريق ؛ ونزلنا عند الشجرة ، فراح يقلمها هنا ويهذّبها هناك ، وقال : إن أحب شيء إلىّ أن أزرع شجرة فى هـذا الموضع وأخرى فى ذلك الموضع من المواضع التى أرتادها فى رحلاتى ، محاولا أن أحصل على أكبر جوز فى الولاية ؛ سألته السيدة « ب » : فيم هذا التقليم والتشذيب ؟ لماذا قطعتَ كل هذه الفروع ؟ فأجابها : لـكى تركّز الشجرة جهدها كله فى تـكبير الثمار بدل أن تنفق عصارتها فى تغذية فروع لا فائدة منها ؛ وكذلك نزلنا فى موضع آخر يجاوره منزل وحيد على حافة الغابة ، زرع به شجرة أخرى ، فراح مستر « هـ » يقلّم الفروع وينادى سكان المنزل بأعلى صوت ، فخرج الرجل وزوجته ورحّبا بنا . . . هنا كان بعض الجوز ساقطا على الأرض ، فالتقطه مستر « هـ » وهو يصيح فى مرح ليس بعده مرح ، كأنه الطفل الصغير فى فرحته بلعبة جديدة ، وأخذ يناول كلا منا جوزة أو جوزتين مما التقط ، ويصيح : قولوا بصراحة أيها الأصدقاء ، ما رأيكم فى هذا الجوز العجيب ؟ فقال قائل ، ما ألذ ، وقال آخر ما أروع . . . من ذا يلومنى إذا ما أحسستُ عندئذ بالحسرة العميقة حين قارنتُ تربيتى بتربية رجل كهذا ؟ أى نوع من البشر أنا ، وأى نوع من النشأة نشأتُ ؟ بماذا أزيد على البهيمة غذيت لتنمو ثم تموت إذا جاءها الأجل ؟ إنه بغير هذا الشغف بالحياة فلا حياة ، بل إنه بغير هذه الرغبة فى استطلاع الطبيعة والقدرة النفسية على الدهشة والتعجب لـكل ما تبديه الطبيعة من كائنات ، فلا ثقافة ، فليس المثقف مكتبة متنقلة خزنت فى جمجمة الرس ، إنما المثقف رجل حى يقف من الدنيا وقفة المشترك فى تطورها ونموها ، والمستطلع لسرها وخبيئها .

الاثنين ١٩ أكتوبر :

فى صحيفة اليوم حادث له غرابته : ذهب طالب فى الجامعة أمس ساعة الغروب

إلى منزله ، وضرب أمه حتى قتلها ؛ ثم أخذ السيارة وذهب بأعصاب باردة هادئة إلى أبيه فى مكان عمله ، زاعماً أنه إنما أراد أن يعود به إلى المنزل فى السيارة كأنه الابن المشتاق ؛ لـكنه يضمر عزما أن يقتل أباه ؛ وكان أبوه — بمصادفة عجيبة — مطلوبا فى قسم البوليس لأداء الشهادة فى حادث ما ، فعرج الابن بأبيه على قسم البوليس ؛ بل واستطاع الابن بأعصابه الحديدية أن يستخدم تليفون البوليس ليقول لأحد أصدقائه الذى كان معه على موعد يذهبان فيه إلى السنما ، إنه قد يتأخر قليلا عن موعده ، لـكنه ذاهب معه لا محالة فلينتظره ؛ وأخيراً صحب الوالد ولده إلى الدار ، والوالد لا يدرى من الأمر شيئاً ؛ ودبَّر الولد أن يدخل بأبيه من الباب الخلفى حتى لا يمر بالغرفة الملقاة فيها جثة أمه القتيل ؛ ولم يكد الوالد والولد يدخلان حتى انهال الولد على والده ضربا فأفقده النطق ، ولم يستطع الإجهاز عليه لأن الجيران أحسّوا حركة فجاءوا يستطلعون الأمر فوجدوا ما وجدوا . . . والعجيب أن قد سئل زملاء الطالب فى الجامعة ، فأجمعوا على أنه كان من أهدأ الطلاب خلقاً وأطيبهم سلوكا ! فـكم فى هذه الدنيا من مآس لا يعلم الدوافع إليها إلا الله وإلا علماء النفس إن أراد الله لعـلم النفس أن يكون علما يُركَن إلى أحكامه ونتائجه .

دعانى مستر « هـ » أن أذهب إلى لقائه مساء فى فندق كولمبيا ، ولم أدْر لماذا ولا إلى أين نذهب ، لـكنى أحببت هذا الرجل الذى يشيع فى نفسى قبساً من مرحه كلما التقيتُ به ؛ فاستقبلنى فى بهو الفندق بحفاوة ، وراح كمألوف عهده يضحك ويصيح لا يأبه إن كان فى الفندق ناس أو قطع من الحجارة ! وكان فى وسط البهو امرأة جالسـة فى نحو الأربعين من عمرها ، لـكنها على درجة عالية من الجمال ، فأخذنى ودنا منها وقال : إننى ياسيدتى لا أعرفك لـكنى مع ذلك أُريد أن أُقدم لك هذا الضيف من مصر ؛ ثم قال لها إنى أرجح أنك قد جئت إلى كولمبيا فى اجتماع القساوسة الذى ينعقد الليلة لأنى رأيتك فى صحبة قسيس ؛ فقالت :

نعم هذا القسيس هو زوجي جئت معه ، فأجابها مازحا : لا شأن لى إن كان زوجك أو أخاك ، إنما شأنى هو أنك رائعة الجمال !

وما هي إلا أن صعدنا السلّم إلى غرفة فسيحة صفّتْ بها الموائد ، فعرفتُ عندئذ أنه احتفال يقيمه ناد اجتماعى شبيه جداً بنادى الروّاد عندنا فى مصر ، مهمة أعضائه الخدمة الاجتماعية ؛ والغاية من الاحتفال أن يقدّم الأعضاء زوجاتهم حتى يعرف الجميع بعضهم بعضا ؛ وصاحبى مستر « ه » مدعوٌّ ليكون خطيب الحفلة ، فطلب من الداعين أن يُعدّوا لى مقعداً بجواره ، وقدّمنى إلى أعضاء النادى . . . وجاء دور أخينا مستر « ه » ليقول كلمته فهزّ القاعة هزًّا بالضحك ، فهو ظريف الملاحظة فى فكاهة مستملحة ؛ أراد أن يقول للحاضرين كم تغيرت مدينة كولمبيا عن ذى قبل ، فوضع هذا المعنى فى أسلوب فكاهى يثير الضحك ، إذ قال : تغيرت الدنيا فى هذا البلد تغيراً عجيباً أيها الإخوان ، فقد كانت العادة أيام طفولتى أن يأكل الأطفال أجنحة الدجاج وأرجله ، أما صدورها فللكبار ، فلما كبرتُ فرحْتُ لأننى كنت أرتقب العهد الذى أكون فيه من أكلة الصدور ، لكن شاء لى الحظ الأنكد أن يذيع رجال الطب فى الناس أن الأطفال يجب أن يُعطَوا صدور الدجاج ليغتذوا غذاء جيداً ، وحسب الكبار أجنحة وأرجل ، و إذن فقد ضاعت فرصتى فى العهديْن معاً ! . . تغيرت الدنيا يا إخوانى ، و إنى لأدرك مدى التغير عن عهد طفولتى حين أقف على ناصية الطريق يوم ريح ، فعندئذ أرى النساء مشغولات بإمساك الشعر على رءوسهن مخافة أن يختلط و يضيع تصفيفه ، وللريح بعد ذلك أن ترفع عنهن الثياب ما شاءت فينكشف من أفخاذهن ما ينكشف ؛ وأما فى عهد طفولتى فقد كانت المرأة يوم الريح العاصف تمسك بثوبها بين ركبتيها اتقاء للعرى وليحدث لشعر رأسها بعد ذلك ما يحدث . . . وهكذا وهكذا .

إن الإنسان ليكسب قلوب الناس بخفة روحه ، أكثر جداً مما يكسبها برجاحة عقله .

الأربعاء ٢١ أكتوبر :

السيدة « ش » هى أكثر السيدات اللائى لقيتهن هنا اجتذاباً لقلبى ، وهى فى نحو الثلاثين وتبدى حرصاً شديداً على حضور محاضرتى فى الفلسفة الإسلامية ؛ وإنى لأزن كل كلمة تقولها بميزان شعورىّ ؛ وقد قالت لى اليوم عقب المحاضرة إنها فى دهشة من براعتى فى التدريس وتوضيح المعانى والأفكار ، ثم قالت : لا بد أن تكون عاشقاً للتدريس فى ذاته ، فهذا الفن العجيب الذى تبديه لا يصدر إلا عن فنان عاشق لفنه . . . ولو صدر هذا الثناء من أى مخلوق لفرحتُ له ، فما بالك به يصدر من امرأة ، بل يصدر من السيدة « ش » بصفة خاصة ؟ ! فكان لثنائها نشوة فى نفسى ، وذهبتُ من فورى إلى نادى الأساتذة أشرب القهوة ؛ فما الذى جعل قهوة اليوم ألذ طعما من قهوة كل يوم ؟ ألا ما أحوج الإنسان إلى كلمات الثناء !

وأعجب العجب أن تشاء المصادفة الغريبة أن أعود بعد القهوة إلى محاضرتى الثانية فى الفلسفة اليونانية ، فيقول لى أحد الطلاب بعد المحاضرة : إنك أبرع من رأيتُه فى ضرب الأمثلة التى توضّح الغامض . . . فعشتُ بقية يومى سعيداً .

فى الصحيفة اليومية هنا كاتب فكه يكتب نصف عمود كل يوم ، وكان ما كتبه اليوم داعياً إلى شىء من التفكير ، فقد ذكر حقيقة وهى أن نسبة هروب التلاميذ من المدارس قد زادت زيادة كبرى ، وزادت معها من ناحية أخرى نسبة التحاق الزوجات بنوادى الخدمة الاجتماعية ، فما معنى ذلك ؟ معناه هو أن سيدات هذا العصر شديدات الرغبة فى خدمة الأطفال على شرط ألا يكونوا أطفالهن ! فبدل أن تستقر الأم فى دارها لتفتح عينيها لتربية ابنها ، تهمله لتذهب إلى النادى الاجتماعى بغية أن ترعى أبناء الأخريات !

الخميس ٢٢ أكتوبر :

اليوم هو ما يسمى فى ولاية كارولاينا الجنوبية بيوم الخميس الكبير ، وهو يوم يقام فيه معرض زراعى صناعى للولاية ، كما تقام فيه مباراة فى كرة القدم بين جامعة كارولاينا الجنوبية بكولمبيا وكلية كِلِمْسُنْ الزراعية فى نفس الولاية ؛ اسم فريق الجامعة « الديكة الرياضية » واسم فريق كلية كلمسن « النمور » . وإنه لمما يدهش الأجنبىّ أن يرى هذا الاهتمام الزائد بنتيجة المباراة ؛ إنه يستحيل على خيال أن يتصوره إذا لم يره ؛ تجلس على مائدة الأكل فى المطعم فلا تسمح حديثاً على الموائد إلا المباراة ونتيجتها المنتظرة ؛ وتسير فى الشوارع فلا تسمع إلا الحديث نفسه ، لا فرق فى ذلك بين كهول وشباب وأطفال ؛ وكولمبيا تموج اليوم بعشرات الألوف من الزائرين الذين وفدوا إليها من شتى أنحاء الولاية ليشهدوا المباراة .

كانت الغلبة فى المباراة لفريق الجامعة ، لكن ذلك فى ذاته لا أهمية له عندى ، إنما المهم جداً هو أن أجد فى صحيفة المساء التى كتبت نتيجة المباراة ، فى الصفحة الأولى ، وفى إطار بارز ، وبالخط الثقيل الظاهر ما يأتى :

العنوان : « الصلاة مجلبة للخير » ؛ ثم جاء تحت هذا العنوان أن الرئيس دونالد رسل رئيس الجامعة قد دعا إلى مقصورته فى الملعب فلانة التى هى أرملة مدير الجامعة السابق ، وحدث أن كادت كلية كِلِمْسُنْ تصيب الهدف ، فاضطربت أرملة المدير السابق وقالت جادّة إن الموقف خطير لا ينقذه إلا صلاة لله ، وتوجهت إلى السماء بدعاء دينى ، فزال الحرج عن فريق الجامعة ؛ لكن حدث بعد ذلك أن عاد الحرج مرة أخرى ، فاضطربت السيدة الأرملة خوفا على فريق الجامعة أن يصاب ، فنظر إليها من يجلس إلى جوارها وقال : الصلاة مرة أخرى يا فلانة ؛ فاتجهت السيدة إلى السماء بدعائها ، حتى زال الحرج . . . وبعد ذلك تعلّق الصحيفة قائلة : تلك هى الصلاة ، وتلك هى العقيدة السليمة وما تستطيع أن تؤدى إليه من نصر !

نزلتُ الساعة الخامسة لأرى المدينة فى عيدها ، فالقوم اليوم فى عيد ، لا تجارة ولا مصارف ولا عمل ؛ ولم أكد أخطو فى الطريق عشر خطوات حتى سمعت صوتا عذبا ينادى : هالّو ! ؛ نظرتُ ، فمن ذا عساها أن تكون سوى الآنسة « م » ؟ هى هناك واقفة فى منتصف الشارع ، كانت فى طريقها من المتحف إلى المنزل ، ومنزلها قبالة المتحف ؛ كانت تلبس السراويل الزرقاء التى يلبسها عدد كبير جداً من الأولاد والبنات فى ساعات العمل ، وكانت تتأبط حملا من الكتب ؛ عادت إلى الرصيف الذى كنت ماشياً عليه ، وقالت : أنت هنا ولا نراك ؟ . . . الحق أنها كانت عندئذ جميلة ؛ فما أكثر اللمحات التى تتعاقب على الوجه الواحد ، متدرجة فى سلّم الجمال من أعلى إلى أسفل ! كانت « م » عندئذ جميلة ؛ قلت لها : لماذا تعملين يوم العطلة ؟ قالت : كل الناس فى عطلة إلا أنا ؛ قلتُ كأنك بغير فراغ نذهب فيه إلى السنما ؟ . . . رميتُ السهم رميا ولا أدرى نتيجته ، فيافرحتى عندما رأيت فى عينيها تلك الفرحة العجيبة وفى وجهها نشوة ظاهرة ؛ قالت : هذا ما أتمناه ، سأنتظرك الساعة الثامنة فى المتحف ، دُقَّ الجرس عندئذ تجدنى على الباب .

ذهبتُ فى الموعد المضروب ، ولم يكن فى المتحف إلا « م » تعزف على البيانو ؛ فخرجتْ واتفقنا على أن نذهب إلى فلم « ليلى » ، وهو من رقص البالية ؛ والمكان المعروض فيه الفلم مما يسمونه : مسرح السيارات . . . كنتُ أقرأ الإعلانات عن « مسارح السيارات » ولا أفهم معناها ، واليوم قد عرفت ما هى :

كانت « م » مرتدية ثوبا جميلا فزادها جمالا على جمال ؛ ركبنا سيارتها وقطعنا بها نحو عشرين ميلا ، ثم دخلنا بالسيارة فضاء مكشوفا فى صدره لوحة بيضاء ؛ السيارات واقفة بأصحابها صفوفا ، كل سيارة تقف إلى جانب عمود صغير على رأسه سمّاعة ، فتشدّ السماعة خلال نافذة السيارة ليأتى منها الصوت ؛ و إذن تنظر إلى اللوحة البيضاء لترى والصوت من السمّاعة يساير الصور التى تراها .

كانت خبرة جديدة ، وكان فلما جميلا ، وكانت صحبة رقيقة ، وكان القلب في نشوة !

الجمعة ٢٣ أكتوبر :

زرتُ المعرض الزراعى الصناعى ؛ كان فيه قسم للفنون ، فوقفت هناك لحظة ؛ وجاءت مجموعة من الغلمان لا تزيد أعمارهم عن الرابعة عشرة ؛ فنظر واحد منهم إلى الصور المعروضة وقال : فن حديث ! إننى أمقت الفن الحديث ! فقلت فى نفسى : ماذا يعرف هـذا اليانع عن الفن الحديث حتى يحبه أو يكرهه ؟ لـكنه يسمع الـكبار يقولون هذا فيقوله مثلهم ، وهكذا يتكون الرأى العام فى الفنون ؛ ثم يزعمون بعد ذلك أن هذه التقديرات الفنية تعنى شيئاً أكثر من تربية الإنسان على أن يحب شيئاً ويكره آخر . . . قل هـذا فى كل ما يتعلق بالذوق من دين وموسيقى وشعر وأخلاق ؛ إنه لا صدق فى أحكامنا على هذه الأشياء ولا كذب ، والأمر كله أمر تربية ونشأة ، فنميل إلى شىء منها وننفر من شىء .

صرفت جزءاً كبيراً من ساعات الليل الأولى فى القراءة ، وقرأت فيما قرأت مقالا لـ « أدلاى ستيفنسن » الذى يرشح نفسه لرئاسة الجمهورية عن الحزب الديمقراطى ، وعنوان المقال : « لا سلام لاسرائيل » ؛ ولاحظت أن الرجل ليس متحاملا على العرب ، بل يريد إنصافهم بقدر المستطاع ؛ وقد طاف بمصر وسائر بلدان الشرق العربى ؛ ثم جعل اسرائيل خاتمة المطاف ، وهنا قرأت له فقرة حطمت نفسى تحطيما ، لأنه يقول فيها : إن من ينتقل من بلاد الشرق العربى إلى اسرائيل تهوله القفزة المفاجئة من حفاء وعرى وجوع إلى جماعة ارتفع مستوى معيشتهم إلى درجة عالية ، جماعة نشيطة عاملة منشئة ، ثم يقول فى آخر تلك الفقرة : « ولقد انتهيتُ إلى نتيجة ، وهى أن اسرائيل الضئيلة قد تركز فى أرضها من علامات التقدم الإنسانى والمادى ما يفوق سائر أقطار الشرق الأوسط موضوعا بعضها إلى

جانب بعض » . . . فغلا الدم فى عروق لحظة ، وقلت : لماذا لا يترك العرب هذه التفاهات التى تشغلهم لينصرفوا بكل مجهودهم نحو انقلاب حقيقى عميق يجعل منهم أقواما كسائر الأقوام المتمدنة ؟

الأحد ٢٥ أكتوبر :

الساعة التاسعة صباحا جاءنى مستر « ه » ومعه الدكتور « ت » ، وهو فى السبعين من عمره ، كان أستاذاً للأدب الإنجليزى بصفة عامة ، ومختصا بأدب شيكسپير بصفة خاصة ، فى جامعات مختلفة منها جامعة شيكاجو وجامعة تكساس وجامعة كارولانيا الشمالية ؛ وله كتب كثيرة عن شيكسپير ، أحدثُها كتاب ظهر هذا العام ، عنوانه « مقالات لشيكسپير » ، جمع فيه آراء شيكسپير فى الموضوعات المختلفة ، آراؤه التى وردت فى مسرحياته نثراً ، فجعلها كأنها مقالات كتبها شيكسپير تحت عنوانات مختلفة . . . إن كل شىء يذكّر الدكتور « ت » بسطر أو أسطر من شيكسپير ، ويخيل إليك أنه قد حفظ شيكسپير بأسره عن ظهر قلب .

انطلقت بنا السيارة نحو مدينة أوجستا بولاية چورچيا ، وهى تبعد عن كولمبيا نحو مائة ميل ؛ وكان أول حديثى مع الدكتور « ت » فى السيارة عن هذه المدنية العلمية ؛ إذ بدأ « ت » بقوله : إننى أمقت هذه المادية الصارخة ، وأتمنى أن أعيش عاريا فى جزيرة ، وإنى لأتعجب لماذا يتسابق الناس وراء الآلات الحديثة التى تهوّن الحياة ؟ إننى لا أملك ولا أحب أن أملك معظم هذه الأدوات الحديثة ؛ ليس لى مذياع مصور ولا أريد أن يكون لى .

قلت له : إنى لا أوافقك ؛ ورحت أدافع له عن هذا الذى يسمى مدنية مادية لأنه فى الحقيقة مدنية علمية ، وليس « العلم » مادة بقدر ما هو تفكير ، فالسيارة مثلا عقل مجسّد ، من الخطأ تسميتها « مادة » لأن كل جزء فيها قد بلور تفكيراً عقلياً ، وماذا يكون التفكير إن لم يكن روحا ؟ !

فقال الدكتور « ت » : امض فى حديثك ، فإنما أردتُ بما قلته أن أبدأ حديثاً لأسمعك . . .

كم يحز فى نفسى أن أرى كل يوم ألف دليل على مقدار جهل هؤلاء الناس بنا وبعقيدتنا الدينية ! إننى أبعد ما أكون عن التعصب الدينى الأعمى ، لكننى فى الوقت نفسه أكره الظلم فى الحكم ، الذى ينبنى على جهل بالحقائق ؛ فليقولوا فى الإسلام ما شاءوا إلا أنه عبادة أصنام ! . . . فقد مررنا فى الطريق بكنيسة ، فكانت باعثا لمستر « ه » أن يسألنى ما عقيدتى الدينية وإلى أى كنيسة أنتمى ؟ — وهو سؤال يستحيل ألا يوجَّه إليك كلما قابلت أحداً فالكنيسة تملأ رءوسهم ، وتشعب المذاهب يشغل بالهم — فقلت له إنى مسلم ؛ فقال : لقد سمعتك تجيب بهذا الجواب مرات عدة ، ولم أفهم ماذا تعنى كلمة « مسلم » ، أهى تتبعك للكنيسة الأورثوذكسية أم البروتستانتية ، أم ماذا ؟ قلت له : لا شىء من هذا ، فأنا مسلم ، وقد جاء الإسلام بعد المسيحية بسبعة قرون ، فهو تعديل لها من بعض الوجوه ، وعلى كل حال فهما متشابهان فى الأصول ، لأن اليهودية والمسيحية والإسلام فروع ثلاثة من أرومة واحدة ، هى العقيدة فى إله خالق . . .

فقال مستر « ه » : لم أسمع قط بكلمة « مسلم » هذه ، أتكون « محمديا » ؟ فقلت له : نعم إلا أنى لا أحب أن تسمى عقيدتنا بالمحمدية كما تسمونها لأن لها اسما هو « الإسلام » من « السلام » . . . صحيح أن الديانات تنسب لأنبيائها ، فالبوذية لبوذا والمسيحية للمسيح ، وقد تسأل لماذا لا تكون المحمدية لمحمد ؟ لكنى أَحسّ فى استعمالكم لكلمة « محمدية » معنى آخر ، وهو أنها عقيدة أنشأها رجل ولم يوحَ بها من الله .

قال مستر « ه » — ووافقه الدكتور « ت » — : لكن معذرة ، أليست المحمدية تعبد شيئاً غير الله ؟ فقلت له : لو كان الإسلام قد جاء بشىء واحد ، فهو تأكيده عبادة الله الواحد الذى لا يتعدد ولا يشاركه أحد .

يحفظ الدكتور « ت » كثيراً جداً من الأدب عن ظهر قلب ، وقد ذكرنا « إمرسن » فقلت له : إن أخى فى مصر يترجمه إلى العربية ؛ فسألنى أهو يترجم المقالات أم الشعر أو كليهما ؟ فقلت : المقالات ، فراح يحدثنى عن خصائص أمرسن حديثاً فيه لفتات جميلة ، ومما أعجبنى من ملاحظاته عن أسلوب إمرسن أنه يكتب كتابة تهتز اهتزاز البندول ، فهو يهبط ثم يعلو ثم يهبط ، وذكر لذلك مثالا عبارة يقول فيها إمرسن : «إننى ضئيل كالجزر ، إننى إله ، إننى نبتة صغيرة على الجدار» فهو يشعر بضآلته ثم بعظمته ثم بضآلته مرة أخرى ؛ ويعلّق الدكتور « ت » على ذلك بقوله : إن هذه الحركة البندولية فى شعورنا مألوفة لكل واحد منا ، كلنا يحسها فى نفسه .

أخذ مستر « ه » يجول بنا فى أراض زراعية فسيحة هى أرضه وأرض أسرته ؛ إن أهل كارولاينا الجنوبية يعتزون بالأسرة وبالحسب شأن البلاد الزراعية العتيقة ، فمستر « ه » فخور بآبائه وأجداده ومكانة أسرته واتساع ملكها ؛ فهذه ثلاث وستون ألفا من الفدادين ، هى أرض جده لأبيه ، وهذه خمس وثلاثون ألفا هى أرض جده لأمه ، وهذه قطعة مساحتها ثمانون فدانا فى وسطها مبنى صغير أهداها من أرضه للنادى الزراعى . . . ثم أخذنا إلى مقبرة كبيرة وسط الشجر الكثيف ، هى مقبرة أسرته ، قبورها كلها من المرمر ، تتفاوت جدّة وتاريخا ، لكن وحدة الأسرة بادية فيها ، فعلى كل قبر اسم من فيه : فلان ه ، أو فلانة ه ؛ وهكذا يتبعثر أفراد الأسرة فى حيواتهم ويتفرقون ثم يعودون فيلتقون فى مقبرة واحدة أسرة واحدة .

وكان مستر « ه » يعرج بنا فى الطريق إلى جوف غابة هنا وقلب مزرعة هناك ، مشيراً إلى بيوت منعزلة قائمة وحدها بغير جيران ، فيقول هذا منزل ابن عمى فلان ، أو فلان أو فلان ؛ وحدث أحيانا أن رآه سكان هذه المنازل فخرجوا إليه مرحبين ، لكننا لم ندخل من هذه الدور إلا داراً واحدة قال عنها إنها لابنة

عنه فلانة ، وهي تحتفظ بمجموعة قيمة من الصور الفنية النادرة أراد لنا أن نراها ؛ فاستقبلتنا فى هذه الدار سيدة نَصَفٌ جميلة ، لم يكن فى الدار غيرها وغير ابن لها فى نحو العاشرة من عمره جلس على مكتب صغير يذاكر دروسه ؛ البيت قائم وحده فى جوف غابة ، لا جار له إلى مسافة بعيدة جداً ، وهو يبلغ درجة الكمال نظافة وأناقة وحسن ذوق ؛ أخذت السيدة تدخلنا غرف الدار واحدة بعد أخرى لتطلعنا على الصور الفنية التى تقتنيها ، وهى لأشهر الفنانين الأمريكيين فى القرن التاسع عشر ، وكثير منها صور لأفراد أسرة « ه » . .

وكنتُ فى الطريق قبل بلوغنا هذه الدار ، قد سألت الدكتور « ت » ما معنى كلمة « يانكى » التى يوصف بها أهل الشمال ؛ فبين أهل الشمال وأهل الجنوب حزازات إلى اليوم لا يدرك مداها إلا من زار أمريكا ؛ فأهل الجنوب يمقتون أهل الشمال الذين هزموهم فى حرب تحرير العبيد ، وأهل الشمال لا يخلون من احتقار خفيف للجنوبيين ؛ ولا تزال الفوارق بعيدة بين أهل الشمال وأهل الجنوب ، خصوصاً فى مسألة الزنوج ، فيريد الشماليون ألا تكون هناك تفرقة بين أبيض وأسود ، ويصرّ الجنوبيون على أن ينشقّ المجتمع نصفين لا يختلطان ولا يمتزجان ولا يتماسّان بأى وجه من الوجوه : البيض والسود . . . على كل حال ، سألت الدكتور « ت » : ما معنى « يانكى » التى تصفون بها أهل الشمال ؟ فلم يعرف ، ولما وصلنا إلى دار هذه السيدة ، قال الدكتور « ت » للسيدة : أعندك قاموس أبحث فيه لهذا السيد عن معنى « يانكى » وأصلها ؟ فأجاب الغلام الذى يذاكر دروسه قائلا : هى تحريف كلمة « انجليزى » فلما هاجر الانجليز لأول مرة إلى أمريكا ، حرّف الهنود الأصليون كلمة « انجليزى » وجعلوها « يانكى » . . وفتحنا القاموس فوجدنا هذا المعنى الذى قاله الغلام ، وإلى جانبه احتمال آخر ، وهو أن تكون مأخوذة من « يان كى » التى هى كلمة هولندية .

وانتهت بنا الرحلة إلى غايتها المقصودة ، وهى الدار الصغيرة التى يسكنها قريب

لمستر « هـ » هو القاضى « هـ » ، وعمره ستة وثمانون عاما ، كان قاضياً ، وهو الآن يقضى شيخوخته وحيداً فى هذه الدار .

دار القاضى « هـ » فى ضاحية مدنية أوجستا ، وهى مدينة تساوى كولمبيا مرة ونصف مرة ، يسكنها الأغنياء ، و يقصد إليها المستشفون من داء الصدر لحسن جوها — لما اقتربنا من الغابة التى سننفذ خلالها إلى حيث دار القاضى « هـ » ، قال لى مستر « هـ » : إننا يادكتور محمود قادمون على بيت ابن عمى القاضى « هـ » ، وهو رجل مُسِنٌّ متهدم ضعيف ، ولذلك فلن نطيل المكث عنده ، فإذا رأيتنا نسرع فى الرجوع ، و إذا رأيته لا يعبأ بذلك ، فاعلم أن السبب هو ضعف شيخوخته .

وصلنا إلى الدار الصغيرة القائمة وسط أشجار باسقة ، وحولها فضاء صغير قطعت أشجاره ونشأت فيه بِرْكة ماء تسبح عليها بجعتان . . . المنزل صغير جداً ، غرفتان صغيرتان ومطبخ وحمام ، فى الغرفة الأولى مكتبة على جدرنها الأربع وفى وسطها منضدة صغيرة متينة جديدة ، قال عنها القاضى « هـ » إنه صنعها من خشب أشجاره ؛ وفى الغرفة الثانية سرير صغير ومنضدة محملة بأكداس المجلات ، مجلات هذا الأسبوع أو هذا الشهر ، ثم كتاب مفتوح عنوانه « الماء » ؛ وأخذ يقص علينا القاضى « هـ » خلاصة ما قرأه حتى الآن فى هذا الكتاب ، وهو خاص بمشكلة الماء فى ولاية كارولاينا الجنوبية ، فالزراعة فيها معتمدة على المطر ، لكن قد يحدث أحيانا أن يمتنع المطر فتتعرض الزراعة للخطر ، وهذه هى المشكلة التى يعالجها الكتاب .

وجاء إلى القاضى « هـ » ونحن معه ضيف يحمل إليه زهوراً من أنواع نادرة ، فراح القاضى الكهل ينظر إليها واحدة واحدة كأنه يتفرس فى لوحات فنية ويستطلع أسرارها ؛ وانصرف الضيف ، والتفت إلينا القاضى بحديثه ، فإذا حديثه سلسلة

لا تنقطع من النكات والطرائف ، وهو فى ضحك مستمر غير أن شيخوخته لم تمكنه من الضحك العالى القوى كما يفعل قريبه الأصغر مستر « هـ » ؛ وقد كانوا حدثونى عنه أنه لا يشرب الخمر أبداً — على عكس قريبه مستر « هـ » الذى لا يكاد يمسك عن الشراب لحظة ، فزجاجة الخمر معه أنّى ذهب — فما كدنا نستقر مع القاضى فى داره الصغيرة حتى أخرج مستر « هـ » زجاجة خمره فكانت مثار نكات القاضى فترة طويلة .

وقد أدهشنى أن أرى القاضى « هـ » — مع الدكتور « ت » — يتلو أسطرا من شيكسپير فى كل مناسبة ؛ كان يبدأ هو الأسطر فيسايره فيها الدكتور « ت » أو يبدأ الدكتور « ت » فيلاحقه القاضى ، كأنما كانا يتسابقان أيهما يحفظ أكثر من زميله وأجود ، وأيهما يغوص فى بحر شيكسپير اللجىّ ليعود ومعه لؤلؤة تناسب الموقف والسياق .

أصرّ القاضى الكهل على شيخوخته أن يطوف معنا فى أرضه و بين أشجاره ؛ فأول خروجنا من داره ، كان يحمل قطعة من الخبز فى يده ، فقال إن البجعتين لن يلبثا أن يريا الخبز فى يدى فيقبلا علىّ ؛ لكن البجعتين لم يأبها ، فراح القاضى يقول النكات على نفسه ؛ ثم انتقلنا إلى بركة أخرى قال إنها مليئة بالسمك ، وانه قد عوّد السمك أن يطفو على الماء زرافات كلما ألقى إليه بفتات الخبز ، لكنه جعل يلقى الفتات فى الماء فلا يأبه له السمك ، فاستأنف القاضى الفكه نكاته ، فقد عصاه البجع والسمك لسبب لا يدريه .

وللقاضى فى غابته حديقة زهور بها كثير من أشجار الكامليا ، قيل إنها أكبر زهور للكامليا استطاع إنسان أن ينبتها فى الولاية كلها ؛ ولهذه الأشياء عندهم قيمة أى قيمة ؛ وراح القاضى يحدثنا عن كل شجرة ، بل عن كل زهرة كأن هذا الزهر بنوه و بناته ؛ إنه لا يتحدث عن زهوره بالجملة ، بل يتحدث عنها

فرداً فرداً ، لأنها أحياء فى ذهنه ينميها و يربيها و يتعقبها بالعناية والملاحظة والرعاية كل يوم .

وقد كان يستحيل ألا يجىء ذكر مصر فى الحديث ؛ فسألنى القاضى « ه » السؤال الذى يستحيل ألا يسأله كل إنسان هنا ، كما يستحيل ألا يأخذنى الغضب والانفعال كلما أجبته ، فما استطعت مرة واحدة أن أجيب عنه وأنا هادئ الأعصاب ، وهو : انكم تطلبون من الإنجليز أن يتركوا قناة السويس فهل إذا تركوها تستطيعون الدفاع عن أنفسكم ؟ فأجيب دائما بقولى : لأن نستطيع أو لا نستطيع الدفاع عن أنفسنا فإنما ذلك من شأننا وحدنا ، وليس من حق مخلوق على ظهر الأرض أن يسألنا سؤالا كهذا ؛ فضلا عن أننا إذا دافعنا عن أنفسنا فضد الانجليز ، و إذ خفنا على أرضنا فمن الانجليز ، ولا يعقل أن نستريح لدفاع الانجليز وهم عدونا الأول ؛ الانجليز عدو قائم فعلا ، والروس عدو محتمل الوقوع ، ومن البلاهة أن تستبقى عدواً حقيقيا اتقاء لعدو محتمل .

فقال القاضى « ه » إنه يصارحنى بشعوره ، وهو أنه كلما قرأ عن رغبة المصريين فى استرداد قناة السويس ، كاد الدمع يطفر من عينيه ، لأن الانجليز قد بنوها بمالهم وحرسوها بمالهم ، فكيف يجىء المصريون الآن فيقولون : نريد القناة ؛ فلما أفهمته أن المال مالنا حتى و إن بقى بعضه ديناً علينا وأن الأرض أرضنا ، وأن السواعد المصرية هى التى حفرت القناة فى أرض مصرية ، قال القاضى إما جاداً أو متهكما : هذا كشف جديد لى فى السياسة ، أن أعلم من هذا السيد أن القناة لم ينفق عليها الانجليز .

وجاء فى حديثهم ذكر التفرقه اللونية بين البيض والزنوج ، وقد جعلتُ خطتى أن ألزم الصمت كلما ذكر هذا الموضوع ، فهو موضوع حساس فى ولايات الجنوب ، بل هو شغلهم الشاغل ومصيبتهم الكبرى ! ! إن البيض والزنوج يكادون يتساوون عدداً فى ولايات الجنوب ؛ والتفرقة بين اللونين فى هذه الولايات

تفرقة تامة فى كل شىء كأنهما خطان متوازيان لا يلتقيان مهما امتدا ! أحياء لسكنى البيض وأخرى لسكنى الزنوج ؛ مدارس وجامعات للبيض وأخرى للزنوج ، مطاعم للبيض وأخرى للزنوج ، فى السيارات العامة خصصت المقاعد الأمامية للبيض والخلفية للزنوج ؛ بل للبيض باب فى السيارة وللزنوج باب آخر ، للبيض باب فى محطة السكة الحديدية ، واستراحة خاصة ، وللزنوج باب آخر واستراحة أخرى ؛ للبيض عربات فى القطار وللزنوج غيرها ؛ إذا كان البيض والزنوج يعملون معا فى مصنع مثلا ، فللبيض صنابير ماء وللزنوج أخرى ؛ وكارثة الكوارث فى نظرى أن يكون للبيض كنائس خاصة بهم وللزنوج كنائسهم مع أن الجميع قد يكونون مسيحيين تابعين لمذهب واحد !

التفرقة اللونية بين السود والبيض فى ولايات الجنوب هى مركّب النقص الذى لا يجوز لغريب مثلى أن يمسّه بحديثه ، لأن البيض هناك — كأى ناس فى أنحاء العالم — يعلمون أن مثل الإنسانية الأعلى هو ألا يكون فرق بين إنسان وإنسان ؛ لكن العقيدة شىء وممارستها شىء آخر ؛ فمن العسير جداً على نفوسهم أن يمتزجوا مع من كانوا حتى أمس القريب عبيدهم ، اشتروهم بمالهم ليفلحوا لهم أرضهم ، فلا يمكن بين يوم وليلة أن تقول للسيد إنك أنت وعبدك الذى اشتريته بمالك على قدم المساواة لا فرق بينك وبينه ؛ إن الذى يوجّه النقد المرّ للبيض فى ولايات الجنوب — فى رأيى — ينقصه الخيال ، فلا بد أن تضع نفسك بخيالك فى إهاب هؤلاء البيض لتشعر شعورهم قبل أن توجه إليهم النقد ؛ إنهم يقولون : إن المساواة شىء والامتزاج شىء آخر ؛ فللسود علينا أن يكون لهم كل الفرص التى للبيض ؛ لهم علينا أن يكون لهم من المدارس والمستشفيات وكل وسائل الحياة الحرة الكريمة ما للبيض سواء بسواء ، لكن هل هذه المساواة فى المنافع تقتضى حتما أن نمتزج معا ونعيش معا ؟ لماذا تنشد سعادة السود ولا تبالى بسعادة البيض ؟ فإن كان الزنوج يسعدهم أن يمتزجوا مع البيض ، فالبيض يسعدهم ألا يمتزجوا مع

الزنوج ... وهكذا وهكذا ؛ وباختصار . إن هذه المشكلة عندهم هى الداء الذى ينغص عليهم العيش ولا يعرفون له دواء ، فبالعقل يرون شيئاً وبالشعور يريدون شيئاً آخر ، وسيظل الإنسان إلى أبد الدهر نهبا بين عقله من ناحية وشعوره من ناحية أخرى .

قلت إنهم — القاضى « ه » ومستر « ه » والدكتور « ت » — راحوا يتحدثون عن الزنوج ، فلزمت الصمت كعادتى إذا ما دار الحديث عن الزنوج ، لأننى بطبيعة الحال لا أوافق أن يقوم بين اللونين تفرقة كائنة ما كانت ، وفى الوقت نفسه لا ينبغى أن أكون ضيفاً يلدغ مضيفه بالنقد ، فضلا عن أننى أحاول أن أشعر بشعور هؤلاء وهؤلاء ، فأحسّ كيف يتألم الزنجى ، لكننى كذلك أحسّ كيف يتعذر على الأبيض أن يخضع مشاعره للمثل الأعلى بين يوم وليلة... قال الدكتور « ت » بمناسبة ضجة فى النقد الأدبى قامت حول كتاب أخرجه كاتب زنجىّ : إننا نحتفل لإنتاج الزنوج أكثر جداً مما نحتفل لمثله من إنتاج البيض ، فلو برع لاعب زنجى فى الكرة وبرع إلى جانبه لاعب أبيض ، ظفر الزنجى بمعظم التمجيد ، وكذلك قل فى ميادين العلم والأدب والسياسة ؛ ثم قال متهكما : وددت أن أكون زنجيا إن كان هذا هو حظ الزنوج ! ! وردّد النغمة نفسها مستر « ه » والقاضى « ه » .

وجاء حديث الزنوج مرة أخرى ونحن فى السيارة عائدون ، فقال الدكتور « ت » : ليس الاختلاف بين البيض والزنوج مقصوراً على البيئة والتربية ، بل هنالك اختلاف أصيل موروث ، ولهذا فهما جنسان مختلفان ، مختلفان فى كل شىء ... حتى نوع الجرائم التى يرتكبها أفراد هـذا الجنس أو ذاك تختلف ؛ فالجريمة التى يرتكبها الزنجى تختلف فى هدفها وفى وسيلتها عن الجريمة التى يرتكبها الأبيض ؛ الزنجى يقتل مدفوعا بالغضب والغيظ ، وأما الأبيض فقد يقتل لغير هذا ، هو يدبّر الجريمة قبل ارتكابها ، على حين أن الزنجى يستثار لها فيندفع

إلى ارتكابها فوراً ... لما كنت استاذاً فى جامعة شيكاجو كان البيض هناك يقترفون جرائم عجيبة ، فمثلا حدث مرة أن أمسك بعضهم رجلين عنوة وخصوهما ، لا لشىء سوى التفكه الأثيم ، أما الزنجى فيستحيل أن يقترف جريمة كهذه ؛ الأبيض قد يخطف الطفل من أبويه ويقتله ويطلب من أبويه فدية (كانت أمريكا عندئذ ترتج ارتجاجا لحادث خطف طفل من أبويه الثريين وقتله الخاطف وأخفى قتله ثم طلب من أبويه ستمائة ألف دولار فدية ، وأخذ الفدية وبالطبع لم يعد والدا الطفل يسمعان شيئاً) وأما الزنجى فليست هذه جريمته ؛ لكن حرك غيظ الزنجى يقتل . . . وفى هـذا لا بد من الاعتراف بأن الزنجى أشرف وأنبل وأشجع ؛ إنى أقول ذلك تقريراً للحق ، مع أنى لست من محبى الزنوج ، ولا أحب أن يقال عنى أبداً أننى أعطف على الزنوج ، فإننى أعتقد أن وجود الزنوج فى بلادنا هو نكبتنا الكبرى .

واستطرد الدكتور « ت » فى حديثه عن الجرائم ، فقال إن آخر إحصاء قد دلّ على أن المجرمين الشبان معظمهم من المتعلمين ، ثم سأل فى حماسة : أليس ذلك لأن طريقة التربية عندنا خطأ فى خطأ ؟ إننى الآن أكتب كتابا فى هذا ، وأضرب ضربات قاسية من النقد لنظامنا التعليمى كله ، إذ لم تعد الشخصية وتكوينها والأخلاق وبناؤها هى الهدف الهام فى تعليمنا . . .

وانتهزت فرصة حديثنا فى المجلات الأدبية ، فسألت الدكتور « ت » : أى المجلات الأمريكية فى رأيك أعلاها ثقافة ؟ فما كان من الدكتور « ت » إلا أن راح يندّد بموقف الثقافة فى أمريكا قائلا إنه حتى أرقى مجلاتنا ثقافة قد أصبح يتودد إلى القراء الأوساط فى ثقافتهم ، فيستميلهم بقصص كلها قائم على الغرائز الجنسية ... وسألتُه عن أجور النشر فى المجلات ، فما كان أشد دهشتى حين علمت أن المقالة الواحدة أو القصة الواحدة فى مجلة مثل « بوست » أو « لايف » أو « نيويوركر » قد يبلغ أجرها ثلاثة آلاف دولار ، أى أكثر من ألف جنيه

مصرى ! . . . لكن إلى جانب ذلك عرفت أن الكثرة الغالبة من المجلات العلمية والأدبية التى تعلو جداً بمستواها فيقل مدى توزيعها لا تعطى الكاتب شيئاً ، وحسْبه فخراً أن المجلة قد نشرت له ما كتب !

الاثنين ٢٦ أكتوبر :

عقدتْ اليوم ظهراً فى نادى الأساتذة جلسة لمناقشة السياسة الدولية مع زائر سياسى دعته الجامعة ، وهو مستر و . د . وهو عضو فى البرلمان الإنجليزى من حزب المحافظين ، ومراسل لجريدة الديلى تلجراف اللندنية ؛ عمره حول الأربعين وهو متكلم من الطراز الأول ؛ رجحتُ أن يجىء ذكر مصر فذهبت إلى الاجتماع مصمما أن أتدخل فى المناقشة إذا دعا الأمر إلى التدخل .

جلس فى وسط حلقة كبيرة من أساتذة الجامعة ، وجعل كل يسأله ما عنّ له من أسئلة فى سياسة العالم فيجيب مستر و . د . إجابة الخبير ، وهو ممتلىء ثقة بنفسه ؛ وحدث ما توقعتُ ، إذ سأله سائل عن الموقف فى قناة السويس ، فقال مغيظا : إنه يستحيل علينا أن نسحب قواتنا من هناك بغير بديل نطمئن إليه ، فنحن لا نثق بالمصريين ، وهم قوم متعبون يصعب الاتفاق معهم على حل معقول .. فتدخلتُ قائلا : إننى ياسيدى لست من رجال السياسة ، ولكنى مصرى أولا ورجل من رجال المنطق ثانيا ، وأحب أن أناقشك فى ألفاظك التى استخدمتها .. وأولها كلمة « الثقة » فى قولك إنكم لا تثقون بالمصريين ؛ ما معناها ؟ إننى أفهم معناها لو كان المصريون قد أخذوا من أرضكم أرضا ، وقيل لكم اتركوهم فى أرضكم ، فتجيبون بالرفض قائلين إنكم لا تثقون بهم ؛ أما أن تعتدى على أرض غيرك وتقول إننى سأظل هنا لأننى لا أثق بصاحب الأرض فقول يستحيل أن يقبله عقل سليم ، قول ينفى عن الألفاظ معانيها المألوفة . . . وأما أن المصريين « متعبون » فإنى أؤكد لك أن المصريين إذا أسفوا على شىء فذاك أنهم لم يكونوا « متعبين » بالدرجة الكافية لإخراجكم من بلادهم .

قال مستر و . د . أنا لا أعرف أين يكون الفرق بين أن تساعدنا الولايات المتحدة بقواتها ، و بين أن نساعدكم نحن بقواتنا ؟ فقلت له : إن الفرق هو كالفرق بين الأرض والسماء ، فقد اخترتم أن تساعدكم الولايات المتحدة وأما نحن فلم نختر مساعدتكم ، وفى حرية الاختيار يكون الفرق بين الحر والعبد ؛ فسكت ونظر إلى قدميه ، وقال : نعم ، أظن أن هذه نقطة جديرة بالنظر ... ولما انفض الاجتماع جاءنى مستر و . د . يصافحنى قائلا : إننى لا أعتذر إليك ، لكننى أحييك وأقول لك إننى كنت أعرف أن مصريا موجوداً بين الأساتذة ، فلما سئلتُ عن مصر أردت أن أكون صريحا ، فأقول فى حضوره ما كنت أقوله فى غيابه ؛ وأكد لى أنه ربما وصل الفريقان إلى اتفاق عما قريب .

الخميس ٢٩ أكتوبر :

لماذا أتتبع أخبار الطفل المريض الذى جلس أبوه إلى جوار المستشفى ينظر إليه خلال النافذة ؟ لماذا يشتد حزنى هذا الصباح إذ قرأت أن الطفل قد مات ليلة أمس بعد أربعة عشر يوما أنفقها أبوه على كرسىٍّ فوق طوار الشارع لا يعبأ بجوع أو برد ؟ . . هل يمكن أن يكون مثل هذا الوالد من شعب يعبد « الدولار » ؟ ألا ما أظلم الناس فى أحكامهم على الناس .

نعم لبث الوالد المزارع فى المدينة إلى جوار ابنه المريض ، لا يعود إلى مزرعته بل لا يكاد ينتقل عن كرسيّه الذى وضعه فى العراء لينظر إلى ابنه ، لأن ابنه طلب إليه ألا يتركه ، وكان متعذراً على الوالد أن يدخل معه فى غرفته ، فجلس على الطوار ينظر لا يكاد يأكل أو ينام . . ولما نشر فى الصحف نبأ هذا الوالد ، جاءت إليه تبرعات كثيرة منوعة ، فتبرع متبرع بمقعد طويل مريح يستلقى عليه الوالد ثم يؤول إلى المستشفى بعد ذلك للحالات الشبيهة بحالة هذا الوالد ؛ وتبرع مطعم بتقديم الوجبات للوالد مدة إقامته فى المدينة ؛ وتألفت جماعة تتناوب الجلوس مع الوالد

للتسرية عنه ، وتبرع آخر براديو . . . الخ الخ . هذه نزعة إنسانية فيها شبه كبير بعواطفنا الشرقية الحادة ، لـكنها تزيد على عواطف الشرقيين بكونها تنتقل إلى المعونة العملية ولا تـكتفى بالتعبير اللفظى الذى لا يغنى من برد أو جوع .

لـكن يشاء الله أن أرى إلى جانب هذه العاطفة الإنسانية النبيلة عاطفة أخرى خسيسة دنيئة ، تتجلى فى حكم أصدره اليوم قاضٍ على قاتل أبيض قتل زنجيا ؛ حكم القاضى على القاتل (الأبيض) بالسجن سنتين لأنه قتل ذلك الزنجى ، ولست أريد أن أعلّق على عدم التناسب بين العقوبة والجريمة فقد لا يكون ذلك من شأن رجل لم يدرس القانون ولم يدرس تفصيلات الموضوع ؛ لـكن الذى يدعو إلى العجب الشديد هو « حيثيات » الحـكم كما نشرت فى صحيفة اليوم ، إذ جاء فى الحيثيات ما تأتى ترجمته بالحرف الواحد :

« إننى أحكم على فلان بالسجن سنتين ليتعلم درسا وهو ألا يخالط الزنوج ؛ لقد خلقنا الله مختلفين ، فلماذا نسلك كما لو لم يكن بين الناس اختلاف ؟ لقد كان فلان يستطيع أن يجد من أمثاله البيض من يقضى معهم وقت الفراغ والتنزه » ... ومعنى ذلك أن القاضى لا يعاقب المجرم القاتل على جريمته ، بل يعاقبه على شىء آخر وهو أنه اختلط مع زنجى ، فهذا عند القاضى أخطر من القتل ! ترى بماذا كان يحكم هذا القاضى نفسه على زنجى قتل رجلا أبيض ؟ !

الجمعة ٣٠ أكتوبر :

ذهبت إلى نادى الأساتذة فى الفترة التى تقع بين المحاضرتين ؛ وأخرج الدكتور « ك » استاذ تاريخ القانون من جيبه قصاصة ، وقرأها للحاضرين ، وإذا هى الحـكم الذى أصدره القاضى على القاتل الأبيض الذى قتل زنجيا فحـكم القاضى عليه بالسجن عامين ، وقال فى تبرير الحـكم إنه قد قضى بسجنه ليعلمه درسا ألا يختلط بعد ذلك بزنجى .

فدار الحديث بين الأساتذة حول التفرقة بين البيض والسود ؛ وهو موضوع حساس يشغل الناس هنا كبيرهم وصغيرهم ، ويستحيل أن يذكر هذا الموضوع أمامى إلا وأظل صامتا لا أنبس بحرف واحد . . . وعرفتُ من حديث الأساتذة ما اشتد له عجبى ، إذ عرفت أن من تقاليد الصحف المحلية هنا ألا تنشر صورة لرجل أسود أو امرأة سوداء ، وألا تذكر زنجيا أو زنجية بلقب « السيد فلان » أو « السيدة فلانة » .

قال الدكتور « ك » وهو ساخط على هذه التفرقة : إننى أذكر أن رجلا أبيض كان مخموراً فدخل على امرأة زنجية فى دارها وقضى معها الليل ؛ فلما افتضح أمره فى الصباح ، أطلق البوليس على التهمة « إخلالا بالأمن » وحكم على الرجل بغرامة بضع دولارات ؛ أما إذا حدث العكس ، فدخل رجل زنجى على امرأة بيضاء فى دارها ، فالجريمة عندهم يكون اسمها « اغتصابا جنسيا » ويكون الحكم فيها بالإعدام !

وقال الدكتور « ك » بعد ذلك : قولوا ما شئتم أما أنا فتؤذينى هذه التفرقة فى العدالة ، ولا بد أن تسوى العدالة بين الجميع . . . لكن بقية الأساتذة كانوا أميل إلى الاعتراف بالفوارق القائمة بين البيض والسود ، وإن يكن معظمهم كان يخفف القول بزعمه أن الأمر مرهون بالزمن ، وأن الحال يزداد صلاحا والفوارق تزداد زوالا على مرّ السنين .

كان منتصف الساعة الثامنة مساء موعدى مع السيدة « ج » أرملة العالم الأثرى الأستاذ الدكتور « ج » — وقد كان مديراً لمعهد الآثار الأمريكى وأستاذاً للدراسات القديمة فى جامعة نيويورك ، ومؤلف كتاب « الفؤوس السحرية » — فقد دعتنى كما دعت الأب « م » وزوجته . . .

ضغطنا على جرس الباب الخارجى ، فلاحظتُ أن صوت الجرس الذى أسمعه يدق داخل الدار ليس كسائر أجراس البيوت ، بل هو أقرب إلى أجراس المدارس ؛

وجاءت سيدة فى الخامسة والثمانين من عمرها ففتحت لنا الباب ، وهى السيدة «ج» التى تقوس ظهرها ؛ وعيناها واسعتان عليهما شبه غشاء من ماء ، و يداها مرتعشتان .

وأول ما يصادف الداخل إلى دارها أجراس معلقة على حائط البهو فى هيئة عقود كبيرة ، مائة جرس على الأقل أشكالا وألوانا ، فهذا من نحاس وذلك من حديد ؛ هذا أصفر وذلك أزرق ؛ وقفت بنا عند هذه الأجراس وأخذت تقول : أننى أحب الأجراس ، اشتريت هـذا الجرس فى روما ، وكان هذا الجرس معلقا فى لجام جميل عند أهرام الجيزة فى مصر ، وهذا الجرس كان هو جرس بيتنا أيام طفولتى ، وهذا وهذا وذلك . . إننى أحب الأجراس ! كنت فى روما أعلق عقود الأجراس على فروع الشجر أمام شرفة منزلى ، فـكلما هب الهواء واهتزت الفروع سمعت رنين الأجراس أنغاما مختلفة جميلة ؛ إننى أحب الأجراس . .

ودخلنا بعد ذلك غرفة الجلوس إلى يميننا ؛ كل المقاعد خشبية غليظة متينة ، و بها منضدة من خشب غليظ متين كذلك ؛ فهذا المقعد كتلة خشبية وضعت على ثلاث قوائم تركت على صورة فروع الشجرة التى لم ينجرها قادوم أو مسحاة ، صنعته السيدة « ج » بيدها من أشجار حديقتها ، وذلك المقعد قطعة من جذع شجرة لا قوائم لها ؛ وهكذا ، وراحت السيدة تقص علينا تواريخ مقاعدها واحداً واحداً ، أين صنعته وكيف صنعته ، وتعلّق تعليقات عاطفية نحو أثاثها كلما قصت علينا تلك التواريخ ، فهى تحبّ هذه المنضدة وهى تحنو على ذلك المقعد ، وذلك الـكرسىّ عزيز عندها .

وجدران الغرفة مليئة « بالمعلّقات » صنوفا غريبة : أطباق ملونة وصور وتحف ومصابيح . . . وخرجنا من غرفة الجلوس لندخل غرفة مقابلة لها هى المطبخ وفيه مائدة الطعام ؛ وقفتْ السيدة « ج » وعلى كتفيها خمسة وثمانون عاما ، وأمسكتنى من ذراعى وقالت : فى هذه الغرفة حياتى ، فها هنا أعمل وها هنا أطعم وها هنا أقرأ وها هنا أعيش .

وتنظر حولك فى هذا المطبخ فترى العجائب ، حتى لا يسعك أحيانا إلا أن تضحك من كل قلبك ؛ وابدأ من الباب : فقد كتبتْ السيدة « ج » على باب مطبخها — أعنى على خشب الباب نفسه — وَصْفاتٍ لأكلات ؛ ووقفتْ تشرح لى لماذا ملأت الباب بهذه الكتابة الفريدة فى نوعها ، فهى تقف أمام الفرن هكذا وتلتفت بوجهها هكذا دون أن تتحرك ، فترى كم من الدقيق تضع وكم من السُّكَّر أو البيض أو اللحم ؛ فلماذا لا أوفر على نفسى عناء كتاب أفتحه كلما أردت الكشف عن شىء أثناء الطهى .. وانظر إلى نافذة المطبخ تجد عند قمتها رفا رُصَّتْ عليه عشرون زجاجة صغيرة مختلفة الشكل ، وكلها ملىء بالزيت ؛ فتسألها : هل هذه صنوف مختلفة من الزيت ؟ فتقول : لا ، كلها نوع واحد ؛ إذن لماذا تضعين الزيت فى هذا الصف الطويل من زجاجات صغيرة ؟ فتجيب : لأنى أحب شكلها هكذا صفا من زجاجات .

لم تكن السيدة « ج » فى عينى حتى الآن سوى امرأة كهلة أقرب إلى البلاهة وربما أصابها شىء من الخرف ، لكن سرعان ما خاب ظنى ، فلم ألبث أن رأيت فيها امرأة من عجائب البشر :

هيا بنا نصعد إلى الطابق الأعلى ؛ فتصيح بنا السيدة « ج » : احذروا السلّم ؛ كل منكم يَعُدُّ خمس عشرة درجة حتى لا يعثر فيقع ؛ صعدنا فوجدنا أنفسنا فى ممر يفصل غرفتين ، أما يمناها فمكتب ومكتبة غاية فى حسن الذوق وخصوبة المحتوى ، جدران الغرفة الأربعة مغطاة من أسفلها إلى أعلاها بخزائن الكتب ورفوفها ، والمكتب موضوع فى وسط الغرفة فى وضع مبتكر ، وعليه كتب ومجلات تدلّ على أن يدا كانت تقلّب فيها منذ دقائق ؛ وأما يُسْراها فغرفة للجلوس على جدرانها صور فنية رائعة ، وقفنا ننظر فى إعجاب ، فلاحظت من الحديث أنها قد تكون من تصويرها هى ، فأردت التأكد وسألت : تصوير من هذه ؟ قالت السيدة إنها لى ؛ وهذه ؟ وهذه ؟ وتلك ؟ ... إذن فالسيدة « ج » فنانة ،

وبدأت انظر إليها هذه النظرة ، فعرفتُ لماذا علقت عقود الأجراس عند مدخل دارها ، ولماذا جعلتْ مقاعد غرفة الاستقبال فى الطابق الأسفل من جذوع الشجر وفروعه ، ولماذا رَصَّتْ زجاجات الزيت صفا طويلا ! إنها انحرافات فنانة لا تحيا بالمألوف المعروف ، بل تريد أن يكون طابعها متميزاً فى كل جزء من حياتها ، حتى فى التوافه ؛ وتلك هى فردية الفنان وشخصيته .

لكن السيدة « ج » لم تكن فنانة فحسب ، فما هو إلا أن كشفت فيها عن جانب آخر ، فهذا مجلّد ضخم قوامه قصاصات من صحف ألصِقَتْ على نحو جميل فوق ورقات سوداء ؛ هى مقالاتها التى أمدت بها الصحف والمجلات ؛ ولم يكن أمامى فرصة لقراءة شىء منها ، لكنى اكتفيت بقراءة العنوانات وهذه وحدها كافية للدلالة على أنك إزاء كاتبة تنشد فى كتابتها — كما تنشد فى تصويرها وفى أثاث بيتها — الطابع الفريد المميز .

بعد قليل من حديث ، طفقت السيدة تقصّ علينا من ماضى حياتها : كانت قد تقدمت بى السن بغير زواج ، وقلق علىّ أهلى ، وكان زوج اختى يأتينا بضيف آنا بعد آن لعل الضيف أن يتحول إلى خاطب ! فكنت أقابل هذه المحاولات بالمقاومة الشديدة والعناد الشديد ؛ وذات يوم جاءنا بضيف ، وركبتُ رأسى ألا أحضر استقباله لأن لدىّ موعداً آخر لم أرد تفويته على نفسى ؛ فرجانى زوج اختى أن أبقى معهم ساعة واحدة ؛ ودخلت الغرفة — غرفة الضيوف — والعفاريت تملأ نفسى ورأسى ، فإذا أنا أمام رجل ، لا أقول إنه جميل ، ولكنى أقول إنه رجل ! هذا هو « ر » هذا هو زوجى ؛ كان « ر » عندئذ استاذاً للدراسات القديمة فى جامعة نيويورك فقلتُ فى نفسى : هذا محال ! محال أن يقبلنى « ر » زوجة له ، أين أنا منه ؟ لقد بلغ الرجل قمة العلم ، وأما أنا ؟ ! أنا امرأة لا تعرف رأسها من قدمها ؛ لكنى ماذا أقول ؟ لقد تمت المعجزة وتزوج منى « ر » ، إننى فى عجب ، لم أنقطع طول حياتى معه عن العجب ، ولا أذكره بعد موته إلا ويعود

إلىّ العجب : كيف كنت زوجة لـ « ر » ؟ لـكنى كنت جميلة ، إنسكم الآن تقولون فى أنفسكم : كاذبة ؛ إنسكم الآن تضحكون فى أنفسكم ؛ افعلوا ما شئتم مع أنفسكم ، لـكنى كنت عندئذ جميلة ... ذهبتُ مع « ر » إلى نيو يورك ، وكنت قد أخلصتُ له قبل الزواج كل الإخلاص ، إذ كاشفته بشعورى ، فأطلعته على دهشتى من قبوله لى زوجة له وهو العالم وأنا الجاهلة ، وقلت له . إنى سأعطيك عاما كاملا تتردد فيه ، إننى قد قطعت بقبولك زوجا لى ، لـكنى أظلمك لو أصبحت زوجة لك ... غير أن « ر » أتمّ الزواج رغم هذا كله ؛ تزوج منى « ر » وذهبت معه إلى نيو يورك وسكنت معه بيتا جميلا ؛ كان أول ما فعلته فى البيت أن طليتُ بابه باللون القرمزىّ ، طليتُه بيدى ، فهل تعجبون إذا علمتم أن أصحاب المنازل كلها على طول الطريق سرعان ما قلدونا وطلوا أبوابهم باللون نفسه ؟ الحق إنه كان لونا جميلا . . . والله إنى لفى عجب كيف تزوج منى « ر » لـكنه تزوج منى ، وكنت جميلة عندئذ ... كنت انظر أمس إلى ولدى (لها ولد شاب عمره فوق الثلاثين وهو مهندس) وأتفرس فيه ، فصاح قائلا : لماذا تنظرين إلىّ هكذا ؟ فقلت له : إنى لا انظر إليك يا أحمق ، أنا أنظر إلى أبيك فى وجهك ؛ إننى أحببت « ر » وسأحبه إلى أن ألتقى به بعد موتى ؛ لو قيـل لى إن « ر » سيلقانى بعد الموت حقا ، لمتُّ الليلة لألقاه ؛ إننى ما زلت فى عجب كيف تزوج منى « ر » !

وبعد أن مضتْ السيدة « ج » على هذا النحو تقصّ علينا قصة زواجها ، نظرتْ إلىّ قائلة : سمعتُ أنك أعزب ، اسمع نصيحتى ، أنا لا أكذب ، إننى أقولها لك قولة حق وصدق صادرة من هنا (وأشارت بيدها إلى قلبها) تزوج ! تزوج غدا ، بل تزوج الليلة ، بل تزوج الآن ! إنك إذا ما تزوجت شعرت بندم على كل سنة قضيتها بغير زوج ؛ ستندم على كل يوم ، على كل ساعة ! آه ، إنه إذا كان الزواج هو ما رأيتُه مع « ر » فهو النعيم بعينه ؛ وجدت سعادتى مع « ر ».

هنا قالت السيدة « م » عنى إننى أظن أننى كهل قد فاتنى سن الزواج ،

عمره ثمانية وأربعون ويظن أنه كهل ! فقالت السيدة « ج » ؟ ثمانية وأربعون هى السن التى تعرف فيها كيف تحب يا أبله ! قلت لها : وكم يكون سنّها هذه التى أتزوج منها يا سيدة « ج » ؟ فقالت فى صوت المتعجبة : كم يكون سنّها ؟ اسمعوا هذا الرجل ؟ إنها هى المرأة التى تحبها ولا تسأل بعد ذلك كم سنّها ؛ ولكنى أؤكد لك أنك ستحبها صغيرة ، فلا تُبَالِ صغرها ، لا تبال إلا شيئاً واحداً ، وهو قلبك ، أنصتْ إلى قلبك جيداً ، إلى قلبك وحده . . تزوج ! وستندم على أنك لم تتزوج قبل الآن ، ستندم على كل لحظة فاتتك بغير امرأة ! قل لى بحق السماء : ماذا تريد من حياتك أمتع من امرأة تحبها وتعيشان معا ، تتحدثان ، تضحكان معا ، ثم ... ولا تنس أبداً هذا الذى سأقوله ... ثم تعتركان ! نعم ما كان ألذ اعترا كى مع « ر » ؛ عراك الزوج ممتع ، ممتع ، أين أنت الآن يا « ر » لنعترك ونتشاتم ونملأ الدنيا صياحا ؟ ! تلك هى جنة الفردوس بعينها !

وبعد حديث طال ، قلنا : نقوم ، فقالت السيدة « ج » : أتقومون ولم تروا صورة « ر » ؟ وتركتنا ثم عادت ومعها صورة لزوجها الراحل .

السبت ٣١ أكتوبر :

دعينا لنقضى اليوم فى مزرعة على بعد خمسين ميلا ، هى مزرعة شقيق السيدة « م » التى أسكن فى دارها ؛ وكان معنا الأب « م » وسيدتان أخريان : مزرعة فسيحة ، مساحتها نحو ألف وخمسمائة فدان ، كثير منها مزروع قطنا ؛ ومنزل الداعى فى وسط المزرعة ، فليس له جار على مدى البصر . . نزلنا من سيارتنا أمام الدار ، وقبل أن ينفتح لنا الباب ، جاءتنا فتاة فى نحو الرابعة عشرة من عمرها تركض على جوادها ، ونزلتْ مسرعة من على ظهر جوادها وحيّتْ مرحِّبة بنا . .

جاء أهل الدار يستقبلون : السيد والسيدة ، وابنتهما وزوجها ، ثم طفلة فى

التاسعة هى البنت الأخرى من الحفيدتين الجميلتين ، هما أجمل ما ترى العين أو يتصور الخيال .

جلسنا كلنا فى غرفة جلوس فسيحه هى أول ما يدخل إليه الداخل ، ومع أن الجو أقرب إلى حرّ الصيف منه إلى برد الشتاء ، أو هو جو خريفىّ جميل ، قالوا : إنها برد فلنوقد نار المدفأة !

إننى فى هذه الدار فيما يشبه الحلم ، فأين أنا الآن ؟ أأنا فى منزل مزارع أم فى قصر ملكىّ صغير ؟ ما هذا الأثاث الفاخر وما هذا الذوق الفاتن وما هذه الرقة كلها والظرف كله ؟ ! وكيف تكون هذه هى دار رجل هو شقيق السيدة « م » زوجة القسيس ، التى تعيش عيشا فيه كثير من الشظف بالنسبة للشعب الأمريكى ؟

أخذوا يتحدثون بعضهم مع بعض فى شئون يعرفونها ولا أعرفها ، فظللت صامتا وسرعان ما أحببت أن أظل صامتا ، وتمنيت ألا يشركونى فى حديث حتى لا أنطق بشىء ، لكنهم كانوا آنا بعد آن يوجهون إلىّ سؤالا عن مصر فأجيب فى إيجاز .

فى المزرعة حظيرة لتربية الديكة الرومية ، فيها ثمانية آلاف من هذه الديكه ، أخذونا لها بعد الغداء ، فركبنا سيارتين ، و إذا بى إزاء منظر لم آلفه . أضحكنى ... فهى أرض فضاء فسيحة ، وحولها أكواخ صغيرة وطيئة ؛ وما كادت السيارتان تصلان إلى سور الحظيرة حتى تجمع جمهور الديكة الرومية ، تكركر معا فى صوت واحد ، وعلى وجوهها علامات الانفعال والغضب ، فإذا ما ضربت إحدى الفتاتين الصغيرتين نفير السيارة ، هرول الديكة فى اختلاط واضطراب ، فرارا وسعيا للامن ، لكنها سرعان ماتعود من جديد فتتجمع لتكركر معا فى صوت واحد وعلى وجوهها علامات الانفعال والغضب . . . ولأمر ما تشبث برأسى خيال عجيب ضحكتُ له وحزنتُ له ، وهو أننى شبهت ما أراه بمظاهرات الطلبة فى مصر ! فالديكة تتزاحم نحونا صائحة فى غضب كما كان يتزاحم الطلبة أحيانا نحو رجال الشرطة و يهتفون

فى غضب ؛ ونضرب لها النفير فتعدو خائفة فى اختلاط واضطراب كما كان يحدث لمظاهرات الطلبة أحيانا حين يحرك لهم رجال الشرطة عصيهم فى الهواء ، وتعود الديكة فتجتمع لتصيح فى غضب وانفعال كما كان الطلبة يعودون .

المشرف على حظيرة الديكة الرومية هو زوج البنت ، وهو شاب فى ثلاثينه أو نحوها ، كان محاميا ، وذهب إلى الحرب ، وعاد مصمما أن يتفرغ للمزرعة والحظيرة . . قلت له : إنه مما يلفت النظر أن الفراخ الرومية هى أغلى أنواع اللحم عندنا فى مصر ، وألاحظ أنها أرخصها عندكم ؛ فتعجب لماذا يغلو ثمنها عندنا ، ما دامت أقل مصادر اللحوم نفقة ، ذلك أن المقدار الواحد من الطعام يعطى للفراخ الرومية وللدجاج — مثلا — ينتج مقدارا من اللحم فى الفراخ الرومية أكثر مما ينتج فى الدجاج ... قلت فى نفسى : هذا تفكير غربى أمريكى أين عقولنا منه ؟

الخميس ٥ نوفمبر :

خرجتُ تحت المطر إلى الغداء فى المطعم القريب ، ولم أجد مكانا على مائدة ، والمكان الخالى الوحيد هو إلى جانب النضد العالى ذى المقاعد العالية غير ذوات الظهور ؛ فجلست هناك ، وكنت ، عندئذ على مقربة ممن يُعِدُّون الطلبات ، فأمعنت النظر فى هذه السرعة الخاطفة التى يؤدى بها هؤلاء الناس أعمالهم : أمامى رجل يُعِدُّ لحما مشويا فى شطائر ، فكأنما ذراعاه متصلتان بأسلاك كهربائية ، لا يقف عن الحركة ثانية واحدة ، ولا يتحرك حركة بغير فائدة ؛ يقلِّب قطع اللحم على النار ثلاثا ثلاثا ، ثم ينحنى بسرعة البرق يقطع الخبز ثم يعود فيقلب قطع اللحم ثلاثاً ثلاثاً ، ثم ينحرف يمينا يقطع الطماطم بالسكين فى حركة لا تكاد تتبعها العين بسرعتها ، وإلى جانب هذا كله يكلمه الزبون الذى يجلس بجوارى ، فيرد عليه ، ويضحكان ، والظاهر أنها كانت نكتة وردّها ، لكنى لم أفهم لا النكتة ولا ردّها ... وانظر إلى هؤلاء الفتيات المناولات ، كلهن فى ثياب بيضاء ، وقتهن

بالثانية ، أو بجزء من الثانية ، يسمعن منك الطلب وهن ينزلقن مع الهواء ، يكتبن ما يطلبه هذا الزبون وهذا وذلك دفعة واحدة . . تذهب المناولة لتعود و بخبطة واحدة على النضد تضع أربعة أكواب من الماء أمام أربعة من الزبائن ، و بخبطة تالية على النضد تضع أربعة من فناجين القهوة ، و بحركة واحدة كأنها تبعثر حبًّا تقذف أمام الزبائن الأربعة على النضد بأربعة لفائف ، كل لفيفة قوامها فوطة ملتفة على شوكة وسكين وملعقة . . . فلا عجب أن يدخل هذا المطعم الصغير ساعة الغداء مئات و يخرجون فى غير ضجة ولا إبطاء . . والمطاعم هنا كلها تقريبا على غرار واحد من التأثيث ، فهى مؤثثة على هيئة مقصورات عربات القطار .

كنت قد ألفت هذا المطعم أول حضورى إلى هنا ، أرتاده كل يوم ، ثم انقطعت عنه حينا إلى سواه ، ثم عدت إليه منذ ثلاثة أيام ؟ فكان استقبال صاحبته لى ترحيبا حارا خجلت له ، وسألتنى أين كنت هذه المدة ؟ فكان جوابى لجلجة صوتية فى غير ألفاظ . . صاحبة المطعم على شىء من بدانة الجسم ، لاتزيد عن الخامسة والثلاثين ، أو قل إنها قاربت الأربعين ؛ بشرتها غاية فى الصفاء ، وردية اللون ، فلاهى بالبيضاء الشاحبة ولا هى بالمتقعة فى أحمرارها ، وهى تتميز عن المناولات بلون ثوبها . . هذه السيدة البدينة تنسلّ بين الموائد كأنها النسيم ، و بعين لماحة تكمِّل الموائد بما ينقصها ، ثم تجرى كأنها الريح إلى حيث تقبض النقود من الخارجين . . . إن دراسة مكان واحد كهذا ، ومقارنته بما يقابله عندنا ، كافية للدلالة على الفرق بين شعب وشعب .

الجمعة ٦ نوفمبر :

تحدث إلىّ طالب من طلبتى حديثا طويلا ، فقال فيما قال : إنه سيدرس القانون تحقيقا لرغبة أبيه ، لـكنه فى الواقع لايميل أبداً إلى حياة تضعه على مكتب وأمامه أوراق وكتب ، ثم قال : انني مصمم منذ الآن على أن تكون لى مزرعة ؛

إن لأبى مزرعة فسيحة ، وأنا أحب العيش فيها ، وأتشوق إلى عطلة الأسبوع لأقضيها فى رحابها ، أصيد الطير .. هل عندكم فى مصر طير وصيد ؟ قلت : قليل ، وذلك فى منطقة البحيرات الشمالية على الأغلب ، فقال : إنى أود أن آتيك بمجموعة من السمّان الذى أصيده هذا الأسبوع ، نظيفة معدَّة للطهى إذا كان لديك استعداد للطهى ، فشكرته معتذرا لانعدام وسائل الطهى فى سكنى ؛ قال لى عن أبيه إنه درس القانون واشتغل بالمحاماة حينا ، ثم تركها وتفرغ لمزرعته ؛ وقد كان أول الأمر يزرع القطن ، ثم تبين له أن ربحه قليل ، فقلب أرضه كلها مرعى للماشية لأنها أكثر ربحا ؛ وراح يشرح لى تفصيلات كثيرة عن تربية الماشية على وجه مربح .

ودهشت حين سألنى هذا الطالب أسئلة نافذة رأيتُها أكثر من سنّه ، ومنها هذا السؤال : هل المعونة المالية التى تغدقها الولايات المتحدة على العالم كمشروع النقطة الرابعة وما إليه ، تثير الحب بقدر ما تثيره فى النفوس من بغض وحسد ؟ . . وعقّب على ذلك برأيه ، وهو أن تكفَّ أمريكا عن هذه السياسة الخارجية لأنها — فى رأيه — تهريج كثير لا ينطوى إلا على لباب ضئيل .

مما قرأته اليوم وأسكرنى بالمتعة الفنية ، مقالة أدبية فى مجلة بوست لهذا الأسبوع ، عنوانها : « إذن فأنتما متخاصمان ؟ ! » فيها تحليل من أبدع وأروع وأجمل وألذ ما يمكن أن يكتبه كاتب فى الدنيا عن موقف الزوجين حين يتخاصمان ، لا يكلم أحدهما الآخر ، ومع ذلك يقضيان شئون الحياة من زيارات واستقبالات وغيرها من أوجه النشاط الاجتماعى . . يسأل الزوج صديق له : وكيف يا أخى تطيق العيش مع زوجتك بغير كلام طول هذه الأيام ؟ فقال الزوج : ولم لا ؟ ليس هناك أكثر إغاظة لخصمك من صمتك عنه ، على شرط أن تفعل ذلك وأنت مالك لزمام أعصابك فلا غضب ولا انفعال ؛ قال الصديق : لكن العبوس المستمر سيؤول بك إلى حال أقرب إلى الغلظة البدائية ، فأجاب الزوج : حذار أن تخلط بين حالتين : الخصومة من ناحية ، والعبوس من ناحية أخرى ؛ فالصمت

عن الحديث لا يستتبع حتما حالة العبوس ؛ أنا وزوجى لا يعبس أحدنا فى وجه الآخر أثناء الخصومة التى ينقطع فيها كل منا عن التحدث إلى الآخر ، وفى هذا يقع الفن كله . . . هى قطعة أدبية ممتازة ، و إنى لأشعر بالحسرة كلما وقعت على أمثال هذه الآيات الأدبية المبتكرة ، لأننى عندئذ أستعرض أدبنا وأدباءنا ، فأسأل نفسى : هل يصنع هؤلاء — كبيرهم وصغيرهم على السواء — سوى أن يقرأ الواحد منهم كتابا أو جزءا من كتاب ، قديما كان هذا الكتاب أو حديثا ، ثم يعلّق أو يلخص أو ينقد ؟ . . لقد حرمنا الله نعمة الابتكار ، وكان الله بالسر عليما .

كذلك قرأتُ فى مجلة « لايف » مقالا مصوراً له دلالته ، مؤداه أنه قد حدث فى مدينة شيكاجو أن سكنت أسرة زنجية فى عمارة بقية سكانها بيض ؛ كان هذا بالطبع يستحيل حدوثه فى ولاية جنوبية مثل كارولاينا الجنوبية التى أقيم فيها ، لأن ولايات الجنوب تمنع ذلك الاختلاط بقوة القانون ، أما فى الشمال فالقانون لا يمنع شيئا ، غير أن القانون شىء ومشاعر الناس شىء آخر ؛ فالبيض الذين يسكنون العمارة قد أغاظتهم جرأة هذه الأسرة السوداء ، فأخذوا يقذفون أفرادها بالطوب والطماطم كلما خرجوا من البناء أو دخلوا ، وحطموا لهم زجاج نوافذهم ، مما اضطر الأسرة الزنجية أن تسد نوافذها بألواح مسمّرة من خشب . . وأقامت الحكومة حراسة قوية من الشرطة لتحمى هؤلاء السود من اعتداء البيض . . .

إن مشكلة الزنوج فى أمريكا نكبة نكب بها الأمريكيون وليس لهم منها خلاص ، فألف عام لن تكفى للفوارق أن تزول زوالا تاما ؛ ولقد مجدتُ فى نفسى تلك الأسرة الزنجية التى صممت ألا تتحول مهما لاقتْ من إيذاء ، فبمثل هذه الشجاعة ، و بمثل هؤلاء الروّاد تتقدم الإنسانية نحو الكمال .

السبت ٧ نوفمبر :

قضيت الصباح فى غرفتى ، وهممتُ بعملِ فنجان قهوة لنفسى ، و إذا بالسيدة « م » صاحبة الدار تطل من الباب ، فقلت لها تعالى إلى فنجانٍ من القهوة ، فالقهوة على النار ؛ فجاءت وجلست ، وراحت تقول : لستُ عالمة نفس ولا أنا دارسة للفلسفة ، لـكننى أدركت أى نوع من الناس أنت ؛ ففيك طبيعة الراهب ، وإنك لتستمتع بضرب نفسك بالسياط ؛ إننى منك لفى عجب ، فأراك تصيب الرأى وتُحسن المشورة كلما طلبت منك رأيا أو مشورة ، وأما فى حياتك أنت فقد ضللت الطريق ، ولم تعرف كيف تعيش ؛ إنك تخاف الناس وتخشاهم (هنا تذكرت السيدة « أ » فى مصر إذ قالت لى بالحرف الواحد : إنك تخاف الناس فتنعزل) ؛ ولقد حَصَّنْتَ نفسك بدرع من حديد ضد النساء ، بعـد ما أصابك فى حبك الأول ؛ قلتُ لها : لم يكن فى الأمر حب على النحو الذى تتصورين ، ولو أننى أعترف بأنه قد كان لذلك الحادث أثر عميق فى نفسى ، ومن يدرى ، فلعلنى لا أزال حتى اليوم متأثراً به ؛ والذى أحدث ذلك الأثر كله ، هو أن الحادثة جعلتنى عندئذ موضع انتباه وموضوع حديث ، وهو ما يحطم شخصيتى تحطيما ، لأننى بطبعى أحب أن أمضى فى طريقى غير ملحوظ من الناس .

وجاء وقت الغداء وذهبت إلى المطعم القريب ؛ فحدث أن ارتعشت يدى وأنا أشرب القهوة هناك وانسكب الشراب على ثيابى ، فكان لهذا الحادث الصغير وقع شديد فى نفسى ؛ ولم يكن ذلك لأن ثيابا قد تَلِفَتْ ، بقدر ما كان لحزنى الشديد على هذه الشخصية الغريبة التى تزداد معى بصورة مخيفة : شخصية الخائف المنـكمش المضطرب ؛ فماذا أصنع لأستردّ الثقة فى نفسى ؟ لست أدرى . . .

وكان العميد « ن » قد دعانى إلى عشاء فى منزله الليلة ؛ فوجدت منزله عامراً بالزائرين من رجال الجامعة ، من مدير الجامعة فنازلا ؛ ووزعت علينا أطباق الطعام

ونحن فى مقاعدنا ، فيضع الآكل طبقه على ركبتيه ؛ ولم أكن قد نسيت ما حدث لى أثناء الغداء ، لذلك كنت أتحرك كل حركة بحساب خشية أن يحدث لى شىء كهذا فى ذلك الجمع الموقّر .

ولما فرغنا من العشاء ، قرأ أستاذ للاقتصاد بحثا عن اقتصاديات الروسيا اليوم وما حدث فيها من تحول ؛ وقد أجاد الأستاذ إجادة استدعت إعجاب الجميع ؛ وأهم نقطة فى بحثه هى أن الروسيا فى عهد ما لنكوف الحاضر أخذت تحول جزءاً من مجهودها الاقتصادى نحو إنتاج الأدوات للاستهلاك المحلى ، حتى يرتفع مستوى العيش فى الشعب ؛ وهذا هو ما دعا تشرشل أن يقول فى الأسبوع الماضى إن روسيا قد أخذت تهتم برفاهية شعبها ، مما يجعلنا نظن أن احتمال وقوع الحرب قد نقص .

بدأ الاجتماع بأن أعلنوا وجودى ، ووقفتُ وصفق الحاضرون ؛ وكذلك حين بدأت المناقشة بعد إلقاء البحث ، كنتُ أول من طُلب إليه أن يعلّق مع أننى لم أطلب الكلام ؛ فتأثرت لهذا التقدير من قوم قيل لى عنهم قبل مجيئى إليهم إنهم عَبَدَة « الدولار » . !

الأربعاء ١١ نوفمبر :

جاءت السيدة « ش » اليوم إلى المحاضرة مصحوبة برجل فى نحو عمرها — الثلاثين — وفى نهاية المحاضرة قدمته لى ، فهو زوجها ضابط فى مستشفى عسكرى ، ولا أدرى إن كان طبيبا هناك أم شيئاً آخر ، لأنه قال ما دلّ على أنه ليس بطبيب ... إننى أكذب على الله إذا لم أعترف بأننى معجب بها ؛ معجب بذوقها فى ثيابها وفى أقراطها التى تغيّر فيها وتبدّل ، وكلها مختار على نحو يبرز الأنوثة فيها إبرازاً شديداً ... قالت لى اليوم : إنك حين تشرح الفلسفة اليونانية لكى تستعين بشرحها على بسط الفلسفة الإسلامية فإنما تقدم لنا الفلسفة اليونانية

فى ضوء لم نألفه ، فتصبح تلك الفلسفة أقوى ما تكون وضوحا ؛ و إننى لأعدّ نفسى مجدودة أن أسمع منك هذه الشروح ، لأننى أشعر كأنما أدرس الفلسفة لأول مرة (هى حاصلة على الدرجة الجامعية فى الفلسفة وتعدّ نفسها لدرجة الأستاذية فيها) . . . كاد رأسى يطير فى السماء من غروره ، فما أشهى أن أسمع الثناء من السيدة « ش » .

الخميس ١٢ نوفمبر :

قرأت فى مجلة پوست لهذا الأسبوع مقالا عنوانه « أغرب سكة حديدية على وجه الأرض » وهو عن خط حديدىّ مُدَّ فى شبه الجزيرة العربية بين الظهران والرياض (على ما أظن) . الفكاهة تشيع فيه وتشعّ من كل سطر من أسطره ، فكنت أضحك وحدى لأننى لا أملك أن أقرأ هذا الظرف كله ولا أضحك ؛ لكننى كنت أتحسر حسرة عميقة ؛ نعم ليس الكلام منصبًّا على مصر ، لكنه ينطبق على مصر ؛ و إذا لم يكن ينطبق عليها فى خطوطها الحديدية وقطاراتها ، فهو يمثل الأخلاق الاجتماعية عندنا بوجه عام .

يصف الكاتب كيف يقف القطار فى وسط الطريق ليؤدى المسافرون الصلاة ؛ وكيف « يفاصل » الركاب فى أثمان التذاكر ؛ فالعامل فى شباك التذاكر يقول — مثلا — إن ثمن التذكرة تسعة وعشرين ريالا ، فيقول الأعرابى : بل خمسة عشر ؛ فيصرّ عامل التذاكر على أنها تسعة وعشرون ، فيقول الأعرابى ، فلنجعلها ثمانية عشر ؛ فيؤكد العامل حالفا بالله أن التذكرة لا يقل ثمنها عن تسعة وعشرين ريالا ، فيأخذ الأعرابى فى عدّ نقوده ، حتى إذا ما قرب من النهاية تمهل فى العدّ لعل عامل التذاكر يتهاون قليلا فى إصراره ؛ ويقول الكاتب فى هذا الصدد : « تعتبر المفاصلة فى ربوع الشرق الأوسط كلها ضربا من المهارة التى

تشبه مهارة اللاعبين ، كما أنها أداة للتعامل سواء بسواء » ؛ فأضحكني وصفها باللعب الرياضي لأنه وصف تصويري معبّر .

وينتقل الكاتب إلى وصف صعوبة أخرى ، وهي كيف وأين يضع الأعرابي المسافر صندوق أمتعته الكبير ، بحيث يطمئن عليه ؛ فهو لا يطمئن أبداً أن يسلم صندوقه لعمال القطار نظير إيصال من الورق لا يساوي عنده شيئاً ؛ وتراه فى المحطة يجرى وراء صندوقه ، لأنه يريد أن يكون معه حيث يكون ؛ فإن كان الصندوق في عربة البضائع فهو يريد أن يركب هناك ، لكن ناظر المحطة يصيح فيه بأن بأن ذلك مستحيل عليه ؛ فيقول له الأعرابي : إذن آخذ أمتعتى معى فى عربة الركاب ، فيصيح فيه ناظر المحطة باستحالة ذلك أيضاً .

وينتقل الكاتب إلى منظر فكاهي آخر : منظر الكمساري داخل القطار وما يتعرض له من مشكلات : فإن كان الراكب من ذوي المكانة تعذر عليه أن يطلب منه إبراز تذكرته ، وحتى أن طلب ذلك منه ، كان طلبه مصحوبا بالاعتذار ؛ وحدّث ماشئت عن الصعوبة التى يلقاها هذا المسكين في إرجاع ركاب الدرجة الثالثة من مقاعد الدرجة الثانية ، فإذا نبّه الراكب إلى ضرورة ذهابه إلى الدرجة الثالثة استلّ الراكب خنجره لرد الإهانة ، مع أنه في الوقت نفسه يرفض دفع ثمن التذكرة للدرجة الثانية .

ويصف الكاتب منظراً رآه بعينه : منظر أمير جاء بجواده إلى المحطة وأراد أن يحمل الجواد فى القطار ، فقال له الموظف المختص ألا مكان فى القطار لجواده ، فحملق فيه الأمير ووضع يده على مقبض سيفه ! وهو يقول إن كل أمير له من القوة ما يمكنه أن يقول لناظر المحطة إن عنده ضيوفا للغداء ، يريدون اللحاق بالقطار بعد الغذاء ، فعليه أن يوقف القطار حتى يفرغ الضيوف من زيارتهم ، وربما تأخر الضيوف ثلاث ساعات أو أربعا .

ضحكت حين قرأت فى المقال أن أعرابا كثيرين ينامون ليلا على القضبان ،

متخذين من القضبان وسائدهم لأنها تـكون باردة فى قيظ الصحراء ، فيأتى القطار وقد يقتل منهم واحداً أو أكثر ، لولا حذر السائق الشديد ، والسائق حذر خوفا على حياته ، لأنه لو قتل نائما فى الطريق تعرض للثأر ؛ وهنا يعرض الكاتب عرضا ساخراً للطريقة التى يحكم بها القضاة فى أمثال هذه الحالات ، إذ يجلس القاضى والقرآن على رأسه ، مستلهما إياه دقة الحساب وهو يحسب مبلغ التعويض ، فمبادئ التشريع التى يصدر عنها القضاة ، و يسمونها تشريعا إسلاميا ، لا تخلو من غرابة : فمبدأ منها يقول إن الحادث إذا وقع بين متحرك وساكن كان المتحرك هو المسئول ، وعلى هذا الاعتبار يحكم القاضى ضد سائق القطار إذا قتل رجلا نائما على القضبان فى ظلمة الليل ؛ ومبدأ آخر هو أن الحادث إذا وقع بين متحركيْن فالتبعة واقعة على أسرعهما حركة ، وعلى هذا الاعتبار حكم القاضى فى قضية داس فيها القطار على جمل بإدانة السائق ؛ ومبدأ ثالث هو أنه إذا وقع الحادث بين سبب ومسبب ، فالسبب دائما هو المسئول ، وعلى هذا الاعتبار كانت إدارة السكة الحديدية مسئولة عن كل حادث مهما كانت ظروفه ، لأنه لولا أن مُدَّت السكة الحديدية هناك لما وقع الحادث ! . . . وأقول لنفسى بعد أن قرأت هذا : إنه إذا كان صوابا أن هذه من مبادئ التشريع الإسلامى ، و إذا كانت هذه المبادئ مطبقة على نحو ما يقول الـكاتب ، أفلا ينبغى أن نراجع أنفسنا وعقولنا ؟ !

الاثنين ١٦ نوفمبر :

قرأت فى مجلة « هاربرز » لشهر نوفمبر قصة للـكاتب « وِلْمر هاملتن » عنوانها « صديق بالتّراسل » خلاصتها أن كاتبا فى سنّ الخامسة والستين لم يتزوج ، وقد اعتزل الناس فى بيت ريفى صغير ، لا عمل له إلا القراءة والتأليف ؛ تزوره اخته آنا بعد آن ؛ وقد جاءت له أخته بخادمة على شىء من الجمال وقليل من التعلم ؛ و بعد أشهر طويلة عرف الـكاتب عن خادمته أنها تراسل صديقا لم تره

تراسلا منتظما مطرداً ، إذ قرأتْ ذات يوم إعلانا فى مجلة تصدرها إحدى الكنائس يقول فيه صاحبه : أشعر بوحشة ووحدة ، وأريد أن تراسلنى فتاة حتى تقل وحشتى ؛ أنا مسيحى » ؛ فشعرت الفتاة أنها فى مثل وحدته ووحشته وأخذت تراسله ، ولا تعلم عنه إلا ما يرد فى خطاباته من آراء ، وهى آراء كانت تدل على أن الشاب مثقف مهذب . . . وأخيراً أرسل الفتى إلى الفتاة يسألها إن كانت توافق على لقائه يوما فى المدينة ، فتأتى فى قطار الصباح وتقضى معه بقية اليوم ثم تعود إلى ريفها فى المساء ؛ واتفقا على أن يكون ذلك فى يوم محدد . . . لم يكن يعرف الكاتب المخدوم شيئاً من أمر الفتاة ، لكنها طلبت أن يجيزها يوما وقصت عليه قصتها مع الفتى ، وكيف بدأ التراسل بينهما إثر إعلان نصه كذا وكذا ؟ فتعجب الكاتب من ذكر الفتى فى إعلانه « أنه مسيحى » ، لماذا يقول ذلك ؟ فتقول له أخته ألا غرابة فى الأمر مادام الإعلان منشوراً فى مجلة كنسية ، لكن الكاتب أبصر بطبيعة البشر من أن يرى ذلك أمراً لا غرابة فيه .

أعدت الفتاة ثوبا بمعونة الأخت ، فقد كان فى رأس كل منهم : الكاتب وأخته والخادمة ، أن اللقاء المنتظر قد يكون وسيلة زواج ، ولو أن أحداً من الثلاثة لم يقل شيئاً من هذا صراحة .

ذهبت الفتاة وعادت فى المساء تحمل غما ثقيلا ؛ ولم يجرؤ الكاتب أو أخته أن يفاتحها بالكلام لاضطراب نفسها ؛ وذهبتْ إلى المطبخ وهناك سرعان ما راحت تجهش بالبكاء . . . ماذا فى الأمر يا ترى ؟ هل علمت أن الفتى متزوج فضاع أملها ؟ هل قابلها ولم تعجبه فهرب منها ؟

وبعد أيام كانت تقدم الشاى إلى مخدومها ، وكانت الأخت قد سافرت ؛ وتلكأت قليلا فعرف الكاتب أنها تريد قولا ، فشجعها على القول ، وعندئذ طفقت تقص عليه قصة اللقاء لتطلب منه المشورة . . . ولم تكد تمضى الفتاة فى وصف اللقاء حتى عرف الكاتب أن الفتى زنجى أسود ! هو زنجى متعلم لا يجد

فتاة يأنس إليها وأحسّ بوحشة ؛ وهنا يأتي لباب القصة وهدف التحليل ، وهو أن هذا الزنجي كان يعلم أن الفتيات البيضاوات ينفرن منه لأنهن يرون سواده قبل أن يرين علمه وثقافته ، فلو استطاع أن يظهر تهذيبه وتثقيفه قبل أن يظهر سواده ، فربما وجد البيضاء التي تحبه ، ومن ثم الإعلان والتراسل أولا ، ومن ثم ذكره في الإعلان أنه مسيحي ، كأنما أراد أن يقول إنى واحد من هؤلاء الناس ، أدين بدينهم وأتثقف بثقافتهم وليس بي من نقص إلا لون جلدتي . . .

طبعا أخذ الفتاة همٌّ حين رأت فتاها الزنجي ينتظر في المكان المحدد وفي الموعد المضروب ، لم يكن يخطر ببالها أنه زنجي ، فكان ارتباك وكان اضطراب ، وقد سألها الفتى عندما همّتْ بالعودة إن كانت ستمضي في مراسلته كما كانت تفعل ؟ فأجابته في تردد : نعم ، حينا بعد حين ، و بغير انتظام . . وهي الآن تطلب المشورة من مخدومها : هل هناك ضرر في العودة إلى التراسل مع ذلك الصديق بعد أن تبين أنه زنجي ؟

تحليل الزنجي في موقفه ومشاعره ، وتحليل الفتاة في موقفها ومشاعرها ، وتحليل الكاتب في خواطره ... كل ذلك آية من آيات الفن ورائعه من روائع الأدب ؛ ولنلاحظ أن الكاتب لم يختر لتحليله الأدبي موضوعا غليظا مألوفا بحيث لا يستدعي براعة ولا بصراً نافذاً ؛ لكنه اختار موقفا فيه طرافة وفيه لطف ، و يحتاج إلى دقة إدراك و براعة تحليل ... هذه هي الكتابة ، وهذا هو الأدب ؛ فمن ذا يلومني إذا ما سألت نفسي : ماذا يكتب أكبر أدبائنا في مصر ؟ من ذا جعل تحليل النفس البشرية في مواقفها المختلفة موضوعه الأدبي ؟ ... لا ! أديبنا الكبير يقرأ كتابا أو جزءاً من كتاب ، و يلخص ما قرأ و ينقده ، فيصبح بذلك أديبا ! .

أديبنا الكبير يكتب عن مجانية التعليم أو عن الطب عند ابن سينا ، فإذا هو عندنا الأديب العظيم !

وكذلك قرأت فى المجلة نفسها قطعة أخرى لـكاتبة أمريكية هى « كاترين آن بورتر » ؛ وهى على ما أرى فى طليعة رجال الأدب ونسائه فى أمريكا . . . القطعة وصف لناحية من العلاقات البشرية ، ومكان الحوادث ظهر سفينة : فبين المسافرين طفلان توأمان : ولد وبنت ، أقلقا الناس « بشقاوتهما » ، فهما مثلا يريان رجلا وامرأة فى مزاح جنسى فيهددانهما بالفضيحة إذا لم يعطياهما شيئاً من المال... هذان الطفلان كانا يوما فى ركن خفىٍّ من السفينة يمزحان ، وأدت بهما المعركة المازحة إلى وضع مريب ، فيمر ضابط من ضباط السفينة ، وأمسك كلا منهما بيد ، وجذبهما ليوقع عليهما العقاب ، فمرَّ بهما أمام رجل وامرأة جالسين وحدهما يتحدثان : الرجل طبيب لـكنه مريض بقلبه وهو مسافر للراحة ، والمرأة مسافرة عابرة جلست تتحدث إلى هذا الطبيب ، لـكنها فيما يظهر قد وضعت عينها عليه بغية الزواج ... سألت هذه المرأة الضابط البحرى والطفلان فى يده : ماذا صنع هذان الطفلان ؟ فيجيب الضابط فى شىء من التألم والتأفف : صنعا فظاعة لا أستطيع وصفها . . فتقول له المرأة : لا تبالغ يا أخى فى هفوات الأطفال ، فـكلنا كان طفلا ، وكلنا قد أتى فى طفولته أمثال هـذه الأشياء . . . ويمضى الضابط ومعه الطفلان .

وهنا تبدأ المناقشة البديعة البديعة البديعة بين الطبيب والمرأة عما اقترفاه إبان الطفولة من هفوات جنسية ، أما الطبيب فينـكر فى سذاجة أنه قد اقترف شيئاً من هذا ، لـكن المرأة تتهكم على سذاجته هذه وتشجعه على أن يبوح بذكرياته ، فتبدأ هى بقولها عن نفسها : إننى نشأت بين طائفة من أولاد أعمامى ، وكانوا من « العفاريت » « الأشقياء » فاتصلتُ بهم جميعاً صلة جنسية وأنا لم أزل فى الخامسة من عمرى ؛ ولست بنادمة على ذلك ، ولو عادت طفولتى لعدت إلى ما فعلته ؛ فيردّ الطبيب قائلا : إننى لم أقترف من أمثال هذه الشنائع فى طفولتى إلا قليلا ، هما مرّتان اثنتان فى طفولتى كلها ، فمرّة وأنا فى السادسة أغويت طفلة فى مثل

سنّى ، ومرة أخرى وأنا فى السن نفسها أغرتنى بنت فى التاسعة ، وفيما عدا هاتين الحادثتين كانت طفولتى بريئة . . . ويمضى الطبيب والمرأة فى مناقشة تحليلية عن مدى الاتصال الجنسى بين الناس فى الخفاء ؛ لـكن الطبيب كان دائما يمثل الرجل المغفل الذى لا يفتح عينه للحقائق ، وتمثل المرأة الشخص الذى فتح عينيه مبصرتين : سألته قائلة : ألم تَخُنْ زوجتك أبداً ؟ فقال فى حماسة : أبداً ! فسألته : ألأنك لا تريد خيانتها أم لأنك مريض بقلبك ؟ فقال : لست أدرى ؛ قالت : ألم تشعر بالملل من عدم الخيانة ؟ فقال : طبعا ، ومن ذا الذى لا يشعر بذلك ؟ وكذلك زوجتى لم تخُنّى أبداً ، لـكنها بالطبع تشعر بالملل من هذه البراءة . .

وعلى كل حال كان معظم التحليل منصبًّا على عدم براءة الأطفال ؛ فقلت فى نفسى : هذه خبرة ليس منا واحد لم يمر بها عدة مرات فى طفولته ، فأين هذه الخبرة على أقلام أدبائنا ؟ ! لا يزال الأديب منا كالأبله يتحدث كما يتحدث رجل الشارع الأعمى عن « براءة الطفولة » فأديبنا عاجز عن الملاحظة الصادقة والتحليل الصادق لمشاعر الناس ونفوسهم وخواطرهم .

الثلاثاء ١٧ نوفمبر :

رفعتْ جماعة من أولياء أمور الطلبة الزنوج ، فى ولايات أربع من ولايات الجنوب التى تفرّق بحكم قوانينها بين البيض والسود فى المدارس ، فتجعل لهؤلاء مدارس ولأولئك مدارس ، بحيث لا يقبل أسود فى مدرسة البيض ، رفعتْ قضية إلى المحـكمة العليا فى وشنطن ، تطلب إلغاء الفصل اللونى فى المدارس التى تنفق عليها الدولة ، وهى التى تسمى « بالمدارس العامة » ؛ فما دامت الدولة للجميع ، فلا يجوز بعد ذلك أن يختص البيض بمدارس والسود بمدارس أخرى ؛ وهم فى قضيتهم يستندون إلى التشريع المسمى « التعديل الرابع عشر للدستور » الذى

كان فيما مضى قد صدر ليقضى بإلغاء كل وضع من شأنه أن يخلق الشعور بالنقص بين الزنوج .

وخشية أن ينتهى الأمر بالمحكمة العليا إلى الحكم بامتزاج اللونين فى مدارس الحكومة ، استعدّت ولايات الجنوب التى يستحيل عليها أن تقبل هذا الامتزاج ، بتشريعات مضادّة إذا ما وقعت الواقعة .

وكذلك قرأت عن قضية رفعها زنجى إلى المحكمة العليا ضد شركة من شركات السكة الحديدية فى الجنوب ، لأنه أراد أن يأكل فى عربة الأكل فمنع من ذلك حتى لا يأكل مع جماعة من البيض تحت سقف واحد . . لقد فهمتُ مما قرأته اليوم عن هذه القضية أنها رفعت لأول مرة عام ١٩٤٢ ، وهى حتى الآن بين أخذ ورد فى محاكم الاستئناف ؛ لأن المحكمة كانت حكمت عندئذ أن يسدل ستار على جزء من عربة الأكل بحيث يخصص ما وراء الستار للزنوج ، وبهذا يأكلون إذا شاءوا دون أن يختلطوا بالبيض فى عربة واحدة اختلاطا ظاهراً ؛ لكن الزنجىّ الذى رفع القضية لم يقبل هذا الحكم واستأنف .

وبهذه المناسبة أقول إننى قرأت منذ أيام أن وزير البحرية قد أعدّ قانونا يبيح للبيض والسود أن يختلطوا فى نادٍ واحد ؛ وذلك أنه فى نادى رجال البحرية من ميناء شارلستن (بولاية كارولاينا الجنوبية) لم يكن السود يؤذن لهم بالدخول مع أنهم يعملون مع البيض فى سلاح واحد وعلى سفن واحدة . . . وقد خطب أيزنهاور خطبة يشيد فيها بشجاعة الوزير فى هذا القرار ، ويرحب بكل مجهود يقوم به أى رجل من رجال حكومته نحو إزالة الفوارق بين اللونين .

الحقيقة إن مسألة التفرقة اللونية هى هنا — فى ولايات الجنوب بصفة خاصة — الدُّمّل الحساس الذى لا يحتملون أن يمسّه ماسٌّ ؛ ويخيل إلىّ أن هذه المشكلة الكبرى هى التى تنغص عليهم حياتهم ، ولولاها لكانت حياتهم جنة

خالصة ونعيا صرفا ... لكن الزمن يمضى قدما ، والزنوج يكسبون على مر الزمن ، بفضل ما قد يظهر بينهم من شجعان حينا بعد حين ، لا يرضون بالأوضاع القائمة ، فيثيرون الضجة ويقيمون القضايا حتى يكسبوا الحقوق واحدا بعد واحد .

فى منتصف الساعة التاسعة مساء كان موعد محاضرة عن الفن الحديث ، يلقيها فى المتحف الدكتور واتْسُن ، الناقد الفنى المعروف فى أمريكا ، وهو يعمل فى معهد الفنون ومتحفها بمدينة شيكاجو ، وقد جاء إلى كولمبيا بدعوة من المتحف ليلقى محاضرات ثلاث ، هذه أولها .

ذهبتُ إلى المتحف فى الموعد المحدد ، وما إن جلستُ حتى جاءت الآنسة « م » وجلست إلى جانبى ، فشكرتنى على تذكرة الأوبرا التى أرسلتها إليها يوم السبت المقبل ، وعرّفتنى بصديق لها مشغوف مثلها بالفن ومسائله .

بدأ الدكتور واتسن محاضرته التى دامت ساعتين كاملتين ، وكانت مصحوبة بالفانوس السحرى ، فيعرض علينا صوراً فنية ويعلّق عليها ؛ وفى رأيى أنه قد أجاد إجادة ليس بعدها زيادة لمستزيد ، ولولا أن المقاعد خشبية تؤلم خصوصاً وقد طالت المحاضرة إلى ساعتين ، لقلت إننى قد ظفرت الليلة بمتعة أنا سعيد بها . . بدأ المحاضر بحديث عام فى الفن الحديث ، وكيف أنه ملائم لروح العصر الحديث ؛ ففى عصرنا الحديث آلة تصوير تستطيع أن تصور الطبيعة تصويراً أميناً ، وإذن فلا بد أن يلتمس الفن سبيلا غير تصوير الطبيعة . . كان المصورون السالفون يصورون الطبيعة لأنهم كانوا وحدهم أداة ذلك ؛ أما الصورة الحديثة فليست تصويراً لشىء خارج الفنان ؛ إنها موسيقى العين ؛ التصوير شديد الصلة بالموسيقى ، فالموسيقى تنسّق موجات الصوت السبعة ، والتصوير ينسق موجات الضوء السبعة (كنت ذات يوم فى حديثى مع الآنسة « م » قد دافعت لها عن الفن الحديث ، فقلتُ لها هذه الفكرة عينها وبنصّ هذه الألفاظ ، فأحسست بالزهو الليلة حين قال المحاضر ذلك وهى تجلس إلى جانبى) . إنك لا تسمع الموسيقى لتسأل : صوت أى شىء

هذا ؟ لأن الموسيقىّ لا يحاكى بموسيقاه صوتا فى الطبيعة كما هو ، وإنما يؤلف الصوت كما يشتهى فيكون التأليف جميلا ؛ وكذلك مهمة المصور الحديث ؛ إنه لا يريد أن يصور شيئاً فى الطبيعة كما هو ، بل مهمته التأليف بين الألوان تأليفا يمليه ذوقه ومزاجه ، وغايته هى أن يقدم للعين مزيجا لونيا جميلا . .

إن الشرط لأى فن هو أن يكون مستقلا بذاته ، فلا يجوز للتصوير مثلا أن يعتمد على الأدب فى شرحه ، ولا يجوز للأدب أن يعتمد على التصوير ، ومن هنا كان الإنجليز مقصرين فى ميدان التصوير ، لأن مصوريهم يعتمدون فى الغالب على شىء فى الأدب يفسره ؛ أما فى سائر القارة الأوروبية — كفرنسا مثلا — فهنالك تجد قادة الفن بالمعنى الصحيح ؛ هنالك ترى الصورة مستقلة بذاتها ، تفهمها وحدها وليست هى بمستندة على شىء إلى جانبها يشرحها ويفسرها .

وجعل المحاضر يعرض على الحاضرين صوراً من كل مذهب ومدرسة ، قديمة وحديثة ، ويشرح أين يكون موضع جمالها ؛ وكثيراً ما كان يربط الصورة بقطعة موسيقية من عصرها نفسه ، ليبين أن التصوير والموسيقى فى العصر الواحد يكونان ذاتىْ طابع واحد ، وذلك بأن يدير اسطوانة فونوغرافية والصورة أمامنا . . وإنى لأعترف أننى لم أكن أفهم أبداً كيف يمكن أن تكون هنالك علاقة بين الصورة التى أراها والموسيقى التى أسمعها ؛ فذلك شىء بعيد عن ثقافتنا ؛ إلا مرة واحدة كانت الموسيقى فيها هى موسيقى الوالتس وكانت الصورة تصور رقصا ؛ ولما كنتُ أعرف كيف أرقص رقصة الوالتس ، وأعرف كيف أميز أجزاءها الموسيقية ذات الضربات الثلاث ، فقد لحظت من فورى علاقة الشبه بين الصورة والموسيقى ، كلاهما مؤلف من وحدات ، كل وحدة فيها تفعيلات ثلاث إذا صح هذا التعبير ؛ ثم عرض المحاضر صورة أخرى من الفن التكعيبى قائلا إنها هى الأخرى تلائم الدور الموسيقىّ الذى نسمعه ؛ هنا لم أفهم لماذا ؟ لولا أنه أشار بالعصا إلى التتابع اللونى فى الصورة قائلا : أبيض أصفر أسود ، أبيض أصفر أسود ؛ فظهر كالشمس وجه

الشبه بين النغم الموسيقى والتناغم اللونى ، خصوصاً حين أشار المحاضر فوق ذلك إلى أن الصورة مؤلفة من مثلثات ، فوق تأليفها من ألوان ثلاثة .

خرجتُ بعد المحاضرة ، وكنتُ من أول الخارجين ، فدهشت إذ رأيت السيدة « أ . و » أستاذة تاريخ الفنون بالجامعة واقفة وحدها خارج بناء المتحف ، مسندة ظهرها إلى عمود البهو ، تدخن سيجارتها ؛ فسألتنى رأيى فى المحاضرة ، فقلت لها ما أعتقده فيها وهو أنها محاضرة ممتازة ؛ فظنتنى ساخراً ، ولما عرفتْ أنى جاد ، انطلقت تهاجم المحاضرة بأبشع الشتائم ، فهى فى رأيها محاضرة تافهة ، والمحاضر جاهل يقول عن فلان إنه أول من رسم بالتكعيب وهو ليس كيت ، وملاحظاته كلها جديرة بأطفال الخ الخ . قلت لها : ربما رأيت فيه هذه التفاهة لأنها مادة اختصاصك ، أما أنا فقد تمتعت واستفدت إلى أقصى حد أريده ؛ فقالت : إنى لا أصدق أن محاضراً ممتازاً مثلك يقول هذا الرأى فى محاضر كهذا ؛ تعجبتُ جد العجب أن يختلف حكمها وحكمى إلى هذا الحد البعيد .

الأربعاء ١٨ نوفمبر :

اليوم احتفال لجماعة غريبة تطلق على نفسها اسم «أصحاب المزار» (Shriners) تأتى من أطراف الولاية لتجتمع هنا فى العاصمة — أعنى فى مدينة كولمبيا — وقد عرفتُ أنها جماعة تنتشر فى سائر أنحاء الولايات المتحدة ، وهى فرع من الماسونية ، تهدف إلى الخدمات الاجتماعية الإنسانية كانشاء المستشفيات الخيرية ، لـكنها تمزج نشاطها هذا بالمرح الشديد الذى قد يصل إلى عبث الصبيان ؛ والذى يلفت النظر بصفة خاصة هو أن أعضاءها فى مثل هذه الاحتفالات يلبسون أردية غريبة منها أنهم يلبسون الطرابيش على رءوسهم ، لـكنها طرابيش ذات أزرار طويلة ، وعليها زخارف براقة . بألوان ذهبية أو فضية ؛ و « أصحاب المزار » هؤلاء فريقان لـكل منهما اسم يميزه : « عمر » و « حجاز » ! ! وليست هى جماعة قليلة العدد ،

فالمجتمعون اليوم فى كولمبيا وحدها أربعة آلاف ، فإذا كان هـذا بعض أعضاء الجماعة من ولاية واحدة ، فلك أن تضرب هذا العدد فى ثمانية وأربعين ولاية لتعلم كم عددها على وجه التقريب .

لا تفتأ السيدة « م » أن تصفنى بالرهبنة ، ولما عدتُ ظهر اليوم نبهتنى إلى مقال فى الصحيفة اليومية عنوانه «أنت كذلك تستطيع أن تـكون راهباً — إذا وجدت صومعة » ، والمقال لـكاتبة تـكتب كل يوم بانتظام فى الصحيفة اليومية ، وهى اليوم تعلّق على كتاب أصدرته الـكاتبة « هلِن إرسكن » عنوانه : « خارج هذا العالم » كتبته عن أعلام الرهبان الذين تركوا هذه الدنيا واعتزلوا الحياة ، وذلك لأنها هى نفسها تتمنى هذه العزلة لنفسها ؛ فتقول الصحفية كاتبة التعليق ؛ وأنا كذلك — كمؤلفة الـكتاب — أتمنى أن أعتزل المجتمع ولو إلى حين ، فتلك متعة لا أنعم بها حتى فى الحلم ؛ نعم أتمنى أن أنعم بعزلة لا يدق فيها التلفون وأنا فى الحمّام مغطاة الجسد برغاوى الصابون ، ولا تأتينى خطابات تحيرنى وتربكنى ، ولا تدق لى الساعة حينا بعد حين ، ولا تـكون ورائى المواعيد الدقيقة التى ترهف أعصابى بانتظارها . . . لـكن المشكلة الـكبرى هى : أين عساك أن تجد المـكان الذى تعتزل فيه هذا العالم الواسع ؟ إن معظم المعتزلين إنما اعتزلوا العالم إما عن اضطهاد أو عن إهمال الناس لشأنهم أو لأن الأيام قد حطمت لهم آمالهم ؛ لـكن حتى هؤلاء ، حين التمسوا لأنفسهم صوامع فى قلب الصحراء أو فى جوف الجبل ، لم يكن اعتزالهم حلا لإشكالهم ، لأنهم أخذوا معهم آلامهم ، وستظل معهم إلى أن يدركهم الموت ... فربما تـكون طريقة غاندى فى الصوم عن الـكلام يوما فى الأسبوع هى أفضل طريقة ممكنة للعزلة ؛ وكذلك من طرق الاعتزال الممكنة اتخاذ الهوايات ، كأن تفلح بستان بيتك أو ترعى الطيور أو تجمع طوابع البريد ؛ لأنك وأنت مشغول بهوايتك إنما تـكون بمثابة من يبنى حول نفسه حائطا لا يتخلله صوت المجتمع .

ويشاء لى الله أن أقرأ هذا المقال وأنا فى حالة حنين شديد إلى عزلة تامة ؛ فقلت لنفسى لما فرغتُ من قراءتى للمقال : إننى أضيف إلى مؤلفة الكتاب وكاتبة المقال شخصاً ثالثاً يتمنى العزله ، ذلك هو شخصى ؛ أتمنى العزلة من صميم نفسى ، العزلة التى تقطع كل أسلاك الصلة بالعالم الذى حولى ؛ فإذا كانت عزلة الصحراء أو جوف الجبل لا تكفى ، فلتكن عزلة فى حفرة القبر ؛ هذه هى الرغبة الحقيقية التى يرنُّ بها معدن طبيعتى ، وكل ما عدا ذلك تمثيل خادع وتقليد للناس فيما ينشطون فيه ... لكن لأترك هذه النغمة الحزينة ، ولألتفت إلى تيار الحياة .

ذهبتُ إلى نادى الأساتذة بعد الغداء ، فوجدت الدكتور واتْسُن الذى ألقى محاضرة عن الفن الحديث ، وجدته هناك يشرب القهوة مع لفيف من أساتذة الجامعة ، وكانوا عندئذ يتحدثون فى الأثاث وتطور الذوق فيه ، فقال واتسن : كان يراعَى فى الأثاث القديم أن يكون جميلا ، وأما الأثاث الحديث فيراعى فيه النفع والراحة حتى لو أدى ذلك إلى قبح ؛ وعندئذ تذكرتُ رأى أولدس هكسلى فى ذلك ، إذ يقول إن الأثاث يسير مع الديمقراطية منتقلا من جمال المظهر بغض النظر عن الراحة إلى الراحة بغض النظر عن جمال المظهر ... ثم أضاف الدكتور واتسن قوله إن فلانا يبذل جهده الآن فى أن يحتفظ فى الأثاث بالراحة والنفع مع إضافة جمال المظهر ولو إلى حد محدود ، وهو يعتقد أن فلانا هذا سيوفق إلى خلق اتجاه جديد فى فن الأثاث .

وحضرتُ فى المساء محاضرة أخرى للدكتور واتْسن عن « الحدائق فى أمريكا وأوروبا » ، عرض فيها صورا لأشهر الحدائق مع التعليق المفيد للذين يهتمون بهذا الموضوع ؛ فما قاله مثلا إنه يحسن دائما أن يكون للزهور البيضاء نصف ما فى الحديقة من زهور ، وعرض صوراً لحدائق مختلفة روعى فى بعضها أن ينتشر فيها الزهر الأبيض فكانت جميلة ، ولم يراعَ فى بعضها الآخر هذا المبدأ فبدت أقل جمالا . . . وفى الحدائق العامة لا بد أن يتعاون فن النحت مع إنتاج

الطبيعة ، وعرض صوراً لحدائق انتثرت فيها التماثيل فكانت رائعه ، وأخرى افتقرت إلى التماثيل فكانت أقل جمالا ؛ ولاحظ المحاضر أن حدائق أمريكا بوجه عام لم تدخل فن النحت فكانت أقل جمالا من نظائرها فى أوروبا .

وكان مما عرضه صورة حديقة لأسرة متوسطة فى جهة ما بأمريكا ، كانت منها موضع عناية ورعاية وهواية بحيث تغيرّ طلاء نوافذ المنزل وأبوابه عدة مرات فى العام الواحد حتى يتناسب لونها مع لون الزهور التى تزدهر فى الفصل المعين من فصول العام ... وما هذا المثل إلا واحد من أمثلة كثيرة ساقها ليدل بها على صدق مبدأ وضعه فى محاضرته ، وهو وجوب التناسب بين تنسيق الحدائق وفن البناء الذى يجاور تلك الحدائق ، وراح يطلعنا على أشهر الحدائق العالمية التى روعى فيها الاتساق بين الحديقة والبناء ، فى طليعتها حديقة فرساى .

ومن جميل ما قاله إن الناس يختلفون فى أيهما يتبع الآخر : أننشئ الحديقة وفقا للبناء المجاور لها ، أم ننشئ البناء وفقا للحديقة وتنسيقها وأزهارها ؟ . . الفرنسيون يأخذون بالشق الأول ، وعندهم أن الزهور هى التى تأتى فى ختام القائمة لكى نختارها على أساس ما حولها ، فهى كالقرط عند السيدات : تزدان السيدة بثيابها وتصفيف شعرها و بسائر حليها ، وآخر ما تعمله هو أن تختار القرط الذى يناسب المجموعة بصفة عامة ، وهكذا تأتى الأزهار فى لونها ونوعها قرطا فى أذن حسناء .

الخميس ١٩ نوفمبر :

من أجمل الدعوات التى دُعيتها حتى الآن ، هذه الدعوة التى لبيتها ، دعوة نادى السيدات الشابات لألقى فيهن كلمة عن المرأة المصرية وحالتها الاجتماعية ؛ فهؤلاء السيدات الشابات قد أنشأن ناديهن منذ عامين ، منسلخات به عن نادى السيدات المتقدمات فى العمر ، لما رأين أن السيدات الكهلات يستأثرن بالنشاط

كله ؛ وقد جعل السيدات الشابات أربعين عاماً حداً أقصى لعمر المرأة العضو . . .
ومن لطيف ما قالته لى السيدة « س » (وهى فى السبعين من عمرها وعضو فى نادى السيدات الكبريات ولا تنقطع فكاهتها) حين سألتها : وماذا تصنع السيدة من الشابات حين تبلغ الأربعين ، هل تستقيل لبلوغها أرذل العمر ؟ فضحكت وقالت : لا يأخذنك الهمّ ، فلن تبلغ منهن واحدة سن الأربعين ، بل هنالك ما هو أمرّ وأنكى ، وذلك أن كثيرات من أعضاء نادينا قد انضمّ إلى الشابات ليقلن بذلك للناس إنهن دون الأربعين ، مع أنهن فوق الخمسين فيما أعلم علم اليقين !

كانت الدعوة فى أجمل فنادق المدينة ، استأجر الشابات مكانا هناك ليكون ناديهن ، وهن من الطبقة العليا فى المجتمع ، كما هو ظاهر من ثيابهن وحليهن وسلوكهن : فهأنذا أرى مجموعة قد تبلغ المائة من آيات الجمال الرائع . قد بَدَوْنَ فى ثياب السهرة التى تخطف الأبصار فتنة وسحرا ، وقد لبس كثيرات أنواعا من الأساور العريضة التى تشنشن شنشنة منفرمة كلما تحركت الأذرع ، والأقراط فى الآذان ، كلها فن وكلها عجب وكلها يسرق الألباب . . . الاجتماع فوّاح بالعطور ، متلألئ بالزينة ، منغوم بالصوت الجميل . فيه كل ما يشبع البصر والشم والسمع والأنفس والعقول والألباب .

لما جاءتنى اثنتان من هؤلاء تأخذاننى بسيارة إحداهما إلى الفندق حيث الاجتماع ، جلست إلى جانب صاحبة السيارة ، وكان القمر ابن ليلتين أو ثلاث ، فلم أدر كيف أفتح الحديث — قبل أن تتحرك السيارة — سوى أن سألت جارتى : كم عمر هـذا القمر ؟ فضحكت وقالت : لا أستطيع أن أراه من مكانى إلا إذا رأيته خلال فروع الشجر ؛ ولا أريد أن أنظر إليه خلال فروع الشجر لأنه يقال إن الواحدة لو رأت القمر خلال الشجر أصابها الحظ السيء . . . تلك بالطبع خرافة اعتقدت فيها هـذه السيدة الفاتنة الجميلة التى شبّهتها أول ما رأيتها

بالفاتنة المصرية « خ » فكلتاهما مترعة بالأنوثة فى كل نبرة وفى كل لفتة ؛ فلما رأيت السيدة « ف » معتقدة فى خرافة القمر والشجر ، زادت عندى أنوثة على أنوثة وفتنة فوق فتنة ! اللهم إنى لمفتتن بالمرأة التى تعتقد فى الخرافة أكثر ألف مرة من فتنتى بامرأة تجلس إلى جانبى لتحدثنى فى الهندسة وعلم الفلك ! إننى أشتهى المرأة حين لا يكون العلم الجاف قد جَمَّدَ عقلها وجعلها كالصخرة الناشفة التى لا يرجى عندها قطرة ماء ! أريد امرأة يكون فى عقلها رخاوة كرخاوة جسمها ؛ أريدها ضعيفة لكنها ذكية . . .

فى الجريدة اليومية التى أقرؤها محررة تردّ على الرسائل التى ترد إليها من قرائها وقارئاتها ؛ وكثيراً ما تكتفى المحررة بسؤال واحد لتجيب عليه فى إطناب . وقد لفت نظرى موضوع اليوم لأنه متصل بالفكرة التى ذكرتُها الآن عن المرأة التى تستهوينى . . فالسؤال من طالبة فى مدرسة ثانوية ، أرسلت تسأل المحررة رأيها فى الصفة التى تكون أكثر استهواء للشبان ، تقول : إن طريقة تربيتى مختلفة كل الاختلاف عن تربية زميلاتى ، فقد عنى والدىّ أن يربيانى بحيث أنشأ امرأة لا تتشبه بالرجال ، فعلمانى كيف أمشى وكيف أتكلم وكيف أتلفت وكيف أجلس وكيف أستقبل وكيف أودّع ... أما زميلاتى فيهزأن بى ، ظانات بى التأخر والرجعية ، فهذا العصر عندهن عصر لا ينبغى للمرأة فيه أن تختلف عن الرجل فى شىء ، فهن يَصِحْن فى الحديث ويَصْفُرن ويدخِّنَّ ويسترجلن فى الحركة والكلام . . . إن زميلاتى ينذرننى بأن سلوكى المتخلف عن عصره سيكون منفرا للشبان ، وبذلك فلن تكون لى صداقة مع واحد منهم وبالتالى لن يكون لى زواج . .

فأجابتها المحررة قائلة إن سلوكها هـذا هو خير سلوك فى اجتذاب الصديق والزوج : وأكدت لها من خبرتها الطويلة أن المرأة كلما بعدت عن التشبه بالرجال زادت للرجال استثارة واستمالة . . لكنها تحذرها تحذيرا شديداً ألا تخطئ

فتمزج ترفعها النسوىّ بالعجرفة ، قائلة لها : اعلمى أنه ليس أقتل لعزيزة الرجل إزاء المرأة من عجرفتها . . . لم يسعنى إلا أن أذكر « ز . ش » .

وقرأت فى مجلة كولْيَرْز لهذا الأسبوع مقالة دهشت لها دهشة عميقة ، كدتُ لا أصدق عينيّ فيما تريان على صفحات المجلة ؛ ذلك أن المقالة عن طائفة من الناس فى ولاية يوتا من ولايات الغرب يطلق عليها اسم « المورمون » تبيح للرجال منها أن يتزوج الرجل من زوجات عدة ؛ و « المورمون » طائفة مسيحية لكنها تختلف عن سائر المذاهب المسيحية من بعض الوجوه ؛ وعنوان المقالة التى قرأتها اليوم : « لماذا أعاشر خمس زوجات » وهى حديث صحفى مأخوذ من رجل اسمه « إدسن چيسوپ » يدين بعقيدة المورمون ، ويتزوج من خمس نساء دفعة واحدة ؛ وقد استتر هو وأسرته الضخمة فى مكان خفى من ولاية أرزونا ، لأن حكومة الولايات المتحدة لا تجيز تعدد الزوجات على أرضها مهما تكن عقيدة الزوج ؛ فاكتشف رجال الحكومة مكمن هذا الرجل وقبض عليه وحوكم وحكم عليه بالسجن ؛ لكن الرجل عندما وجه إليه الصحفىّ سؤاله كان قويا فى إجابته مؤمنا بعقيدته ، سأله الصحفى : هل يمكنك أن تحب زوجاتك الخمس ؟ فقال : « لقد سمعت هذا السؤال مرارا كأنه لغز لا تستطيعون حلَّه ؛ وجوابى دائما على هذا السؤال هو الآتى : هل يمكن لرجل أن يحب خمسة من أبنائه دفعة واحدة ؟ هل يمكن أن يحب خمسة من أصدقائه دفعة واحدة ؟ هل يمكنه أن يحب خمسة من إخوته دفعة واحدة ؟ أرونى رجلا واحدا ممن يدَّعون أنهم يلتزمون بنظام الزوجة الواحدة ، لا تكون له امرأة أخرى يبادلها الغرام وتبادله ؟ ونحن المورمون لا نحب سرًّا ، إننا لا نحب حباً يلفّه العار ، بل نحب جهرا وعلانية حباً يزدان بالشرف ؛ ليس بيننا المرأة التى تحمل جنينها فى خفاء من القانون ثم تضع حملها إجهاضا ؛ فنساؤنا جميعاً يحملن الأجنة من أزواج ، ويلدنهم أطفالا ذوى نمو كامل » .

وذهبتُ فى الساعة الثامنة إلى الجمعية التاريخية لأشرح التطور التاريخى للمسألة

المصرية . . وكان بين الحاضرين سيدة واحدة ؛ إننى لأوشك أن أقول إن هذه ظاهرة فى الحياة هنا ، أعنى عدم امتزاج الرجال بالنساء إلا على نطاق ضيق محدود ؛ فلولا أننى أعلم أننى الآن فى أمريكا حيث الاختلاط بين الجنسين تام ، لقلتُ إن مشاهداتى الشخصية تدل على غير ذلك . . فالاجتماعات الأربعة التى عقدها لى الدكتور « ش » فى داره عند أول قدومى لم يكن فيها امرأة واحدة ، ولم تحضرها زوجته ؛ والاجتماع الذى حضرته فى منزل العميد « ن » لم يكن فيه امرأة واحدة ولم تحضره زوجته ؛ ولم أر فى نادى الأساتذة امرأة إلا مرة واحدة ، وفى كل مطعم أرتاده لم أجد أبداً رجلا يجلس مع سيدة على منضدة واحدة إلا إذا جاءا إلى المطعم معا ، فكثيراً ما يكون هنالك مقعد خال على منضدة تجلس إليها سيدة ، فلا يجلسك صاحب المطعم على ذلك المقعد الخالى ، ويطلب منك الانتظار حتى تخلو منضدة ، أو يخلو مقعد على منضدة يجلس إليها رجل ؛ كل النوادى التى دُعيت إليها حتى الآن إما أن تكون للرجال دون النساء أو للنساء دون الرجال . . لست أدرى إلى أى حد تكون هذه قاعدة فى الحياة الأمريكية ، لكن تلك هى مشاهدتى على كل حال .

الجمعة ٢٠ نوفمبر :

جلس معى فى العشاء رجل فى نحو الستين من عمره ، أنيق الثياب كبير الجسم ؛ جاء إلى المائدة بعدى ، وجاءته المناولة بعشاء ضخم لم تألف عينى ضخامته خارج مصر ؛ وكما هى العادة فى هذا الشعب الودود ، حيّانى الرجل عند جلوسه وفتح الحديث قائلا : إن هذا المطعم عجيب فى ازدحامه دائما على هذه الصورة ؛ فقلت له : لا عجب فطعامه جيد ؛ قال : جيد جداً لا يضارعه مكان آخر فى كولمبيا ؛ ثم سألنى إن كنتُ من أبناء هذا البلد ؟ فأجبته بأننى جئت من مصر أستاذاً زائراً ؛ فقال : مصر ؟ ! كان ابنى الطيار يقيم فى مصر لمدة من الزمن ، ثم

ذهب منذ حين إلى ميونخ حيث هو الآن ؛ وأذكر أن ابنى أثناء إقامته فى مصر كان منها فى مكان اسمه مراكش الفرنسية ! ! فلم أفهم ماذا يعنى ، واستفسرته المعنى ، فقال : أليست مراكش الفرنسية فى مصر ؟ قلت : لا ، مصر شىء ومراكش شىء آخر ؛ قال : وأين قناة السويس منهما ؟ قلت : إنها فى مصر ، قال إذن أين تكون مراكش ؟ قلت له : فى الجزء الغربى من الساحل الأفريقى الشمالى . . . هذا هو مدى علمه بمصر ! الواقع أنى وجدت مصر فى هذه البلاد مجهولة جهلا لم أكن أتصوره أبداً ، ليس الأمر فى ذلك مقصوراً على قولهم إن فى مصر تماسيح وجِمالا ، بل كثيراً ماتجدهم على أشد درجات الغموض فيما هى مصر بأسرها بتماسيحها وجِمالها ! !

شاهدت فلم « الرداء » وأعجبت به ، وعدت تحت المطر مبلَّلاً ، فما كدت أبلغ الدار حتى أسرعت إلى إعداد قدح من الشاى ؛ وعندئذ جاءت السيدة « م » فدعوتها إلى مشاركتى فى الشاى ، وجلسنا حيث راحت تحدثنى حديثا طويلا عن ابنتها المريضة فى عقلها ؛ وكان من ملاحظاتها أنّ الفارق الذى يفصل المجنون عن العاقل فى نظرها هو الرغبة فى التمتع بالحياة ؛ فقلت لها : لو كان هذا مقياسك فقد قضى علىّ بالجنون ! فقالت : إن لى فيك رأياً ، فألححتُ عليها أن تفصح ، فقالت : تغلب عليك صفتان أساسيتان : الأولى أنك تُغَلِّب العقل فى تصرفاتك ، لكنك نادم فى دخيلة نفسك على أنك لم تكن نوعا آخر من الناس ؛ والثانية هى أنك فى الحقيقة لا تخشى المتعة فى ذاتها لكنك تخشى الطريق المؤدى إليها .

وقد رأيت أن هذه الصفة الثانية التى ذكرتْها وصف دقيق لى ؛ ففى الحقيقة أتمنى متعة المرأة لكنى أخاف الطريق المؤدية إليها ، سواء كانت هذه الطريق زواجا أو صداقة ؛ وأتمنى متعة الشراب لكنى أخاف أن تكون الوسيلة إليها عادةً ترسخ فى نفسى وأنا لا أريد مثل هذه العادة فى سلوكى ؛ وأتمنى متعة السفر والارتحال وأخشى عناءه ، فما أظننى قد أقبلت يوما على رحلة إلا وفى نفسى شىء

ينفر ، حتى إذا ما تمت الرحلة حمدت الله على أنى ارتحلتها وتمتعت بها .

الأحد ٢٢ نوفبر :

المآسى البشرية تحدث كل يوم ، لكن بعضها يلفت النظر لغرابته ، أو لأنه أمسُّ بالشعور ؛ وقد حدثت مأساتان فى نيويورك : الأولى تستوقف النظر بغرابتها ، والثانية تسترعى الانتباه لأنها تمسّ الشعور الإنسانى فى صميمه :

أما الأولى فهى أن زوجة ضربت زوجها بالقادوم — وهو نائم — على رأسه حتى قتلته ، أو حتى ظنت أنه قتل ؛ وجذبت ابنها بسرعة إلى المطبخ ، وفتحت صنابير الغاز لتختنق هى وابنها ؛ لكن حدث وهى فى المطبخ مع ابنها أن سمعت زوجها يئن ، فعادت إليه مسرعة وضربته بكرسىّ على رأسه حتى مات ، وعادت لا لتجد ابنها حيث تركته ، بل لتجد أن ابنها قد فرّ صارخا إلى الجيران يطلب النجدة ؛ وجاء الجيران ونادوا رجال الشرطة وقبضوا على المرأة ، فقصت قصتها ، وهى أن زوجها لم يدعْ الأسرة تستقر فى مكان واحد شهراً على شهر ؛ فهو ينتقل بهم من ولاية إلى ولاية ، ومن مدينة إلى أخرى ؛ فحذرتْه من الانتقال مرة أخرى ، حتى يجد ابنهما فرصة يضرب فيها بجذوره فى الأرض ، فيكوّن المعارف والأصدقاء ، لأنه حتى الآن بغير صديق ؛ لكن زوجها عاد أمس يقول لها : نحن راحلون إلى ولاية أورجون (فى أقصى غرب الولايات المتحدة) فقالت له : لسنا براحلين ؛ فقال : بل سنرحل ، وقد اتفقت فعلا على عملى الجديد .. قالت المرأة للشرطة : فانتظرتُ حتى نام وقتلته ، وأنا الآن مستريحة الفؤاد ، إذ لا انتقال للأسرة بعد اليوم !

وأما الحادثة الثانية فهى أن رجلا متزوجا وله طفلة ، يسكن مع أسرته فى نيويورك ، وقد فقَدَ وظيفته ويحاول البحث عن أخرى منذ ستة أشهر لكنه لم يوفّق ؛ واشتد خجله من زوجته ، فأفهمهما أنه قد وجد عملا ، وظل يخرج فى

الصباح حيث لا يعود إلى داره إلا في موعد انصراف الناس عن أعمالهم ؛ وفى هذه الأثناء يبحث عن عمل فلا يجد ؛ وكان كل شهر يسحب من توفيره مبلغا يساوى ما يمكن أن يكون راتبه ، فيعطيه إلى زوجته ، بل كان أحيانا يعطيها زيادة على اعتبار أن راتبه قد زاد ؛ لكن المدّخر قد نفد ، فكتب خطابا إلى زوجته يقصّ عليها فيه قصته ، وترك الخطاب فى البيت ، وخرج إلى غير عودة ، لأنه انتحر ... أليس عجيبا أن يخفق إنسان كل هذا الإخفاق فى أمريكا المليئة بالعمل والنجاح ؟! لكن هكذا الدنيا وهكذا الناس : يُسْرٌ لبعض وعُسْر لبعض .

ومن أغرب ما قرأت اليوم من أنباء هذا النبأ الذى أثار دهشتى لما فيه من دلالة بعيدة عميقة ؛ وأعنى النبأ القائل بأن « إنسان البِلْت داون » الذى كان معروضا فى المتحف البريطانى بلندن ، والذى كشفت عظامه فى جنوبى انجلترا واتخذت دليلا على الحلقة المفقودة بين القردة والإنسان فى نظرية التطور ، قد تبين أنه خدعة علمية كبرى !! فقد اقترف العالِم الذى أعلن كشفها غشا وتزويراً ، بأن تناول عظاما حديثة وطلاها وزوّر أجزاءها على نحو يوحى بأنها هى العظام القديمة المنشودة ! إننى لفى عجب شديد أن يبلغ التزوير العلمى كل هذا الحد ، ولماذا ؟ ليقال عنه إنه خليق بالتمجيد ؛ أليس هذا إمعانا و إسرافا فى الرغبة فى الشهرة حتى و إن قامت الشهرة على زيف وغش ؟ . . . لكن فيم العجب وأمثال هذا الزيف عندنا فى مصر بالقناطير المقنطرة ؛ فما أيسر على المصرىّ أن ينقل غيره و يكتم خبر النقل ليشتهر بالعلم على حساب غيره . . . ليست الشهرة الزائفة فى المحيط العلمى أمراً غريباً فى مصر ، لكنها فى الحق جد غريبة فى بلد كانجلترا ؛ وقد مرّ أربعون عاما تقريبا والعظام معروضة فى المتحف البريطانى بلندن ، والعالم كله ينظر إليها على أنها الأساس العلمى المتين الذى يدعم النظرية التطورية ، و يكتب المجد العلمى لمكتشفه . . . هذا أقوى دليل على أنه لا علم بغير أخلاق .

الاثنين ٢٣ نوفمبر :

جاءتنى السيدة « ش » الفاتنة الذكية الدءوب ، جاءتنى بعد المحاضرة بثوبها الرمادىّ البديع ، وقرطها الذى يشنُّ كلما حركت وجهها ، تدعونى إلى قضاء يوم عيد الشكر (وهو الخميس الآتى) فى منزلها بمدينة سَمْتر التى تبعد نحو خمسين ميلا عن كولمبيا . . . وراحت تكيل لى المدح كيلاً ، فأنا فى رأيها مدرّس موهوب يلهم النفس ويلب الروح . . . فشكرتُها شكرين : شكراً على الدعوة الكريمة وشكراً على هذا الثناء . . . ألا ما أحوج الإنسان إلى التقدير ، فمن ذا يقنع بنى وطنى فى مصر أن كثيرين منا تهاض أجنحته حتى لا يطير ، بدل أن يُمَدَّ بأجنحة فوق أجنحته ليصعد إلى أجواز الفكر والخيال ؟ فكم من مصرى — واحسرتاه — يشعر بأنه قادر كفء إذا ما خرج من مصر ، حتى إذا ما عاد إليها أعاد إليه إخوانه المصريون شعوره بالعجز والنقص !

تغديتُ فى فندق « ويد هامتن » بدعوة من جمعية قوامها بعض رجال الأعمال ، وكان المقصود أن أتحدث إليهم عن المشكلة المصرية ففعلت ، وكانت حماستى على أشدها ، وأعتقد أننى وفقت توفيقا كبيراً . . . والذى أحب أن أعود إلى ملاحظته فى عجب هو : أين النساء فى هذه الحفلات كلها ؟ إننى لم أكن أتصور قبل مجيئى إلى أمريكا أن تكون « الحفلات » ذات جنس واحد ، فإما هى حفلة للرجال أو هى حفلة للنساء ، لكن ذلك ما رأيتُه ، فالنوادى والجمعيات أكثرها بغير اختلاط الجنسين فى عضويتها ، غير أن جمعيات الرجال قد تعقد حفلات تسميها « يوم السيدات » حيث يصحب كل عضو زوجته أو صديقته ، كما تعقد جمعيات السيدات أياما للرقص فى نواديها ليتاح لكل سيدة أن تستصحب زوجها أو صديقها .

كانت الساعة الخامسة موعداً لموكب كبير يمر فى شوارع كولمبيا ، هو موكب

سنوى يسمونه « كارولاينا كارولن » يقيمونه قبل عيد الميلاد لحفز الناس على شراء حاجاتهم لذلك العيد . . وقفتُ فى وسط الشارع الرئيسى ورأيت الموكب من أوله إلى آخره ، وقد استغرق ساعتين كاملتين ، ولعله أجمل ما رأيت فى حياتى من مواكب ؛ يبدأ بسيارات الشرطة ودراجاتها الآلية لتنظيم صفوف المتفرجين الذين بلغوا عشرات الألوف ، حتى لقد خيل إلىّ أن أهل كولمبيا قد خرجوا من دورهم عن بكرة أبيهم ؛ ويتلو ذلك فرقة موسيقية حربية ، ثم تتلوها عربة جلس فيها ثلاثة رجال على مقعد عالٍ يمثلون شخصيات المدينة ؛ فما كان أشد فرحتى عندما رأيت مستر « ه » هو الجالس فى الوسط ، يلوح بذراعيه ذات اليمين وذات اليسار ؛ وقد لوحت له بذراعى بشدة لعله يرانى لكنه لم يرنى ؛ ثم جاءت بعد ذلك عربة من الزهور البيضاء بلغت الغاية فى الأبهة والفخامة والجمال ، وأجمل ما فيها هؤلاء الغيد اللائى وقفن بأثوابهن البيضاء الجميلة التى تكشف عن أعلى الصدور والظهور ، وقفن ممسكات بلُجُم الجياد . . . كلما مرَّ جزء من الموكب جاءت فرقة موسيقية من الفتيات أو الفتية فى سن الخامسة عشرة أو نحوها ، ولعل هذه الفرق بأرديتها الجميلة أن تكون من أروع ما فى الموكب كله ؛ وكان من الفرق الموسيقية فرقتان للسود . . . ومن مظاهر الموكب أيضاً ملكات الجمال ، فقد دعتْ المدينة ملكة جمال أمريكا — وهى من ولاية بنسلفانيا — فكانت فى سيارة وحدها تجلس على مقعد مرتفع كأنها المعبودة فى موكب العابدين ؛ كذلك كان هنالك نحو عشرين ملكة للجمال جئن من مدن الولاية ، إذ أرسلت كل مدينة فاتنتها كل تمرّ فى سيارتها عاليةً تحيى الجماهير ، وكلهن بالطبع مرتديات ثياب السهرة الجميلة . . ودعتْ المدينة نجما سنمائيا معروفا عند الأطفال ، وهو رُكْ لين ، فكان فى لبس رعاة البقر ، ولم يظفر أحد فى الموكب بمثل ما ظفر به هذا الرجل من تصفيق وترحيب . . ومن مظاهر الموكب البارزة هذه الأمساخ الكبيرة جدا ، التى صنعوها من المطاط المنفوخ ، بحيث يملأ الواحد منها عرض

الطريق وارتفاعه : أفعوان كبير ، وحوت كبير ، وقطار كبير جدا ذو عربات عدة تطل الأمساخ من نوافذها . . . وأخيراً يأتى بيت القصيد ، هى ختام الموكب وهى درة الموكب : عربة كبيرة من أجمل الزهور تجرها غزلان من المطاط ، ويجلس عليها سانتا كلوز .

الفرق الجوهرى بين هـذا الموكب ونظيره فى مصر هو مقدار انتفاعهم هنا بالمادة البشرية ، أعنى طريقة استغلالهم لمجموعات الفتيان والفتيات ، والاستفادة بجمال الفاتنات الغانيات ، فلا بهجة بغيرهن ، ففى كل خطوة من الموكب حسناء فى أروع الثياب ، تشع روعة وفتنة وسحرا ، كأنما هى آية مجسدة أمام الناس على أن الله قد خلق الإنسان فسوّاه وأحسن الخلق والتصوير سبحانه من خالق .

ودعيت فى المساء إلى ندوة لجماعة هى أقرب ما تكون إلى جماعة الروّاد عندنا ، وكان الموجودون من أعضائها نحو ثلاثمائة رجل — ليس بينهم امرأة واحدة ! — وتعشينا عشاء جيداً يخدم فيـه كل آكل نفسه ؛ وكنتُ ضيف الشرف للحفلة ، لـكنهم طلبوا منى أن أبدأ نشاط المساء بكلمة منى ، ودعانى الرئيس وهو يطلب منى الـكلمة فقال : نريد منك أن تصف مشاعرك نحو بلادنا وأن تحدثنا عن زوجاتك الـكثيرات اللائى تركتهن فى حريمك فى الشرق ! فأثنيتُ على بلادهم وأهلها لما شاهدت فيها من كرم ونبل ، ولم أرد أن تفوت مسألة الزوجات الـكثيرات بغير تعليق ، فقلت للحاضرين : أما عن زوجاتى الـكثيرات يا سادة فإنى لا أريد أن أقتصر على ذكر الحقيقة المرة وهى أنى عشت وأعيش وسأعيش بغير زوجة واحدة ، بل أريد أن أضيف إلى ذلك ما أجبت به سيدة إنجليزية كانت سألتنى ذات يوم لماذا يصرّ كل رجل منا على أربع زوجات لنفسه ، فقلت لها وهل تصدقين ذلك ؟ فقالت : وماذا يمنع أن أصدق وهو أمر معروف مشهور عنكم ؟ قلت : إن الذى يمنعك من تصديقه هو أن فى تصديقك لهذا الهراء اتهاما لذكائك ، فهذا مستحيل أولا من الوجهة الحسابية الصرفة ، لأن

تنفيذه يقتضى أن يكون ثلاثة أرباع الناس نساء وربعهم رجال ، أما وقد خلقنا الله كما يخلق سائر الشعوب : نصفا للرجال ونصفا للنساء ، فلا بد فى المتوسط أن يخرج الرجل الواحد بزوجة واحدة ؛ وثانياً هـذا مستحيل من الوجهة العاطفية لأن فينا من يحب زوجته فلا يضيف إليها سواها ، وقد كانت تكون معجزة إلهية لو خلق الله شعبا بأسره لا يعرف الحب ؛ وثالثا هـذا مستحيل من الوجهة الاقتصادية لأن من يستطيع إعالة أسرة ذات أربع زوجات وأطفالهن يعدُّ على أصابع اليدين . . . فصفق لى الحاضرون مع الضحك تصفيقا شديداً .

الثلاثاء ٢٤ نوفمبر :

أذعتُ اليوم أولى إذاعاتى عن مصر وعن الإسلام ، وسأذيع سلسلة منها هنا بغير أجر دعاية لوطنى الذى يجهله الناس جهلا لا يطوف لنا ببال . . لكن طريقة الإذاعة لم تعجبنى ، فهى تجارية إلى درجة لا يطيقها عاقل ؛ كنتُ لا أطيقها مستمعاً ، وهأنذا اليوم أجرّبها من الداخل فلا أطيقها مذيعاً ؛ ذلك لأن إذاعتى مسمار تتعلق عليه طائفة من إعلانات تجارية ! تسألكَ المذيعة سؤالا عن بلدك ، فتحسب السؤال بريئا لوجه الله ، فتجيب ، وإذا بها تستدرجك فى مهارة عجيبة حتى تذكر لها فى إجابتك شيئاً تريده لتقول عنه إعلانا فى يدها ؛ مثال ذلك أن تسألك إن كنا نزرع الفاكهة فى مصر والتفاح بوجه خاص ، لينتهى بها الأمر أن تقرأ صفحة كاملة فى يدها عن « تفاح بيرو » أين يباع وبأى ثمن يباع وما ميزاته على سائر أنواع التفاح . . وهكذا ، وبذلك لا أظننى قد تحدثت عن مصر أكثر من اثنتى عشرة دقيقة من نصف الساعة الذى سُمِحَ لى به ، وبقية الزمن إعلانات قرأتها المذيعة فى مناسبات خلقتها خلقا أثناء حديثها معى عن مصر .

الأربعاء ٢٥ نوفمبر :

قرأت تحليلا أدبيا لزوج عن زوجته ، ولم يسعنى إلا الضحك لشدة ما رأيت

من شبه بين الزوجة الموصوفة — وهى أمريكية — والزوجات عندنا فى مصر ، كأنما الإنسان هو الإنسان فى كل زمان ومكان ! ذلك أن الزوج يذكر عن زوجته فيما يذكره نقطتين : الأولى أنها تشترى من البائعين الذين يطرقون البيوت ، معتقدة أرسخ العقيدة أنها ما دامت قد اشترت على الباب ، فلا بد أن تكون الصفقة رابحة ! وعبثا يحاول الزوج إقناعها أنها مخطئة أحيانا على الأقل ، فالأطباق التى اشترتها بخمسة وستين سنتا للطبق تباع بثمن أرخص من هـذا فى الدكاكين ، لـكن هيهات أن يتغـير اعتقادها . . والنقطة الثانية أنها كثيراً ما تبالغ فى شراء الأشياء التى قد تستغنى عنها الأسرة ، فإذا ما ضاق الزوج ذرعا بهذا التصرف الأحمق ، زعمت له أنها لم تدفع الثمن من حساب المصاريف ، فلا حق له أن يضيق صدراً ، بل دفعته من المال المتجمع فى « الحصّالة » . . ثم يشرح الزوج الـكاتب قائلا : والمال المتجمع فى « الحصالة » إن هو إلا قطع من النقود تسقطها زوجتى كل يوم فى صندوق مثقوب من أحد جوانبه ، وهى بذلك تتوهم — وتريد أن تقنعنى بصدق وهمها — أن النقود لم تعد نقودى ولا هى من حساب المصاريف ، مادامت قد تجمعت فى « الحصّالة » ! . . . لم يسعنى سوى أن أضحك فى مرح لأننى تذكرت السيدة « ح » التى كأنما كتب الـكاتب ليصفها ، مع أنه أمريكى وهى مصرية ! فالزوجات كلهن سواء .

لست أدرى ما الذى حوّل مزاجى فى القراءة هـذا التحول العجيب ؛ فلم يعد يلذ لى إلا قراءة القصص ، أقرؤها بشغف شديد ، وإنما أعنى بطبيعة الحال القصص التى يكتبها ذوو الأقلام الجيدة ، والتى أجد فيها من تحليل الطبائع البشرية ما أستمتع به متعة فنية كبرى ؛ لم أعد أستسيغ ولا أطيق المقالة « الحاف » التى تتكلم بلغة التعميم ، خذ مثلا المقالة التى قرأتها الآن تواً عن سيرڤانتيز ، فـكيف يمكن أن تقاس المتعة التى أستمدها من قراءة هذه المقالة ، بالمتعة التى كنت أستمدها لو قرأت ولو جزءا يسيرا من سير ڤانتيز ؟

على كل حال ؛ إن فكرة قوية تلعب فى رأسى صباحا ومساء ، وهى أن أهمّ بكتابة القصة ؛ إننى أشعر بغيرة شديدة حين أقرأ قصة قصيرة أجاد كاتبها فى التحليل ؛ لماذا لا أكتب مثل هذا ؟ هذه وحدها هى الكتابة ، هذا وحده هو الأدب ؛ والحياة مليئة بالموضوعات ، فكل شخص ممن أعرفهم يمكن أن أستخرج من حياته مواقف تحليلية تضع الطبائع البشرية فى ضوء الشمس ؛ وكل يوم من حياتى بغير استثناء فيه مواقف يصح أن تُذكر ؛ كم موقف يمكن استخراجه — مثلا — من حياة « ح . ز » و « ع » و « ه » و « س » الخ الخ . . . !؟

لقد قرأت اليوم قصتين قصيرتين بارعتين ؛ الأولى تحلل فتى ريفيا فى طباعه أراد أن يشتبك فى علاقة غرامية مع فتاة مصقولة من فتيات المدن ؛ هو جاد وهى هازئة . . أليست حياتى الشخصية مليئة بمثل هذه الخبرات فيمن أعرف من الناس ؟ فلماذا يقع الكاتب هنا على موقف كهذا فيجيد تحليله ولا نقع نحن مع أنه كائن فى صميم حياتنا ؟ . . . والقصة الأخرى كاتبتها امرأة ، هى قصة فتاة تسابق على حبها شابان أحدهما محتال دجّال والثانى مخلص صادق ؛ ولم تفعل الكاتبة سوى أن عرضت صورتين للشابين : كيف يتصرفان إزاء الفتاة . . هذه هى الحياة ، نراها ، ونعيشها ، فلماذا لا نكتبها ؟ !

الخميس ٢٦ نوفمبر :

اليوم « عيد الشكر » وهو عيد أمريكىّ يغلب فيه أن يكون الديك الرومى محور الغداء ؛ وأنا مدعو اليوم عند الكابتن « ش » وزوجته السيدة « ش » التى تحضّر لدرجة الأستاذية فى الفلسفة ، وتحضر لى محاضرات الفلسفة الإسلامية ؛ وهما يسكنان فى « سَمْتَر » فى داخل مطار حربى هناك ، وهى مدينة تبعد عن كولمبيا نحو خمسين ميلا .

جاءت السيدة « ش » وزوجها ليأخذاني بسيارتهما ، وقد كانت السيدة كعادتها دائما معنية بلبسها و بقرطها ؛ وهي اليوم تلبس عقداً من نوع القرط ، وكلاهما من فضة مرصعة بما يشبه فصوص الماس ... حدثاني في الطريق عن حياتهما ، فكلاهما تخرج في جامعة تكساس ، كانا زميلين ، غير أن السيدة قد سبقت زوجها في التخريج بعام ؛ وكنتُ أقدر لهما من العمر ثلاثين عاما ، لكني لما علمت اليوم أنها تخرجت منذ عامين ، رجحتُ أن يكونا أصغر من ذلك بكثير ، والوجوه كثيراً ما تخدع عند تقدير الأعمار .

دخلنا في قلب المطار الحربي حيث يسكنان ، فهناك مجموعات من المنازل لرجال المطار ؛ والكابتن « ش » وزوجته يسكنان منزلا ذا غرفتين هما غاية في الأناقة والبساطة وحسن الذوق ؛ ويسكن بجوارهما شاب وزوجته وطفلتهما ، الشاب هو الآخر كابتن في الطيران ، غير أن اختصاصه هناك هو التنبؤات الجوية ؛ ولم نكد نصل حتى جاء هذان الزوجان ، فهما كذلك مدعوان معي على الغداء في منزل « ش » .

تركنا الزوجتين تعدان الطعام ، وذهب ثلاثتنا للطواف بالمطار ؛ وكان أول مكان زرناه هناك هو المكان الذي يعمل فيه الكابتن « ك » في التنبؤات الجوية : صفوف من الآلات شبيهة كلها بالآلات الكاتبة ، تدق كما تدق الآلات الكاتبة ، تدق وحدها بطريقة آلية ، وتنظر في المكتوب فتجد أن الآلات ترصد حالة الجو في أنحاء الولايات المتحدة كلها في تلك اللحظة ؛ فالحرارة الآن في نيويورك كذا ، وفي ميشجان كذا الخ ؛ وكل آلة مختصة بشيء ترصده : هذه للحرارة وتلك للضغط الجوي وثالثة لاتجاه الريح ؛ ومن هذه الورقات التي تخرجها الآلات ترسم الخرائط فوراً ، لتعرض على نحو يمكنك في نصف دقيقة أن تنبئ

عن الجو فى أى مكان من الولايات المتحدة كلها .

وأخذنا الكابتن « ك » بعد ذلك إلى حيث صفوف الطائرات رابضة ، وأطلعنى على الطائرات النفاثة والطائرات ذوات المحركات العادية ، وطلبت منه أن يفرق لى تفرقة مختصرة واضحة بين النوعين من الطائرات ففعل ، وعرفت منه فى وضوح أن الطائرة النفاثة تخلخل الهواء وراءها ، وهذه الخلخلة من تلقاء نفسها تدفع الطائرة إلى أمام .

عدنا إلى المنزل وجلسنا إلى مائدة الغداء ، وقبل أن نبدأ الطعام ، شبكنا أيدينا وطأطأنا رءوسنا ريثما يدعو الكابتن « ش » دعاءه الدينى ، فقال عبارة خيل إلىّ أنه أعدّها وحفظها لمناسبة وجودى : « أشكرك يا رب على ما أمامنا من طعام ، وأدعوك يارب أن تعطى من ليس عنده مثل ما عندنا من طعام وثياب ومأوى ؛ أشكرك يا رب على أن جعلت لنا هـذه البلاد وطنا ، فنتمتع بما فيه من حرية رأى وديمقراطية ؛ وأدعوك يا رب أن تهب البلاد التى لا تتمتع بمثل هذه الحرية مثل ما وهبتنا ... » .

دار حديثنا بعد الغداء فى السياسة ، وكانت البداية أن سألتنى السيدة « ش » إن كان المنتظر أن يعدم مصدق فى إيران ؟ قلت لا أدرى ، لكنهم لو أعدموه فإنى أحزن عليـه ؛ فقالت : وكذلك أنا ، فإنى أحزن عليه أشد الحزن ؛ قال الكابتن « ك » : إن أكبر عيب فى مصدق هو رأيه فى أن تستقل إيران عن العالم ، وليس هناك دولة فى الدنيا تستطيع لنفسها هذا الاستقلال ؛ فقلت : على شرط أن تختار كل دولة طريقة اتصالها بالدول الأخرى ؛ وسرعان ما جذب الحديث قناة السويس ؛ وطبعا أخذتنى الحماسة واشتد بى الانفعال وأنا أتحدث عن مصر وانجلترا ، وما كان لى أن أفعل لأننا فى جلسة عائلية ضيقة ، لا يجوز فيها مثل هذا الانفعال .

جاء ذكر الإذاعة فى أمريكا أثناء الحديث ، فقلت إن الإعلانات التجارية فيها أكثر من المعقول ، فما أشد عجبى حين لاحظت فورا أن كابتن « ك » وكابتن « ش » لم يعجبهما أن أنتقد شيئاً ؛ ظهر لى ذلك من طريقة إجابتهما المبتسرة : « نحن نريد إذاعتنا كما هى » . . فعرجت بالحديث إلى موضوع آخر ، دَهِشا أن تكون الحساسية عندهما على هذه الدرجة التى تتأثر للنقد التافه ؛ وأدركت الموقف فانتهزت أول فرصة سنحت ، وجعلتُ أثنى على الحياة الأمريكية ثناء قد أكون بالغت فى بعضه ، لكن الكلام كان ينزل على قلوبهم بردا وسلاما !

غربت الشمس ، واستعد كابتن «ش» وزوجته لإعادتى بالسيارة إلى كولمبيا ، وقد سمعتهما يبديان رغبة أن يذهبا هناك إلى سنما ، فدعوتهما لمشاهدة فلم مارتن لوثر الذى بدأ عرضه فى المدينة منذ قريب . . . لا زلت أعجب لشدة تعلق الناس هنا بعقيدتهم الدينية ؛ فما كان أشد ارتياح كابتن « ش » وزوجته بالفلم الذى رأيناه عن مارتن لوثر والبروتستانتية ، لأنها مذهبهما فى الدين ؛ فليس ارتياحهما ناشئا عن مشاهدة فلم جميل أو قصة جيدة ، بل ناشئ عن شعورهما الدينى رغبة فى انتصار للمذهب الذى يدينان به . . . ومما هو جدير بالذكر فى هذه المناسبة أن الكنيسة البروتستانتية تنشط فى توزيع تذاكر مخفضة القيمة ليشهد هذا الفلم أكبر عدد ممكن ، وقد جاءتنى ثلاث تذاكر منها ، هى التى استخدمتها فى دخولنا الليلة .

أخذت الكابتن « ش » وزوجته إلى مطعم ليشربا معى القهوة بعد خروجنا من السنما ، وهو المطعم الذى اعتدت ارتياده ، فلما قدَّمتْ لنا المناولة أقداح القهوة ، سقطت قطرات منها فى أحد الأطباق ، وعرضتُ أن يكون هذا طبقى إكراما لضيفىّ ، لكن المناولة أصرّتْ أن تجيئنى بفنجان آخر ، قائلة : أنت ضيفنا جميعاً ، وضيوفك ضيوفنا ، فليس الأمر مقصوراً على أنه مطعم وزبائنه ، بل هو أكثر من ذلك ، هو علاقات إنسانية قبل كل شيء . . . شكرتُها ، ولما انصرفتْ استأنفنا

ما كنا فيه من حديث ، وهو بعض مذكراتى التى أكتبها عن أمريكا ، فسألنى الكابتن «ش» ماذا أجد فى يوم كهذا لأكتبه ؟ فقلت له : كل ما رأيته عندك من ضيافة جدير بالتسجيل ؛ ثم ألم تسمع ما قالته هذه المناولة الآن ؟ إنه جدير بالتسجيل بالخط العريض ، لأن هذه هى أمريكا الحقيقية التى لا يقرؤها الناس فى الصحف !

الجمعة ٢٧ نوفمبر :

فى صحيفة اليوم قصة عجيبة : اختفى رجل منذ اثنين وعشرين عاما ، وكانت سنُّه إذ ذاك ثمانية وعشرين ، وكان متزوجا وله ثلاثة أولاد ؛ و بعد اختفائه بقليل اختفت سكرتيرته التى كان عمرها إذ ذاك اثنين وعشرين عاماً ؛ ولم يعثر أحد لهما على أثر طوال هـذه المدة ، حتى لقد اعتبرهما القانون « ميِّتين بحكم القانون » فتزوجت زوجة الرجل المختفى من رجل آخر ، وكان للفتاة المختفية إرثٌ يبلغ مقداره مليونا من الدولارات فتحول إلى أقرب أقربائها وهو ابن عمها ؛ وكان للرجل فى شركة التأمين خمسون ألفا من الدولارات فأخذته زوجته وأولاده على اعتبار أنه قد « مات بحكم القانون » . . . حتى كان أمس ، أعلن الرجل المختفى « وزوجته » — بعد أن اختفيا وتخفّيا اثنين وعشرين عاماً — أعلنا حقيقة أمرهما ، وهى أنهما تحابّا ولم يستطع أحدهما أن يستغنى عن الآخر ، فاتفقا على الفرار والاختفاء ، ليعيشا معاً فى مأمن من المجتمع والقانون ، ولم يكن معهما إذ ذاك إلا الثياب التى تغطى جسديهما ، فغامرا ولقيا أصعب الصعاب ، حتى استقر بهما الحال وتزوجا باسمين منتحلين ، وأنسلا ستة من الأبناء والبنات ، وتزوجت كبرى بناتهما وأنسلت لهما حفيدا ، وثانى أولادهما الآن فى الخدمة العسكرية . . .

بماذا نحكم عليهما ؟ لا شك أن سلوكهما يخالف القانون والشرع المسيحى ؛ لكن ألم يعيشا معاً سعيدين اثنين وعشرين عاماً ؟ ألا تكون إباحة الطلاق من

جهة ، و إباحة تعدد الزوجات من جهة أخرى أمرا قد تكون له ضرورته فى ظروف استثنائية كهذه ؟ فلو كان مباحا للرجل أن يتزوج من اثنتين لهانت الصعاب ولتزوج الرجل من حبيبته إلى جانب زوجته الأولى إذا أرادت هذه البقاء معه . . . الحق أنى لا أدرى بماذا أحكم عليهما ، لأننى أمقت الطلاق وألعن تعدد الزوجات ، لكن الحياة وظروفها والقلوب ومشاعرها أوسع جداً وأعقد جداً من كل قانون وتشريع .

أراد الصحفيون أن يوجهوا الأسئلة إلى الزوجة الثانية — وعمرها الآن أربعة وأربعون عاماً — فأجابتهم جوابا واحدا : إنى سعدت مع حبيبى اثنين وعشرين عاما ، ولا أزال سعيدة معه ، وسأظل سعيدة معه حتى أموت ، ولمن شاء بعد ذلك أن يقول ما شاء .

السبت ٢٨ نوفمبر :

حدث هنا فى مدينة كولمبيا حادث بسبب التفرقة اللونية ؛ فهنا معسكر حربى فيه جنود من البيض ومن السود على السواء ، وقد جاء بعض الجنود السود من ولايات أخرى لا يحرم قانونها اختلاط اللونين ، فخرج اليوم أحد هؤلاء من معسكره إلى المدينة ، فركب سيارة عامة ، وجلس فى النصف الأمامى المخصص للبيض وحدهم ، محتجا بأنه لا يعترف بهذه التفرقة اللونية ، فهو من ولاية كذا من ولايات الشمال التى لا تفرقة فيها . يحكم القانون بين أبيض وأسود ؛ لكن السيدة التى جلس إلى جانبها فى السيارة طلبت منه أن يغادر مكانه إلى النصف الخلفى المخصص للسود ، فرفض الجندى ذلك ، فتدخل السائق وطلب منه الطلب نفسه لكنه رفض القبول ، فنودى شرطىٌّ ، وسرعان ما نادى الشرطىُّ زملاءه بواسطة اللاسلكى فى سيارته البوليسية ، فجاءت فرقة كبيرة .. فى هذه الأثناء انضم إلى الجندى الأسود الثائر عدد كبير من زملائه الجنود السود ، وانضم إليهم ضابط

زنجى ، ظن أنه بحكم رتبته العالية يستطيع أن يأمر البوليس بالانصراف فيطيعوا ؛ لـكن رجال البوليس قبضوا بالقوة على الثائرين الزنوج وعلى رأسهم الضابط ، وحوكم الجميع فوراً ، فحـكم عليهم بغرامات مختلفة ، أعلاها الغرامة التى حكم بها على الضابط ، إذ حكم عليه بغرامة قدرها مائتا دولار .

وأذاعت قيادة المعسكر فى رجالها بيانا تقول فيه إنه على الرغم من أنه ليس فى داخل المعسكر تفرقة لونية ، إلا أن القيادة تنتظر من رجالها أن يحترموا قانون الولاية التى هم الآن على أرضها ، إذا ما خرجوا عن حدود معسكرهم ، فعندئذ ينبغى أن ينطبق عليهم ما ينطبق على أى مواطن آخر .

الأحد ٢٩ نوفمبر :

الجو رائع ، لا يكون أروع منه جوٌّ فى الدنيا بأسرها ، فاستخسرتُ أن يضيع هذا الجو الجميل وأنا سجين غرفتى ... وقفتُ أمام المرآة الـكبيرة ، وقلت لصورتى فيها : أنت فى أمريكا والجو رائع هذه الروعة كلها ، فـكيف تظل سجين غرفتك ؟ فقالت لى صورتى : قبل أن تـكيل اللوم ، قل لى أين أذهب ؟ فقلتُ : أخبط فى الشوارع مشياً كما اتفق ! فقالت صورتى : لـكن الشوارع خالية ، اليوم يوم الأحد ؛ البيوت مقفلة على أصحابها ، والدكاكين مغلقة على بضائعها . . . ومع ذلك فاصبر قليلا ، اصبر ساعة ونصف ساعة ، وعندئذ ستخرج إلى الغداء ، فامشِ بعد الغداء حتى تشبع قدميك مشيا ، وأراهنك أنك ستعود بعد مشى لا يدوم أكثر من دقائق .

وماذا أصنع فى هـذه الساعة ونصف الساعة التى بقيت إلى موعد الغداء ؟ أحَضِّر محاضرات الغد ؟ السم الزعاف أهون . . . أقرأ ؟ لقد قرأت أمس عشر ساعات متوالية فرحمة بعينيك . . أكتب ؟ أى والله هذا خير ما أصنع ؛ لـكن

ماذا تكتب ؟... اكتبْ أى شىء ، ما أول خاطر يأتيك ؟ أول خاطر هو . . .
هو . . . لا خواطر !

لا ، فكر قليلا ، واكتب فى أول خاطر يرد إلى ذهنك على أى نحو يجرى به قلمك ؛ وماذا يكون أول خاطر سوى هذا الذى يعاودنى ألف مرة ، هو جناية الآباء على أبنائهم ، إذ يخرجونهم إلى هذا العالم بعد أن يحطموهم ؛ فيخرج الابن محطم النفس ليصير بدوره أباً ينسل البنين ، فيحطم بنيه بدوره ... من الذى يمسك لسانى حين أريد الكلام ؟ ومن الذى يقيد ذراعىّ حين أريد الحركة ؟ ومن الذى يغلّ قدمىّ حين أريد السير ؟ من فعل ذلك كله غير ذلك الذى ربانى فأخرجنى إلى العالم مغلول اللسان والذراع والقدم ؟ إن نفسى لتقطر مرارة !

كنت أوجه الحديث إلى صورتى فى المرآة ، فاستمعتْ إلىّ ، وفكرتْ ، ثم قالت : امسك القلم واكتب ما أمليه :

كان الفتى فى سن الثامنة عشرة ، وكانت الفتاة فى الخامسة عشرة من عمرها ؛ وأمسك الفتى بالفتاة وضربها على رأسها ضربة أفقدتها وعيها ؛ ثم بحبْل رفيع خنقها ، وأمسك بمقص يقصّ عنها ثيابها وهو فى نشوة ... وهنالك أمسكوه مجرماً ، وحوكم وقضى عليه بالموت سفاكا خطيراً ؛ فلم يلبث أن تلقّى القاضى الذى أصدر هذا الحكم خطاباً من فتاة فى الخامسة والعشرين ، هى طالبة فى الدراسات العليا بإحدى الجامعات ، تقول فيه : لقد أكل الدهر على القانون وشرب ؛ تقدم العلم ولم يتقدم القانون ليساير الزمن ! والقضاة جهلة قساة ... ما أكثر ما يكون المجرم فريسة تنوء تحت عبء ثقيل ، هو العبء الذى ألقته على كتفيه الأيام والظروف ... أنا أخت هذا الفتى الذى أعدمتموه ، وسأقص عليك شيئاً عن الظروف التى نشأتُ فيها مع أخى ، لتدرك إلى أى حد أنتم تظلمون ! إن الإنسان لا يفقد صوابه ورشده بين عشية وضحاها ، بل لا بد له من مقدمات طويلة تمتد على سنوات طوال ؛ فإنى لأذكر أخى وهو بعدُ طفل صغير يعانى من أبويه ما يعانى ، كان

يضحك فجأة أو يبكى فجأة ، ولا يفهم الوالدان لذلك سبباً ، فيضربانه ضرباً مؤلماً ، أو يغمسانه فى حوض ملئ بالماء الساخن ليهدأ ؛ ومضى وقت طويل قبل أن تشاء الظروف أن يفحصه طبيب فيجد أن جزءا من مخه تالفٌ ، هو الجزء الذى يستخدمه الإنسان فى ضبط نوازعه الحيوانية ... إن طفلا كهذا كان لا بد أن يتعذر عليه الملاءمة بين نفسه و بين أسرته ، حتى لو كانت أسرته سعيدة ، فما بالك والأسرة التى نشأ فيها جهنم وجحيم ؟ وسأسوق نفسى مثلا .

فلست كأخى مريضة ولا معتوهة ، ولدتُ سليمة العقل ، بل إنى فوق المتوسط المألوف فى ذكائى ؛ إننى لا أريد الآن أن أتواضع ، فليس هذا أوان التواضع الزائف ؛ لكننى لقيت من أبوىّ ما لقيته من قسوة وجهل بطبائع الطفولة ما ملأنى مرارة ، وكنت أحاول أن أفرّ من هذا الجو المسموم بالقراءة و بصحبة الأصدقاء ؛ وهو ملاذ لم يجد أخى المريض سبيلا إليه ؛ كان فى مدرسته أضحوكة الضاحكين من زملائه ، وكان فى البيت موضع سخط الوالدين الغاضبيْن دائماً ، المعتركَيْن دائماً ... كان أبى أو كانت أمى تضربه بكتبه على رأسه ، لأنه ولد خائب يجلب على أبويه العار .

بلغتُ من عمرى السادسة عشرة ، وكنت كلما كبرتُ عاماً من الزمن ، ازددت ثورة نفسية وازددت مرارة وسخطاً ، حتى عجزتُ عجزاً تاماً أن أجرّ قدمىّ إلى المدرسة ؛ وأذكر ذات مساء أن خلعتْ أمى عن جسدى الثياب وضربتنى على ظهرى بحزام من الجلد ، وما كادت تتركنى حتى هممتُ بالانتحار خلاصاً من هذا العالم الوبيء ، فلم أستطع ... أتدرى ماذا صنعتُ بعدئذ ؟ تحولتُ منذ الصباح التالى عاهرة تعرض جسدها على كل من أراد أن يستمتع به من زملائى ؛ لم آخذ من أحد مالاً على متعته ، ولا أقول إنى كنت فى ذلك أنشد المتعة الجسدية ، فما أقل ما وجدتها حينئذ ، وما أكثر ما شقيتُ ، ولكنى لم أزل عارضة جسدى كل يوم على من شاء ... وأسأل نفسى الآن : لماذا ؟ وأجد الجواب حاضراً : لأجد كل

يوم شخصاً يُظهر لى علامات الحب حتى ولو كان حبًّا زائفاً ؛ كان ذلك منى ضرباً من الانتقام من والدىّ .

حاجة الإنسان إلى عطف هى — يا سيدى القاضى — أشد وأقوى ما يدفع الإنسان فى هذه الدنيا إلى سلوكه الذى يسلك .

وقضيتُ فى انتقامى العاهر أعواما ، ثم قابلت فيمن قابلت شابا عرفنى ، ولعله لمس قلبى وما يكنّه من أخلاط المشاعر والدوافع ، فطلب الزواج منى ، وقبلتُه زوجا ، حيث نعيش الآن زوجين . . لا أظننى كنت أحبه عندئذ حب المرأة للرجل ، لـكنى قبلته زوجا لأفرّ مما كنت فيـه ؛ ومنذ ذلك الحين مضيت فى دراستى الجامعية ، أزيح عن نفسى قليلا قليلا ما تركه أبواى من رواسب السم .

لقد حكمتَ على أخى بالموت — يا سيدى القاضى — وهأنذا قصصتُ عليك تاريخى لتعلم فى أى بيئة نشأنا ؛ إن أخى قد قتل فتاة فى جسدها ، فحـكمتَ عليه بالموت ؛ وأنا أسألك الآن : ماذا أنت صانعٌ بو الدين تآمرا على قتل نفسين : نفسى ونفس أخى ؟ أم أن قتل النفوس عندكم فى القانون حلال مباح ؟ . . .

أملتْ علىّ صورتى فى المرآة هـذا كله ، فسألتُها : أَنَّى لك هذا ؟ فقالت : وما جدواك أن تعرف من أين ؟ إن هذه القصة إن لم تـكن من الحياة الواقعة فهى واقع ، و إن تـكن خيالا ، فهو خيال يشبه الواقع .

مضت ساعة و بقيت نصف ساعة على الغداء ، سأ كتب فيها شيئاً قرأته الآن ، هو خلاصة حديث أدلت به زوجة الـكاتب المعروف « ولْ ديورانت » — الذى أدين له بشىء كثير — فقد ذكرتْ الزوجة فى حديثها كيف كان لقاؤها مع زوجها لقاء أنتج الزواج ؛ وهو حديث قالتْه الزوجة بمناسبة صدور جزء جديد من سلسلة المجلدات التى يخرجها «ول ديورانت» فى « قصة الحضارة » .

قالت « آريل » — زوجة ديورانت : نشأتُ فى نيويورك ، وكرهتُ

المدرسة التى كنت أرتادها ، حتى لقد كنت أنحرف من نصف الطريق إلى المدرسة ، وأذهب إلى حيث أقضى الوقت فى اللعب ؛ وكنت ألعب ذات يوم فى الحديقة العامة ، فجاءت امرأة ومعها مجموعة من أطفال ، وقيل إنها مدرّسة وهؤلاء تلاميذها ، فلم أصدّق ، لأن العلاقة بينها و بينهم كانت علاقة أم بأبنائها ؛ وأحببتُ أن أرافقهم فجلست معهم ، ولما سئلت من أنا ؟ قلت : إذا كانت هذه مَدْرَسة فأنا من تلميذاتها . وهكذا ظللت أياما أجلس بين تلميذات هذه المدرسة التجريبية التى أحببتُها ؛ حتى ذهبتُ يوما غابت فيه المدرِّسة وجاء مكانها رجل هو هذا (وأشارت إلى زوجها وِلْ ديورانت) وهو الذى أصبح زوجى وكونت معه أسرة لم أر أسعد منها ؛ كانت سنُّه عندئذ ثمانية وعشرين عاما ، وكنت فى الخامسة عشرة ، كان الفرق بيننا كبيراً ، لكن كلا منا أحب الآخر ؛ فليس مستحيلا أن تحب فتاة عمرها خمسة عشر عاما رجلا عمره ثمانية وعشرون ؛ كان زوجى يقول إن أرسطو من رأيه أن المرأة تسبق الرجل فى النضوج بخمس عشرة سنة ، فإن كان ذلك كذلك ، فقد كنت زميلة لزوجى فى درجة النضوج . . كنتُ طفلة فى بعض نوازعى ، فتعهدنى بالتربية حتى أحببت كل ما يحبه هو . . إننى أعتقد أن زوجى من نوابغ القرن العشرين ، ولم يكن يسيرا على أى امرأة أن تشارك مثل هذا الرجل حياته ، لكن الحياة معه جديرة بالعيش !

مشيت بعد الغداء نصف ساعة أو نحوها ، وكان الجو جميلا رائعا : شمس مشرقة وسماء صافية و برد خفيف يمكّن من المشى ولا يرهق البدن ؛ لكنى عدت إلى غرفتى ثقيل القلب محزون الفؤاد ، ولست أدرى لهذا الغمِّ سبباً ، فلماذا تكون الشمس مشرقة والنفس غائمة ؟ إنى أشعر بضيق شديد ، أشعر بوحشة وعزلة ؛ فتحتُ الراديو ساعتين كاملتين ، و برنامج الإذاعة يوم الأحد هنا يكون عادة جيد الاختيار ، فسمعت غناء لأشهر المغنّين فى برنامج يسمونه « الأصوات الذهبية » و يذيعونه كل أحد ؛ كذلك سمعت قراءات أدبية ممتازة ، ينطق بها

أشهر الممثلين وأشهر القراء ، فسمعت نجوى هاملت المشهورة : « أبقاء أم فناء ؟ تلك هي المشكلة » يقرؤها چون باريمور قراءة غاية فى الجودة ، ثم قراءة من الإنجيل عن جنة عدن يقرؤها تشارلس لوتن ، من أبدع وأروع ما يمكن أن يسمعه إنسان فى حياته ؛ وكذلك سمعت قراءات من الشعر الإنجليزى يقروها قراء مجيدون .

كلها أشياء من طبيعتها أن تسرّى عن النفس ، لكن الغمّ قائم لا يزول ؛ أعددتُ لنفسى الشاى وشربت ثلاثة أقداح منه ، وتحسنت حالى بعض الشىء ، لكنى قلق لا تستقر بى جلسة ولا رقدة . . لقد سمعت قصة الشجرة المحرمة منذ دقائق يقرؤها تشارلس لوتن من الإنجيل . فسمعت فيها أن آدم وحواء كانا عاريين ولم يكونا يشعران باستحياء من ذلك العرى ؛ كانْ ذلك قبل أكلهما من الشجرة المحرمة ، شجرة المعرفة ، معرفة الخير والشر ؛ فلما أكلا منها ، كان أول ما أحساه خجلا من عريهما ، فغطيا نفسيهما بورق الشجر ، لكن العرى لا يزال باديا ، والخجل لا يزال قائما ؛ وهنا ناداه ربه : يا آدم ، فأجاب آدم من بُعْد واستحيا أن يقابل ربه عاريا ، فقال له ربه : إذا كان قد أخذك الخجل من عريك ، فلا بد أن تكون قد ميزت الخير من الشر ، وإذن فلا بد أن تكون قد أكلت من الشجرة المحرمة ، فلماذا عصيتنى فيما أمرتك به ؟ . . .

وإنى الآن لأطبّق هذه القصة على نفسى ، وعلى القلق الذى ألمّ بى وغمّنى ، فأقول إننى كلما ازددت معرفة بنفسى ازددت يقينا بما يملؤها من عُقد ؛ وكلما أدركت أنها نفس مريضة ازددت قلقا بل ازددت خجلا ؛ قلت لنفسى : إنك لم تكن بهذا العجز كله فيما مضى ؛ وأخذتُ أتذكر أيام طفولتى وشبابى ، فلم أتذكر إلا جرأة على المجتمع . . والآن قد عرفت لماذا يزداد ارتباكى كلما كبرت ، وكان العكس أحق أن يقع ؛ فالسبب هو أنى عرفت نفسى حين ألقت بها الظروف فى

أوساط مختلفة .. أتكون معرفة الإنسان لنفسه وتحليلها مصدراً لشقائه ، كما كانت معرفة آدم للخير والشر بداية لعنائه ! ؟

الثلاثاء أول ديسمبر :

قرأت فى مجلة « لايف » موضوعا شائقا بالصور الجميلة عن الحيوانات البحرية كيف تعيش فى جوف المحيط : كيف تعيش فى ظلام القاع الذى لا ينفذ إليه شعاع من ضوء ؟ كيف يفتك بعضها ببعض ، كيف أعدّ كل نوع منها بطرائق التخفّى وأساليب الهجوم والدفاع . . كل ذلك معروض عرضاً يجعله أقرب إلى القصص الممتع منه إلى الوصف الطبيعى الصادق .

ويكفى أن أفكّر فى موضوع واحد كهذا ، ماذا صنعت المجلة لتجمع مادته ، ثم أسأل نفسى ماذا تفعل مجلة مصرية فى الموضوع نفسه إذا أرادت أن تنشر عنه شيئاً ، أقول إنه يكفى أن أفكر فى موضوع واحد كهذا فى مجلاتهم ومجلاتنا لأدرك لب الفرق بين شعب وشعب . فمجلة « لايف » هى التى أرسلت المصورين وهى التى جمعت المختصين بدراسة الحيوانات البحرية ، ولبث عملاؤها ثلاثة أعوام فى رحلات بحرية ، يغوصون فى قاع المحيط ويلاحظون ويصورون ويصفون . . فالمسألة كلها من أولها إلى آخرها من تدبير المجلة ، تفكير وابتكار ومغامرات وعلم وكتابة وتأليف وتنسيق ... أما المجلة المصرية فماذا تصنع ؟ تنقل عن مجلة «لايف» ما كتبته وصورته ، ثم يقول لك الناقل بعد ذلك إنه أديب ! خلط وجهل وادعاء .. ها هنا كل الفرق بيننا وبينهم ، فليس الفرق المهم هو ثراؤهم وفقرنا ، بل هو ابتكارهم وعجزنا . . يستحيل أن نتقدم تقدما حقيقيا إلا إذا كان لنا ابتكار ، إلا إذا بدأت الأفكار من عندنا أحيانا ، أما أن يبتكروا هم الطيارة ونحن ننقلها ونقول إن لدينا مهندسين كمهندسيهم ، وأن يبحث علماؤهم فى الطب والفيزيقا والنفس وما إلى ذلك ، فنحفظ ما كتبوا ثم نقول إن منا العلماء فى الطب والفيزيقا والنفس ؛

فإغماض لأعيننا عن سرّ التقدم وسرّ المدنية كلها ، بل سرّ الإنسان ، وهو الابتكار ؛ يعوزنا إدراك هذه الحقيقة فى وضوح ، وهى أن الفرق بعيد بعد ما بين الأرض والسماء ، بين المبدع الخلاق المبتكر وبين من يسير بعد ذلك فى الطريق وقد شُقَّ وعُبِّد بمغامرات المغامرين وتفكير المفكرين ؛ الفرق بين هذا وذاك هو نفسه الفرق بينى فى رحلتى إلى أمريكا وبين كولمبس حين ارتحل مخاطراً مغامراً مفكراً مدبراً .

الأربعاء ٢ ديسمبر :

ذهبت مع الدكتور « ف » إلى ناد هو عضو فيه ، « نادى الكتاب الخالد » ؛ وأعضاؤه جماعة تجتمع مرة كل أسبوعين ، وهى تقرر فى كل مرة كتابا من الكتب الخالدة العظيمة يقرؤه الأعضاء ثم يجتمعون للمناقشة فيه ؛ وقد علمتُ منهم الليلة أن مثل هذه الجمعية موجود فى كل أنحاء الولايات المتحدة ؛ والكتاب الذى قرأه الأعضاء وناقشوه فى هذه الجلسة كتاب للأديب الفيلسوف الرومانى «لوسيان» .. وعند انصرافهم قرروا للجلسة الآتية كتابا لتوماس الأكوينى .

ولما عدتُ إلى غرفتى فى المساء ، قرأتُ فى مجلة « پوست » أولى مقالتين عن الرحلة التى قام بها بعض الرحالة محاولين بها الصعود إلى قمة جبل قره قورم فى باكستان ؛ وهى القمة التى تتلو قمة إفرست ارتفاعا . . وصف الرحلة دقيق ملىء بالحياة والحركة ، ولا يسعك وأنت تقرأ إلا أن تشارك الكاتبين (فقد اشترك فى المقالة كاتبان من بين الرحالة أنفسهم) فى الصعود وفى الصعاب التى لاقاها الرحالة وفى الفرح الذى شعروا به كلما حققوا شيئاً فى رحلتهم .

ومرة أخرى أسأل نفسى : ما الفرق بين هذا الموضوع يكتب فى مجلة أمريكية وبينه هو نفسه يكتب فى مجلة مصرية ؟ والجواب هو : إن الذى يكتب هنا هما كاتبان اشتركا فعلا فى هذه الرحلة ، فهما يكتبان خبرات خاصة ويصفان جهداً

خاصاً نبض له قلباهما . . وأما إذا كتبته مجلة مصرية فلا حيلة لها سوى أن تلخص ما كتبته المجلة الأمريكية — وأقول « تلخص » ولا أقول « تنقل » لأن من يقوى على متابعة التفصيلات بين قرائنا يعدون على أصابع اليدين — والمصيبة الكبرى أن من يلخّص عن المجلة الأمريكية سرعان ما يقول عن نفسه ، وقد يقول عنه الناس ، إنه أديب ! . . . وأعود فأقول يائسا ألا فائدة من هذه الحال ولو قضينا ألف ألف عام ! فستظل المدنية مدنيتهم ، والجهد جهدهم ، والتفكير تفكيرهم ، وأما نحن فسننقل من هـذا كله لمحات عابرة ، وكفى الله المؤمنين شر المغامرة والمخاطرة والجهد والتفكير !

الخميس ٣ ديسمبر :

عرفت مدى حبي لمصر حين رأيت كيف أخذتني النشوة عندما قرأت هذا الصباح لأول مرة نتيجة الانتخابات فى السودان ، التى جاءت مشرفة باهرة ؛ نشوة كأنما هبطت عليّ ثروة مفاجئة ، فنبض قلبي وقمت عن مقعدى لأجلس مرة أخرى ، ثم قمت لأجلس على الكنبة ، ثم قمت فأعددت فنجانا من القهوة . . . قلقت قلق المسرور الفرح . . وكتبت مجلة « تايم » فى ذلك متهكمة ساخرة ، إذ قالت فى أول مقالها : « فى الجنوب الاستوائى ، وعلى الضفة اليسرى من النيل الأبيض ، جلس ملك الشلوك تحت شجرة من أشجار المانجو ، مرتديا ثوبا أبيض ، وماسحا بكفه على لحيته الخشنة ؛ وجاء رعايا جلالته الأميون فقبّلوا قدميه السوداوين ، وسألوه : لمن نعطى أصواتنا ؟ فأجاب الملك : اسألوا الرجل الأبيض » .

وكان هناك بريطانىٌّ فى سراويله الكاكية القصيرة ، واقفا على مقربة منهم فى كوخ من الطين ذى سقف من القش ؛ هذا الكوخ هو مركز الانتخاب ، وتردد الناخبون الشلوك وهم يتقدمون نحوه ، وراحوا يلعبون بأصابعهم فى خرزات اللحم التى برزت من جباههم ، والتى صبغوها بصبغة حمراء ؛ وجعلوا ينظرون إلى

صف من صفائح البنزين الفارغة — وهذه الصفائح هى صناديق الانتخاب . . . وأخيراً وجّه أحدهم سؤاله للرجل الأبيض : فى أى الصفائح نضع هـذه الورقة المسحورة ؟ فأجابه الرجل الأبيض : لـكم أن تختاروا . . . فانطلق الشلوك يلقون بأوراق انتخابهم فى الصفائح جزافا . . . »

لو كان نصيب الإنجليز — والأمريكيين المتعصبين للإنجليز — هو هذه المرارة ، ونصيبنا قلوب السودانين ، فلنا الـكسب وعليهم الخسران .

اجتمع عدد كبير من أساتذة الجامعة فى الغداء ، وخطب فيهم بعد الغداء الدكتور فرانسز كوكر أستاذ النظريات السياسية فى جامعة ييل ، والذى دعوه أستاذاً زائراً هنا . . . وموضوع خطبته هو واجب الأستاذ الجامعى إزاء لجنـة التحقيقات . . وهى لجنة يؤلفها الـكونجرس للتحقيق مع المتهمين بالشيوعية ؛ و بناء على الدستور الأمريكى يجوز للمسئول أمام أى لجنة للتحقيق ألا يجيب حتى لا تـكون إجابته سببا فى إدانته ؛ فـكثيرون ممن تناديهم لجنة التحقيق المذكورة يسكت عن الإجابة ؛ والدكتور كوكر فى كلمته اليوم يقول إن واجب الأستاذ الجامعى أن يعين لجنة التحقيق على أداء عملها بأن يجيب عن أسئلتها . .

إننى فى الحق لفى دهشة لا تنقضى من هذا الذعر الذى رأيته يملأ الناس هنا من الشيوعية ! إنه يستحيل على أحد خارج الولايات المتحدة أن يتصور مدى فزعهم إلا إذا جاء هنا ليعيش بينهم حينا ، فيقرأ الجرائد و يسمع الراديو و يتحدث إلى الناس ، فعندئذ يلمس فى قوة كم يعيش الناس فى هلع وفزع من الشيوعية . . إننى الآن لا أستطيع أن أتصور أمريكياً واحداً — مهما بلغت جرأته — يستطيع أن يعتنق شيئاً من المذهب الشيوعى فى صراحة ؛ فـكيف إذن لا أسأل نفسى : ما الفرق بين هذا الجو الفكرى و بين ما يقولونه عن الروسيا من إرغامها الناس على قبول مبدأ واحد ، ثم تـكم الأفواه عن نقد ذلك المبـدأ والخروج عليه ؟

ستظل الدنيا إلى أبد الآبدين فى هذا الضلال العقلى ، وهو أن تظن كل جماعة أن دينها خير دين ، ومذهبها السياسى خير مذهب ، وأصلها أشرف الأصول !

من الملاحظات التى تبرز لعين الرائى بروزاً واضحاً جهل الأمريكيين بالعالم الخارجى جهلا عجيباً ، وقد عثرت اليوم فى مجلة « تايم » ما يؤيد هذا ، إذ أجرى معهد الصحافة الدولى هنا بحثا علميا نشره هذا الأسبوع فى ٢٦٦ صفحة ، وهو بحث خاص بكيفية تلقّى الأمريكيين للأنباء الخارجية ومدى اهتمامهم بها ؛ وقد تناول البحث ١٧٧ صحيفة يومية ، وخمساً وأربعين شركة من شركات الأنباء ، ومئات من المراسلين والمحررين الخ ، ونتيجة البحث هى أن القارئ الذى ينفق فى قراءة صحيفته اليومية ثمانى عشرة دقيقة فى اليوم ، يخصص من هذه المدة دقيقتين للأنباء الخارجية ؛ ولذلك يجهل القراء شئون الخارج جهلا شديدا ؛ فأكثر من ٥٦ ٪ لم يعرف من هو « سنجمان رى » و ٤٠ ٪ لم يعرفوا من الذى خلف ستالين فى روسيا ، و ٢٧ ٪ فقط هم الذين عرفوا أى حزب يحكم الآن فى بريطانيا . . ومن المصادفات أن من بين العنوانات الصحفية التى عرضت للبحث ، العنوان الآتى ، الذى نشر حين نشر بالخط العريض : « إسرائيل تدرس الاقتراحات التى قدمتها مصر » — فوجد أنه لم يقرأ هذا النبأ فى الجريدة قارئ واحد ! !

ويقول التقرير إن الدراسة قد دلت على أن اهتمام القراء فى أمريكا مقصور إلى حد كبير جداً على البيئة المحلية القريبة ، فيعنى القارئ أكثر ما يعنى بشئون الولاية التى يعيش فيها وحسْبه ذلك فى معظم الأحيان .

وهذا ما قلتُه مراراً للذين أتحدث إليهم هنا ، إذ عبَّرتُ عن دهشتى من مدى النزعة الإقليمية بين الناس ، ففى كولمبيا مثلا لا يكاد يقرأ قارئ واحد أى صحيفة غير الصحيفة المحلية التى تصدر فى كولمبيا ؛ فإذا حلَّلْت هذه الصحيفة وجدت تسعة أعشارها عن ولاية كارولانيا الجنوبيـة نفسها من تجارة ومشروعات وسياسة وتعليم وزواج ووفيات .

الجمعة ٤ ديسمبر :

المجلات الأدبية كلها تعلّق في استفاضة على كاتبهم المسرحيّ « يوچين أونيل » بمناسبة موته منذ أيام ؛ كان أكبر كاتب مسرحيّ عندهم ، وهو الذى ظفر بجائزة نوبل عام ١٩٣٦ ، وله ثمان وأربعون مسرحية ... وقد أردتُ أن أحيِّيه عند رحيله فقرأت له ثالوثه المسرحيّ « إلكترا » .

كان أرسطو قد رأى أن يكون بطل المأساة ذا هيبة وجلال ومكانة عالية ، ثم يهبط إلى هوة يتناسب سحقها مع الرفعة الأولى ، وبهذا الانتقال من القمة إلى الحضيض تتألف المأساة فى صميمها ... لكن هذا الرأى فى المأساة لم يكن ليتفق مع فن يوچين أونيل ، لأنه لا يتفق ووجهة النظر الأمريكية إلى أفراد الناس والحياة ؛ فليس بين الأمريكيين من ينظر إليه الناس وأعناقهم مشرئبة ، إذ ليس فيهم من يعلو على بقية الشعب علواً يجعله فى رفعة ويجعلهم فى حضيض ؛ فالأمريكيون من أشد شعوب الأرض اعترافاً بقيم الأفراد وبالمساواة بين الرءوس ، فأعظم عظيم فيهم قد يخاطبه الناس بالجزء الأول من اسمه حتى لا يبقون له على وقار خاص ، وقد تنشر له الصحف صوراً فى حياته الخاصة ، يأكل أو يلعب بحيث يبدو للناس على حقيقته بشراً ؛ وإذن فيستحيل على مسرحيٍّ فى أمريكا أن يجعل مأساته قائمة على سقوط العظيم كما أراد أرسطو وكما كانت السُّنَّة عند رجال المسرحية فيما مضى من زمن . . . وقد قيل فى إحدى مسرحيات « أونيل » إن الشخصيات تبدأ مجموعة من سكارى وتنتهى كما بدأت مجموعةً من سكارى ، أى أنه لا ارتفاع ولا هبوط .

فلئن كانت المأساة اليونانية قائمة على استبداد « القدر » بمصاير الناس ، يتحكم فيهم نحساً وسعداً ؛ ولئن كانت مأساة شيكسبير قائمة على الشخصية وتكوينها ومصارعة الإنسان لنفسه ، إذ تتحكم إرادة الإنسان فى مصيره ، وإذن

فالصراع الحقيقى للبطل هو بينه و بين إرادته ؛ فقد كانت المأساة عند « يوچين أونيل » قائمة على التحليل النفسى والتكوين الفسيولوچى لأن مصير الإنسان مرهون بما فى جسمه من غدد و إفراز ، وما فى نفسه من عُقد ودوافع ... وهكذا ترى بطل المأساة فى أدب القرن العشرين كله ضحية الظروف . . . كانت المأساة اليونانية والمأساة عند شيكسپير تجعل البطل يعانى الآلام ليكفّر للآلهة أو للقدر عما فعل ؛ أما المأساة فى أدب القرن العشرين — وخصوصاً على يدى « يوچين أونيل » — فتجعل البطل يعانى من تكوينه النفسانى والجثمانى ، فهو هو الذى يعذب نفسه ويتعذب .

يستحيل أن يكون الأديب إلا ناقداً لعصره ساخطاً على أوضاعه ، وهكذا كان « يوچين أونيل » بالنسبة لعصرنا بصفة عامة ، وللأمريكيين بصفة خاصة... عنده أن عصرنا هذا مصاب بمرض أطلق عليه « مرض العصر » وظواهره فى الحياة الأمريكية — من وجهة نظر أونيل — هى أن الحب قد غاض فى القلوب لتحل محله الرغبة فى التملّك ؛ وحنين الإنسان إلى الفئة التى ينتمى إليها — أسرة كانت أو أصدقاء أو أمّة — قد زال واندثر فى عصر الآلات الذى نعيش فيه ، وذَبُلَ الإيمان فى القلوب ... أو إن شئت فقل كما يقول « أونيل » إن الإله القديم قد مات ، ولم يعد فى السماء إله يقوم مقامه ويملأ فراغه ؛ فإن كان الأمريكيون اليوم يعبدون شيئاً ، فذاك وَثَنٌ اسمه « النجاح » : النجاح فى التجارة وفى الصناعة وفى جمع المال .

هذا رأى أديبهم العظيم « يوچين أونيل » الذى مات منذ أيام ، ولا أراه مطابقاً كل المطابقة لما أصادفه عند الناس من حب وتدين إلى جانب إيمانهم بالنجاح الذى أشار إليه « أونيل » ، لكن « أونيل » هو بالبداهة أصدق منى نظراً وأصوب رأياً ، خصوصاً فيما يتعلق بقومه .

السبت ٥ ديسمبر :

افتتاحية مجلة هاربرز لهذا الشهر هي كلمة ألقاها مدير جامعة هارفارد — وهي من أهم الجامعات الأمريكية — وهو « ناثان پوزى » ، عيِّن مديرا لهارفارد هذا العام ، فأراد أن يلقى كلمة يستهل بها إدارته لهذه الجامعة الكبرى ، فماذا قال ؟

وجد أن مديرا سابقا لهذه الجامعة ، هو « إلْيَتْ » ، كان قد ألقى سنة ١٩٠٩ كلمة بمناسبة تولّيه هذا المنصب ، فجعل عنوان كلمته إذ ذاك « ديانة المستقبل » ، قال فيها إن المبدأ الذى يعتزم إدارة الجامعة على أساسه هو أن يجعل العقيدة الدينية عند الناس هي الخدمة الاجتماعية ، والانصراف إلى البحث العلمى فى شتى نواحيه ؛ فالدين الذى أراده « إلْيَتْ » هو أن يذهب عامل جريح إلى جراح يضمد له جرحه بشاشة معقمة ، وأن تغير الدولة طريقة العيش التى يعيشها الفقراء فى مساكنهم القذرة وملابسهم الممزقة الخ ؛ هـذا عنده هو الدين الذى لا دين سواه .

فجاء المدير الحالىّ لجامعة هارفارد ، وألقى كلمة يعارض بها كلمة « إلْيَتْ » ، فجعل عنوانها « ديانة الوقت الراهن » ، قال فيها إن المبدأ الذى ينوى أن يدير الجامعة على أساسه هو توكيد الدين فى النفوس والعناية بالكنيسة ، فهو يعتقد أن هذا جانب لا بد منه إلى جانب المعرفة العلمية ، وأن ما ينقصنا الآن ليس هو فى العلم بمقدار ما هو فى الدين .

فإذا كانت هـذه هي نغمة الحديث على لسان مدير جامعة هارفارد ، أفلا يكون صوابا أن نقول إن الاتجاه الدينى طابع الأمريكيين ؟

الاثنين ٧ ديسمبر :

اليوم بداية ما يسمونه « أسبوع الاهتمام بالدين » ، وهو أسبوع تخصصه

الجامعة كل عام لنشر الدعاية للدين بكافة الوسائل ، التى أهمها دعوة فئة من كبار المتكلمين فى الشئون الدينية ليقضوا الأسبوع كله فى الجامعة يحاضرون و يناقشون ؛ وقد حضرت اليوم كلمتين من هـذا النوع : الأولى فى الصباح ألقاها عضو فى الكونجرس دعوه هنا ليلقى هذه الكلمة ، فتحدث عما يمكن أن تؤديه الديانة المسيحية فى مجال الإخاء الإنسانى . . كلام كله فارغ ، و إنى لأزداد إيمانا بأن العالم كله لا يزال من هذه الناحية فى دور الهمجية والخرافة الفكرية .

والكلمة الثانية كانت خاصة بالأساتذة وحدهم ، ألقيت ساعة الغداء ، وألقاها أحد المتخصصين فى الدين ، وقد جاء أيضاً بدعوة من الجامعة . . . تكلم فى وجوب تكوين جمعيات دينية بين أساتذة الجامعات ، مهمتها أولا أن تؤاخى بينهم ، وثانياً أن يوجد الأساتذة — كل فيما يتخصص فيـه — العلاقة بين ميادين أبحاثهم العلمية والديانة المسيحية !! ما شاء الله كان ! يعنى يريد مولانا أن يجد عالم الطبيعة وعالم الكيمياء وعالم النبات الخ العلاقة بين ما يقولونه من نتائج علمية و بين ما ورد فى الإنجيل ! إننى بعد الآن لن ألوم متعصبا دينيا فى مصر إذا قال ما شاء فى وجوب سيطوة الدين على العلم ، ما دمت أرى هـذا فى أمريكا رائدة البحث العلمى فى عصرنا !

وكذلك يقترح المحاضر ضرورة النظر فى إدخال التعليم الدينى فى مناهج الجامعات ، مهما تكن الكلية ونوع دراستها ، طبا كانت أو هندسة أو فلسفة ، ولا يكفى أن يكون للاهوت كلية مستقلة ؛ وقد ذكر أنه فى طول البلاد وعرضها حركة شديدة اليوم فى هـذا الاتجاه ، وهى تسمى « جمعية الأساتذة المسيحيين فى الجامعات » .

الثلاثاء ٨ ديسمبر :

بدأت المحكمة العليا فى وشنطن أمس النظر فى القضية المرفوعة من أولياء

الأمور الزنوج فى بعض ولايات الجنوب ، يطلبون الحكم بعدم دستورية الفصل اللونى فى المدارس ، بحيث لا يجوز أن يكون للبيض مدارس وللسود أخرى . . أما محامى الزنوج فيقول ببساطة واختصار إن هذا الإجراء مناقض للتعديل الرابع عشر للدستور ، وهو تعديل يقضى بألا يكون هناك فى أية ولاية من الولايات شىء من شأنه أن تكون هناك تفرقة ؛ و يردّ مقدما على محامى البيض ، إذ يتوقع أن يلجأ هذا المحامى إلى العبارة المشهورة التى تسمعها هنا فى كل مناسبة تثار فيها مسألة الفصل اللونى ، وهى « انفصال مع المساواة » ؛ أقول إن محامى الزنوج يردّ مقدماً على هذه العبارة قائلا إن مجرد الانفصال ينطوى على عدم المساواة .

و يأتى دور محامى البيض فيطيل فى الكلام ؛ فهو أولا يقول إن المحكمة العليا لا حقّ لها فى النظر فى هذه القضية ، و إلا كان اعتداء على حقوق الولايات التشريعية ، إذ لكل ولاية تشريعها الخاص ، فلكل ولاية أن تشرع ما تشاء فى تعليم أبنائها ، على أن تحافظ طبعاً على الخطوط الرئيسية لدستور البلاد ؛ وهنا ينتقل إلى النقطة الثانية ، وهى أن انفصال اللونين ، كل لون فى مدارسه الخاصة ، لا اعتداء فيه على الدستور ، لأن التعديل الرابع عشر يقضى بألا تكون هناك تفرقة لونية ، ونحن لا نريد تفرقة ، بل نريد مساواة مطلقة بيننا و بين الزنوج ، لكن هل انفصال كل لون فى مدارسه فيه شىء من عدم المساواة ؟ إذا كان لكل طفل ما لزميله من حقوق التعليم ، ولكل مدرّس ما لزميله من حقوق مالية ، فأين تكون التفرقة ؟ إن هدف القانون إسعاد الناس ، فهل تظنون أن مدرسة بها — مثلا — سبعة وأربعون طفلا أسود وثلاثة أطفال من البيض ، أو العكس ، تزيد من درجة تعليم الأطفال ما داموا قد امتزج أسودهم بأبيضهم ؟ هل يزيد هذا من سعادتهم ؟ كلا ، بل سيشعر هؤلاء وأولئك بالحرج ، وتكون النتيجة تضحية الاطمئنان النفسىّ من أجل لا شىء . . .

وتقول الجريدة التى قرأت فيها تفصيلات الدفاع : « وختم المحامى الكهل

الذى بلغ الثمانين من عمره ، دفاعه وهو على وشك البكاء ، منذراً القضاة بشر النتائج إذا هم قضوا بإلغاء الفصل اللونى فى المدارس » .

صدر اليوم حكم المحكمة فى جماعة المورمون التى كانت تباشر تعدد الزوجات حسب عقيدتهم ، والتى اعتزلت فى ناحية قصيّة من ولاية أرزونا . . وقد حكم عليهم بمدد متفاوتة من السجن مع إيقاف التنفيذ ؛ وقال القاضى فى ذلك إنه لا يودّ أن ينفذ فيهم حكم السجن حتى لا يخلق منهم أبطالا . . كان المتهمون قد زعموا أن تعاليم الإنجيل ليس فيها ما يحرم تعدد الزوجات ، فقال القاضى فى صيغة الحكم إنه راجع نصوص الإنجيل ، خصوصاً الإصحاح السادس من سفر التكوين فوجد فيه رفضاً صريحاً لتعدد الزوجات ، « ففعلكم هذا منافٍ لكلام الله . . والرجل الذى يدفع فتاة صغيرة إلى زواج مشترك إنما يفرض عليها العبودية ؛ فإن قال قائل إنها تتزوج بمحض اختيارها كان هذا القول لفظا أجوف بغير معنى » .

الخميس ١٠ ديسمبر :

لست أشك فى أن الأمريكيين يمتازون بروح من الفكاهة نادرة بين شعوب الأرض كلها ؛ لأن فكاهتهم لها خصائص هى فى نظرى الخصائص التى تميز فكاهة الطفل ؛ فهى مرح لا ينطوى على خبث كما أظن فى فكاهة الفرنسيين ممثلة فى رجل كڤولتير ؛ ولا تنطوى على عمق نظر فى متناقضات السلوك الإنسانى كما أظن فى فكاهة الإنجليز ممثلة فى أديب مثل « سْوِفْت » ؛ ولا تنطوى على مرارة و « غُلْب » كما أظن فى فكاهة المصريين بصفة عامة . . يخيل إلىّ أن الأمريكى يتصيد الفرصة للضحك ، لأنه منبسط النفس وذو طبيعة بسيطة ؛ الأمريكى رجل شبع وا كتسى وتزوج وأنجب الأطفال ، مهما تكن سنّه ومهما تكن ظروفه ولذلك فهو قليل الانقباض والعبوس ، فلم أر حتى الآن وجها واحداً عابساً ؛

كنت أظن الأمريكيّ جادًّا فى عمله بمعنى أنه يتجهم إبان عمله ولا يدخل فيه المزاح لـكنى وجدته يمزج المزاح بالعمل كلما أمكن ذلك .

وقد لفت نظرى بهذه المناسبة إجابة جندى أمريكى كان قد وقع أسيراً فى أيدى الشيوعيين فى الحرب الـكورية ؛ وقد عاد أخيراً بين من عادوا ؛ وهنالك لجان تسألهم كيف كانوا يعاملون أثناء أسرهم ، فقال هـذا الجندى : إن أكثر ما ضقتُ له من هؤلاء الشيوعيين انعدام روح الفكاهة عندهم ؛ فهم أبداً عابسون ، أبداً متزمتون ؛ و إنى لأعتقد أن عاملا من العوامل التى تساعدنا نحن الأمريكيين على النصر والفوز هو أننا ننظر إلى الجانب المضحك من الأشياء والمواقف ، فنضحك ونسرّى عن أنفسنا . . إنى لا أفهم أبداً شخصاً لا يضحك ، فهؤلاء الذين لا يضحكون هم فى نظرى من الأموات .

إننى حين ألاحظ ملاحظة عن الأمريكيين مما يكون مخالفا لرأى الناس عنهم ، ثم أجد هذه الملاحظة بعينها قد وردت على لسان زائر آخر ، أشعر باطمئنان على صدق حكمى ... ألم ألاحظ مراراً إننى أرى اختلاط الرجال بالنساء فى الحياة الاجتماعية هنا محدود وفى نطاق ضيق وعلى كثير من التحفظ ؟ قلت ذلك وأنا متردد ، لأنه يناقض ما يقال عن الأمريكيين من اختلاط بين الجنسين لا يقف عند حد مشروع . . . لـكنى وجدت اليوم أن كاتبة فرنسية قد أصدرت كتابا عن زيارتها لأمريكا ، وهى « سيمون دى بوفوار » والـكتاب عنوانه « أمريكا يوماً بعد يوم » ، ومن ملاحظاتها « أن العلاقة بين الرجال والنساء عسيرة فى أمريكا ، فالرجال يوصدون دون أنفسهم أبواب نواديهم ، وكذلك يفعل النساء فى نواديهن و يخيل إلىّ أن الإخفاق الجنسى مما يميز الأمريكى والأمريكية ، فكانت النتيجة أن بردت العاطفة فى نسائهم وقلت الخبرة فى رجالهم ، ولهذا تراهم كثيراً ما يلجأون إلى الشراب وسيلة لتحطيم الحواجز والموانع النفسية التى تحول بين الجنسين . . . »

الأثنين ١٤ ديسمبر :

حضرت فى المساء اجتماع الندوة الفلسفية فى منزل الدكتور « ف » ، حيث ألقى الدكتور « ب » أستاذ الأدب الألمانى كلمة يلخص بها قصة للكاتب الأوربى « هرمان هِسْ » وهو كاتب لا يزال حيا ، بلغ الآن عامه الثمانين ؛ والقصة من جزءين فى أصلها الألمانى ، وعنوانها فى الترجمة الانجليزية « ماجستر لودى » — والعنوان الأصلىّ معناه الحرفى هو « لعبة الخرز » . . وملخص القصة أن جماعة فى دير يفكرون تفكيراً نظريا ، وقد جعلوا موضوع بحثهم هو الأصول المشتركة بين الموسيقى والرياضة ، ثم الأصول المشتركة بين العلوم كلها ؛ كما جعلوا لغة البحث رموزاً رياضية ؛ لكنهم على شدة ما بلغوا من أعماق عميقة فى أبحاثهم تلك ، كانوا مقطوعى الصلة بالعالم الخارجى العملى الواقعى ؛ وجاءهم ذات يوم رجل من هذا العالم ، فكانت الهوة السحيقة التى تفصل وجهة نظره عن وجهات أنظارهم ، أى تفصل بين أوضاع الحياة العملية والتفكير النظرى ، مدعاة إلى رئيس الجماعة أن يخرج من ديره إلى العالم الصاخب ، واختار لنفسه مهنة التعليم حرفة ، فتولى بالتربية طفلا هو ابن الرجل الذى كان قد زار الديْر . . وحدث يوما أن خرج الأستاذ وتلميذه الصغير حتى جاءا إلى بحيرة مثلوجة ، واستطاع الطفل الناشئ أن يعوم فينجو ، أما الأستاذ الذى تعمق الأبحاث النظرية إلى أغوارها فقد غرق ومات .

ودارت مناقشات طويلة عميقة بين الحاضرين حول الفكرة الرئيسية التى أدار عليها الكاتب قصته ، وهى الموازنة بين البحث النظرى والحياة العملية ، أين يلتقيان وأين يفترقان .

ويشاء الله ألا يتم هذا الاجتماع العلمىّ الثقافىّ الذى كان ينبغى أن يخلو من ترهات الإنسان وتفاهاته ، بغير هفوة من أحد الحاضرين أثارت ثائرتى على الرغم

من ضبطى لأعصابى وإمساكى لزمام نفسى ؛ فلست أرى كيف أدى الحديث إلى الإسلام ، وهنا سألنى من الحاضرين سائل : أتعدُّون قصة ألف ليلة وليلة بما فيها من شهوات جنسية قصيدة الإسلام الكبرى ؟ . . . فجلست لحظة صامتا أنظر إليه وأقبض على زمام نفسى وأستجمع أطراف تفكيرى الذى أذهله مثل هذا السؤال من أستاذ جامعى المفروض فيه علوّ الثقافة واتساع المعرفة ورقة الذوق ، ثم قلت :

الشهوة الجنسية فى ألف ليلة وليلة — ياسيدى الأستاذ — هى أحلام الشباب المراهق فى أى بلد من بلاد العالم ؛ ألف ليلة وليلة مجموعة من القصص فيها تصوير للنفس الإنسانية فى وجه من وجوهها ، وقل فيها بعد ذلك ما شئت من نقد أدبىّ يرفعها أو يخفضها ، لكن ما دخل الإسلام فى ذلك ؟

ولست أدرى ماذا قال هذا الأستاذ مما أثار انفعالى ، وجعلنى أقول له : يجب أن تعلم أن الإسلام قد ظهر بعد المسيحية بسبعة قرون ، وقد ظهر فى نفس المكان الذى ظهرت فيه المسيحية — أعنى الشرق الأوسط — وإذن فهو تحسين وتطور وتقدم وليس هو بالنكسة والتأخر .

وهنا تدخل الأستاذ الذى قرأ البحث ، ليعين زميله ، فقال كلاما بدأه بقوله « إن الثقافة الأوروبية مسيحية . . . » فقاطعته قائلا هذا خطأ ، نعم هى عبارة تكررونها آلاف المرات ، وخطؤها واضح ، فالثقافة الأوروبية وثنية فى صميمها وليست هى بالمسيحية فى شىء ، الثقافة الأوروبية الحاضرة قائمة على ثقافة النهضة ، وهذه الأخيرة قد أقيمت من حيث الأدب والفن على اليونان ، ثم أقيمت إلى جانب ذلك على العلم الذى هو قبل كل شىء اهتمام بالطبيعة لا بالإيمان الدينى .

فقال : ألا يمكن القول إن المسيحية طابع التفكير الغربى ؟ قلت له : خطأ أيضاً ، لأن المسيحية ليست إنتاجكم ، بل هى إنتاج الشرق الأوسط ؛ انتقل

إليكم ، وعلى أحسن الفروض بعد ذلك ، أخذتم الإنتاج وترجمتوه وقبلتموه ، وحتى على هذا الفرض ، فالكتاب إنما يدل على كاتبه لا على مترجمه أو قارئه ؛ فنحن أهل الشرق الأوسط بمثابة من أنتج كتابا ثم أرسله إليكم . . . ومع ذلك فليس الفرض صحيحاً ؛ لأنكم لم تقبلوا المسيحية فى الواقع ، بل تظاهرتم بقبولها ؛ وما زلتم تتظاهرون بقبولها ؛ فالمسيحية حب وسلام ؛ وأوربا من بين بقاع العالم كله أكثر أجزاء الأرض قتالا داخل حدودها وخارج حدودها على السواء . .

على أننى بعد ذلك كله أحب أن أنبهك إلى ما لم تكن عالما به ، وهو أن الإسلام والمسيحية لا يختلفان إلا فى نقطة جوهرية واحدة ، هى التثليث المسيحى الذى جعله الإسلام توحيداً . .

وهكذا استطرد الكلام فترة طويلة ؛ كان محدِّثى أهدأ منى ، لكنى كنت أقوى منه حجة وأسرع فكراً ، وانتقل الحديث إلى فرويد والمسيحية ، فتركته لهم وجلست صامتا حتى النهاية .

لست متعصباً فى الدين ، لكنى بعد هذه الزيارة لأمريكا ، و بعد ما سمعته من ملاحظات عن الإسلام تدل على أن هؤلاء الناس يظنون بالإسلام شر الظنون فهو عندهم وثنية أو شر من الوثنية ، وهو عندهم همجية وتأخر ؛ أصبحت الآن أرى وجوب اتخاذ الوسائل كلها لنشر جوهر التعاليم الإسلامية مبسّطة ، ليفهم هؤلاء الناس أننا لسنا فى الدين من التخريف بحيث يظنون .

الثلاثاء ١٥ ديسمبر :

ذهبت إلى السينما وشاهدت فلما جيداً حقا ، فيه اللمسة الإنسانية غاية فى القوة : فتاة يموت أبوها وهى بعد طالبة ، ولا يعولها أحد فتشتغل بالتدريس فى الريف ، وكان أبعد ما يتصوره خيالها أن تتزوج فلاحا فقيراً ؛ لكن حدث أن أحبها

فلاح وأحبته ، وعاشت معه فيما يشبه الفقر الشديد ، وأنجبا طفلا ، ومات الوالد ، وجاهدت الأم جهاداً تمثلت فيه المثل الإنسانية العليا ، حتى تخرج ولدها مهندساً للعمارة ؛ وكانت الأم فى شبابها مغرمة بالموسيقى ، فهى تقدر الفنون ، وتقدر أن يعيش الإنسان بفنٍّ منها ، ولذلك أفرحها أن يكون ابنها من رجال الفنون فى كسب عيشه . . .

لكن الفتى أراد الزواج ، فتزوج من فتاة هى من فصيلة « ز . ش » لا تفرّق بين العمى والسما ، ولا يهمها إلا أن يكسب الزوج مالاً ، وفن هندسة العمارة قد يكون بطىء الكسب ، فدفعتْه دفعا أن يترك فنه ليكون سمساراً يصل ما بين مهندسى العمارة و بين من يريدون البناء ؛ وكسب عن هذا الطريق ألوفا ، لكنه لم يكسبها عن طريق فنه ؛ فلما عرفت أمه ذلك ، تحطم قلبها من أجل ولدها ، فقال لها : كنت أظنك يا أماه تفرحين حين تعلمين أننى أكسب كذا ألفا من الريالات فى الأسبوع الواحد ؛ فأجابته أمه إجابة رائعة هى التى جعلتنى أثبت خلاصة القصة لأثبت تلك الإجابة ؛ قالت له : الفرق يابنى بعيد بين من يقطع التذاكر فى شباك الأوبرا و بين من يدخلون ليشاهدوا الأوبرا ، مهما كسب الأول وخسر الآخرون ؛ فهو فى خارج البناء وهم فى داخله يشاهدون ؛ وعملك فى السمسرة مهما أكسبك الألوف ، هو عندى بمثابة قاطع التذاكر ، وكنت أحب أن تمارس فنك مهما كان كسبك من ورائه ضئيلا . . .

. . فأحسست إحساساً غامضاً أنى قد قضيتُ شطراً طويلا من عمرى قاطعا للتذاكر أعطيها لغيرى فيدخلون و يشاهدون . . . ولم أدرك تماما ما وجه الشبه بينى و بينه ، لكنها على كل حال حكمة بالغة ، فلأن يعيش الإنسان بفنّه أو بعلمه — ولو كسب منه القليل — خير ألف مرة من أن يجعل من نفسه وسيطا لأصحاب الفنون والعلوم ، مهما جاءته هذه الوساطة من مال وجاه .

الأربعاء ١٦ ديسمبر :

كنت أحاضر فى جمهورية أفلاطون ، وذكرتُ ما ورد فيها عن الأطفال أن يكونوا أبناء الدولة ، فاعترضت الآنسة « ج » وهى طالبة ذكية ، قائلة : إن هذه التربية للأطفال مستحيلة ، لأنها تخلى محيط الطفل من عاطفة الأمومة ، ولا حياة لطفل بغير عاطفة ؛ فقلت لها : الأمر يحتاج إلى تجربة . . فقالت : قد أجريت فى ذلك بعض التجارب التى لها دلالتها ، فقلت لها : أين قرأتِ عن هذه التجارب ؟ فأجابت : فى مقال سأبحث لك عنه .

وجاءتنى اليوم مجلة فيها تقرير عن تجربة قام بها عالمٌ فى اللغات ، وهى أنه جمع بضعة أطفال من اللقطاء ، وعهد بهم إلى مربيات طلب إليهن ألا يكلمنهم أبداً ، بل يطعمنهم وهن صامتات ، فمات الأطفال على مرّ الأيام ، ولم تتم للعالم تجربته . . . وعلى الرغم من أن التجربة ليست قائمة على موضوع عطف الأمومة بالذات ، لكنها — كما قالت الآنسة « ج » — تجربة لها دلالتها وتستحق أن تُذكر .

وقرأت اليوم قصة طويلة فى مجلة « پوست » ، أعجبتنى فكرتها ، لكن حوادثها لم تمتعنى لأنها تفصيلات عن تربية الأغنام التى لا علم لى بها ؛ وذلك أن حوادثها تدور فى مرعى للغنم . . القصة عنوانها « حُمَّى العروس » وهى تحليل للشعور بالمقاومة التى تشعر بها العروس شعوراً خفياً حين يتقدم إليها الخاطب . . ورثت فتاة عن أبيها مرعى كبيراً من الغنم ، وكان أبوها قبل موته قد وضع خطة لزواج ابنته من شاب ربّاه ودرَّبه على رعاية الغنم ؛ ومات الوالد وجاءت الفتاة من جامعتها إلى حيث المرعى ، فكان الشاب يعلم أنها فى حكم خطيبته ، حتى لقد أعدّ خاتم الخطبة انتظاراً لقدومها ؛ لكن الفتاة أرادت إثبات شخصيتها ، فقالت

له إنها ستتولى المرعى بنفسها مدة من الزمن ، وأنها لم تقرر بعد الزواج منه ؛ وأراد الشاب أن يردّ عليها بما يقرر سلطانه عليها ، فقالت له الفتاة فى كبرياء : على رِسْلك ياهذا ! أحسبتنى غنمة من الغنم ؟

ترك الشاب مرعاه ، واستعانت الفتاة براع يرعى لها الغنم ويعلّمها رعايته ، وكان الراعى يعلم ما بين الشاب والفتاة من عناد ، ويعلم كذلك بطبائع الإنسان والغنم على السواء ؛ قال لها ذات يوم فى خبث وهو يشير لها إلى غنمة تترك صغارها لتجرى وراء كبشها : هذه طبيعة الغنم ، وطبيعة الناس ! فالمرأة طبيعتها أن تَنْسَلّ إلى حضن الرجل ولا تستريح بالاً إلا وهى تحت جناحه ، إنها تفعل ذلك لكنها إذا قيل لها هذا الحق غضبت وثارت لكرامتها ، كأنما تكره أن يذكّرها أحد بطبيعتها . .

وثارت عاصفة هوجاء ، وضاع كثير من غنم المرعى ، وجاء من الجبل فهد مفترس ، واشتدت الأزمة ، ووقعت الفتاة فى حيص بيص لا تدرى ماذا تصنع والكوارث آتية على مرعاها من كل ناحية . . . وهنا جاء الشاب الخاطب مارا فى طريقه مصادفة ودفعته النخوة أن ينقذ الأمور ، وأحست الفتاة فى وجوده أمنا وطمأنينة ، فذابت بين ذراعيه وهى تقول : لك أن تشرف على المرعى كما كنت تشرف ، وأن تدخلنى فى رحابك ، وتضعنى تحت سطوتك وسلطانك ، واعتبرنى منذ اليوم غنمة من الغنم !!

قلت لنفسى : إن كاتب هذه القصة أمريكى ، والفتاة التى يحللها أمريكية ، وإذن فالأمريكى ، كالمصرى ، كأى إنسان فى الدنيا ، من طبيعته أن ينتشى لطاعة المرأة ، والأمريكية ، كالمصرية ، كأية امرأة فى الدنيا ، من طبيعتها أن تذلّ للرجل وتخضع ؛ ولذلك كله حدود يمكن معرفتها بالإدراك السليم ، فمجاوزتها طغيان والانتقاص منها غباء وحمق .

الجمعة ١٨ ديسمبر :

رغب الطلبة اليوم فى أن أحدثهم عن مصر ، بدل أن أحاضرهم فى الدرس ، فاليوم هو آخر الأيام قبل إجازه عيد الميلاد ؛ فحدثتهم عن مدى الخطأ الذى يخطئونه فى فكرتهم عنا ، ومصدر الخطأ خيانة كتّابهم ومخرجي الأفلام السنمائية ، فهؤلاء جميعاً يهمهم أن يصوورونا فى صورة غريبة أكثر مما يهمهم أن يصفوا الحق والواقع ؛ فالفكرة العامة عند الأمريكيين هى أننا حفنة من العرب نغوص فى الجهل والشهوة ؛ قلتُ لهم : هأنذا أمامكم فهل رأيتمونى أتكلم أو أفكّر أو أسلك على صورة تدل على أننى إنسان أقل من متوسط الناس عندكم ؟ فأنا هو مصر ؛ لست فى بلدى إلا واحدا من أوساط النـاس ؛ أنا فى عالم الثقافة والتفكير فى بلدى من غمار الأوساط ، فقد يسأل سائل منكم عشرة آلاف مصرى يختارهم عفوا من المثقفين فى مصر : هل تعرفون فلانا ؟ وسيجد إجابتهم : مَنْ فلان هذا ؟ . . .

الحق أنى قد تركتُ فيهم أثراً أعتقد أنه لن يمحى من أذهانهم ؛ قال لى أحدهم ، وهو طالب حاصل على درجة الجامعة وعلى درجة الأستاذية ، ويحضر رسالته للدكتوراه ، وهو غاية فى النضوج العقلى : أقول لك مخلصا إننى قبل أن أراك لم أكن أتصور « العربىّ » إلا إنسانا أقرب إلى الهمجية فى ثيابه الواسعة ولحيته الكثة وجهله المطبق ؛ وأظن أن مجرد وجودك بيننا تحاضرنا وتتحدث الينا قد بدد هـذه الخرافة ، لا أقول عندى وحدى ، بل فى الجامعة كلها كلهم يقولون عنك ذلك . . وقال طالب آخر : لا بد أن تفكروا فى وسيلة تنشروا بها حقيقة شعبكم ؛ إن رجلا مثلك يستطيع أن يوسّع من صلاته فى أمريكا وقتا ما ، وذلك وحده عامل قوىٌّ فى ذاته . . .

كنت أتعشى الليلة فى المطعم المألوف ، وحدث ما لم يحدث إلا نادرا ، وهو

أن جلس زوجان معى على مائدة واحدة ؛ هما صغيران ، فلا أحسبهما يزيدان على العشرين ، وعليهما علامات السذاجة ، كأنما جاءا إلى كولمبيا من الريف ؛ أوشك الشاب أن يبدأ طعامه ، فرفع الشوكة والسكين ، فابتسمت له الزوجة قائلة : ألا تنوى الصلاة يا عسل ؟ فترك الشاب سكينه وشوكته وطأطأ الرأس ، وطأطأت الزوجة رأسها ، وتوجها بالدعاء إلى الله أن يبارك لهما فى طعامهما وأن يجعل لهما الرزق موصولا .

٢ – فى واشنطن

السبت ١٩ ديسمبر :

قامت الطائرة التي تقلني إلى وشنطن لقضاء عطلة عيد الميلاد في منتصف الساعة الحادية عشرة صباحا ؛ وكان يجلس أمامي في الطائرة زوجان صغيران في السن ، فالزوج لا يزيد أبداً عن العشرين ، ولا يمكن أن تزيد الزوجة عن الثامنة عشرة ؛ ولم يكونا يستطيعا الصبر على عدم التقبيل فترة طويلة ؛ وإنى لأرجّح أنهما عروسان في طريقهما إلى مكان يقضيان فيه شهر العسل . . كانا يميلان أحدهما على الآخر ، فيتلاصق الخدان ، أو يتساند الرأسان ؛ ثم يهوى الشاب على زوجته الطفلة تقبيلا في عنقها وذراعها وخدها وشفتها ؛ وتنتظر هي قليلا ثم تردّ له التقبيل تقبيلا مثله . . هكذا قطعا الطريق إلى وشنطن ؛ فأخذتني والله حسرة شديدة على مصر ؛ فهذه علامات لا أستهين بها في التدليل على ما في المجتمع من صحة نفسية ؛ لماذا يا ربي لا يجوز هذا من مصر ؟ أنا لا أريد أن يكون هـذا بين العاشقيْن ، بل أريده بين الزوجيْن . . من ذا الذي ابتلانا بهذه الصرامة الظاهرية التي حطمت أعصابنا وخرّبت عقولنا وأتلفت تفكيرنا ، وجعلت عيشنا كله سلسلة من تحريمات ، تحريم إثر تحريم ؟

كانت الشمس غاية في الإشراق واللمعان ، وكان الجو غاية في الصفاء ، وغاية في البرودة إلا في الأماكن المغلقة طبعا ، لأن كل مكان هنا فيه تدفئة . . .

وأعود إلى الزوجيْن الشابين فألاحظ أنهما من ذوى النظارات ، وكنت آسف لهما حين يدنوان بوجهيهما للتقبيل فتصطكّ نظارة بنظارة ؛ إن لبس النظارة يهدم جزءا كبيراً من حلاوة الغزل بالعين ، وينقص من لذة التقبيل ؛ وإني لأحسدكم يا من سلمت عيونكم فلا تلبسون المناظير ، أحسدكم على أن أعينكم تتلاقى كما أراد لها الله أن تتلاقى بغير حواجز من زجاج .

وصلت إلى وشنطن في الساعة الواحدة ، ولم أكد أقذف بحقيبتي في غرفتي بالفندق حتى خرجت كالنهم يريد أن يرى كل شيء في لحظة واحدة ! . . نظرت

إلى خريطة المدينة وصممتُ لنفسى طريقا أسير فيــه ، فأنا فى المدن التى أزورها لا أركب بل أسير على قدمىّ ساعات وساعات لأرى كل شىء أستطيع رؤيته .

مررتُ بالبيت الأبيض لأنه مجاور للفندق ، وعبرت الميدان الواسع . . . فالسعة فى الشوارع والميادين قد بلغت حدا يتحدّى المشاة ! . . عبرت الميدان الواسع الواقع أمام البيت الأبيض قاصدا إلى النصب التذكارى لوشنطن ، وهو على شكل مسلّة كبيرة عالية ، تصعد إلى قمتها من داخلها بمصعد أو بسلّم ؛ وصعدت بالمصعد إلى قمة المسلة ، وفى المصعد مذياع يدير شريطا مسجلا يستغرق الزمن الذى نقطع فيه المسافة إلى القمة ، ويحكى للزائرين عن هــذا النصب التذكارى بعض تفصيلات ؛ ومن قمة المسلة أشرفت على وشنطن فى هذا الجو الرائق المشرق .

وقصدت بعــد ذلك إلى متحف التاريخ الطبيعى الذى يبهر العين بناء ومحتوى ، ولست أنوى كتابة تفصيلات ما رأيته هناك ، وحسبى أن أذكر قاعة وقفت عند معروضاتها الفنية مسحوراً مفتونا ، قائمة كتب عليها اسم « هربرت وورد » وهو نحّات (١٨٦٣ — ١٩١٩) ، وفى هــذه القاعة عرضت بعض التماثيل التى نحتها الفنان ليمثل بها بعض جوانب الحياة فى القبائل البدائية ، فسبحان من أنطق الحجر تحت إزميل هذا الفنان العجيب ! تمثال « شيخ القبيلة » جالساً القرفصاء وحربته فى يده ، وتمثال « حاملة الحطب » لامرأة تحمل على كتفها حزمة من حطب ، وتمثال « الهاربون » وهو رجل حمل طفليه وراح يعدو فزعا ، وتمثال « الساحر » وتمثال « الحزين » وهو رجل وقف مطأطئ الرأس مسنداً إياه على زنديه ، وتمثال « أفريقيا النائمة » : زنجية مستلقية فى استرخاء ، وتمثال « واضع الخطة » : رجل جلس القرفصاء وراح يخطط الأرض بأصبعه . . .

الأحد ٢٠ ديسمبر :

أخذت أتصفح فى الصباح جريدة « واشنطن بوست » ، وجدتها على نفس النظام والتقسيم الذى وجدت عليــه الجرائد المحلية فى كولمبيا بولاية كارولانيا

الجنوبية ؛ فالجريدة ذات عشرة أجزاء ، كل جزء منها يساوى حجم « الأهرام » عندنا حين تكون فى أكبر حالاتها : قسم عام للحوادث السياسة ، وقسم للسيدات ، وآخر للألعاب وآخر للفنون والآداب ، وآخر للأطفال ، وآخر للأسواق التجارية ، وآخر لوسائل التسلية من إذاعة وسنما ومسرح الخ الخ .

وهذا موضوع يحسن عنده أن أذكر حقيقة عن المقالة الصحفية هنا كيف تتولى توزيعها شركات صحفية خاصة ؛ وكنت قد قرأت عنها فى مصر لكنى لم أفهمها فهما جيداً إلا هنا . . فهنالك شركات تشترى من الكاتب الصحفى مقالته ، فلا تكون العلاقة بين الكاتب والصحيفة علاقة مباشرة ، بل يكون بينهما هذه الشركة تجمع مقالات الكتّاب وتوزعها على الصحف فى شتى أنحاء البلاد ، وبهذا يتاح للمقالة الواحدة أن تنشر فى وقت واحد فى ثلاثين أو أربعين صحيفة فى شتى الجهات ؛ وهنالك تنظيم للتوزيع من شأنه ألا تنشر المقالة الواحدة فى جريدتين تصدران فى بلد واحد ؛ وبهذا يمكن للجرائد المحلية أن تنشر مقالات أكبر الكتّاب فى نفس اليوم الذى تصدر فيه المقالة فى صحف وشنطن ونيويورك ، لأن ثمن المقالة بالنسبة للجريدة يكون عندئذ أقل جداً مما كانت تدفعه لو كتب لها الكاتب وحدها ؛ وفى الوقت نفسه يكون أجر الكاتب عن المقالة الواحدة مبلغا جسيما لأنه حين يبيعه لشركة النشر ، فإنما يبيعه لينشر فى عشرات الصحف مرة واحدة .

هل يمكن قيام نظام كهذا فى مصر ؟ فيكتب الكاتب مقالة لتنشر فى كل جرائد الأقاليم ، وبهذا ترتفع جرائد الأقاليم من جهة ، ويزداد إيراد الكاتب من جهة أخرى ؟ . . إنك تسأل هذا السؤال فسرعان ما يأتيك الجواب ، وهو أن ذلك مستحيل عندنا الآن ، لسبب بسيط وهو ألا قراءة ولا قراء ، وبالتالى ليس هناك فى الأقاليم صحف تذكر ، وبضعة جرائد قليلة تصدر فى القاهرة كافية أن تغطى

حاجات القطر كله ! . . . وربما نجح المشروع لو فكرنا فيه على أساس اتخاذ البلاد العربية كلها وحدة صحفية .

لا تكاد الآن تدخل دكانا أو مطعما أو بيتا إلا وجدت فيه زينة عيد الميلاد أشكالا وألوانا ؛ وقد ذهبت عصراً مع الأستاذ « خ » إلى مطعم بعيد فى مكان جميل هادئ منعزل لنشرب الشاى فى ذلك الفردوس الأرضى ! فكان المطعم مزدان النوافذ بكرات ملونة ، مزدان الجدران والمدائد بالألوان الفاقعة . . وذلك يثير سؤالا كبيراً عن الذوق الأمريكى فى وجوه كثيرة ، فلاشك فى ميل الأمريكيين إلى الألوان الصارخة التى هى من علامات الذوق البدائى ، أفيكون إذن لوجود الزنوج بينهم أثر فى تشكيل أذواقهم ؟ إنك ترى هذه الزخارف الزاعقة فى ألوانها ، وتسمع موسيقى الجاز التى هى فى صميمها موسيقى زنجية ، وتشهد الرقص الذى يرقصه كثيرون من الشبان الأمريكيين وهو قريب جداً إلى الرقص الزنجى ؛ ثم تجد الألوان الصارخة فى ثيابهم ، فأربطة الرقبة فاقعة غريبة التلوين والرسوم ، والجوارب تميل إلى الألوان العاليه فهى شديدة اللون الأحمر أو اللون الأزرق الخ ؛ وأقراط النساء فيها نزوع ملحوظ نحو الفن البدائى . . . أفلا يجوز — كما قلت — أن يكون هذا كله نتيجة وجود الزنوج ؛ قد يكون ، وقد يكون ذلك نتيجة تفرعت عن مبدأ أعم وهو أن الأمريكيين شعب لا يضع على نفسه الضواغط النفسية ولا يقيد نفسه بالحواجز بغير موجب ولا داع ؛ هو شعب فى نفسه انطلاق فى التعبير ، فإن كان من طبيعة النفس إذا تركت على سجيتها أن تحب هذه الألوان التى لا تزمّت فيها ، ففيم التحفظ والتقيد والتكلف وردْع الطبائع باللجم والشكائم ؟ !

الاثنين ٢١ ديسمبر :

قصدت هذا الصباح إلى متحف الفن ، فكان أول ما لقيت فيه جهوه

الأوسط ؛ وهناك وقفت مشدوها أمام هذه العظمة وهذا الجلال ؛ لو كنت تركت خيالى أن يصور لنفسه بهوا يبلغ من الجلال أقصاه ، لما استطاع الخيال أن يتصور شيئاً يذكر بالقياس إلى هذا الواقع الذى أراه الآن وألمسه : هذه العمد الرخامية السوداء وهذه الأرض الرخامية السوداء ؛ وهذه النافورة فى الوسط وفى أعلاها تمثال صغير أسود ، والماء منبثق يتلألأ بأضواء ملقاة عليه من مصادر لا تراها . . .

وقفت لحظة أفكر لنفسى ماذا أرى من أجزاء المتحف وكيف أرى ؟ وسرعان ما صممتُ ألا أكون جشعا ، لأن ذلك قد يقتضى أن أنظر بالعين إلى أشياء كثيرة دون أن أعى شيئاً ؛ والأفضل أن أتخير القليل ، ثم أتقن النظر إلى ما أتخيره ؛ وأخذتُ لنفسى فن القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، فى أمريكا أولا ، وفى انجلترا ثانيا ، وفى فرنسا ثالثا . . . إذا كان المتحف ونظامه يتيح لى هذا التقسيم .

كان الفن الأمريكى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر أميل إلى تصوير أشخاص ، استرعى نظرى من بينها صورٌ رسمها « ستيوارت » . . ولاحظتُ مما رأيتُ من صور أن الفن الأمريكى قد أخذ فى نهاية القرن يميل تدريجا نحو رسم الطبيعة بدل الأشخاص ، كصورة « منظر أمريكى » للفنان « إنِّس » ، وكالصور الكثيرة التى رسمها فنانهم العظيم « هومر » عن البحر وما يتصل به ؛ ومن أجمل ما رأيته لـ « هومر » صورة وقفت أمامها مدة طويلة من شدة إعجابى بها ، وهى صورة بطتين طائرتين ، إحداهما فى وضع معتدل والأخرى فى وضع مقلوب .

نتاج الفن الأمريكى ليس مجموعا كله فى مكان واحد من المتحف ، فعليك أن تتعقبه بين مزيج من نتاج كثير مختلف الأصول ، وأكثر ما تراه ممتزجا به هو نتاج الفن الإنجليزى ، إذ ترى آيات من هذا الفن معروضة هناك ، رسمها الفنانون

« رينولدز » و « جينزبره » و « رومنى » و « ريبرن » و « تيرنر » وغيرهم .

وطابع الفن الإنجليزى ، كما هى الحال فى الفن الأمريكى ، فى القرن التاسع عشر هو الصور الكبيرة لأشخاص من علية القوم حينئذ ؛ وتعليل ذلك بالطبع هو أن القرن التاسع عشر كان عصر أرستقراطية تتركز اجتماعاتها فى « الصالونات » لا فى الطبيعة المكشوفة ؛ والمنازل إبان تلك الفترة — أعنى منازل الكبراء — كانت فسيحة الغرف عالية الجدران ؛ ولما كان الفن دائما — أعنى قبل عصرنا الحالى — خادما للطبقة الممتازة فى المجتمع ، فقد كان الشغل الشاغل لفنانى ذلك العصر أن يصوروا أفراد تلك الطبقة لتوضع صورهم على جدران منازلهم وإذن فقد كان حتما أن تكون الصور كبيرة متناسبة مع الغرف الفسيحة والجدران العالية . لست أدعى أنى ذو ذوق ممتاز فى التقدير الفنى ، لكننى على كل حال أثبت خبرتى ، وهى أنى قليل الإعجاب بالفن الذى يصور أشخاصاً مهما يبلغ من الجودة والإتقان .

وانتقلت من مجموعة القرن التاسع عشر إلى مجموعة أخرى من الفن الحديث وما سبقه بقليل ، فكان الانتقال مفاجئا والاختلاف بين المجموعتين بعيداً ؛ وهنا أطلت الوقوف وأمعنت النظر عند بعض الفنانين بغية أن أتشبع بخصائص الفن الجديد .

أطلت الوقوف جداً عند صور « پيكاسو » و « ماتيس » وكلاهما كما هو معروف من رواد الحركة الجديدة فى التصوير ، وحاولت أن أفهم وأن أتذوق ما أراه . . . والمفتاح فى تقدير الفن الحديث هو ألا تسأل عن الصورة التى تنظر إليها : « صورة ماذا ؟ » ، خذ الصورة على أنها نهاية فى ذاتها ، هى صورة كما أن الشجرة شجرة والنهر نهر والقمر قمر ؛ فليست الصورة تصور شيئاً من وجهة النظر الحديثة فى الفن ، بل هى صورة بمعنى أنها تقدم للعين مزيجاً متسقاً متناغماً

من ألوان ؟ فإن وجدت عينك فى الصورة هذا الاتساق اللونى فهى جميلة ؛ و إذن فالسؤال الرئيسى عن أى صورة حديثة هو : « هل يسرنى أن أنظر إلى هذه الصورة ؟ » . . . و إنه من لطيف ما يروى فى هذا الصدد ما قاله « ما تيس » لسيدة وقفت تشهد صورة رسمها ، والصورة لامرأة كما هو ظاهر ، لكنها امرأة مرسومة على نحو بعيد عن واقع الحياة ، بُعْداً لا يستسيغه من لا يستسيغ الفن الحديث ؛ فسألته السيدة متعجبة : كيف يمكن أن تقول إن هذه امرأة ؟ فأجابها « ما تيس » : يا سيدتى ليست هذه امرأة ، إنها صورة .

أقول إنى أطلت الوقوف عند « پيكاسو » و « ما تيس » وحاولتُ الفهم والتدبر أولا ، فأعجبنى كثير من نتاجهما ؛ فلا يزال منطبعا فى ذهنى صورة لامرأة عارية الظهر تصفف شعرها ، من رسم « ما تيس » وصورة « مأساة » من رسم « پيكاسو » .. لكن هنالك صوراً كنت أعجب عجبا لا ينقطع : ماذا فيها مما يجعلها فنا ممتازاً ؟ مثلا صورة « پيكاسو » لزوجته ، وهى صورة يخيل إليك أن مبتدئا قد رسمها بالطباشير ؛ وصورة « لپيكاسو » أيضاً اسمها « عاشقان » .

وكذلك أطلت الوقوف والدراسة عند جماعة « التأثيريّين » لدرجة أنى بعدئذ أخذت أختبر نفسى ، فأحكم على الصورة لأى فنان هى قبل أن أقرأ اسم فنانها ، وكثيراً ما كنت أصيب الحكم ، لأنى ركزت انتباهى للخصائص التى يتميز بها كل من هؤلاء « التأثريّين » : « ديجا » و « رنوار » و « سيزانْ » .

هدّنى التعب من كثرة المشى والوقوف ، فقد كنت أستخسر الجلوس دقيقة واحدة حتى أستغل وقتى فلا يضيع . . . لكن هدّنى التعب ، وأحسست الألم فى عظامى وعضلاتى حتى أوشكت أن أفقد القدرة على الحركة . . ودخلتُ مطعما للغداء ، فجلست أمام النَّضَد الكبير ، وجلست على المقعد المجاور لى سيدة شديدة الجاذبية تستلفت النظر بهندامها وعطرها ، وما كادت تأتى المناولة من خلف النضد لتسألها ماذا تريد ، حتى أسرع مناولٌ وهمس يهمس للمناولة أن

تترك له هذه الزبونة يخدمها هو ؛ فتركتها له وهى تبتسم ابتسامة القاهمة ؛ وجاء المناول وانحنى قليلا كأنما هو ينصت لما تطلبه الزبونة ، والورقة والقلم فى يده على هيئة من يكتب ما يُملى عليه ، لكن المرأة بدأت حديثها للمناول همسا ، تقص له فى اهتمام أمراً خاصاً بينهما ؛ وكان المناول يسمع فى انتباه شديد ويدّعى أنه يكتب « طلبات الزبونة » فى الورقة التى بيده ، ثم يذهب ليعود فيسمع جزءاً آخر ، وهكذا .

الثلاثاء ٢٢ ديسمبر :

جعلت غايتى اليوم زيارة « قاعدة فلپ التذكارية » وهى معرض للفن الفرنسى والأمريكى الحديث . . وقاعة فلپ هذه منزل كبير جيد التأثيث — أعنى أنه ليس فى بنائه على هيئة المعارض — علقت على جدرانه فى غرف الطابق الأرضى والطابق الأول صور لعدد كبير من الفنانين ، لكل فنان غرفة على وجه التقريب ، وكان مسلطاً على كل صورة ضوءان : من أعلى ومن أسفل ، وهذه الأضواء هى كل ما فى البيت من إضاءة ، ولذلك فالضوء خافت يتناسب مع ما فرش به المنزل من أثاث وسجاجيد ، وتعاون كل شىء هناك على أن يجعل من « القاعة » داراً هى الفتنة كلها والسحر كله .

للفنان الفرنسى « موريس أوترلو » معرض يملأ غرفتين ، وهى كلها صور رسمها بين عامى ١٩٠٣ و١٩١٤ ، وهى فترة تسمى فى حياته بالفترة البيضاء ، لأن اللون الأبيض غالب على الصور كلها ؛ وكلها تقريباً رسوم لشوارع وكاتدرائيات فى باريس ، وهو من رجال المدرسة التأثرية فى الفن ؛ ولقد أعجبت أشد إعجاب بكل صورة من مجموعة صورة . . كنت أقف أمام كل صورة وأتخيلها قد علقت على هذا الجدار أو ذاك من منزلى بالقاهرة ، فأتصور أنها تكسب البيت كله جمالا وروعة ؛ فالمزيج اللونى فى الصور غاية فى الاتساق ، وتشعر بالنغم اللونىّ شعوراً

قويا ، مما يؤكد وجهة النظر الجديدة فى فن التصوير ، وهى أن تكون الصورة « موسيقى للعين » .

انتقلت إلى غرفة بها مجموعة لفنان حديث هو « براك » يغلب على صوره اللون القاتم : الأسود أو الرمادى القاتم أو البنى الغامق ؛ وتلوينه يشبه أن يكون حائطاً مطلياً بالجير . . جلست على مقعد أمام إحدى صوره ، فيها صورة منضدة معوجّة القوائم متموجة الأجزاء فى غير انتظام ، ولا تدرى ماذا على المنضدة ، فعليها بقع لونية مختلفة ، تتبين خلالها سكينتين . . . إننى أشعر بدافع يدفعنى أن أقوم لأقرأ اسم الصورة أسفلها ، وهذا معناه أنى لم أتشرب بعد بروح الفن الحديث ، لأننى لو تشربت هذا الفن لما اهتممتُ أبداً ماذا يكون اسم الصورة ، خشية أن أنخدع فأظن أن اسمها دالّ على ما تصوره ، مع أنه لم يعد الفنان الحديث يصور بصورته شيئاً خارج نفسه ؛ الصورة الحديثة مزيج من ألوان يحدث نغماً منظوراً ؛ ومن ثم فليس هناك ما يمنع الفنان أن يرسم المنضدة معوجّة القوائم متموجة السطح ، لأنه لا يصور منضدة ، إنما يتخذ من المنضدة وما عليها تكأة يعتمد عليها فى مزج الألوان كما توحى بذلك نفسه ومزاجه وذوقه الخاص .

وكذلك أعجبتنى صورة أخرى لـ « براك » فيها كرسىّ من كراسى الخيزران مقعده خشبىّ ، والكرسىّ منظور إليه من أعلى ، وعلى قرصه الأحمر دورق وكوب ، ويتدلى على المقعد ما يشبه الحبال المعقدة بعقد بيضاء ويمتد على جانبها فرع من ورق الشجر الأخضر . . . الصورة لا تمثلّ شيئاً من الواقع ، هذا بديهى ظاهر ، وإذن فهى مزيج لونى ، وعلى الرائى أن ينظر إليها من هذه الوجهة وحدها . . . وسيجدها مزيجاً لونياً بلغ الغاية من جمال التناسق والتناغم .

ودخلت غرفة رابعة فيها مجموعة لفنان حديث اسمه « پول كِلِى » فلم أستسغ منها صورة ، على الرغم من رياضتى لنفسى على استساغتها ؛ على أنه قد لفت نظرى

أسماء صوره ، فصورة اسمها « الأغنية العربيـة » وأخرى اسمها « ممثل المسرح الشرقى » .

وغرفة خامسة ، دخلتها فرضيت عن نفسى حين وجدتنى أنظر إلى أول صورة فيها وأقول : لا بد أن تكون هذه للفنان الأمريكى « هومر » ثم أجدنى قد أصبت ؛ و إلى الصورة الثانية وأقول : وهذه تشبه فن « إِنِّسْ » فأصيب الحـكم مرة أخرى . . .

ودخلت غرفة سادسة فيها صور لـ « فان جوخ » و « رنوار » و « ديجا » وها هنا أيضاً لم أخطئ الحـكم فى صورة واحدة ، فقد كنت أحكم على كل صورة قبل أن أقرأ اسم صاحبها ، محاولا أن استغل خبرتى ودراستى فى تمييز الأعمال الفنية بخصائصها .

وعدت فنزلت إلى الطابق الأرضى حيث طفت ببعض غرفه ، وهناك رأيت صورة « ديجا » المشهورة التى تصور تمشيط الشعر ، ففيها ثلاث نساء فى أوضاع مختلفة أمسكت كل منهن بشعرها ومالت بجسدها فوقفت وقفة من تمشط شعرها . وصورة صغيرة أخرى ملأتنى فتنة و إعجاباً لفنان اسمه « سيورا » واسمها « كاسر الحجر » وهى تصور عاملا أمسك بفأسه وانحنى يكسر بها الحجر ؛ ليس فى الصورة تفصيلات ، فهى تكاد لا تزيد عن بقعة من اللون بغير أجزاء . ومع ذلك فالحياة والحركة فيها يراها حتى من ليست له خبرة بالنقد الفنى .

وجلست أستريح فى هذا الجو الفاتن الساحر ، كأنما يصعب على نفسى أن تخرج من هذه الدار التى أترعت بالفن بناء وأثاثاً وجدراناً .

لم أكد أفرغ من الغداء حتى بدأت جولة كبيرة رأيت فيها مراكز الحـكم والثقافة فى وشنطن . . وأول دار زرتُها هى دار المحفوظات ، تدخلها من مدخل فخم تقوم فيه العمد الضخمة ، فإذا أنت فى بهو مستدير تعلوه قبة عالية ؛ ومع دوران

البهو يدور صف من صناديق الزجاج المضاءة ، عرض فيها أهم الوثائق التاريخية فى حياة الولايات المتحدة ، صُدِّرت بالوثيقة الكبرى وثيقة الاستقلال التى هى أساس الدستور ، والتى تبدأ : « نحن الشعب . . . » وعند المدخل داخل البهو صفان من أعلام ، هى أعلام الولايات الثمانية والأربعون بحثت فيها عن علم كارولانيا الجنوبية كأنى من أهلها ، فرأيته بما عليه من نخلة تتخذها شعاراً لها ! وخرجنا من البهو الدائرى إلى ممر طويل ينحنى بانحناء البهو الذى تعلوه القبة ، وفى هذا الممر تجوات فى الحائط على الجانبين ، مغطاة بألواح الزجاج ومضاءة ، لكل ولاية منها تجوة تضع فيها أهم وثائقها الإقليمية .

وقصدت بعد ذلك إلى مبنى المحكمة العليا — وهنا ألاحظ أن القائمين بالحكم فى الولايات المتحدة هيئات ثلاث : رئيس الجمهورية ورجاله ، والكونجرس بمجلسيه للشيوخ والنواب ، ثم المحكمة العليا — و بناء المحكمة العليا حديث ، أقيم سنة ١٩٣٥ ، وهو من المرمر الأبيض ، وقيل إنه صنع من المرمر ليكون رمزاً لصفاء القضاء ونقائه ، وقد بنيت الدار على النمط اليونانى الرومانى فى فن العمارة ، هذا النمط الذى يسحق نفسك سحقاً ، أو إن شئت فقل هو النمط الذى يسمو بنفسك سمواً ، بفخامة عُمُده ؛ و بما فى أجزاء البناء من تناغم واتساق ؛ تصعد إليه بسلم عريض ، وتجد عند المدخل تمثالين رائعين ، حتى إذا ما دنوت من الباب وجدت عند أعلاه هذه العبارة :

« مساواة فى العدالة فى ظل القانون » . . .

وادخل معى إلى هذه الصالة الفسيحة وكلها — كسائر البناء — من المرمر الأبيض الناصع ؛ وانظر إلى كل شىء أمامك وعلى جانبيك وفوق رأسك ، أنظر إلى صفوف العُمُد المرمرية الجليلة ، و إلى السقف وقد زخرف بمربعات حمراء ، كل مربع منقوش نقشاً بارزاً بزهرة اللوتس ، و إلى صفَّيْن من ثريات مضاءة . . أنظر إلى هذا كله وقل : ما أجلَّ الإنسان وما أعظمه !

وهنا تولانا أحد رجال المحكمة فطاف بنا فى أرجائها . . والمحكمة العليا مؤلفة من تسع قضاة ، وهى لا تنظر إلا فى القضايا التى يكون فيها احتكام لقواعد الدستور ، ولذلك لا يأتى إليها جناة ولا شهود وليس فيها محلفون ؛ كل ما فيها تسع قضاة ومحامون .

ودخلنا قاعة المحكمة ، هذه القاعة التى تضطرك إلى حبس أنفاسك فى صدرك لروعتها التى تأخذ بالألباب ! هى قاعة مستطيلة تتدلى على جوانبها كلها ستائر من القطيفة الحمراء السكية ؛ وفرشت أرض القاعة بالقطيفة الحمراء السميكة التى تغوص فيها القدم ، وصُفَّت فيها المقاعد مكسوة بالقطيفة الحمراء ؛ جلست هناك ونظرت أمامى إلى ما يشبه مصطبة المسرح ، وضع عليها منضدة كبرى ، وخلف المنضدة رُصَّتْ مقاعد تسعة للقضاة التسعة ، وأول ما تلاحظه فيها هو اختلاف تلك المقاعد شكلا وحجما . . لماذا ؟ لأن لكل قاض عند تعيينه أن يجىء بالكرسىّ الذى يريحه ، لهذا ترى مقعداً كبيراً وآخر صغيراً ، ترى مقعداً عالياً وآخر وطيئاً . . . وقال لنا محدثنا هناك متفكها إن يابانياً زار وشنطن وعاد إلى بلاده يكتب ملاحظاته فى سلسلة من مقالات ، فقال عن هذه المقاعد إنهم فى الولايات المتحدة يتيحون للأكفاء أن يختاروا كراسيهم ، وليست الكراسى عندهم هى التى تختار الرجال ؛ والكاتب بالطبع يلعب على كلمة « كراسى » التى تعنى « وظائف » كما تعنى « مقاعد » .

ومقاعد القاعة كلها ، والحاجز الذى يفصل المقاعد عن المنصّة ، صنعت جميعا من الخشب الماهوجانى الجميل ، والسقف مزخرف بمربعات حمراء برزت فيها نقوش وردية اللون تمثل زهور اللوتس .

وانتقلنا من قاعة المحكمة إلى قاعة المداولات ، وهى قاعة صنعت جدرانها الداخلية من خشب لا تشبع من جمال منظره ؛ ووضع فى وسطها مربع من مناضد خضراء أحيطت بمقاعد جلدية ضخمة فخمة ؛ وتدلى من سقف القاعة نجفتان

بلوريتان كبيرتان جداً ؛ وقد قيل لنا أن هذه الغرفة أصبحت تسمى « غرفة المداولات الدولية » ففيها اجتمع مندوبو الأمم المتحدة لأول مرة حين أرادوا وضع دستور الأمم المتحدة عقب الحرب الماضية .

وذهبت بعد زيارتى للمحكمة العليا إلى الكابتول الذى يجتمع فيه مجلسا الشيوخ والنواب : والكابتول هو سُرَّة وشنطن ، أى أن المدينة صممت على أن تتلاقى طرقها عند مبنى الكابتول ؛ وللكابتول جانبان أحدهما للشيوخ ، والآخر للنواب .

بدأت بزيارة جناح الشيوخ ؛ عليك أن تصعد إليه سُلَّما رخاميا عظيما ، أمامه تمثال كبير لـ « فرانكلن » ؛ ثم تصعد أول جزء من السلَّم فترى صورة على الحائط ، أعني رسما حائطيا ، إلا أنه محاط بإطار فخم جميل ، وهى تصور موقعة مع الإنجليز . . . الجمال والروعة والفخامة والضخامة حولك من كل ناحية ، فلا تدرى أن تجيل البصر . . .

دخلنا قاعة الشيوخ ، وجلسنا فى مقاعد الزائرين وهى مغطاة كلها بالحرير الأحمر المزخرف ، والمقاعد فى شرفة تدور مع الجدران الأربعة ؛ وتطل من حيث أنت إلى أسفل ، إلى أرض القاعة حيث يجلس الأعضاء ، والأعضاء يجلسون على مكاتب منفصلة وليست مقاعدهم بالصفوف المتلاصقة المقاعد ؛ وعدد الشيوخ ستة وتسعون شيخاً ، لكل ولاية من الولايات شيخان ينوبان عنها مهما اختلفت الولايات فى عدد سكانها ؛ وتنقسم القاعة قسمين بينهما ممشى ، فالجزء اليمين للجمهوريين ، والجزء اليسار للديمقراطيين ، وفى المقدمة مقعدان أحدهما لزعيم الأغلبية والآخر لزعيم الأقلية ؛ ويجلس الأعضاء بترتيب أقدميتهم فى العضوية ، فيجلس الأحداث فى الصفوف الخلفية ويجلس الأقدم فى الصفوف الأمامية ، وكلما قدم العهد بعضو وخلا له مكان أمامىّ تقدم إليه ... وعلى مقربة من السقف ، وبامتداد

الجدران الأربعة ، وضع عشرون تمثالا نصفيا لأول عشرين ممن تولوا رئاسة هذا المجلس ؛ ورئيس الشيوخ هو دائما نائب رئيس الجمهورية ؛ وفي وسط السقف مصباح مربع الشكل في مسطح واحد مع السقف نفسه ، وعليه نقش هو نفسه النقش الذى يمثل الخاتم الرسميّ للدولة ، فإذا أضيء المصباح ظهرت خطوطه . . . وبين الشيوخ امرأة واحدة ، وليس فيهم أحد من الزنوج .

قصدنا بعد ذلك إلى مجلس النواب فى الجناح الآخر من مبنى الكابتول ؛ وفى طريقنا بين المجلسين ، مررنا تحت قبة البناء ، قبة الكابتول العالية . . . قف هنا تحت القبة وانظر ! إننى لم أر الدنيا كلها ، لكنى لا أعرف كيف يمكن أن يكون فى الدنيا بأسرها بناء يضارع هذا البناء فى فخامته المعجزة ! القبة عالية علوا لا يطوف ببال من لم يقف تحتها ؛ جدرانها من الداخل زخرفت بلوحات زيتية كبيرة جداً ، تمثل سلسلة من مناظر تاريخ الولايات المتحدة : وصول كولمبس إلى الأرض الجديدة ؛ وصول الحجاج المهاجرين لأول مرة من أوربا إلى أمريكا ؛ الحرب مع الإنجليز واستسلام الإنجليز الخ ؛ وكذلك ترى حول حافة القبة السفلى ، عند بدء اتصالها بالقاعدة ، نقوش بارزة تمثل أيضاً مشاهد من تاريخ الولايات المتحدة .. لا يسع الرائى بالطبع سوى أن يتذكر قبة كنيسة القديس بطرس فى روما ، وقبة كنيسة القديس بولس فى لندن ولا أذكر أن إحدى هاتين تفوق قبة الكابتول فخامة وجمالا .

اجتزنا هذا البهو الذى تغطيه القبة الكبرى ، ودخلنا من باب على جانبه تمثالان ضخمان من البرنز أحدهما لوشنطن والآخر لجفرسن ؛ ودخلنا فى بهو آخر تعلوه قبة أخرى ، لكنها طبعا أصغر من الأولى . . هذا البهو الدائرى قد رُصّ حول دائرته ستة وتسعون تمثالا كلها بالحجم الطبيعى ، لكل ولاية من الثمانية والأربعين تمثالان اختارتهما الولاية من عظماء أبنائها ، ولذلك سُمِّى البهو ببهو التماثيل .

و بعدئذ صعدنا سلما رخاميا إلى حيث مجلس النواب ؛ وكما هي الحال في السلم المؤدي إلى مجلس الشيوخ ، ترى أمامك وأنت صاعد صورة حائطية كبيرة ، إلا أن الصورة هنا تمثل زحف الأمريكيين غربا زحفا ينهزم أمامه الهنود الأصليون من سكان البلاد ؛ فترى في الصورة معركة دائرة على قمم جبال روكي ، وهنالك على أعلى قمة منها وقف رائد ينظر إلى وادي كالفورنيا كأنما يبشر قومه بزحف جديد نحو الغرب . . .

نحن الآن في قاعة مجلس النواب ، قاعة مستطيلة ، في أعلاها وعلى مدار جدرانها شرفة للزائرين ؛ ومقاعد النواب صفوف متلاصقة المقاعد ، رُصَّتْ في أنصاف دوائر ، وتنشق نصفين يفصلهما ممشى ؛ الجزء اليمين للجمهوريين واليسار للديمقراطيين ، ومقعدان أماميان لرئيسي الأغلبية والأقلية ؛ والنواب يبلغون — فيما أذكر — ٤٣٥ نائبا ليس لهم ترتيب في طريقة الجلوس أماما وخلفا ، ما دام العضو يجلس في النصف المخصص لحزبه ؛ وليس بين الأعضاء إلا محايد واحد ، وفيهم إحدى عشرة امرأة و بين النواب زنجيان ؛ وعلى مقربة من السقف ، وعلى طول الجدران الأربعة ، حفرت في الحوائط تماثيل على شكل الأنواط ، لكبار المفكرين في تاريخ البشر بصفة عامة ممن أنتجوا شيئاً في باب القانون والتشريع .. وفي هذه القاعة يجتمع المجلسان حين يجتمعان معا ، وفيها يخطب رئيس الجمهورية حين يلقي خطابه في الكونجرس .

خرجت من الكابتول وأنا في حالة تشبه الذهول من هذه العظمة كلها ؛ ونظرت من الخارج إلى البناء في مجموعه ، فرأيت هنالك على قمته — على رأس القبة الكبرى — تمثال امرأة تمثل الحرية ، كأنما ارتفعت هكذا في السماء لتتعاقد مع الآلهة ألا يدخر الإنسان جهداً في سبيل حريته .

وعدنا الطريق بعد ذلك إلى حيث مكتبة الكونجرس ، وهي مقابلة للكابتول ؛

بنيت فى أول القرن التاسع عشر (١٨٠٣) . . هى أكبر مكتبة فى العالم — هكذا قال دليلنا ، ولم يستثن حتى مكتبة المتحف البريطانى بلندن — ففيها عشرة ملايين من الكتب ، ولها ملحق جديد خصصوه للأقسام الشرقية ، ومنها القسم العربى .

تصعد إليها سلّما عريضا إلى حيث مصطبة فسيحة تقوم عليها صفوف من عمد رفيعة نهضت فى واجهة البناء جليلة رائعة ، ثم تدخل خلال باب من أبوابها الثلاثة الضخمة . . . ليتنى ادخرتُ كل ما فى جعبتى من ألفاظ التفخيم والتضخيم والجمال والجلال والروعة لأقولها كلها فى وصف وقفة تقفها فى هذه المكتبة العجيبة ! ماذا أقول ؟ مهما قلت فلن أعين خيالا على أن يتصور الواقع ، فلا بد من رؤية العين ، وحتى إن رأت العين ، فلن ترى إلا جزءاً من ألف جزء مما فى هذه المكتبة من روعة فنية .

تدخل أول ما تدخل فى بهو فسيح ، وتنظر إلى سقفه و إلى جدرانه فيذكّرك بصالة بنك مصر فى القاهرة من حيث الزخرف ؛ وقد وضعت وسط هذه الصالة شجرة عيد ميلاد مضاءة بثريات الكهرباء — فأينما دخلت فى وشنطن هذه الأيام ألفيت شجرة عيد الميلاد مزدانة مضيئة —

أصعد السلم الرخامى الجميل إلى بهو فيه معروضات فى صناديق مغطاة بالزجاج أهم ما فيها وأول ما تراه منها ، نسخة من إنجيل مطبوع ، هى أول طبعة للإنجيل (سنة ١٤٥٥) ويقابلها فى صندوق آخر نسخة خطية مكتوبة فى نحو الزمن نفسه ، لكن الكتابة الخطية على صورة الطباعة حتى ليفوتك أنها مخطوطة إذا لم ينبئوك بهذا ؛ وعُمُد هذا البهو تذكّرك بقصر فرساى فى جانب منه ، ومن هذا البهو تدخل إلى شرفة دائرية تطل منها على حجرة المطالعة وهى قاعة تعلوها قبة كبيرة . . . وها هنا الوقفة التى لا يكفيها كل ما فى لغات الأرض من ألفاظ تصف الجمال والجلال . . .

اللهم إنى آمنت بأن عظمة الأمم فى عظمة فنونها ؛ إن أمريكا بلاد جديدة ليس فيها ما فى أوروبا من قصور وكاتدرائيات ؛ لكن الأمريكيين بجديدهم الذى أقاموه وشيّدوه ، قد أقاموا الدليل على أنهم — إلى جانب تفوقهم العلمى — فى طليعة الطليعة من حيث فن العمارة فى مختلف أشكاله .

الأربعاء ٢٣ ديسمبر :

كانت غايتى صباح اليوم أن أزور « متحف كوركوران للفن » وهو معرض للفنانين الأمريكيين بصفة خاصة ، بالإضافه إلى آثار كثيرين من رجال الفن فى أوروبا ... ليس البناء ملفتا للنظر بفخامة أو جمال ، وهو يقع خلف البيت الأبيض ، به طابقان ، خصص أولهما لرجال الفن فى وشنطن نفسها ، فهو معرض محلى صرف ، يعرض فى كل عام حصيلة الفن فى منطقة وشنطن ؛ وأما الطابق الثانى فهو معرض عام .

طفت بالطابق الأول مسرعا بعض الشىء لأن نظرة سريعة تدلك على أن الفنانين جميعاً بغير استثناء يرسمون لوحاتهم فى جو المدرسة الحديثة التى تراعى البناء اللونى فى الصورة أكثر من أى شىء آخر .

ثم صعدت الطابق الأعلى ، ولم أكد أفرغ من قاعة عرض فيها لوحات مستعارة من الفن الأوروبى ، حتى تبينت أن الساعة قد جاوزت الحادية عشرة ، فلا بد أن أسرع بالذهاب إلى الدكتورة « ز » حسب الموعد ، ثم أعود إلى المعرض بعد المقابلة لأدرس محتواه على مهل .

قابلت « ز » . . . ما أسرع ما تصبح المرأة العجوز شابة والمرأة الشابة عجوزا ! إن الإنسان فى هيئته يتغير ألف مرة فى العام الواحد . . لقد كنت رأيت « ز » منذ ثلاثة أشهر فرأيتها إذ ذاك امرأة متقدمة فى السن حتى لتكاد أن تخرج من عداد النساء ؛ لكنى رأيتها اليوم فدهشت للشباب الذى دب فيها ،

ولا أعلم إن كنت مصيبا فى نظرى إليها هذه المرة أو تلك ، وكانت اليوم مرحة بدرجة ملحوظة ، وأعتقد أن الوجه فى حالة المرح يزيل عن ملامحه كثيراً جداً من آثار السنين ، وفى حالة العبوس يضيف إلى السن سنًّا أخرى .

وعدت إلى معرض كوركوران لأستأنف دراستى على مهل ؛ رأيت غرفة بأسرها تعرض صور الفنان الفرنسىّ « كورو » وصوره كلها ذات طابع واحد ، حتى ليخيل إلىّ الآن أنى أميز صوره لو رأيتها : فالصورة عنده كتلة متداخلة الأجزاء من شجر لا تميز فيه فروعا ولا أوراقا ؛ واللون الأخضر فيها دائما يميل نحو ظل خفيف من الاصفرار ، ثم يغلب أن يضع شخوصا إنسانية صغيرة الحجم فى وسط الصورة ، ومن هذه الشخوص يتخذ اسم صورته ؛ كصورة « ركوب القارب » وصورة « التهامس بالسر » وصورة « رقص الحور » . . وله بين الصور صورة تختلف عن البقية تصميا وأن لم تختلف عنها روحا ، هى صورة « الغجرية تعزف على الماندولين » .

لم أكد أنتقل مسرعا بعد ذلك من سائر الغرف التى عرض فيها الفن الأوروبى إلى اللوحات الأمريكية حتى أحسستُ بالنقلة المفاجئة من جو إلى جو ، فهاهنا — فى أول غرفة دخلتها من غرف الفن الأمريكى — مجموعة من الصور معظمها مضىء باللون الفضى اللامع ، وقد كان اللون السائد فى اللوحات الأوروبية أميل إلى القتام .

على أن الفن الأمريكى ليس كله متشابها ؛ لأننى أرى من فنانيهم كل مدرسة وكل مذهب ، كأنما يساير الفنُّ الأمريكى الفن الأوروبى خطوة فى إثر خطوة ؛ فالفن الأمريكى فى القرن التاسع عشر يتجه اتجاهات الفن الأوروبى إذ ذاك : فرسم لأشخاص فى النصف الأول من القرن ، وتدرج بعد ذلك إلى رسم المناظر الطبيعية فى النصف الثانى . . خذ مثلا صورة « أنا زون وطفلاها » للفنان « لويتزة » (١٨١٦ — ١٨٦٨) وصورة « الشاطىء عند باترسى » للفنان

« وِسْلر » (١٨٣٤ — ١٩٠٣) وصورة « السيدة والكلب » للفنانة « كاسات » ، وغيرها وغيرها . . . لماذا لا تكون هذه أو هذة أو تلك لفنان أوروبي ؟

لست أرى حدودا قومية تفصل الفن الأمريكي وتميزه من سواه ، يتأثر بنفس المؤثرات التي تؤثر في الفن الأوروبي ، فتجد من رجال الفن الأمريكي في القرن التاسع عشر فريق الواقعيين وفريق التأثريين وفريق العاطفيين . . . ولماذا نتوقع شيئاً غير هذا ما دامت الأمة الأمريكية نفسها خليطا من أوروبيين ؟ إنني لا أرى الأمة الأمريكية قد أحست بعد « بأمريكيتها » إحساسا قويا ، فما بالك بإحساسهم في القرن التاسع عشر ؟ إنني حتى اليوم أسمع الناس ينسبون أنفسهم إلى أصولهم الأوروبية في أول حديث لهم معك ؛ كنت بالأمس مع السيدة « د » فكان أول ما قالته لي عن نفسها إنها أيرلندية .

ومن أكثر الصور التي وقفت عندها وقفة الإعجاب الشديد ، صورة لـ « إِنِّسْ » واسمها « الخريف في مونتكلير » وصورة لـ « ونزلو هومر » واسمها « ضياء على البحر » ، ففي هذه الصورة ترى امرأة وقفت وحدها في جلال على شاطئ البحر ويملأ جسم المرأة حيزا كبيراً من الصورة ، حتى لترى البحر وراءها وكأنه « أرضية » فقط لإبراز شخصها ، كأنما يريد الفنان أن يضع الإنسان بجماله وقوة إرادته وجلال شخصه إلى جانب الطبيعة بموجها وصخرها ، لتكون الغلبة للإنسان ! فمن ذا ينظر إلى هذه الصورة ويقول : إن البحر أقوى أو إن صخور الشاطئ أصلب ؟ . . إنه الإنسان صاحب القوة والسطوة والجمال .

وتنظر بعد ذلك إلى الفن الأمريكي في القرن العشرين ، فتنتقل نقلة واضحة لا تخطئها عين الأعمى ، وأنا أعدّ نفسي من عميان النقد الفني ولا ريب . . . فهنا يغلب على الصورة أن تكون « صورة » لا « تصويراً » ؛ إذ أن الألوان هنا لا تستخدم لتقليد الطبيعة في أزهارها وحقولها وغروب الشمس وشروقها ، بل

تستخدم لإحداث التناغم اللونى من ناحية ، والتعبير عن مزاج الفنان من ناحية أخرى . . . كيف كان يمكن أن نقول عن فنان يرسم صورة لرجل من الأغنياء والنبلاء ليتقاضى أجر رسمه إنه كان يعبر عن مزاجه فى فنه ؟ إن الفنان لم يكن يعبر عن شىء كثير من نفسه الخاصة اللهم إلا قدرته على التصوير ، كأنه آلة كاميرا . . لكن ما هكذا الفنان فى عصرنا الحاضر ، الذى يمزج الألوان ليعبّر عن مزاجه هو دون أى شىء آخر ، مهما يكن محتاجا إلى مال : إنه يمزج الألوان بنفس الروح التى يلعب بها الطفل برمال الشاطئ .

فهذا مثلا « إفَرْجُدْ » (١٩٠١ —) فى صورته « الجانب المشمس من الطريق » التى ترى فيها شارعا وفيه بضعة زنوج ، وترى امرأة بيضاء واحدة وقفت على سلم دارها ، ثم ترى تخطيطا كثيراً بالطباشير الأبيض على الأرض ؛ وتبحث فى الصورة عن « الجانب المشمس » فلا تراه ، إذ لا شمس هناك ولا ظل ، لكن أثر هذا الطباشير الأبيض ووجود الفتاة البيضاء فى ركن الصورة يوحى إلى الرائى بهذا المعنى ، معنى الضوء مجاوراً للظلام ؛ فمن ذا أراد الفنان أن يرضيه بصورته هذه ؟ لا أحد ، إنما أراد أن يمزج اللون ويبنى أجزاء الصورة على نحو يَسُرُّه هو ويمتعه قبل أن يسر ويمتع أحداً سواه .

ومن أعجب الصور التى رأيتها صورة لـ «چيميسُن» (١٩١٢ —) اسمها « الأسرة » ، رَسَمَها على هيئة خليط متداخل من جلود الثعابين ، لا تتبين فيها شيئاً بذاته أبداً ، حتى إذا ما بعدت عنها تبين لك فى خفوت واختلاط صورة رجل نام على جنبه متكئا على ذراعه وهو عارى الجسد، وامرأة نامت فى نفس الوضع تقريبا من الناحية المضادة ، بحيث يكون رأس كل منهما فى طرف من طرفى الصورة يميناً وشمالا ، وعند تلاقى جسديهما فى الجزء الأوسط صورة طفل .

وحملتُ فى ذهنى هذه الصورة ، حتى انتقلت إلى غرفة أخرى ورأيت صورة

أخرى لفنان آخر هو « ما نجرافيت » (١٨٩٦ —   ) واسمها أيضاً « أسرة » فيها سيدة شابة وعلى حجرها قطعة وأمامها طفلتها ؛ وظهر فى جانب الصورة كتف الزوج من جانبه الخلفى . . . فأى الفنانين يا ترى أعمق نظراً فى حقيقة الأسرة ؟ أهو « چيميسن » الذى رآها اتصالا عاريا بين رجل وامرأة ينتج طفلا ؟ أم هو « ما نجرافيت » الذى رآها « مجتمعاً » صغيراً أساسه الإلف والحب والعِشْرة التى جمعت الإنسان بالإنسان ، بل جمعت الحيوان (القطة) بالإنسان ؟ وطبعا ظاهر فى صورة « مانجرافيت » أنه يرى المرأة فى الأسرة أعظم مكانة من الرجل ، فليس للرجل فى الصورة إلا كتفه ظهرت من خلفها .

حسبى هذا من زيارتى لمعرض كوركوران ؛ غير أنى أحب أن أذكر ذكراً عابراً ثلاث صور يستحيل علىّ ألا أذكرها لعمق أثرها فى نفسى ، صورة لـ « جاربر » (١٨٨٠ —   ) اسمها « الغرفة الجنوبية » فيها ركن من غرفة ونافذة دخلت منها أشعة الشمس وشاب يجلس على كرسى وفتاة وقفت تقرأ خطابا .. والله إنى لأوشك أن أقول إن هذه الصورة هى أجمل ما رأيت فى الوجود بكافة ما فيه من طبيعة وفن ، وصورة لـ « بيرشتاد » (١٨٣٠ — ١٩٠٢) عنوانها « نهاية ثور » فيها قتال بين فارس وثور ، ثم صورة ثالثة لـ « ماير » (١٨٢٧ — ١٨٩٩) واسمها « الفراغ والعمل » فيها سيّد ثرىٌّ اتكأ بكتفه فى استرخاء وكبرياء على جانب باب الإسطبل ، وإلى جانبه كلبه ، وعامل يجثو ليضع حدوة لجواده .

الخلاصة التى أحب أن أوجز بها رأيى المتواضع ، هى أن الفن الأمريكى يسير جنبا إلى جنب مع مدارس الفن فى أوروبا ؛ وأكاد أقول إنه يساير الفن الفرنسى أكثر من مسايرته للفن الإنجليزى ؛ ولست أدرى على وجه الدقة بماذا نجيب إذا سألنا أنفسنا هذا السؤال : كيف يعبر الفن عن الحياة الاجتماعية فى العصر الحاضر ؟ سوى أن نقول بصفة عامة إن تحرر الأفراد وزيادة استقلالهم الفردى فى الحياة الجديدة ، وعدم تبعية الفقير للغنىّ على نحو ما كان تابعا له فيما مضى ، كل ذلك

يظهر أثره فى الفن الحديث على صورتين : فأولا أصبح الفنان لا يرعى إلا مزاجه الشخصى حين يمزج الألوان بعضها ببعض ، وحين يختار موضوعه ، فلا عبرة عنده لغنىٍّ أو أمير ؛ وثانياً أصبح صميم الحياة الشعبية مصدراً لكثير جداً من موضوعات الفن ، ومن أوضح الأمثلة على ذلك صورة « بعد الغداء » بريشة « موريس ستيرن » وصورة « اثنان وأربعون طفلا » بريشة « بلوز » وصورة « غرفة الانتظار » (فى محطة السكة الحديدية) للفنان « سُويَرْ » . . . وبعبارة واحدة مختصرة أقول إن الفن الأمريكى — مع الفن الأوروبى — يسير نحو التعبير الذاتى والبعد عن الموضوعية والنقل عن الطبيعة الخارجية .

الخميس ٢٤ ديسمبر :

السماء أصفى من البلور ، والشمس ناصعة الضياء ، والبرد ألواح من الثلج تسدُّ عليك الفضاء الشفاف . . .

جلست ساعة الضحى فى بهو الفندق أقرأ فقرأت تعليقا على كتاب للأطفال عنوانه « الريح فى الصفصاف » ومؤلفه « كِنِثْ جراهام » سكرتير بنك انجلترا ؛ وفى هذا التعليق نتف من مقدمة المؤلف لكتابه ، وهى مقدمة تحتوى على لمحات عجيبة ولفتات تدعو إلى الإعجاب من حيث تحليلها لوجهة نظر الأطفال إلى آبائهم وأولى أمرهم من الكبار ؛ فهؤلاء الكبار هم فى نظر الأطفال مصابون بالجنون والعَتَه ، تعوزهم أبسط قواعد المنطق السليم ، والأطفال يتعجبون إذ يرون مقاليد الأمور قد ألقيت فى أيدى هؤلاء الكبار المرضى بفقر الدم ، البِطاء فى حركتهم ونشاطهم ، المغلولين إلى مقاعدهم ، السجناء فى بيوتهم ، الذين استبدت بهم عاداتهم التى يكررونها فى غفلة تكراراً مطرداً مملولا ؛ ولطالما يعجب الأطفال بأى عقل فى الدنيا يفضّل الكبار جلوسهم فى منازلهم مع أن أمامهم متع الحياة وملاذها ، كتسلق الأشجار والخوض فى برك الماء ؟ وإذا كانوا قد فقدوا صوابهم فيما يختص

بأنفسهم ، فليتركوا الأطفال وشأنهم يغوصون فى هـذه المتع والملاذ .

يقول الـكاتب إن دينا الحيوان أقرب إلى فهم الطفل من هؤلاء الـكبار ، فالطفل يرى فى تصرف الفأر مثلا سلوكا أكثر قبولا عند العقل السليم من تصرف أبيه وأمه ؛ ولذلك يمتعه أن يرقب الحيوان وأن يحاكيه ، ولا يمتعه أن يرقب والديه وأصدقاءهما من الـكبار .

و يجعل الكاتب فى هذا الـكتاب شخصيتين تدور حولهما الحوادث والأحاديث هما : « السيد الفأر » و « السيد الضفدع » ؛ وهو يعتقد أن هذين الحيوانين من أحكم مخلوقات الله تصرفا فى حياتهما ، فهما كالإنسان قبل سقوطه من الجنة ، لا تفلت منهما فرصة للتمتع بالحياة إلا انتهزاها .

ومدار شخصية الطفل — وكذلك الفأر — أن يجمع بين المغامرة والمأوى الآمن ؛ كالذى يحب أن يجول فى الغابة المجهولة الثنايا ، على شرط أن يظل قادراً على العودة إلى الطريق المؤدية إلى منزله ؛ وكذلك الفأر ، يحب لنفسه المأوى الآمن فى جحره ، فيخرج إلى مغامراته ثم يعود .

قرأت ذلك كله ، وأعجبنى فيه صدق التحليل ، وعجبت بدورى لماذا يلقى بزمام الأطفال فى أيدى الـكبار ؟ للأطفال طبائع غير طبائع الـكبار ، وليس من العدل أن تسحق طبيعة طبيعة أخرى .

الجمعة ٢٥ ديسمبر :

اليوم عيد الميلاد . . .

جلستُ فى بهو الفندق أقرأ جرائد الصباح على مهل ، فالمدينة خالية الشوارع ، ولا خروج أثناء النهار ، و بعد قراءة الصحف جلست أتفرس الوجوه وأقرأ أفكار الناس وعواطفهم من ظواهرهم .

الظاهر أنى أبٌ بالطبع ، فإنى لا أتأثر لشىء أقرأه بمقدار ما أتأثر إلى درجة

تقرب من البكاء إذا ما قرأت عن طفل أصيب ، خصوصاً إذا وقعت الإصابة فى ظروف غريبة ؛ فقد قرأت اليوم عن صبى فى الثانية عشرة من عمره ، كان أمس يساعد جدّته فى ترتيب شجرة عيد الميلاد بما يوضع فى ثنايا فروعها من هدايا ؛ وكانت أمه فى جولة شرائية . . و بعد أن فرغ الصبى من ذلك ، ذهب مع زميل له إلى شاطىء النهر حيث أشجار الصنو بر ، فأراد أن يقطع من إحدى الشجرات فرعا يأخذه إلى المنزل ليجعل منه شجرة ميلاد أخرى ، واقتضاه ذلك أن يصعد على حاجز حجرى على حافة النهر ، وكان الحاجز مغطى بالنبات الزلق ، فانزلق الصبى إلى الماء المثلوج إلى غير عودة . . . . عادت جدته وأمه إلى البيت تحملان جثة الفقيد فى وقفة العيد ، ونظرتا إلى هداياه الموضوعة تحت شجرة عيد الميلاد ؛ فلما تصورتُ هذه الهدايا هناك تنتظر إلى الأبد من لن تمتد له يدٌ بعد الآن لأخذها ، دمعتْ عيناى .

وقرأت مقالا غاية فى الجودة وسمو العاطفة لكاتبة اسمها « دِركى تشابل » معظمه عن أهل الشرق الأوسط والهند وما هم فيه من فقر فظيع ؛ ورغم أنى حساس جداً لما أقرؤه عن الشرق الأوسط ، إلا أننى لم أشعر للكاتبة إلا بالتقدير والإعجاب ، لأنها شحنت أسطرها بالعطف والعاطفة والدراية والفهم ؛ فكان من بين ما قالتْه إن فكرة الجمال النسوىّ تختلف باختلاف وفرة الطعام ، فحسان هوليود نحيفات لدرجة المرض ، لأن الأمريكيات يحيط بهن الطعام الموفور ، وجمال المرأة هو فى أن تمتنع ، وأما نجوم السينما فى أوربا الجائعة — هكذا قالت — فتراهن مليئات الأجسام بدرجة يمجها الذوق الأمريكى ، وذلك لأن الطعام قليل هناك ، فلا يتصور الناس كيف يمكن الإنسان فى هذه القِلّة أن يمتنع عن طعام . . . وقل ذلك أيضاً فى الشرق وأهله ، فالجميلة هى البدينة ، والناس هناك لا يكادون يفهمونك إذا قلت لهم إنى أقلل من الطعام خشية السِّمَن ؛ فهذا كلام غير مفهوم فى بلاد كل الأمل عند أهلها هو أن يجدوا الطعام .

وأحسن ما فى هذا المقال ، بل هو صلب المقال من أوله إلى آخره ، هو أن الكاتبة تبذل جهدها فى إقناع بنى قومها أن الفقر هو القاعدة الغالبة فى بلاد العالم أجمع ، وأن ثراء الأمريكيين هو الشذوذ وهو معجزة التاريخ ؛ فليس فى الأمر ما يبعث على التقزز إذا علمت أن الناس يسكنون بيوتا من طين ، فهكذا الدنيا بأسرها ؛ وليس فى الأمر ما يبعث على التقزز إذا علمت أن الناس مرضى ، لأن القاعدة السائدة فى معظم بلاد العالم هو ألا طبيب ولا دواء ؛ وليس فى الأمر ما يدعو إلى التقزز إذا علمت أن الناس معظمهم جياع لأن القاعدة الغالبة فى أرجاء العالم كله هى أن يأكل الناس الطعام الذى ينتجونه بأيديهم ، فإذا حدث بسبب الظروف الجوية أن شحّ الطعام وقلّ كان الجوع نتيجة حتمية ؛ ليس الناس فى سائر أنحاء الأرض كالأمريكيين يشترون طعامهم من الدكاكين ، وليس هنالك فى سائر أنحاء العالم هذه المشكلة اليومية التى تصادف الأمريكى كل صباح : ماذا نأكل اليوم ؟ ففى أمريكا من الكثرة ما يجعل أمام الناس مجالا للاختيار .

لم يسعنى هنا سوى أن أتذكر فلاحنا المصرى وطعامه اليومى ؛ إنه لا يفكر ماذا يأكل فى الغداء ، لأن طعامه فى الغداء معروف .

٣ - فى نيويورك

السبت ٢٦ ديسمبر :

غادرت وشنطن بالقطار إلى نيويورك فبلغتها بعد أربع ساعات وربع ساعة . . الانتقال من كولمبيا بولاية كارولاينا الجنوبية إلى وشنطن ، ثم من وشنطن إلى نيويورك ، كالانتقال من منزل إلى مكتب ، ثم من مكتب إلى دكان . . نيويورك بمثابة دكان كبير زاخر بالمعروضات نشيط بما فيه من حركة بيع وشراء ، تحب أن تستعرض أجزاءه ، لكنك لا تحب أن تقضى الليل فيه .. نيويورك مدينة فريدة فى نوعها بما فيها من ناطحات السحاب ؛ إنها مدينة لا تكاد عينك تقع فيها على شيء قديم ، كأنها شيدت منذ أعوام قلائل ولم يمض عليها فى الحياة إلا زمن قصير ، لهذا لا تحس فيها بجلال التاريخ . . تتحرك فيها من شارع إلى شارع فيكون انتقالك من مكان إلى مكان ، لكنك لا تنتقل من زمن إلى زمن كما تفعل لو انتقلت فى القاهرة — مثلا — من مصر القديمة إلى مصر الجديدة أو من الحى الحسينى إلى الزمالك .

الشوارع فى نيويورك بين هذه الناطحات تبدو ضيقة ، أو لست أدرى لماذا تُضَيِّق الصدر ولا تشرحه ؛ فالأرجح أن يشعر الإنسان وهو سائر بين هذه العمالقة المعمارية بأنه تافه ضئيل بدل أن يحسّ أنه عظيم جبار أقام هذه العمائر العالية . . . لا عجب أن يكون هذا هو الشعور الدفين فى نفس الأمريكى الفرد ، فهو على اعتزازه بفرديته وشخصيته يخشى على نفسه أن يُهْصَرَ ويُعْصَرَ ويُطْحن ويُكْسر أمام جبروت الأعمال الكبيرة والمبانى الكبيرة . . ذلك ظاهر من فرحة الناس التى لا تنقطع برؤية الأفلام السينمائية الكاريكاتورية الرمزية ، التى تجعل الفأر الضئيل فى خطر من القط الكبير المفترس ، لكن الفأر ينجو بنفسه دائماً ! ! فرحة الناس بهذا المعنى — وهو مكرر فى آلاف الأفلام — تعكس ما هو دفين فى نفوسهم من الخوف أن يفتك الجبار بالتافه ، مهما يكن نوع الجبروت ونوع

التفاهة . . . والجبروت فى نيو يورك هو جبروت الناطحات ، والتافه هو الفرد يمشى فى الشوارع بين هذه الشوامخ .

العمارة فى نيو يورك رائدها المنفعة لا الجمال ؛ ولو أن المنفعة والجمال قد تلاقيا ؛ فليس فى ظاهر البناء زخرف ولا نقش ولا بروز ولا انحناء ، إنما هى خطوط مستقيمة عالية تضم بينها ثقوباً هى النوافذ ، كل نافذة منها فى غرفة . . . قارن ناطحة السحاب فى عصرنا بالكاتدرائية فى القرون الوسطى تدرك ما أعنيه بقولى إن الغرض المقصود من عمارة الناطحات هو المنفعة ، على حين كان الغرض المقصود من فن العمارة فيما مضى هو الجمال .

الأحد ٢٧ ديسمبر :

جعلت اليوم مقصوراً على زيارة متحف الفن الحديث . . . وهو بناء أقيم هو نفسه على أساس من فن البناء الحديث ! فتراه بسيطاً غاية البساطة : الجدران والسقوف كلها بيضاء ساذجة البياض ، فلا زخرفة ولا نقش ؛ والغرف يفتح بعضها على بعض من غير أبواب خشبية ، والأرض بلاط منقوط بغير غطاء ، والمقاعد كنبات بسيطة فى أواسط الغرف .

طلعت بالمصعد إلى الدور الثالث لأبدأ من أعلى فنازلا ؟ فوجدت جزءاً كبيراً من الطابق الأعلى مخصص لفنان واحد هو « ليجيه » — وهو فنان حديث ، تواريخ صورة تقع فى الثلث الأول من هذا القرن على نحو التقريب ؛ وله طريقة فى الرسم واحدة متميزة متكررة فى كل صوره على كثرتها ، ولا تراها عند فنان سواه ؛ وهى أن يرسم الصورة فى خطوط وأقواس يملؤها ببقع من اللون ، ويصل الأجزاء بعضها ببعض على نحو يجعل الصورة فى النهاية — إن كانت صورة إنسان مثلا — تبدو كأنها إنسان آلىّ : لكن الصورة مع ذلك تكون تركيبة لونية

تستوقف النظر ، تنظر إليها فتتمنى — مثلا — أن تكون لك سجادة بهذا التلوين وهذا التكوين .

أقول هذا لأن هذه الفكرة طافت بذهنى وأنا أتفرج على رسوم « ليچيه » وهى : لماذا يضحك الناس من هـذا الفن الحديث مع أنهم أدخلوه فى أذواقهم مرغمين أو مختارين ؟ أدخلوه فى أذواقهم على نطاق أوسع جداً مما يظنون . . انظر إلى السجاد الذى نسميه فى مصر بالسجاد الأفرنجى ؛ ما رسومه ؟ أليست تكعيبات وأشكالا لا غاية منها سوى أن تتناغم ألوانها ؟ ثم انظر إلى كثير جدا من الاعلانات ، أعنى الاعلانات الجيدة الرسم الملفتة للنظر ، أليست قائمة فى معظم الحالات على أسس الفن الحديث من أن المصور يهمل التفصيلات ويعنى بوقع الرسم على عين الرائى وفكره ونفسه ؟ ثم انظر إلى كثير جداً من الأثاث ، كيف يتخذ أحيانا أشكال الدوائر والخطوط على نحو هو بذاته اتجاه الفن الحديث ؛ وانظر إلى ملابس السيدات وكيف تكون زخرفتها فى حالات كثيرة على أساس من ذوق الفنان الحديث وهكذا وهكذا . . . روح الفن الحديث قد تغلغلت فى صميم حياتنا ، ومع ذلك أسمع الناس من حولى فى هذا المتحف ، فلا أسمع إلا السخرية من الاتجاهات الحديثة ، كأنها ليست فى ثيابهم وفى أثاثهم وفى بنائهم وفى زخارفهم على اختلافها .

وسأذكر من صور « ليچيه » ثلاثاً ، ولو أنها ليست أحسن من سائر صوره ، فكلها كما قلت روح واحدة . . له صورة كبيرة اسمها « لاعبو الورق » وأخرى اسمها « الزفاف » وثالثة « ثلاث سيدات ساعة الإفطار » . . . ولو سألنا : لماذا يركّب « ليچيه » أجزاء الصورة على هذا النحو الآلىّ ، لما أخطأنا الجواب إن قلنا : لأنه يصور المدنية الآلية التى نعيش فيها .

نزلت من الطابق الأعلى إلى الطابق الأوسط على سلم رخامى أسود جميل ، بغير زخرفة ولا زركشة ؛ ووقفت وسط السلم لأنظر إلى صورة لپيكاسو علقت

هنالك ، هى « فتاة أمام المرآة » . . . بالطبع لا تنتظر أن ترى فتاة واضحة الأجزاء والمعالم ، أمام مرآة واضحة الشكل والحدود ؛ بل لا تنتظر أن ترى الصورة فى المرآة شبيهة كل الشبه بالفتاة ، وإلا لما كان بيكاسو من رواد الفن الحديث ، إنما هى بناء لونى قائم على شكل تقريبى لفتاة مكررة مرتين بمزيجين مختلفين من اللون ، بحيث يكون فى النهاية نغم لونى ، وهذا هو أساس الفن الحديث كله .

دخلت الطابق الأوسط فوجدته زاخرا بصور الفن الحديث على اختلاف مدارسه ؛ كنت اليوم نهما جشعا ، فكدت أدرس كل صورة بقدر ما وهبنى الله من قدرة على الدراسة ؛ وعلى كل حال فالمهم فى استعراض الآيات الفنية هو أن أنظر إلى القطعة الفنية لأحسّ نشوة قوية أو ضعيفة ، فليس المهم فى التمتع بالفنون أن يتفلسف الرائى أو المستمع . . أقول إنى كنت نهما جشعا ، فقضيت فى هـذا الطابق من البناء أربع ساعات كاملة . . . دخلت أول غرفة على يمينى ، فكانت أول صورة هى « مراكب الصيد » لـ « سيورا » الفنان الفرنسى ؛ هى فاتحة فى لونها هادئة فى نغمها ؛ إنها ليست ملونة بالفرجون ، بل هى نقط تتزاحم أو تتباعد لتعطى اللون المطلوب ، ومن ثم تسمى هذه المدرسة بمدرسة الفن المنقوط ؛ فإذا لاحظنا أن « الصناعة » جزء أساسى فى تقدير القطعة الفنية ، وأن الصناعة فى هذه الصورة قد بلغت الغاية فى الإتقان ، عرفنا ارتفاع قدر هـذه الصورة ؛ و « سيورا » من التأثريين الذين يتركون حدود الأشياء فى رسومهم مبهمة ، لأن أثر المرئى فى الذهن يستحيل ألا يكون إلا مبهما هكذا .

وانتقلت إلى الصورة التى بعدها ؛ ولا داعى لقراءة اسم صاحبها ، فقد بلغت الآن من المعرفة ما يدلنى على أنه « ڤان جوخ » الهولاندى الذى أصبحت الآن لا أخطىء له صورة ، فأنا أعرفه على الأقل بألوانه التى تميل إلى الاصفرار دائما ، مهما يكن موضوعه . . . وانتقلت إلى الصورة التى بعدها ، وهى لفنان بلجيكى اسمه « إنسور » لم أكن قد رأيت له صوراً قبل ذلك ؛ الصورة تمثل بضعة

أشخاص على هيئة الأمساخ ؛ فالوجوه بشعة أقرب إلى وجوه الحيوان ؛ لكن لا ، فوجوه الحيوان لها جمالها : وجه الحصان مثلا ووجه الكلب ووجه القط ، هذه وجوه جميلة ؛ أما الوجوه التي في الصورة فأمساخ مرذولة ، واللون الغالب على الصورة هو الأحمر الناري . . . ما هذا ؟ هؤلاء ناس لا كالناس الذين نراهم في الطريق ؛ بل هم الناس كما يراهم هذا الفنان ؛ فالإنسانية في رأيه هي بهذه البشاعة ، واللون الناري يتركك في جو يوحي إليك بالجحيم ، وما الجحيم إلا هذه الحياة التي هؤلاء الناس هم أحياؤها . . . إذا كنا نبيح لكاتب مثل « جوناثان سْوِفْت » أن يصور الإنسانية في صورة بشعة (في كتابه رحلات جلفر) شاءتها له كراهيته للبشر ، فلماذا لا يكون للمصور هذا الحق نفسه ؟ ليس الفنان آلة تصوير ، لكنه فنان يتأثر ويعطيك الأثر .

وتتلوها صورة لرجل من أتباع مدرسة بيكاسو ، هو « جوجان » ؛ في الصورة ثلاثة صفوف من أشياء ، ففي الجزء الأعلى ثلاث قطط كل قطة تشرب اللبن من وعاء أمامها . وفي الجزء الأوسط ثلاث كئوس ، وفي الجزء الأسفل ثلاث مجموعات من الفاكهة . . . وقد يسأل من لم يألف الفن الحديث : ما هذا الكشكول العجيب ؟ قطط وكئوس وفاكهة في صورة واحدة ؟ ! والجواب هو أن الصورة فيها من هذه الأجزاء زخرف جميل ؛ وقد يعود السائل فيعترض قائلا : لكن ما هكذا تكون القطط في الواقع ، ولا الكئوس ، ولا الفاكهة ! فلماذا يرسم المصور هذه الأشياء على غير حقائقها الواقعة ؟ والجواب دائماً هو : ليس الفنان آلة تصوير تحاكي الواقع في أمانة ، بل مهمته أن يقدم للعين نغماً لونياً كما يقدم الموسيقي للأذن نغماً صوتياً .

وأول نظرة للصورة التي بعدها كانت كافية لأقول من فوري : هذا « سيزان » : مجموعة من الفاكهة ؛ سيزان لا يرسم التفاحة — مثلا — لكي يقلد برسمه تفاحة الطبيعة ، بل يرسم التفاحة ليجعلها مداراً لبنائه اللوني ؛ المهم عنده

— كأى فنان حديث — إبراز خصائص اللون .

وانتقلت إلى غرفة أخرى ، فكانت أول صورة من رسم « إنسوز » الذى تحدثت عن « أمساخه البشرية » منذ قليل ؛ هذه الصورة الثانية إسمها « القديس أنطوان » هى غاية فى الجمال ، وترى سماءها مليئة بالبقع اللونية ، فإذا ما أمعنت النظر فى هذه البقع وجدتها شخوصاً مختلفات ؛ والعجيب هو أن الفنان يستعمل فى هذه الصورة أيضاً اللون الأحمر ، وهو نفس اللون الذى استعمله فى رسمه للأمساخ البشرية ؛ تُرى هل يقصد إلى القول بأن مادة الشر هى نفسها مادة الخير ، والذى يجعل الخير خيراً والشر شراً ليس هو اختلاف العنصر بقدر ما هو اختلاف النسبة ؟ فالطعام خير لكنه كذلك قد يكون شراً ؛ والمرأة ، والشراب... حتى القراءة قد تنقلب شراً إذا ملأت رأس القارىء بالضلال ... لا أدرى إن كان تفسيرى هذا مقبولا ، لكنى أسارع فأسأل : مقبول ممن ؟ إن فى ميدان التأويلات الفنية لمتسعاً للجميع .

وهاتان صورتان ، كل منهما صورة نافذة تطل على الخارج ، إحداهما من رسم « ماتيس » والأخرى من رسم « دِران » وكلاهما من رجال الفن الحديث ...

وانتقلت إلى الغرفة التى تليها ، فبدل أن أنظر إلى الصور بترتيبها على الحائط ، جذبتنى صورة هناك فى الوسط ، فذهبت نحوها فوراً : فيها ثلاثة شخوص ، رسموا بجزّات غليظة من الفرجون ، وهى للفنان « روولت » واسمها القضاة الثلاثة ؛ ومرة أخرى أقول إن من لم يعطف بعد على الفن الحديث سيسخر من هذه الشخوص التى ظهرت أمامه على الصورة ، وسيسأل قائلا : هل هذه صور لرجال ؟ والجواب هو ما أجاب به « ماتيس » على المرأة التى سألته مرة عن إحدى صوره : هل هذه امرأة ؟ فقال : يا سيدتى ، هذه صورة وليست بامرأة . . . انظر إلى هؤلاء القضاة الثلاثة وسَلْ نفسك أى شعور يدور فى نفسك ؟ هل من شك فى أنك إذ تنظر إلى بشاعة هذه الوجوه تحسّ بصداها فى دخيلة نفسك شعوراً بالتقزز والنفور ؟

و إذن فلا بد أن يكون الفنان لأمر ما قد استبشع العدالة فى هذه الدنيا ، فاستفز الناظر إلى الصورة وحفزه إلى مشاركته هذا المقت وهذا النفور مما يسمونه على هذه الأرض عدالة وقضاة ؛ ولـكى يزيد الفنان من كآبة الأثر الذى تتركه الصورة فى نفس رائيها ، أحاط شخوص القضاة بخط من اللون الأسود الحالك .

وعدتُ إلى « پيكاسو » من جديد : غرفتان أو ثلاثة مليئة بمختلف الصور من رسم « پيكاسو » . . . كم صورة رسمها پيكاسو ؟ كم مائة ، بل كم ألف صورة رسمها پيكاسو ؟ ! فى كل متحف صور لهذا الفنان ؛ ولهذا طاف بذهنى هذا الخاطر وهو : هل يستطيع الشخص العادى من الناس — هل أستطع أنا مثلا أن أخلق أكثر من عشرين أو ثلاثين شكلا دون أن أكرر نفسى ؟ إذن فجانب هام من نبوغ هؤلاء الناس هو هـذه الخصوبة فى الخيال . . انظر كم خليطاً لدينا خلقه پيكاسو ، وكل خليط منها جميل ! ! و إذا أنا أثبتُّ هنا كل ما دار فى نفسى من خواطر حين استعرضتُ صور پيكاسو ، لاستطرد الحديث ، فيكفى أن أسجل اسمين أو ثلاثة لتذكّرنى بما وقع منى موقع الإعجاب الشديد من صور هذا الفنان : « الموسيقيون الثلاثة » و « صيد السمك فى ضوء القمر » و « آنسات أفنيون » .

وهنا لك بضع صور لفنان روسى هو « تشاجال » لها طابعها المميز عن الصور جميعاً ؛ هو رسام يحلم على لوحته ! انظر إلى هذه الصورة التى يسميها « عيد الميلاد » وفيها امرأة ممسكة بطاقة من الزهر وراحت تجرى فى غرفتها فى سبيل إعداد العدة لحفلة المساء ، وصورة زوجها معلقة فى الهواء من خلفها ، بادئة من إلتقاء الشفاه ؛ أعنى أن شفتى الزوج على شفتى زوجته ، ثم امتد جسمه طائراً فى الهواء وراءها كأنه « تلفيعة » تلفعتْ بها فطارت فى الهواء وراءها وهى مسرعة فى السير ! أيكون معنى الصورة أن الزوجة تحمل معها قبلة زوجها أينما سارت ؟ إن الرجل أحياناً يقبّل امرأة و يظل طعم القبلة عالقاً على شفتيه مدة طويلة ؛ إنى لا أقول هذا كلاما من قبيل الإنشاء المدرسىّ الفارغ الأجوف ، فإنى لأذكر أنى قبلتُ

امرأة ذات يوم قبلة حلوة ظل طعمها الممتع عالقاً بفمي يوماً أو يومين ، كأنني أكلت لوناً من الطعام الشهيّ وظللت أذكر طعمه اللذيذ مدة طويلة بعدئذ ؛ و إذن فيجوز أن تكون الصورة تعبيراً عن هـذا المعنى . . . وتستطيع أن تفسر الصورة تفسيراً آخر ، فتقول إنها إمرأة اكتسحت زوجها اكتساحاً ، فهو بالنسبة إلى شخصيتها كالزائدة ، أو « كشُرّابة الخرج » — كما يقولون — فهي وحدها الشخصية التي تسيطر داخل دارها ، وما زوجها إلا تكملة ، فهو يُقبِّل و يحبّ لتنشأ الأسرة التي هي عمادها النشيط الفعال . . . واضح جداً أن هذه صورة من الأسلوب الذى يسمونه فى الفن بما فوق الواقع « السير ريالست » لأنه ليس فى واقع الأشياء شيء كهذا ، ليس هنالك فى دنيا الواقع امرأة تحمل زوجها على هذا النحو وتسير به عالقا وراءها فى الهواء ؛ لكننا إذا لم نكن قد رأينا هذا الشكل بحذافيره ، فقد شعرنا هذا الشعور ، سواء كان التفسير الأول صحيحاً أو التفسير الثانى ، وما الفن إلا تصوير لمشاعر الإنسان أولا وقبل كل شيء .

وروسيٌّ آخر اسمه « كاندنسكى » (مات ١٩٤٤) له صورتان متجاورتان وليس فيهما إلا مزيج لونى ، لم يحاول حتى أن يجعل مدار ألوانه شيئاً يختاره من بين الأشياء التى يراها كمقعد أو منضدة ، بل ترى الصورة عنده وكأنها ألوان سُكِبَتْ ، مما يدل أقوى دلالة على أن الصورة فى الفن الحديث هى نغم لونى لا تصوير ، ويزيد ذلك وضوحا أن ترى الفنان قد كتب على صورتيه اسميهما هكذا : « إنشاء لونى رقم ١ » و « إنشاء لونى رقم ٢ » على نحو ما تسمى المقطوعات الموسيقية التى ليست سوى تأليفات صوتية . . . وقد تسأل نفسك وأنت تنظر إلى صورتى « كاندنسكى » : لكن ما العاطفة التى يريد هذا المصور أن يصورها أو أن يثيرها فى نفس الرائى ؟ أليس الفن تصويراً للعواطف ؟ والجواب هو شبيه بما نجيب به فى حالة الموسيقى ، فإنه يقال إن القطعة الموسيقية لو أحدثت فى السامع عاطفة محدودة معلومة كانت موسيقى من النوع البدائى الساذج ، لأنها تكون

واضحة الغرض ، مع أنه لا يجوز للقطعة الفنية أيا كان نوعها أن تـكون واضحة الغرض ، و إلا كانت درساً لا فنا ؛ أما الموسيقى الراقية الرفيعة فهى التى تخلق « جوًّا عاطفيًّا » معيناً ، دون أن تحدد العاطفة تحديداً قاطعا ؛ إنها مثلا لا تثير « الـكراهية » بشكل محدد ، بل تثير « جو القلق » . . . وهكذا قل فى صورتى « كاندنسكى » وأمثالها ؛ فالمزيج اللونى الفنى يثير ارتياحا ، أو نفوراً أو ما شا كل ذلك . . . الفن الحديث موسيقى للعين ، لا تصوير للأشياء .

وأريد أن أختم حديثى عن متحف الفن الحديث ، بما رأيته فى غرفة وضعوا لها عنواناً هو « فن المستقبل » ؛ والصور المعروضة هنا هى لفنان إيطالى اسمه « بالا » ؛ فله صورة عنوانها « السيارة المسرعة » وأخرى عنوانها « المدينة تنهض » وفيها رموز واضحة لنهضة صناعية كأنما هـذا الفنان الإيطالى قد سئم أن تـكون إيطاليا بلد الجمال الذى يزوره السائحون ، كأن إيطاليا بأسرها تحفة فى متحف ؛ وهو يريد أن يكون المستقبل فى بلده انقلابا صناعيا . . . ما أحوجنا فى مصر إلى هذا الفن « المستقبلىّ » ينفض عنا غبار القِدَم .

أما بعد ، فأين الفن الأمريكى فى هذا كله ؟ ! إنه قليل جداً ، ومعظم هذا القليل فى الفن هو من نوع « ما فوق الواقع » (السيرريالست) فهنالك الفنان « تانجاى » بصورته « نحو الشمال فى بطء » وهى صورة ممـا فوق الواقع صور فيها مركبا فى بحر هادئ ؛ وصورة أخرى غاية فى الجمال عنوانها « أماه ! أبى جريح » وقفت أمامها مدة طويلة أحاول أن أرى أين تكون الأم أو الأب الجريح ؟ فلم أجد من ذلك شيئاً ، وحسبى أنها جميلة ؛ وهنالك أيضاً ترى فناناً أمريكيا آخر هو « ماكس إرنست » بصورتيه « نابليون فى التيه » و « امرأة ورجل كهل وزهرة » .

الاثنين ٢٨ ديسمبر :

زرت اليوم متحف المتروبولتان بنيويورك ؛ وهو بناء فخم ضخم ، فهو ليس بناء من نوع متحف الفن الحديث فى بساطته . . . أول ما يصادفك داخل المتحف بهو عظيم تعلوه قبة البناء الرئيسية ؛ فانحرفتُ إلى اليمين لأبدأ زيارتى بالقسم المصرى وهو يشغل عشر غرف متتابعة .

لم أكد أجاوز الغرفة الأولى إلى ما بعدها — والغرفة الأولى خاصة بما قبل التاريخ — حتى مرت مجموعة كبيرة من الطالبات ، كل منهن تحمل لنفسها مقعدا ، ومعهن مدرّسة جاءت معهن — على الأرجح — لتحاضرهن فى موضوع يتصل بما فى المتحف من آثار . . . فأحدث الفتيات ضجة حين مررن بالغرفة التى كنت بها ، حتى إذا ما غادرنها نظرت إلىّ سيدة فى نحو الثلاثين من عمرها ، أميل إلى الجمال وعلى ملامحها علامات الثقافة ، وفى عينيها بريق جذاب ، وقالت : ما رأيك فى جماعة من الناس تمرّ فى متحف الغرض فيه أن يكون هادئا صامتا ساكنا ، فيحدثن مثل هـذا الضجيج ؟ فقلت لها وقد لمحت فى عينها لمعة تشجع على التفكه فى الحديث : لولا أنك امرأة لقلت لك ماذا تتوقعين من مجموعة من نساء إلا صخبا وضجة ؟ فقالت : قُلْها ولا تُبالِ ، فإنى أقولها معك . . . و بعد لحظة نظرت خلالها إلى معروض قالت : أنا مفتونة بالفن المصرى ، انظر إلى هذا الانسياب فى نحت التمثال ! وكانت تشير إلى تمثال من الخشب واقف إلى جانب تمثال « الـكاتب الجالس » . فقلت لهـا : ور بمـا ازددت رفقا بالفن المصرى حين تعلمين أن من تحدثينه الآن مصرى ! . .

اهتم كل منا بالآخر ، اهتمت بى لمصريتى ، واهتممت بها لدرايتها بالفنون ، فقد تعارفنا فعرفت عنها أنها من أهل نيو يورك ، تخرجت فى جامعتها ، وحصلت على درجة جامعية فى الموسيقى أساساً وفى الفنون إطلاقا ؛ وهى تدرِّس فى ولاية

جورجيا (فى أقصى الجنوب) وأغرب ما علمتُه منها أنها تدرّس فى كلية للزنوج هناك ، ذلك لأنى لم أكن أعرف أن البيض قد يقبلون العمل فى مدارس السود ؛ وإذا كانت هذه السيدة لا تدّعى ما ليس حقا ، فهى تقول إنها اختارت عامدة أن تدرّس عامين فى مدرسة للزنوج لأنها تعطف عليهم وتقف إلى جانبهم فى مشكلتهم مع البيض ، وأرادت أن تضع نفسها فى المسرح الذى تدور عليه المشكلة فى صميمها ، وأعنى به ولايات الجنوب ، لترى بعينها الحقائق عن كثب . . . راحت تشرح لى كيف أن الموقف أصعب جداً من ناحية الزنوج منه من ناحية البيض ، لأن الأبيض ما عليه إلا أن يغيّر رأيه عن الأسود فتنتهى المشكلة بالنسبة إليه ؛ أما الأسود فهو يغلى من الغل والكراهية لانعزال البيض عنه تكبراً ، مع أنه فى الوقت ذاته لا يرضى أن يندمج البيض فى السود ، ويريد لنفسه العزلة ! سألتُها : ولماذا يريد السود أن يظلوا فى عزلتهم اللونية ؟ فقالت : لأنهم يخشون منافسة البيض ؛ فافرض مثلا أن كلية من كليات الزنوج فتحت أبوابها للمدرّسين جميعاً أبيضهم وأسودهم على السواء ، وافرض أن البيض أقبلوا على التدريس فيها ، فسيكون الموقف دائماً هو أن بين البيض من هم أكفأ وأعلى فى الدرجات العلمية ، وبذلك يملؤون الوظائف ويسدّون الطريق أمام الزنوج ... ثم قالت : إن الزنوج لا يقبلون على العمل إقبالنا نحن البيض عليه . . .

ومن أغرب ما سمعته منها ولم أكن أعلمه أن تلاميذها يعرفون عنها داخل الكلية أنها شديدة العطف على الزنوج وتحبهم وتشجعهم ، ومع ذلك كله فبمجرد ما تخرج من أبواب الكلية ، يمتنع تلاميذها عن التحدث إليها فى الطريق ؛ وحتى إن شجعتْ طالبا رأته فى الطريق بأن تبدأ هى بالحديث ، خاف الطالب ، وراح يتلفت حوله قبل أن يتحدث إليها ، خشية أن يكون هناك شرطىٌّ على مقربة منه ، لأن الشرطىّ يقبض على الزنجى بحكم القانون إذا رآه يتحدث فى الطريق مع بيضاء ! !

اسم هذه السيدة « ا . و . » جاءت إلى نيويورك لتقضى مع أهلها عطلة عيد الميلاد ؛ وهى واسعة الدراية بالفنون إلى درجة تستلفت النظر ؛ مشينا معا فى حجرات القسم المصرى ، فكانت لها تعليقات أفادتنى فى الفهم فائدة عظيمة ؛ كان أول ما رأيناه معا فى الغرفة التى كنا بها أوان فخارية بينها « زير » على حامل من الحديد ، شديد الشبه جداً بما يستعمل حتى اليوم فى الريف المصرى ، فقالت : هذا شبيه ببعض الآثار الفخارية فى المكسيك ، والذى حِرت فى أمره هو : لماذا يصنعون هذه الآنية الفخارية بغير قاع مسطوح ترتكز عليه فوق الأرض ؟ لماذا يجعلون لها هذا القاع المكوَّر بحيث يحتاج فى رفعه عن الأرض إلى حامل من حديد ؟ فقلت لها : هذه الآنية الفخارية لا تزال مستعملة فى ريفنا المصرى لتبريد الماء ، والفكرة هى أن جدار الآنية ليس مصمتا ، بل هو ذو مسام يوشح منها الماء ويسيل على الجوانب ، وإذن فلا بد أن ترفع الآنية عن الأرض ليتجمع الماء السائل فى الطرف الأسفل ويتبلور فى نقطة ماء تسقط فى إناء موضوع تحت الزير .

وانتقلنا إلى الغرفة المجاورة ، فكانت هناك لوحات حجرية عليها رسوم حمراء لأشخاص فى أوضاع مختلفة ؛ وهنا دار بينها وبينى حديث مفيد ممتع فى فن التصوير عند المصريين القدماء ؛ وذلك أنى نظرت إلى الصورة وقلت فى شىء من المجازفة — خشية أن يكون قولى دالاً على جهل معيب — إننى أرى فى هذا الرسم المصرى القديم بعض أصول الفن عند « ماتيس » ، ثم سألت قائلا : فلماذا يعد هذا الفن بدائيا بينما يُعَدّ فن « ماتيس » آخر طراز فى الحداثة ؟ فقالت : فن « ماتيس » قائم بالطبع إلى حد كبير على الفن الإفريقى (هكذا) ولكن من ذا الذى قال إن هذا الفن الإفريقى بدائى ؟ وراحت تشرح لى ما أفادنى ، وهو أن الرسم المصرى قائم على أساس حقيقة المرئى كما هو فى الواقع ، لا على صورته فى عين الرائى ؛ فهم يرسمون الرجل — مثلا — بصدره كله ، ويلفتون الرأس إلى

أحد الجانبين وفى الوقت نفسه يرسمون العين كاملة على الصدغ الظاهر ، مع أنهم لو رسموها كما يراها الرائى تحتم أن يرسموا نصفها لاختفاء نصفها الآخر ما دام الوجه متلفتا إلى جانب . . المصور المصرى القديم لا يأبه لما تراه عينه من الشىء المرسوم ، بل يرسم ما يعلم أنه حقيقة الشىء فى الواقع ؛ يندر جداً أن يرسموا الشخص من جانبه لأن ذلك يضيّق الصدر فى الصورة ؛ وكذلك يندر جداً أن يرسموا الوجه ناظراً إلى أمام مع الصدر ، لأن ذلك لا يعطى للأنف كامل هيئته ؛ وكذلك القدمان ، يرسمهما الرسام دائما كاملتين مهما كان وضع الشخص المرسوم ... أخذت السيدة تشرح لى كيف أن المصرى فى رسمه للأشياء على هذا الأساس لم يكن جاهلا بقواعد المنظور فى الرسم ، فهو يبدى دقة كبيرة فى رسم التفصيلات مما يدل على قدرته و براعته ، بحيث يستحيل بعد ذلك أن نقول إنه إذا رسم العين كاملة — مثلا — مع أن الوجه ملتفت إلى جانب ولا يُظهر العين كاملة كان ذلك جهلا منه بالرسم وقواعده ! لكن الأمر أمر « مبدأ » فنى يصدرون عنه ؛ فقد أرادوا — كما أراد « ماتيس » فى عصرنا الحاضر — ألا يتقيد الفنان بقواعد المنظور على اعتبار أن الصورة الفنية ليست صورة فوتوغرافية تنقل الشىء كما يُرى .. ولحسن الحظ كان أمامنا صورة أخرى معلقة إلى جانب الصورة التى كانت موضوع الحديث ؛ فى هذه الصورة الثانية شخص ممسك فى يده بعدد من الطير ، يمسكها من أرجلها فتتدلى رءوسها إلى أسفل صفا على هيئة مروحة ، أو على هيئة الزهرة ؛ والرجل فى الصورة متمنطق فى وسطه بالثوب المصرى التقليدى ، لكن الرسام أظهر فى الصورة خطوط فخذيه ، مع أن فخذيه يغطيهما الثوب فلا يظهران للرائى ؛ فقالت السيدة لى : انظر إلى هذه الصورة مثلا ؛ فلو كان الفنان متقيداً بقواعد المنظور ، لأخفى خطوط الفخذين لاستتار الفخذين وراء الثوب ، ولا يمكن أن نقول إن ذلك جهل منه فى التصوير ، لأننا إذا نظرنا إلى مجموعة الطير فى الصورة ، وجدنا الفنان قد راعى فيها قواعد المنظور التى حسبناه يجهلها ، فجعل الطائر الأعلى يخفى الطائر الذى

خلفه وهكذا . . لماذا ؟ لأن هدف الفن المصرى هو إظهار «القالب» أو «التكوين» أو « الفورمة » فهو يظهر فخذى الرجل بغض النظر عن الثوب ، لأنه يريد إظهار « تكوينهما » ، أما فى حالة الطير فلم ير حاجة إلى إهمال قواعد المنظور ، لأن « التكوين » أو « الفورمة » قد تحققت له فى رءوس الطير التى تدلت على هيئة الزهرة . . . والخلاصة أن أساس التصوير المصرى هو إظهار « التكوين » ، بحيث يستبيح الفنان لنفسه مجاوزة قواعد رسم المنظور إذا ما تعارضت مع إبراز «التكوين» ، أما إذا لم يكن ثمّ تعارض بين المنظور و « التكوين » راعى قواعد المنظور .

واستطردت السيدة فى شرحها فقالت : إن المصريين فى تماثيلهم لا يلجأون إلى تغيير شىء من المرئى ، لأنهم فى النحت ليسوا بحاجة إلى تغييره ، إذ تتلاقى قواعد المرئى مع حقيقة الشىء فى الواقع ؛ لكن التصوير هو الذى أحدث هذه المشكلة فى عصور التاريخ الفنى كلها ، لأن المادة المرسوم عليها ذات بعدين ، على حين أن الشىء المرسوم ذو ثلاثة أبعاد ، فكيف نتصرف إزاء البعد الثالث ؟ أما المصريون واليونان معا ، ومعهم الفن الحديث على أيدى «پيكاسو» و « ماتيس » وغيرهما ، فيهملون البعد الثالث ليكونوا أمناء فى استخدام المادة التى يرسمون عليها ؛ وبذلك ظهرت رسومهم مسطحة لا محاولة فيها لإبراز البعد الثالث ؛ وأما الفن الأوروبى منذ عصر النهضة إلى القرن العشرين ، فهو وحده دون سائر عصور التصوير كلها فى كل مكان وفى كل زمان ، هو وحده الذى خرج على التقليد الفنى ، وحاول أن يلجأ إلى « التظليل » فى الصورة ليُظهر البعد الثالث ؛ وكان ذلك خطأ فنيا عظيما ، ومجهود المدرسة الحديثة فى الفن أن تزيل هذا الخطأ وتعود إلى الطريق الصواب ؛ فإذا كنا نريد إظهار الشىء بأبعاده الثلاثة ، فعلينا بالنحت ؛ أما أن تكون لوحة التصوير مسطحة ذات بعدين ، ثم نحاول أن نبرز على سطحها بعداً ثالثاً ، فخروج على ممكنات المادة التى يعالجها الفنان .

إنه بغضّ النظر عن هذه اللمحات القوية التى استفدتها من هذه السيدة فى

فهم الفن المصرى وتقديره ، فوالله لقد وقفت مبهوتا أمام المعروضات المصرية ؛ إنه لا جديد فيما أرى ، فقد ألفتْ أعيننا هـذه الأشياء ؛ لـكن لا تنظر النظرة العابرة ، وقف أمام شيء واحد ، وادرس تفصيلاته لتدهش وتعجب . . . لقد كنت أمس فى متحف الفن الحديث ، ورأيت تماثيل نحتها قادة هذا الفن فى عصرنا ، و إنى لأقول إذ أقارن بما أراه الآن وما رأيته أمس : شتان ما بين الثرى والثريا ! ... طاف ذلك بخاطرى ، لـكنى لم أقله لزميلتى خشية أن أكون كالطفل الذى يباهى ، حتى وقفت هذه السيدة من تلقاء نفسها أمام تمثال جميل وقالت : لو خيرتُ بين هذا التمثال وحده و بين متحف الفن الحديث كله بما فيه من أرضه إلى سمائه ، لاخترت هذا التمثال ؛ ياله من إعجاز فى الفن !

وانظر إلى الحلىّ المعروضة نظرة مدقق ، وقل لى أين الفرق بين هذه الأقراط الـكبيرة المستديرة التى أراها الآن ، و بين ما أراه فى أرقى معروضات « الطريق الخامس » فى نيو يورك ؟ ! وانظر إلى الأوانى الدقيقة الرقيقة ذات « التـكوين » البديع الرشيق الرائع . . . إن كل آنية منها كأنها فتاة من باريس تعلمت كيف تقف و كيف تتلفت فى رشاقة ودلال .

امتلأت اليوم زهواً ، بقدر ما أفعمتُ حسرة على أن يكون هذا هو ماضينا المصرى ثم نملأ الدنيا صياحا بأننا عرب ؛ إنه لو خرج من مستشفيات المجانين شعب ، لما أضلّه جنونه ضلالا شرا من ضلالنا ؛ أين هى آثار العرب التى نزهى بها إذا أردنا أن نزهى بماضينا ؟ إن عظمة الشعوب هى فى فنونها وعلومها ؛ فإذا لم يكن المصريون قد تركوا كثيراً مما يدل على علم بالطبيعة والـكيمياء والنبات وغيرها ، فقد تركوا على الأقل هذا التراث الفنى الضخم الذى يملأ متاحف العالمين ؛ فأين آثار العرب التى نراها فى المتاحف من علوم أو فنون ؟ . . . و بعد هذا كله ، بعد هذا الماضى المصرى المجيد ، ترانا قد قذفنا بهذا التراث فى جوف البحر ، وأقفلنا أعيننا وصممنا آذاننا ، وانطلقنا نقول للدنيا بأفواه تتساقط منها خيوط من لعاب البلاهة والخبل :

نحن عرب ! فلا غرابة أن نكون فى أذهان الناس « عربا » يأكلون الماعز ويسوقون الجمال ويسكنون الرمال ، ما دام هذا هو ما اخترناه لأنفسنا بأنفسنا .

وقفت مع زميلتى الفنانة أمام رأس نفرتيتى (وهى بالطبع نسخة من الأصل المحفوظ فى برلين) وراحت الزميلة تبدى إعجابها الشديد ، قائلة إن أستاذها الذى علّمها الفنون كان قد درس فى برلين ، وكان يقول لهم إنه من شديد إعجابه برأس نفرتيتى أحب نفرتيتى حبا جنسيا كما يحب الرجل المرأة يشتهيها . . . ثم قالت : وأنا لا ألومه على حبه ذاك ؛ انظر إلى هاتين الشفتين ! إن الشفاه فى تماثيلكم كلها من أبدع الشفاه فى البشر جميعاً ... فقلت لها : لولا أن شفتى نفرتيتى تبديان قليلا من شهوة ؛ فقالت : نعم هذا صحيح ، لكنها شهوة فى تحفظ الحياء ، وفى هذا سر جمالها .

ودعتنى الزميلة الفنانة لنلتقى بعدئذ على عشاء . . ورحت أستعرض وحدى بقية المتحف ؛ لكن هل يمكن أن أستعرض كل هذا العالم الزاخر فى جزء من يوم ؟ فهذه آثار اليونان ، وتلك آثار العصور الوسطى ، وأخرى آثار العصر الأول فى أمريكا وهكذا وهكذا ؛ كلها معروض فى أبهاء فسيحة قوية البناء جميلة التنسيق ذات هيبة وجلال .

وحسبتنى قد كدت أفرغ من المتحف ، لكنى وقعت فجأة على جناح بأسره خصص للفن الأمريكى فى التصوير . . . فيئسُت من التتبع والتعقب والدراسة ، أقول إنى يئست من أن أحيط بأكثر من النزر اليسير من العلم بالفن الأمريكى ، فجلست على كنبة هناك لأستريح ، فقد كان التعب هدّنى هدًّا .

وعدت فى المساء فالتقيت بالزميلة الفنانة ، وحضرنا معا ملهاة سنمائية جميلة عنوانها « جنة القبطان » ثم تعشينا فى مطعم صينى ، وهناك على مائدة العشاء دار بيننا حديث ثقافى طويل بلغنا به أعلى ما يمكن لمثلنا أن يبلغه من ارتفاع ؛ وكان

الموضوع هو هذا : هل يستطيع الفنان أن يقيد نفسه بقوانين المجتمع وأوضاعه ؟

أما أنا فقد أخذت بوجهة النظر القائلة بأنه يستحيل على فنان أصيل أن يخضع لأى قانون غير ما يشرعه لنفسه من نظام ، ومن ثم اتهامه عادة بالشذوذ أو بالجنون ، فالفنان العظيم هو أولا وقبل كل شيء إنسان ذو خيال قوى يحطم قيود الزمان والمكان ، فلا هو يرتبط بعصره ، ولا هو يتقيد بتقاليد بلده وقومه ؛ و إذا تخيل الفنان طريقة للعيش ولم يعش وفق خياله كان فناناً ناقص التكوين أو ضعيف العقيدة .

وأما زميلتى الفنانة فقد دافعت بقوة و براعة وسعة اطلاع عن الفكرة القائلة إن الفنان العظيم لا بد له كسائر الناس من قيود ، وضربت لذلك أمثلة كثيرة من الموسيقيين بصفة خاصة ، ثم أمثلة أخرى من رجال الأدب ، فملتن مثلا رجل متدين عميق الإيمان ، ولم يمنع استسلامه للعقيدة الدينية من أن يكون شاعراً عظيما ، لا بل إنه كان شاعراً عظيما بسبب عقيدته الدينية . . . ثم قالت : إنهم صغار الفنانين هم الذين يتظاهرون بالخروج على كثير من الأوضاع والقواعد ليكملوا بهذا الشذوذ نقصاً فى شخصياتهم ؛ وهنا أخذت تسوق أمثلة كثيرة من أديب « توماس مان » خصوصاً قصته « موت فى البندقية » لأنها قصة عن فنان أعزب أبى أن يتزوج ، وأخيراً طفحت به غريزته فمالت به إلى شذوذ حتى أحب غلاماً فى باريس . . .

ثم تحدثنا عن الفن الأمريكى وهل له خصائص تميزه من الفن الأوروبى ، فوافقتنى على أن الفن الأمريكى يساير المدارس الأوروبية خطوة خطوة ... لكن حديثى معها قد أظهرنى على سعة اطلاع عجيبة ، لأنها تعرف الشيء بتفصيلاته ولا يكفيها المعلومات العامة كما هى الحال مع معظم مثقفينا فى مصر ؛ فلو قالت مثلا إن الفن الفرنسي يتميز بكذا وكذا ، راحت تسوق الأمثلة الجزئية من لوحات معينة وهكذا .

سألتنى عن رأيى فى نيو يورك، وكانت شوارع نيو يورك عندئذ تتلألأ بأنوارها، خصوصاً وأن زينة عيد الميلاد لا تزال قائمة بروعتها وفنها وجمالها على واجهات المبانى الكبرى، فقلت لها : إن من يدرك الفرق بين الكلمتين الإنجليزيتين « House » و « Home » (وأقترح ترجمتهما إلى العربية بكلمتى « منزل » و « مسكن » على التوالى، على اعتبار أن الأول دار للنزول بغض النظر عن سكينة النفس أو عدم سكينتها، وأن الثانى دار تتوافر فيها سكينة النفس وطمأنينتها) يدرك الفرق بين نيو يورك وسائر البلاد التى رأيتها ؛ فنيو يورك « منزل » جميل جداً رائع جداً نظيف جداً مصقول جداً، لكن كل شىء فيه يوحى بأن الإقامة هنا موقوتة مرهونة بظروف، وليست هى بالإقامة الدائمة التى تضرب فيها الأسرة بجذورها أجيالا متعاقبة.

إننى أستطيع أن أقول إن نيو يورك، بل إن الولايات المتحدة كلها، قد ركزت روائع حياتها فى ثلاثة شوارع، هى شوارع « برودواى » للسينمات والمسارح، و « الطريق الخامس » لكبريات المحلات التجارية، و « پارك آڤنيو » (أو « طريق البستان » إن شئت ترجمة عربية لهذا الاسم) لفنادق ومساكن الطبقة العليا... ولكل شارع من هذه الثلاثة خصائصه، وأعتقد أن من يدرس بدقة هذه الشوارع الثلاثة فقد درس جانباً مهماً من الحياة الأمريكية والذوق الأمريكى حين يبلغ أقصى مداه... وليس لمثلى أن يقول شيئاً عن « طريق البستان » لأنه لن يتاح لى أن أدخل منزلا فيه أو فندقاً من فنادقه، وليس الشارع هو ظاهر مبانيه، بل هو ما تحتويه تلك المبانى... لكنى أقول عن شارع « برودواى » إنه لا يزيد على شوارع المسارح فى المدن الأخرى إلا فى الدرجة، لا فى النوع، فلافتات السينما كبيرة تعشى البصر بأضوائها الوهاجة، وحتى المتاجر والمطاعم فى برودواى تساير هذا الذوق البراق المتوهج ؛ والناس فى هذا الشارع فى زحام لا ينقطع، وأعقاب التذاكر تملأ الأرصفة... وأما

« الطريق الخامس » فهو مختلف عن أمثاله فى النوع ، فلا تستطيع مثلا أن تكبّر بالخيال شارعاً فى مصر ثم تقول إن هـذا هو « الطريق الخامس » بنيويورك ، فليس هو بالمختلف عن ضريبه فى القاهرة فى أنه أوسع وأن عماراته أعلى ومحلاته التجارية أكبر . . . لا ، بل هنالك فرق فى النوع أيضاً ، هنالك فرق فى الروح ؛ فى الذوق البديع البادى فى معروضات النوافذ التجارية ، وفى جودة الأصناف المعروضة ، وغلاء أسعارها ... حتى الناس الذين تراهم سائرين فى هـذا الشارع ساعة الضحى هم — كما يخيل إلىّ — من صنف مختلف ، إذ ترى كثيرات من سيدات بمعاطف الفراء يفحن بالعطور ... هن مختلفات عمن ترى فى برودواى لأنك ترى فى برودواى أخلاطاً من الناس .

الانتقال من شارع إلى شارع فى نيويورك هو انتقال فى المكان لا فى الزمن ، كما قلت عن أى بلد آخر فى الولايات المتحدة ... ليس فى نيويورك غزارة زمنية ، ليس فيها رواسب الأيام والقرون ؛ الانتقال بين الشوارع الثلاثة التى ذكرتها : « طريق البستان » و « الطريق الخامس » و « برودواى » — التى تمثل كما قلت جانباً هاماً من نواحى الحياة الأمريكية — هو انتقال يدلّ فى امتدادات الزمن على يوم واحد ! فللطريق الخامس ساعات الضحى ، ولبروروای الساعات الأولى من المساء ، ولطريق البستان الحفلات الساهرة التى تقضى ما بقى من الليل وراء ستر من الجدران !

الثلاء ٢٩ ديسمبر

ذهبتُ عصر اليوم إلى متحف « وِتْنى » للفنون ، وهو متحف للفنانين المحدثين من الأمريكيين ، وكنت فى هذه الزيارة على موعد مع زميلتى الفنانة « إ » وصديق لها اسمه « هـ » هو وزوجته ، وكلهم من المشتغلين بالفن إنتاجاً وتدريساً ؛ أخذ كل منا يتفرج وحده ، لـكنى سرعان ما التقيت بزميلتى الفنـانة

عند صورة عجبت والله كيف يمكن أن يكون فيها أى شىء من الفن لتعرض فى معرض كهذا ! فهى لا تزيد أبداً عن « شخبطة » يخطها طفل على ورق كما اتفق ! وحتى المزيج اللونى لا جمال فيه ، فالأرضية سوداء وخليط الخطوط عليها بيضاء ، فقلتُ لزميلتى « إ » : ما رأيك فى هذه الصورة ؟ فقالت : هى من أبدع معروضات المتحف ! قلت لها : أتوسل إليك أن تبَصِّرينى بمواضع الجمال فيها ، فلا لون ولا حسن تقسيم ولا شكل ، فما جمالها ؟ ! فقالت فى استخفاف : آه ! جمال ! أنت إذن تبحث فى الصورة الفنية عن جمال ؟ ! إذن فبينك ياصديقى و بين أن تفهم الفن الحديث مراحل ومراحل ؛ فأقل ما ينبغى أن تعرفه هو ألا شأن للفن بالجمال ! كون الفن يعرض جمالا ، هذه فكرة ذهبت وذهب زمانها ، إلا إذا أردت أن تنبذ الفن الحديث وتتنكر له كله من تصوير ونحت وموسيقى ! قلت لها : هذا شىء عجيب ، ماذا إذن تريدين من الفن أن يعرضه إذا لم يعرض جمالا ؟ فقالت : أريد شيئاً واحداً ، هو حرية التعبير ، لا أكثر ولا أقل ؟ فهذه الصورة التى تسألنى عنها فيها حرية تعبير ، انظر إلى البساطة التامة والحرية التامة فى الخطوط والدوائر ... قلت لها : لكن الطفل حين يخطط على الورق كما اتفق ، يفعل ذلك ببساطة وحرية ؟ ! فقالت : عندئذ يكون عمل الطفل فناً وإن لم يكن ذا جمال ! .

هنا انقلب تصورى للأمر رأساً على عقب ؛ فقد كنت حتى الآن مستريحاً إلى مبدأ أتفرج به على الصور وأقدرها على أساسه ، وهو أن أرى جمالا فى البناء اللونى للصورة ، وفى البناء التخطيطى ، وها هى ذى زميلتى الفنانة « إ » تقول : لا ، ليس هذا بالأساس الصالح .. أنا لا أقول إن « إ » قد أصابت حتما كل الصواب فيما قالت ، لكنها على الأقل قد أفسحت عندى مجالا جديداً للشك والتفكير ؛ فأقبح المخلوقات قد يكون موضوعا لصورة فنية أو لتمثال ، دون أن يقال إنه ليس فناً بسبب قبحه ، و إذن فالجمال والفن قد لا يلتقيان أبداً .

خرجنا من المتحف ، وصحبنا الفنان الشاب « هـ » إلى المبنى الجديد من جامعة نيويورك وكنا عندئذ على مقربة منه ؛ فنحن الآن فى حى الجامعة الذى هو شديد الشبه بالحى اللاتينى فى باريس . . . أطلعنا « هـ » فى المبنى الجديد للجامعة على رسم حائطى رسمه على أعلى حائط المدخل ، و يمتد ما امتد الحائط ، فعندئذ عرفت أنه — على حداثة سنه البادية — فنان معترف به ما دامت الجامعة قد وكلت إليه أن يزخرف بناءها الجديد بزخرف تشيع فيه روح الفن الحديث .

أخذت « إ » تبدى لصديقها الفنان بعض ملاحظاتها ، وكان يتقبل قولها بصدر واسع رحب ، وقد ورد فى حديثهما تعليق عنى ، إذ قالت لصديقها : لا يزال الدكتور محمود ممن ينظرون إلى الصورة و يسألون : أين الجمال ؟ فضحك الفنان الشاب ضحكة العطف على هذا الذى لم يدخل بعد دنيا الفن الحديث ! فقلت له كأنما أعتذر عن فضيحة كبرى : اعتبرنى فى مرحلة التطهير التى وردت فى جحيم دانتى ، تلك المرحلة التى يجتازها المنتقل من الجحيم إلى الجنة .

الأربعاء ٣٠ ديسمبر :

دخلت كنيسة القديس باترك فى « الطريق الخامس » ؛ إن الروعة لتصادف الداخل حتى لتنحبس منه الأنفاس و يهتز القلب ... النوافذ الملونة غاية فى الجمال ، والعُمُد القوطية والأضرحة المرمرية البديعة ! على كل عمود فى الممشى الرئيسى علق إكليل من الصنوبر مزخرفاً بشريط حريرى أحمر ليرمز إلى شجرة عيد الميلاد وفى المربع المسوّر وسط الكنيسة طاقات وطاقات من الزهر الأحمر الجميل ؛ وهنالك فى محراب الكنيسة مسرح أقيم من طين على هيئة البيت المتواضع حيث ولد المسيح ، فيه شخوص تمثل ساعة مولده ؛ وعلى طول المماشى صفوف من الشمع الموقد ، كل شمعة فى كوب من الصينى ... مئات الناس يدخلون و يخرجون ، فنيويورك فى أزحم أيامها فى العام كله بسبب عيد الميلاد ...

جلست هناك على مقعد أنظر : هذه امرأة وطفلها ، ركعتْ هى وركع معها طفلاها فى خشوع أمام أحد الأضرحة المرمرية ؛ إننى لا أعرف ماذا يدور فى رأس المرأة ، لكننى أتصور فى وضوح نوع الشعور الملغز الغامض الذى يدور فى فى نفس هذين الطفلين ، والذى هو أقرب إلى الخوف منه إلى التقديس . . كيف يمكن بعد هذا لمثل هذين الطفلين أن يقبلا أو يتسامحا فى أية عقيده أخرى ؟ إذا كانا قد بدءا يركعان منذ الآن أمام ضريح من الحجر !

وهذه فتاة راكعة وهى فى كامل زخرفها وزينتها ، من تظليل للجفون إلى تلوين للأظافر ؛ وإنه ليبدو على وجهها أنها جاءت تستغفر زلَّة أو زلاّت ؛ وهذه امرأة عجوز وقفت فى خشوع تضىء الشموع التى انطفأت ، وهى بذلك تعبد الله . . هذا رجل غاية فى الوقار وحسن الهندام ، ركع أمام مقعده وأخرج من جيبه إنجيلا صغيراً وراح يقرأ لنفسه ... على كل حال ، يستحيل لآدمىٍّ أن يجلس ها هنا ، فى هذا الجو الفنى من عمارة ونوافذ وتماثيل وأضرحة وأنغام للأرغن خافته تتردد أصداؤها ، دون أن يخشع لمن هو أكبر منه ، دون أن يشعر بأنه صغير ، صغير على الأقل بالنسبة لهذه العمد الرفيعة وهذه القباب العالية ... إنه إذا كانت العقيدة الدينية أكذوبة ضرورية ، فيحسن أن تساق الأكذوبة فى فن جميل .

خرجت من الكنيسة وقصدت إلى « طريق البستان » ومشيت فيه الهوينا ، أنظر إلى الحديقة التى امتدت فى وسطه — وهو فيما أظن الشارع الوحيد فى نيويورك الذى تمتد فى وسطه حديقة — وانظر إلى أشجار عيد الميلاد العالية المزخرفة التى غرست فى وسطه صفا يمتد بامتداده ... وصلتُ فى سيرى إلى فندق « والدورف آستوريا » المشهور فدخلت وجلست فى بهوه لأستريح أولا ، ولأرى الناس يدخلون ويخرجون ... سجادٌ وزينة وفخامة وضخامة ! قلت فى نفسى : أفى هذه الأبهة كلها كان مندوبو مصر دائما ينزلون على حساب الفلاح الذى يأكل الخبز الخشن مغموساً فى المش ، وهو سعيد لو وجد منهما ما يكفيه ؟ أى والله ،

كانوا ينزلون هنا يختبون خبًّا فى هذا العز الذى كان ينبغى أن يترك لأبناء أمة فلاحها يأكل ويكتسى ويسكن إلى بيت !

حضرت الليلة رواية تمثيلية غنائية فى مسرح « زيجفلد » اسمها « قسمت » قائمة على الجو الساحر فى ألف ليلة وليلة ؛ وهى رواية من فصلين ، كل فصل منها ذو سبعة مناظر ؛ أما الفصل الأول فمناظره تتدرج من ساعة الفجر إلى ساعة الغروب ، فمن المسجد عند أذان الفجر إلى سوق فى الضحى إلى مناظر فى حديقة قصر الوزير ؛ وأما الفصل الثانى فتتدرج مناظره من الغروب إلى الفجر ، أغلبه « حريم » ورقص وما يُظنّ أنه حياة الوزراء والخلفاء فى الإسلام … المناظر كلها من الفتنة بحيث تنقلك إلى جو من الأحلام ؛ إننى إذ أقول ذلك أخشى أن تحمل ألفاظى على المبالغة اللفظية التى لا تعنى شيئاً من واقع ، ولا أدرى ماذا أقول لأصف هذا الفن الذى أخرج المناظر واحداً فى إثر آخر إخراجا يسلبك عقلك ووعيك ويتركك سابحا فى حلم …

لكن هل كان يمكن لهذا الجمال كله وهذه الفتنة كلها أن تغرقنى فى حلم لا أصحو منه حيناً بعد حين محزون الفؤاد مغموم النفس ضيق الصدر ؟ ! فكم مرة ذكر القرآن فى سخرية ؛ وكم مرة ذكر الإسلام فى ازدراء ؛ وكم مرة ذكر محمد فى استخفاف وتحقير ؟ . . . كيف جعلوا الوزير المسلم لا يتصرف إلا أن يكون فى تصرفه كالأبله المجنون ؟ وكيف جعلوا الخليفة لا يتكلم إلا كما يتكلم المجاذيب بغير عقل ؟ . . . كنت فى وسط هذا الجمال كله من مناظر وغناء وموسيقى ، ووسط هذا السحر كله من أضواء وظلال تتعاقب وتتغير فى لطف وحسن ذوق ورفعة فن ، إلى درجة لم أكن أتصورها فى الإخراج المسرحى ؛ كنت وسط هذا كله يعاودنى الألم الممضّ مما أرى وما أسمع ، فأتصور نفسى وقد وقفت وسط المسرح صائحاً : حرام عليكم أن تنظروا إلى الإسلام وإلى القرآن وإلى محمد هذا النظر بغير دراسة ولا قراءة ؛ أمن أجل الإخراج الفنى البديع تفتكون بأنفس ملايين

من البشر ... وتذكرتُ عندئذ ما رأيته فى وشنطن : مسجد لم يكمل بناؤه لامتناع الدول العربية أن تمده بالعون ، وله طابق تحت سطح الأرض ، وفى هذا الطابق مركز للثقافة الإسلامية ، فيه رجل واحد أو رجلان ، للدعوة للإسلام فى أمريكا !!! .

كم ألف ألف خطبة ، وكم ألف ألف مقالة ، وكم ألف ألف رجل نحتاجه ليزيل من أذهان الأمريكيين أثر هذه الرواية الواحدة ؟! لقد خرج الناس من المسرح مأسورين مبهورين مفتونين ، وتلكأت فى السير بين جموعهم لأسمع تعليقاتهم ، فلم أسمع إلا إعجاباً وعجباً من هذا الفن كيف بلغ كل هذا المدى ... وبالطبع فى قلب هذا الفن كله لباب سيظل عالقاً بأذهانهم ، لن يزول عنها إلا مع آخر أنفاسهم ؛ وهو أن الإسلام هو هذا الذى استخلصوه مما رأوه وما سمعوه : هو حماقة عقل ، وشهوة للمرأة لا تنقضى ولا تنقطع ... فذلك هو شغل الوزير الشاغل وشغل الخليفة الشاغل ، بل ذلك هو القرآن وهو محمد ... والمسلمون يصلون فى حركات هستيرية تثير الضحك ، والعبادة كلها يشار إليها بما يبعث على الاستخفاف .

وما زلتُ أفكر فى الأمر مهموماً ، حتى جعلتُ من نفسى رجلين : رجل يعزى رجلا فقال الأول للثانى : إذا كانت هذه الحياة التى يسخرون منها لا تعجبهم ، فلماذا يتخذون منها معيناً لا ينفد لفنونهم ؟ فهم ما ينفكون يستمدون من حياة ألف ليلة وليلة النفائس تلو النفائس للسينما وللمسرح ؛ إنها حياة لها سحرها رغم أنوفهم ، ولولا ما فيها من سحر لما أحبوها وعرضوها على هذا النحو البديع ... ماذا يغضبك ؟ ليت حقيقة حياتنا كانت كل هذا الحرير وكل هذه البدور والحور وكل هذا الشعر والخيال .

الخميس ٣١ ديسمبر

ذهبت فى الصباح إلى ما يسمى « بالمناسك » فى الطرف الشمالى من نيو يورك وهو بناء فيه مجموعة أجزاء من أديرة قديمة من أديرة العصور الوسطى ، نُقلت أحجارها من أماكنها الأصلية فى أوروبا ، وأعيد بناؤها هنا على ما كانت عليه فى إبانها ! وأغلب هذه المناسك يرجع إلى الفترة الواقعة بين القرنين الثانى عشر والخامس عشر ، أى قبل أن يسمع العالم بشىء اسمه أمريكا .

لأول مرة فى نيو يورك ، بل لأول مرة فى الولايات المتحدة ، أجد نفسى فى مكان ينقلنى قروناً إلى الوراء ؛ فالنقلة الزمنية هنا بعيدة المدى ، تقفزها قفزاً بمجرد دخولك هـذه المناسك التى قام بناؤها على نحو شبيه بالحصن ، فوق قمة صخرية مرتفعة تطل على نهر هَدْسُـنْ ؛ تدخل فترى نفسك فى غرف ذوات جدران حجرية سميكة ، ترن فيها أصداء الصوت ؛ وتنتقل من غرفة إلى غرفة إلى معبد إلى محراب إلى حديقة مربعة صغيرة مكشوفة يحيط بها ممر ذو عُمُد فوقها أقواس قوطية ... نسّقت الغرف والأبهاء بآثار قليلة لـكنها تفوح بجلال التاريخ والزمن ، فهى بأسرها من بقايا العهود الدينية فى العصور الوسطى ؛ هذا مذبح كان فى كنيسة كذا بإيطاليا ، وذلك تمثال لمريم العذراء مع وليدها المسيح كان فى كنيسة كذا بفرنسا ؛ وهذه الشخوص تمثل تدشين الملك الفلانى على يدى البابا ، وهكذا ... المـكان كله متحف من نوع فريد فى بابه ، لحسن اختيار موقعه ، ولأنه دليل على القدرة والإرادة والذوق ، وأى إرادة هـذه التى تنقل أبنية بأسرها من قارة إلى قارة ؟ الأمريكيون يحسّون نقصهم فى عراقة الزمن ، لأنهم بلد جديد ناشىء ، فراحوا « يشترون » بأموالهم قِدَمَ الزمن وجلال التاريخ وروعة الفن ! . . . إننى لا أبالغ إذا قلت إن هذه المناسـك هى أفضل ما يزوره الزائر فى نيو يورك ، من حيث غزارة الشعور الذى يكتسبه هذا الزائر وهو واقف هنا أو جالس هناك أو سائر بين أجزائه .

خرجت من الناسك مصمماً على أن أقطع نيويورك — أعنى مانهاتن — من شمالها إلى جنوبها ، إذ قررت أن أزور تمثال الحرية وهو فى أقصى الجنوب ؛ فركبت قطار ما تحت الأرض ابتغاء السرعة ، فلما خرجت على وجه الأرض عند البحر حيث ميناء نيويورك وجدت الجو عاصفاً شديد الريح والبرد ، يتساقط الثلج خفيفاً بحيث لا يتراكم على الأرض لأنه يذوب فور وصوله .

ركبت « المعدّية » البخارية إلى جزيرة « بِدْلو » التى ينهض عليها التمثال ، وهى جزيرة صغيرة ليس عليها إلا التمثال ولواحقه ... إنه تمثال بلغ من الضخامة حداً يستحيل تصوره إلا إذا رأته العين ومارست القدمان صعوده ؛ فيكفى أن أقول إنك تصعد بمصعد عدة طوابق ، هى القاعدة ، ثم تصعد بعد ذلك سلّما حلزونيا داخل التمثال نفسه ، عدد درجاته ١٨٦ درجة ... فلما بلغنا القمة التى هى تجويف رأس التمثال من داخله ، عددتُ الواقفين فى ذلك التجويف وحده فوجدتهم سبعة وعشرين ! وفى تجويف الرأس نوافذ من زجاج لتطل منها على ناطحات مانهاتن ؛ لا ينبغى أن نطيل الوقوف هناك ، لأن سيل الصاعدين يتزايد ، ولا بد أن نخلى المكان فنبدأ بالنزول ليقف من جاءوا بعدنا ؛ الصعود والنزول على هذا السلّم الحلزونى فيه كثير من العسر ، ولذلك تراهم قد أعدوا ثلاثة مخارج فى وسط الطريق لمن لا يستطيعون المضىّ فى الصعود ؛ وكان كثيرون يأخذهم التعب فيهربون من هذه المنافذ ، لكنى مضيت إلى القمة مع من استطاعوا . . . وأعجب ما عجبت له أنى رأيت هناك أمًّا تحمل رضيعا على ذراعيها ، فلا أدرى كيف استطاعت الصعود به ، وكيف ستستطيع النزول ؛ لأننى وجدت من الضرورى أن أستخدم كلتا يدىّ لأطمئن إلى ثبات قدمىّ على درجات السلّم الضيقة الزلقة . . فى تجويف الرأس ، وعند إحدى نوافذ الزجاج ، وقف حبيبان ولهانان ، كل حركة وكل لفظة وكل نظرة وكل لفتة منهما كانت صارخة بالحب الشديد ؛ وقف العاشق الولهان محوِّطا حبيبته بذراعيه ، ومال برأسه إلى أسفل كى يجعله فى مستوى رأسها ، كأنه

يريد أن ينظر بعينيها لا بعينيه ، يعز عليه ألا يرى ما تراه هى بالضبط والدقة ، وأظنه ودّ لو استطاع أن يدخل معها فى إهاب واحد ؛ وبعد أن نظرا إلى البحر وإلى نيويورك وما يجاورها ملء عيونهما ، قبّلها وبدءا ينزلان السلّم ؛ إنه لم يُرِدْ أن تفلت منه هذه الوقفة النادرة دون أن يخلّدها فى حياته الشعورية بقبلة .

تمثال الحرية — كما هو معروف — هدية أهداها الشعب الفرنسى إلى الشعب الأمريكى ، وقد أقيم فى مكانه عام ١٨٨٦ ؛ وقوامه امرأة تمثل الحرية عند مدخل القارة الجديدة ، حطمت عن يدها قيداً تراه ملقى عند قدميها ، ورفعت بيمناها شعلة الحرية ، وخطتْ بإحدى قدميها خطوة إلى أمام ، وحملت فى يسراها قرصاً كبيراً كتب عليه « ٤ يوليو ١٧٧٦ » (وهو اليوم الذى أعلنت فيه الولايات المتحدة استقلالها) .

وفى المساء ذهبت إلى دار الأوبرا حيث شاهدت رواية « فلادوماوس » — ومعناها الوطواط — ولقد بلغت قاعة الدار حد الكمال من الروعة والفخامة والأرض فقد كسيت كلها بالقطيفة الحمراء الجميلة ... وظهرت فى الفصل الأوسط من فصول الأوبرا راقصة عجيبة هى « ماركوفا » التى قيل لى عنها إنها أبرع راقصات العالم ... وإن براعة رقصها لم تكن تحتاج منى إلى شدة فهم فى الفنون ، فتستطيع كل عين أن ترى خفة هذه الراقصة العجيبة فى رقصها ، كأنها ريشة فى مهب النسيم ؛ إنها حقيقة جسم بغير ثقل ولا كثافة ، إنها هواء طائر ... سبحانك ربى ! ما هذا ؟ أليس هناك قانون للجاذبية يتحكم فى جسم هذه الراقصة كما يتحكم فى سائر الأجسام ؟ !

وخرجت من دار الأوبرا قبيل منتصف الليل ، وعدت فى طريقى إلى الفندق ، مصمماً أن أتلكأ حتى ينتصف الليل وأنا فى « برودواى » لأرى ماذا يحدث أول قدوم العام الجديد . . . ولم ألبث أن رأيت نفسى فى كتلة بشرية مصمتة لا أتحرك فيها بإرادتى ، إنما هى التى تدفعنى هنا أو هناك . . . وبعد أن

كافحت كفاحاً مراً لأخرج من الزحام الذى خيل إلىّ أنه يمتد إلى ما لا نهاية ، وصلتُ إلى حاشية الزحام ... تسعة وتسعون من كل مائة فى هذه الزحمة رجال ، وكانوا كأنما هم المصريون الجياع على امرأة ! إذ كلما رأوا فى الجموع الحاشدة امرأة تزاحموا عليها ليظفروا منها بقبلة العام الجديد ؛ على أن أهم ظاهرة رأيتها ، بل الظاهرة التى لا ظاهرة سواها ، هى الزمّارات ؛ فكل رجل فى فمه زمارة يزمر بها ، حتى أنتج ذلك الأمر خليطاً صوتياً عالياً مزعجاً ؛ وكان بائعو الزمارات على أرصفة الشوارع يبيعون للناس فى سيل لا ينقطع ... لكى أعطى صورة رقمية دقيقة ، أقول إنى لم أر فى هذه الألوان المتزاحمة من قبّل امرأة إلا ثلاثة ؛ وانتصف الليل فلم تطفأ الأنوار كما توقعت ولم يحدث التقبيل على النطاق الواسع الذى يحدث فى لندن عند كنيسة القديس بولس ، إذا ما دقت ساعة الكنيسة الثانية عشرة ليدخل الناس فى سنة جديدة .

إن من يأتى إلى أمريكا ثم يعود حاملا معه رأياً غير أن الأمريكيين من أشد الناس تحفظاً فى أخلاقهم وتزمّتاً فى العلاقة بين الرجل والمرأة ، فهو كاذب يصرّ على أن يقول ما لم تر عيناه ؛ جاء إلى أمريكا وملء رأسه إشاعة ، وعاد دون أن يأذن لملاحظته الشخصية أن تصحح الإشاعة الخاطئة .

٤ - عودة الى الجنـــوب

الأحد ٣ يناير

الشمس غاربة والجو رائع والسماء صافية ؛ فأخذتنى الأنسة « أ. ر. » التى تعدّ عدتها للذهاب إلى مصر عاماً دراسياً ، حيث طفنا بسيارتها حول كولمبيا لنرى الطبيعة وهى فى أروع حالاتها : غابة نشقها بالسيارة لنبلغ بحيرة ساعة الغروب ، والغروب فى كولمبيا جميل دائماً ، فهو قرمزىّ اللون على نحو نادر ؛ ثم مررنا على بستان للزهور — هو الآن خالٍ من زهوره لبرد الشتاء — ونزلنا ودخلنا البستان وصاحت الآنسة منادية ، فخرج من بيت صغير هناك رجل كهل لكنه متورّد الوجه ، وصحته جيدة ونشاطه موفور ؛ وهو مالك البستان يشرف فيه على إنبات زهور الكاميليا ؛ وَضَعَ على كل شجرة ورقة كتب عليها ما يدله على حقيقة تلك الشجرة وتاريخها وما إلى ذلك ... الطريقة التى أبدت بها الآنسة « أ. ر » اهتمامها بالزهور ، والتى يبدى بها الناس اهتمامهم بها تثير العجب حقاً ؛ فاهتمامهم خاص لا عام ؛ أى أن الأمر ليس عندهم أمر « زهور » بصفة عامة — وهذه هى أعلى درجة يبلغها مصرى يدّعى أنه محب للطبيعة — بل اهتمامهم بزهرة معينة فى ظروف معينة ، بالكاميليا مثلا ، أو بالأزاليا ، كيف تكون فى الشتاء وكيف يحوّل البرد أحمرها إلى لون قرمزىّ وهكذا وهكذا ، حتى ليكادون يعطون كل زهرة اسماً بمفردها ، على نحو ما نطلق على كل طفل إسماً خاصاً ، إمعاناً فى التخصيص والتفرّد ؛ والحق أنه لا اهتمام بغير هذا التخصيص فى العاطفة التى تربط بين الشخص وبين من يهتم به أو ما يهتم به ؛ لا عجب أن ترى هنا فى كولمبيا وحدها نحو مائة نادٍ للزهور ، كل ناد يتخصص فى شىء يحبه أعضاؤه ... والذى يهتم بزهرة معينة كالكاميليا مثلا ، يغلب أن يكون على اتصال بمن يهتمون مثل اهتمامه حتى لو كانوا على بعد أميال منه ، وتراه يعرف الفروق الدقيقة بين هذه

الزهرة فى حديقته و بينها فى حديقة فلان فى البلد الفلانى ... فلقد قلتُ لهذا الرجل الذى استقبلنا فى بستانه وطاف بنا بين أشجاره : إننى رأيت زهوراً رائعة كبيرة الحجم من زهور الـكاميليا فى بستان رجل اسمه القاضى « ه » فى مدينة أوجستا ، فوجدته يعرفه و يعرف بستانه وراح يذكر أدق الفروق بين الـكاميليا عنده و بينها عند القاضى « ه » .

الاثنين ٤ يناير

لبيت فى المساء دعوة الدكتور « ب » الطبيب ، وكنت واحداً من كثيرين مدعوين ، لـكنى كنت موضع اهتمام خاص لمصريتى ... قالت لى زوجة الطبيب متفـكهة إننى المصرى الثانى الذى صادفته فى حياتها ، أما الأولى فكليو باتره ! ... سئلت فى هذا الجمع أسئلة عن مصر دالّة على جهل السائلين بها جهلا غير مألوف : فهل مصر تقع فى المنطقة الإفريقية التى بها ذباب تسى تسى ؟...

جلست معى الآنسة « م » ابنة الطبيب ، وهى فى نحو الأربعين من عمرها ، وتعمل فى وظيفة حكومية فى بولتيمور ؛ كانت مثلا قوياً واضحاً لضرورة اتساق أجزاء الثياب والزينة مع الشخصية ، فقد كانت تلبس قرطاً كبيراً ، يملأ نصف صـدغها ، وبه أجزاء تتدلى منه لتشنشن مع حركة الوجه شنشنة توحى بأنوثة لابسته ، لـكن الآنسة « م » مسترجلة الوجه ناشـفة النظرات عريضة الصوت حادة اللفتات ، و إذن فقد كان هـذا القرط فى أذنها صارخاً يقول بأعلى صوت : ليس هذا مكانى ؛ وكذلك كانت تلبس فستاناً للسهرة لم يصنع إلا لسيدة فيها رخاوة الأنوثة ورقتها ، فهو نشاز على رجل أو من تشبه الرجل ، وكان خيراً لهذه الآنسة المسترجلة أن تلبس ثوباً بسيطاً وتتحلى بحلىّ صغير الأجزاء بسيط كذلك.

ثم جاءت بعدها آنسة أخرى تحدثنى ، هى الآنسة « ن » ، راحت تحدثنى عن شغفها بتربية الماشـية وقد كانت منذ طفولتها تحب رعاية الماشية ، وهى

— كما تقول — محبة للحيوان حباً غير مألوف فى أوساط الناس، فهى تحب البقر والخيل والكلاب والقطط، وهى تجيد ركوب الخيل، ومخورة بكلابها، وعندها قطتان؛ وقد رغبت بشدة فى أن أزور معها مرعى أخيها.

كلتا الآنستين «م» و «ن» واسع المعرفة بالعالم الخارجى، لأنهما سافرتا إلى الخارج عدة مرات؛ ذهبت الآنسة «ن» إلى معظم البلاد الأوروبية كما ذهبت الى اليابان؛ وكذلك سافرت «م» ابنة الطبيب إلى أوروبا مرات كثيرة، كانت فى كل مرة تقضى إجازتها مشياً على قدميها ومتاعها على ظهرها.

نظرت إلى الغرفة التى كنّا بها، فوجدتها لا تستلفت النظر بأى شىء غريب فيها؛ لكنى سألت نفسى: هل يمكن أن تجد غرفة كهذه فى بيت مصرى؟ وكان الجواب: هذا محال، لأن ذوق التأثيث مختلف عندنا، فعندنا يكون تصنيف الأثاث بين غرف المنزل تصنيفاً حاد الفواصل، فلا اختلاط فى الأمر؛ غرفة الجلوس هى غرفة للجلوس فى كل أثاثها، وكذلك غرفة الأكل وغرفة النوم وغرفة المكتب ... لكن انظر إلى هذه الغرفة مثلا، تجد رفوف المكتب على جدرانها، وتجد بها الراديو (الراديو عندنا حسب قواعد تصنيف الأثاث لا يكون فى غرفة استقبال الضيوف) وتجد الكراسى مختلفة أشد اختلاف وكذلك المناضد؛ أما عندنا فالأثاث يشترى طاقماً طاقماً ... فما معنى ذلك؟ معناه الواضح هو أن هؤلاء الناس يجعلون الأثاث ينمو مع الزمن قطعة قطعة، إذ ليس من المعقول أن يشترى صاحب البيت هذه الكراسى المختلفة وهذه المناضد المتباينة كلها فى يوم واحد! أما نحن «فنُجهِّز» المنزل عند الزواج تجهيزاً كاملا، ثم يتدهور الأثاث مع الزمن.

ومعناه كذلك أن الناس هنا يحتكمون إلى أذواقهم فيما يشترون، ويراعون المكان وما يناسبه، وأما نحن «فالجهاز» فى وادٍ والمكان الذى يوضع فيه فى فى واد آخر؛ وقد يحدث أن يُشترى «الجهاز» قبل أن يُعرف أين يوضع ...

ولم أذكر شيئاً عن التحف الفنية من صور وقطع صغيرة تملأ أرجاء الغرفة ؛ الفن والذوق جزء لا يتجزأ ، من أثاث البيت ، وليس هو — كما هى الحال عندنا — شيئاً ثانوياً يفكَّر فيه بعد أن يكتمل فى الجهاز كذا طاقماً من أدوات الشاى وكذا مفرشاً للسرير وكذا حشية ووسادة ! لماذا لا ننقص المفارش مفرشين لنشترى تحفة ؟ لا على أن التحفة « مظهر » بل على أنها بنفس الضرورة التى نشترى بها الكراسى والأطباق ، لأن المكان الذى نُعِدُّه بيت لا دكان ... هل رأيت فى الدنيا — ما عدا مصر — شيئاً اسمه غرفة الضيوف ؟ تقفل ولا تفتح إلا حين يأتى الزائرون ؟ لماذا ندفع أجراً شهرياً لغرفة لا نجلس فيها كل يوم ؟

إن المقارنة بين غرفة واحدة هنا ونظيرها فى مصر كفيلة أن تظهر الفرق بين حياتين وعقلين ووجهتين للنظر ... إن فى هذه الغرفة التى كنّا بها دفئاً عاطفياً ينم عن الحياة ، مصدره كثرة ما فيها مما يعبّر عن شخصيات أهلها ، بمعنى أنك لن تجد فى معرض للأثاث — مثلا — غرفة بهذا التنظيم وهذه المحتويات ، أما « غرفة الجلوس » عندنا فى مصر فلا فرق بين أن يكون طاقمها فى المنزل أو فى دكان الأثاث ؛ نشتريها من الدكان هكذا ، ثم لا نضيف إليها ولا ننقص منها ؛ ليس فيها أثر لأهل الدار ، أعنى أنها خالية من علامات الحياة ، فلا فرق بين أن يكون فى البيت سكان أو لا يكون ؛ إنها غرفة بغير تاريخ ، لم تتراكم على محتوياتها آثار الزمن إلا بمعنى واحد ، وهو أنها جديدة أو بالية ؛ إنها غرفة لم تَنْمُ مع حياة الأسرة ، إنها لم تزدْ عنها فى بدايتها ولم تتطور ولم تتغير ، سوى أنها بعد أن كانت تلمع لجدّتها انطفأت لمعتها مع القِدَم ؛ إن الغرفة عندنا جزء من « منزل » وليست جزءا من « مسكن » (وأنا أريد أن تعبّر هاتان اللفظتان عن الكلمتين الإنجليزيتين house و home) فهو « منزل » للجسم ينزل فيه ، لكنه ليس « مسكناً » تسكن إليه النفس وتهدأ وتطمئن وتستريح .

إذا قلنا إن التفكير الإنسانى إزاء العالَم نوعان : نوع يفترض أن العالَم قد بدأ

كاملا ولا جديد فيه إلا أن تتحرك أجزاؤه من مكان إلى مكان ؛ ونوع آخر تطورىٌّ يفترض أن العالم ينمو و يزداد و يكبر و يحمل فى ثناياه آثار الزمن والخبرة والذكريات ؛ فإن الغرفة المصرية دالّة على عقلية من النوع الأول ، والغرفة التى كنا بها مساء اليوم دالّة على عقلية من النوع الثانى ؛ غرفتنا كعقلنا راكد جامد كقطعة الحديد البارد ، وغرفتهم كعقلهم متغير متطور حى ؛ غرفتنا صنعتْها أدوات النجار فإن دلت على صناعة فهى لا تدل على فن ، وأما غرفتهم فقد صنعتها أمزجة تختار وأذواق تنتقى ؛ فلا عجب أن يروى المضيف إلى ضيفه عن أثاثه قطعة قطعة ، أين ظفر بها وما العلاقة فى اللون أو فى الذوق أو فى الشكل بينها و بين القطع الأخرى ؛ وأما نحن فلا نستطيع أن نقول عن أثاث بيتنا تاريخاً ، كل ما نستطيعه هو أن نقول إننا اشتريناه من الدكان الفلانى ؛ تأثيث المنازل عندنا أشبه بتأثيث العيادات أو الفنادق أو مكاتب الحكومة ، المهم فيه أن يكون هناك كذا مقعداً وكذا منضدة وكذا سريراً وكذا من مفارش وفُوَط ؛ ونباهى عند « تجهيز » العروس أننا لم ننْس من لوازم البيت شيئاً ... وكم يحدث عندنا أن يُشترى الأثاث دون أن يراه من سيستعملونه ، إذ قد يسافر والد العروس مثلا إلى دمياط ليشترى « الأخشاب » ... أى والله ، جهلزنا « أخشاب » يُرَصُّ بعضها على بعض وتدخل العروس و يأتى الزائرون المبارِكون ، فيفرِّجونهم على « المعرض » ؛ يفرجونهم على الدكان الجديد الذى افتتحوه ...

ولكن لماذا نعجب والأمر كله مرتبط بعضه ببعض ، فالزواج نفسه عندنا لا حبَّ فيه ، إن الزوج لم يختر كما لم تختر الزوجة ؛ المهم فى الزواج أن يكون فى البيت رجل وامرأة ، فإذا كان الرجل ذا دخل معين أو وظيفة معينة ، انتهى الإشكال كله ، كذلك ينتهى الإشكال بالنسبة إلى الزوجة إذا كانت ابنة فلان وشكلها كيت وكيت ... يقولون : ممن تزوجت فلانة ؟ والجواب : من دكتور ! يعنى أن أى دكتور فيه الكفاية ؛ وكذلك يقولون : ممن تزوج فلان ؟ والجواب :

من بنت فلان ! يعنى أن المهم هو أبوها وظروفه ؛ فهل ينتج عن ذلك إلا منزل يؤثث على أثاث الاستغلال و بغير ذوق ولا حياة ؟ أقول الاستغلال ، لأن العريس يريد لنفسه أكبر كمية ممكنة من السلع ، فذلك نفسه هو أساس اختياره لزوجته ذاتها .. ليس الزواج عندنا ازدواجا بين قلب وقلب أو اتحاداً بين عقل وعقل ، بل مزواجة بين مجموعتين من الظروف .

وأعود إلى غرفة جلوسنا وغرفة جلوسهم ، فأقول إن الفرق بينهما هو الفرق الكبير العميق الواسع العريض بين عقل وذوق يبتكران وعقل وذوق يقلدان ؛ كل غرفة هنا تحمل طابع أصحابها ، فلا تستطيع أن تتنبأ بطريقة تأثيث البيت قبل أن تراه ؛ وأما عندنا فيمكنك أن تحكم على البيت غرفة غرفة كيف أثث ، لأننا لا نختار بأذواق شخصية ، ونترك معظم الاختيار للنجار الذى صنع « الطاقم » ، والنجار بدوره ناقل ينسخ ما هو مرسوم فى النموذج .

الخميس ٧ يناير :

كنت فى دار الإذاعة اليوم ؛ سألتنى المذيعة فى حوارها معى حواراً مذاعاً ، أين قضيت إجازة عيد الميلاد ، فلما قلت لها إنى قضيتها فى وشنطن ونيويورك ، طلبت منى أن أحدثها — وأحدث المستمعين معها — عما استرعى نظرى من خصائص فى هذين البلدين الكبيرين .

فقلت : إنى أستطيع أن ألخص الخصائص الأمريكية كما شاهدتُها فى كلمة واحدة ، هى « الانطلاق » — الانطلاق الذى لا يعرف الحدود بل الذى يتحدى كل الحدود ، الانطلاق فى كل شىء ؛ فإذا كانت الشوارع فى بلاد العالم قد حددها العرف باتساع معين ، فالشوارع هنا تضرب هذا الاتساع فى ثلاثة أمثال أو أربعة ؛ وإذا كانت المبانى فى بلاد العالم قد حددها العرف بارتفاع معين ، فالمبانى هنا تضرب هذا الارتفاع فى عشرة أمثال أو عشرين ... وهذا الانطلاق

النفسىّ من قيود العرف المألوف قد وجد سبيله كذلك فى بريق الألوان ؛ فالألوان أينما سرت كانت تستوقف النظر ، بل كانت تخطف البصر : بريق الأقراط فى آذان السيدات ، وبريق أربطة الأعناق على صدور الرجال ، والجوارب فى سيقانهم بألوانها الزاعقة ، وبريق الزينات التى علقت فى كل مكان بمناسبة عيد الميلاد ؛ وكادت كل سيدة أن تضع على صدرها طاقة من ورد صناعى مزخرف فيه كراتٌ ملونة بألوان صارخة ، ثم متاحف الفن ، إذا ما دخلت غرفة بها لوحات من الفن الأمريكى كان الأرجح أن أرى ألواناً غاية فى السطوع واللمعان ... إذا شئتم ، فسموا هذا الانطلاق حرية فى التعبير عن النفس حرية لا تكتم نفسها بالضوابط المصطنعة من غير داع ؛ يضحك الأمريكى من كل قلبه ، فليس هو كالإنجليزى يضحك من رأسه ضحكا مكبوتا ، ويعبر الأمريكى عن نفسه تعبيراً واضحاً فى لغة واضحة من غير لف أو دوران .

سألتنى المذيعة فيما سألت : لا بد للإنسان فى حياته من نسق فى الحياة يجرى على مبادئه وسننه ، هكذا يقولون ، فما معنى ذلك ؟

قلت لها : هذا الكلام مشكوك فى صحته ، فلا ينبغى أن يكون لأى إنسان نظام معين إلا إذا أراد أن يجعل من نفسه آلة صماء ؛ وهنا تجب التفرقة بين حياة الإنسان العلمية وحياته العادية التى تبلغ مداها فى الحياة الفنية ... نعم إنه فى الحياة العلمية يجب أن يكون منطقيا صارم المنطق ، وبذلك يبنى نظاما مسلسل الخطوات ؛ أما الحياة العادية فلا بد أن تكون حرة ، لأن الحياة لدنيّة تلقائية ، ومعنى ذلك أنها حرة فيما تأتى به اللحظة القادمة ؛ الحياة لا تعرف النظام الصارم ، فشجرة الورد لا تحدد نفسها إلا فى حدود عريضة ، وهى أن تنتج ورداً ، أما كم وردة تنتج وكم فرعا وكم يكون ارتفاعها ، فذلك كله فيه كثير من المفاجأة ؛ الحياة فى حريتها هذه كالنهر المتدفق ، إذا قسنا ماءه وسرعته فذلك على سبيل التقريب ، وهناك دائما مجال للاختلاف نحو الأكثر أو الأقل . . الإنسان رغبات ، وكل ما يطلب من نظام

وتنظيم للرغبات ألا تهدم صاحبها ، و بعد ذلك لا بد أن يترك للإنسان حرية التعبير عن هذه الرغبات تعبيراً يقوى حينا و يضعف حينا و يشذ حينا و يستوى حينا ؛ إن فى هـذا الفرق بين الدول الدكتاتورية والدول الديمقراطية ؛ فالدول الدكتاتورية تريد أن تجمِّد الحياة فى « نظام » وأما الديمقراطية فتترك المجال واسعا للاختلاف والتغير ؛ لو كانت الحياة خاضعة لنسق منظم ، لـكانت كلعبة الأطفال التى تُرَصُّ فيها مكعبات الخشب ليكون منها منزل ، فإذا ما رُصَّتْ المـكعبات مرة واحدة تم كل شىء إلى الأبد ، ولم يعد مجال لتجديد أو خَلْق وابتـكار .

السبت ٩ يناير :

من أخبار الفن هذا الأسبوع خبر فيه دلائل كثيرة على الخلق الأمريكى ، ومؤداه أن أمريكيا ثريًّا اشترى ديْراً قديماً فى إسبانيا ، بناه الملك ألفونسو السابع عام ١١٤١ فى قرية ساكرامنيا ؛ وفُكَّ بناء الدير حجراً حجراً (به خمسة وثلاثون ألفا من الأحجار) وشُحنت الأحجار إلى الولايات المتحدة حيث أقيم من جديد عند مدينة ميامى على شاطىء فلوردا تلك المدينة المشهورة التى يؤمّها ألوف إبان فصل الشتاء ؛ وسيتم افتتاح الدير هذا الأسبوع ، وسيكون دخوله بأجر قيمته دولاران للشخص الواحد .

أقول إن هذا النبأ دليل على أشياء كثيرة من الخلق الأمريكى : ففيه جرأة التفكير وغرابته ، وفيه الانتباه إلى الآثار الفنية مع عين تنظر إلى الجانب المادى من الموضوع ؛ وفيه رغبتهم الشديدة فى جعل أمريكا تحمل من الآثار الدالّة على تقادم الزمن ومرّ التاريخ ، لتكون أمريكا ذات آثار تاريخية كسائر البلاد ! ... إننى وأنا على سطح عمارة « إمپاير ستيت » فى نيو يورك — وهى أعلى عمارة فى العالم ، بها ١٠٢ طابق —وَرَدَ على خاطرى الفرق بين الأمريكيين والأوروبيين فى الأعمال الهندسية ، فحين أرادت فرنسا — مثلا — أن تقيم دليلاً على المهارة

الهندسية ، أقامتْ برج إيفل الذى يدل على القدرة لكنه لا يفيد ، وأما الأمريكيون حين أرادوا إظهار القدرة الهندسية فقد أقاموا هذه العمارة الجباره لتفيد وتدر المال .

إننى لا أسمى هذه نزعة مادية بقدر ما أسميها اتزانا فى وجهة النظر يجمع عناصر كثيرة ، كما تتزن وجهة النظر عند الرجل الناضج ؛ فيستحيل على غنيٍ شرقى أن ينهض بفعل كهذا ، أعنى أن ينقل بناء فنياً قديماً بأسره من قارة إلى قارة ، يدفع فيه ملايين الجنيهات ، ليقيمه من جديد فى بلده فى مكان يختاره ، لينفع بلده ونفسه به ، لأن الشرقى لا يقوى على هذه المغامرة الفكرية ، وليس لديه العين التى تكشف عن مواقع الفن ومواضع الاستغلال البعيد المدى ، دع عنك قلة اهتمامه بأن يكون أولا يكون فى بلده هذا الأثر الفنى أو ذاك ... ربما كان ذلك لغزارة ما بأرضه من ثروة فنية .

شاهدت فلما سينمائيا عنوانه « خطايا إيزابل » — وهى امرأة وَرَدَ ذكرها فى الإنجيل بأنها تزوجت من الملك إيهاب ملك اسرائيل ، لكنها أرادت أن تحمل الملك على نشر عبادة أهلها ، فنزل البلاء باسرائيل ، ولم يعد الله يرضى عنهم إلا بعد أن مات إيهاب وماتت إيزابل ...

كان جديراً هذا الفلم الوعظىّ التعليمىّ التبشيرى بأن يخرجه مخرج من بلد متأخر فى الفن ، لم يرهف بعد ذوقه الفنى . . وهو يحرك فى نفس رجل مثلى كل سخط على هذا العالم الذى لا يزال يغوص فى الخرافة إلى أذنيه ... فإله إسرائيل يسخط على شعبه فلا ينزل المطر ، وتأتى إيزابل بقساوسة من ديانتها ليطلبوا من إلههم الغيث فلا ينزل غيث ، لكن يدعو « الياهو » — كاهن اليهود — ربه فينزل المطر ... كيف نربّى ناشئتنا على مشاهد كهذه ثم نتوقع منهم بعد ذلك أن يكونوا رجالا ذوى تسامح وعقل منطقى ؟ إننى أزداد إيماناً كل يوم بأن الإنسان لن يبلغ المدنية الحقيقية إلا إذا نسى كل هذا التخريف نسيانا تاما ، ونظر إليه كما ننظر إلى ديانات الأقدمين وعقائدهم .

الأحد ١٠ يناير :

الليلة موعد الـكلمة التى سألقيها فى جامعة « التوحيديين » عن مبادئ الإسلام ؛ و « التوحيديون » جماعة مسيحية تنكر بنوّة المسيح لله ، وهم قليلون نسبيا فى أمريكا ، بالقياس إلى أتباع المذاهب المسيحية الأخرى ، لـكنهم مرتقون فى ثقافتهم بصفة عامة .

إننى فخور بنفسى فخراً أحسه الآن فى دورة الدم وفى التنفس ! إننى ملىء بالزهو لأننى فى محاضرة اليوم عن مبادىء الإسلام قد بلغت — فيما أعتقد — أكمل ما يتمناه متكلم لنفسه فى بسط وجهة نظره ؛ وقد بدأت كلمتى بشىء من التحدى ، قائلا إننى ياسادة رُبِّيت فى ظل الإسلام ونشأت فى أحضانه وعلى مبادئه ، لذلك فربما أكون قد عميتُ عن نقائصه ، وسأشرح لـكم الليلة مبادئه ، وإنى لأعترف لـكم بالفضل ما حييت لو تفضلتم بعـد كلمتى ففتحتم عينى على النقائص التى ربما عميتُ عنها ، فإن لم تجدوكان لزاما عليكم — لا أقول أن تدينوا بدين غير دينكم — بل أن تكفوا عن الاستخفاف بديانة يصعب عليكم أن توجهوا إليها النقد والتجريح .

وبعد ذلك فصَّلت الحديث فى المبدأ الأول للإسلام ، وهو التوحيد الذى جاء الإسلام به محققاً لاستمرار الديانتين السابقتين الـكبرتين ، وهما اليهودية والمسيحية ، لـكنه صحح أخطاءهما ، أعنى أخطاء الناس فى تأويلهما ، أما اليهودية فالإسلام مثلها يريد أن يكون الله واحداً وحدانية مطلقة غير مشروطة بأى شرط ، لـكن الإسلام لم يجعل الله — كما جعله اليهود — إقليمياً محلياً خاصاً بشعب معين مختار دون سائر الناس ؛ إذ يريد الاسلام أن يكون الله للبشر كافة بغير تفريق .

وكانت المسيحية قد حققت هـذا التعميم الإنسانى للدين ، لـكنها من جهة

أخرى عدَّدَت الله فى تثليث ، فجاء الإسلام يأخذ بما أخذت به من تعميم بغير تمييز ، لكنه وحد الله ولم يُثَلِّثْ .

وبعد إفاضة القول فى التوحيد الذى يميز الإسلام ، شرحت فى اختصار سائر مبادئ الاسلام من صلاة وصيام وزكاة وحج ، مبيناً قدر استطاعتى ما ينطوى عليه كل مبدأ من فلسفة وراءه .

وبدأت المناقشة ، وهى التى ملأتنى زهواً بنفسى ؛ فقد هوجمت بأسئلة من كل أرجاء القاعة ، فوهبنى الله قدرة على الرد السريع لكل سؤال رداً مفحما ؛ حتى لقد قال لى أحد الموجودين إنه يعجب لماذا لم أشتغل بالمحاماة لأكسب ملايين الدولارات ، لأنه — هكذا قال لى — لم ير فى حياته رجلا بهذه السرعة فى الأدلاء بالحجة التى تدفع الخصم دفعاً .

سئلت عن الإسلام أسئلة شتى : الإسلام والحب ، الإسلام والحرب ، الإسلام والمرأة الخ الخ . وكنت دائماً موفقاً ، وكال لى الحاضرون إعجابا وتقديراً ، وجاءتنى السيدة « ب » — وهى من أكثر الناس ارستقراطية وترفعاً — ولبثت تبدى لى من الإعجاب ما ملأنى زهواً ، كما جاءت السيدة « س » تبدى إعجابها هى الأخرى ، قائلة إن طريقتى فى رد الاعتراضات التى وجِّهتْ كانت معجزة ، فقلت لها : يا سيدتى ليس فى الأمر إعجاز ، إنما المسألة كلها هى أن الناس لا يعرفون الإسلام وأنا أعرفه ، الناس يحكمون على الإسلام دون أن يقرأوا عنه حرفا واحداً . . .

رأيى هو أن المسلمين لو أرادوا لدينهم دعاية فى البلاد المسيحية ، ولا أقصد تبشيراً يثنى الناس عن عقائدهم لأن العقائد عندى كلها سواء فيما تؤديه للقلب من إشباع عاطفى ، بل أقصد الدعاية التى تجعل الأمم المسيحية تدرك مجرد إدراك أن الإسلام دين فى مستوى المسيحية واليهودية ، ويزيد عليهما أنه جاء بعدهما فأدرك ما لم يدركاه من سلامة توحيد مع اتساع أفق ليسوّى بين البشر أجمعين ، فأكل

خطة هى أن يبرز متكلمونا أوجه الشبه بينه وبين تينك العقيدتين ، لا أوجه الاختلاف ... والحقيقة أنها ديانات ثلاث كالأفرع من شجرة واحدة ، كلها سامىّ وكلها يدين بإله هو هو نفسه فى العقائد الثلاثة ... فهل يأتى يوم يتآخى فيه البشر بقلوبهم كما أراد لهم الله أن يتآخوا ؟ .

الاثنين ١١ يناير :

مطر متصل مع جو دافىء . جاءنى طالب فى مكتبى بالجامعة ، وهو ممن يحضرون لى محاضرات الفلسفة اليونانية ؛ وهو معيد بالجامعة فى قسم الرياضة ... وطلب منى أن يحدثنى حديثاً خاصاً فيما يشغل باله من شكوك دينية ؛ جلس والقلم الرصاص على ظهر أذنه كما هى حاله دائما ، والسيجارة فى فمه .

قال : أنا لا أومن بالمسيحية ؛ فقلت له : وماذا تريدنى أن أصنع لك فى هذا قال : إما أن تؤيدنى فى شكى هذا ، أو أن تهدينى فلسفيا إلى الطريقة التى يمكن بها أن أقتنع وأومن بهذا الكلام الفارغ الذى يقولونه فى الكنائس ... فأخرجتُ له قطعة من الورق ، ورسمت خطا يرسم الورقة قسمين ، وكتبت له فى قسم منهما كلمة « وجدان » وفى القسم الآخر كتبت كلمة « منطق » ، وقلتُ له : اسمع ، الكلام الذى يقوله الناس قسمان : قسم يخضع للمنطق وهذا تجوز فيه المناقشة ، وقسم يخضع للوجدان والمشاعر والذوق وهذا لا تجوز فيه المناقشة ؛ فإذا قرأت عن المسيحية وسمعت عنها فتأثر قلبك واهتزت مشاعرك فاعتقدْ فيها ، وأما إذا فعلت ولم تتأثر فلا تعتقد وليس لمخلوق عليك من سلطان ، لأنك قد سمعت ما يقولونه فلم تتأثر ، إذن فقد انتهى الإشكال .

قال : لكن لموقفى هذا نتائج كثيرة ؛ قلت : ماذا ؟ فقال : إنى خاطب ، والناس هنا متزمّتون فى الدين ، فأول زيارة زرتها لأسرة خطيبتى فى الريف ، واجتمع أهلها معى على عشاء ، دار الحديث كله تقريبا على حسرتهم العميقة لأن واحدة من أسرتهم البروتستانتية ستتزوج من شاب كاثوليكى ، واعتبروا فتاتهم

هذه فى حكم من ماتت .. فلما خلوتُ إلى خطيبتى قلت لها : اسمعى ؛ إنى لا أومن بالمسيحية كلها من أولها إلى آخرها ، فانظرى فى أمرك وقررى ؛ ومنذ ذلك اليوم ونحن فى جدل كل يوم ، خصوصاً ما نريده لأطفالنا حين يكون لنا أطفال ؛ فأنا مصمم على أن يكون الاتفاق صريحاً منذ الآن ألا تنشأ أطفالى على خرافات دينية فارغة ، بل يُتركون حتى يشبوا ، ولهم أن يختاروا لأنفسهم بعد ذلك ما شاءوا ؛ وأما هى فمصممة على أن نكون مسيحيين قبل كل شىء .

قلت له : إذا استمر الخلاف بينكما على هذا النحو ، فهل يؤدى إلى فسخ الخطبة ؟ فقال : لا ، لا أظن ذلك ، لأننا نحب أحدنا الآخر ، لكنى لا أريد التساهل فى هذه الأمور منذ الآن ؛ إنها امرأة ككل النساء تريدنى أن أصحبها إلى الكنيسة وأنا لا أحب ذلك ؛ فالمرأة لا تحب أن تذهب إلى الكنيسة وحدها ، وهى تقول لى : واجبك أن ترافقنى إلى الكنيسة يوم الأحد لأستمدّ منك القوة ، فأجيبها بقولى : كيف أمدّك بما ليس عندى ؟ إننى غير معتقد فكيف أبث فيك العقيدة ؟... وقد أردت التفريج عن كربها مرة ، فذهبت معها إلى الكنيسة ، فما ازددتُ إلا نفوراً ؛ لماذا أذهب لأسمع رجلا يتكلم دون أن تكون لى فرصة مناقشته فيما يقول ؟ ما معنى أن يتكلم هو وأنا أسمع ؟ ! فقلت لخطيبتى بعد خروجنا : هذه أول مرّة وآخر مرّة فى حياتى أدخل الكنيسة فيها بصحبتك .

السبت ١٦ يناير

إن كل ما أقرؤه هنا عن مصر يحزّ قلبى حزًّا ، وإنى لأتمنى للمصريين أن يغتربوا واحداً واحداً ، ليقرءوا عن مصر فى غربتهم ، فتُحَزّ نفوسهم ، ثم يعودون لعلهم يصنعون شيئاً فى سبيل الثورة على أنفسهم ثورة لا تبقى من القديم شيئاً ولا تذر ... فقد قرأت كتاباً عنوانه « حيث يلتقى النهر بالشارع الرئيسى » لكاتب اسمه « هودِنْج كارتر » ؛ وهو كتاب أقرب جداً إلى مذكرات ، وفيها ذكرياته

أيام أن كان فى مصر إبان الحرب ؛ كتب ذكرياته عن مصر تحت عنوان « تلفون — الهرم ٥٦٦٤ » ووصف وصفاً تفصيلياً ليلة دعاهم فيها أعرابىٌّ اسمه الشيخ على صوابى الجبرى ، وقد كتب على بطاقته التى أرسلها إلى المدعوين أنه يبيع الجمال ويؤجرها للركوب أو للإخراج السنمائى ... كان المدعوون خمسة عشر ، معظمهم ضباط أمريكيون ، وفيهم بولندیان ونيوزيلندى ... انتظرتهم الجياد عند الهرم وركبو نحو خمسة أميال فى الصحراء إلى حيث خيام الشيخ على ؛ دخلوا الخيمة الأولى حيث ينتظرهم الوسكى فى كثرة أذهلت الأمريكى ! وراح الكاتب يصف السجاد الفاخر الذى فرشت به الخيمة ؛ ثم انتقلوا إلى خيمة مجاورة حيث مائدة العشاء ؛ وهنا أخذ يصف الأصناف قائلا إن المائدة كانت تحمل ثلاثين صنفاً على الأقل ؛ ففى وسط المائدة خروف محمّر بأكمله ، تحف به صفوف من الدجاج والسمك واللحم المشوى ، وأكوام من الفاكهة وأطباق لا عدد لها من كذا وكذا ... وبينما هم يستعدون للرحيل بعد العشاء مرت فرقة من البوليس الإنجليزى رئيسها جاويش ؛ وهنا يصف الأمريكى كيف أهان الجاويش الإنجليزى الشيخ على ، وطلب منه رخصته التى تبيح له أن يقيم الحفل ؛ — وكما يقول الكاتب — » كأنما الأرض ليست وطناً للشيخ على وآبائه وأجداده قبل أن يسمع الجاويش وآباؤه وأجداده شيئاً اسمه مصر ! » ... يقول الكاتب : كرهنا من الجاويش أن يعامل مضيفنا فى حضورنا هذه المعاملة المهينة ، فأسرّ النيوزيلندى الذى كان معنا فى أذن الجاويش شيئاً ، فانصرف ... ويمضى الكاتب قائلا : إن القوات الأمريكية أقامت بعد ذلك حفلا للعشاء دعى إليه الضيوف أنواعاً وأشكالا وألواناً ، وكنا على علم سابق بهذا الحفل ، فوعدنا الشيخ على أننا سنرسل إليه الدعوة إلى العشاء ليلتئذ ، وقَبِلَ الرجل مسروراً ، لكن لسبب لا أعلمه ، رفضت السلطات الأمريكية توجيه الدعوة إلى الشيخ على ، مع أننا أبلغنا أولى الأمر كم كان الرجل كريماً فى دعوته لخمسة عشر ضابطاً منا ... ثم يختم الكاتب

هذا الجزء من ذكرياته فى مصر قائلا : « لما قرأت بعد ذلك بثمانية أعوام عن حرق القاهرة ، حَرْق الأماكن التى طالما ارتدناها ، والتى ظن الغربيون أنها مِلْكهم المقدّس ، حَرْق فندق شبرد ، ونادي تيرف ، و بنك باركليز ، وجروبي — ذلك المكان العظيم فيما يقدمه من مثلجات — وسائر الأماكن التى يمتلكها الأجنبى الذى ذهب إلى مصر لينتفع ثم يشمخ بأنفه ، لا ليفيد البلد الحزين وينقذه ؛ لما قرأتُ عن التخريب الأهوج الذى حدث ، تذكرت الشحاذين الذين ألقى بهم التيفوس صرعى فى مواخير القاهرة ، وتذكرتُ جاويشاً انجليزياً على ظهر جواده ، وتذكرت صحراء جرداء لا تنتج قمحاً ، وتذكرت ثلاثين صنفاً من الطعام فى خيمة مفروشة بفاخر السجاد ، وتذكرت دعوة (للشيخ على) رفض أرسالها أولو الأمر ؛ فلم أكن بعد هذا كله بحاجة إلى سياسيٍ يحلل لى أسباب الجنون الذى أحرق القاهرة » .

الأربعاء ٢٠ يناير :

يعقد الليلة حفل موسيقى كبير لجمع مالٍ لمتحف الفن . . . روعى فى الحفلة أن تكون ذات طابع تاريخى ، فجعلوا جزءا كبيرا منها موسيقى عسكرية وأناشيد وطنية مما كان يعزفه وينشده أهل الولايات الجنوبية أيام حربهم مع ولايات الشمال ! هذه الحزازات بين الشمال والجنوب يستحيل أن يدرك مداها من لم يحضر هنا ليلمس بنفسه كيف يحسّ أهل الجنوب شعوراً بالنقص ، لأنهم كانوا هم الفريق المهزوم فى تلك الحرب ، ولأنهم فقراء نسبيا بالقياس إلى أهل الشمال .

كنت أظن قبل زيارتى لهذه البلاد أن « الولايات » الثمانية والأربعين قد اتحدت اتحاداً أنساها كل شعور بالتفرقة ، لكنى قد أدركت الآن خطئى ، وكان ينبغى أن أدركه بادىء ذى بدء ، لأننى مصريّ يعلم أن أكثر من ثلاثة آلاف عام — منذ أن اتحد الصعيد بالوجه البحري فى قطر واحد على يدي مينا — لم تكفِ لزوال الشعور بالتفرقة ، وهو شعور دفين ينفجر مرجله آنا بعد آن فى المعارك التى

تنشب بين « الصعايدة » و « البحاروة » . . . كذلك مئات السنين لم تكف فى بريطانيا أن يزول الشعور بالتفرقة بين انجلترا واسكتلندة . . . وكذلك ولايات الجنوب إزاء ولايات الشمال فى « الولايات المتحدة » . الشمال صناعىٌّ غنىٌّ متسامح فى مشكلة الزنوج ، فلا تفرق القوانين هناك بين أبيض وزنجى فى المدارس والمستشفيات والمطاعم والمركبات الخ ، وأما الجنوب فزراعى رعوىٌّ فقير نسبياً متزمّت فى مشكلة الزنوج ، ولا تزال القوانين فى الولايات الجنوبية تفصل فصلا تاما بين السود والبيض فى كل شىء .

والعجيب أن أهل الجنوب يحسّون أنهم أعلى حَسَبًا من أهل الشمال ، فتسمع منهم اعتزازاً بأسْراتهم و بأطيانهم كأنك فى مصر أيام عهد الإقطاع ! ... على كل حال ، هذا الجنوب كان قد حارب الشمال فى النصف الثانى من القرن الماضى من أجل مشكلة الزنوج ، فيريد الشمال أن يحرر الزنوج ، ويصرُّ الجنوب على دوام التفرقة بين اللونين ؛ ومنيت الولايات الجنوبية بالهزيمة ، ولا تزال هذه الهزيمة تحزُّ فى قلوبهم حزّاً أليماً .

وهكذا جعلوا حفلة هذا المساء قائمة على إحياء الموسيقى العسكرية والأناشيد الوطنية التى كان ينشدها أهل الجنوب فى تلك الحرب ! وملأوا المسرح جدراناً وأرضاً وسقفاً بأعلام الجنوب التى كانت تحملها جيوشهم ضد الشمال ؛ حتى لقد قالت لى جارتى فى المسرح هامسة : هل رأيت قوما قبل ذلك يفخرون بعَلَمهم المهزوم ؟ ! لا بل من المقطوعات الموسيقية التى عزفوها الليلة قطعة عنوانها « العلم المهزوم » .

كان مستر بيرنز حاكم الولايات (وهو السياسىّ الأمريكى المعروف فى الأمم المتحدة) هو رئيس الاحتفال ، وقرأ قطعة من تاريخ تلك الحرب الأهلية ، وهى كلمة الوداع التى كان ودّع بها الجنرال « لى » جيوش ولاية فيرچينيا وهى متأهبة للخروج إلى ساحات القتال .

على أن زهرة الحفلة كلها كانت بغير نزاع الآنسة كارولين پاول ، الفتاة العازفة على البيانو ، والتى كانت زارتنى ذات يوم فى دارى لتوثق أواصر العلاقة ، إذ كانت هى فى العام الماضى فى إيطاليا على نفقة مؤسسة فلبرايت التى أنفقت على سفرى أنا أيضاً إلى أمريكا هـذا العام . . . هى من ألطف وأخف وأرشق من قابلتُ هنا من نساء . . عزفتْ الليلة ثلاث مقطوعات لبيتهوفن ، عزفا ملائكياً سحرنى فتنة وأنا الرجل الذى لم ينشّئه أهله على تقدير الموسيقى تقديراً بصيراً . . . وقد كانت « كارولين » هى التى تركت لى رسالة تليفونية قبل الحفلة تدعونى للحضور ، لأنها أرادت لى أن أسمع عزفها قبل رحيلى عن كولمبيا .

إن أهم ما أخرج به الليلة على كل حال هو هذه النزعة الأقليمية القوية التى لا يريد الجنوب أن ينساها ، فكلما عزفت الموسيقى شيئاً فيه تمجيد للجنوب صفق الحاضرون تصفيقاً حادّاً جادّاً ، كأنهم فى حرب حقيقية الآن مع أهل الشمال ! واختتموا الحفلة بأن غنت مجموعة كبيرة من رجال وسيدات على المسرح دوراً حماسياً من أيام الحرب الأهلية تتكرر فيه عبارة « لكم النصر يا أهل الجنوب » ، وعندئذ وقف الحاكم مستر بيرنز ووقف الناس جميعاً فى المسرح واشتدت حماستهم واشترك الحاضرون عن بكرة أبيهم فى النشيد بصوت يثير الحماسة حتى فى غريب مثلى لا ناقة له فى الأمر ولا جمل .

عدت إلى غرفتى أتعجب كيف يكاد يستحيل على المشاعر أن تُنسى على مرّ الأجيال ، وألقى لى ضوء جديد على مقالتين كنت قرأتهما فى الأسبوع الماضى والذى قبله فى مجلة پوست ، كتب الأولى مؤرخ من مدنية شارلستن (وهى فى ولاية كارولاينا الجنوبية ومن أشد بلاد الولايات كلها رجعية فى مسألة الزنوج) يدافع فيه عن الجنوب قائلا إنه قام بالقسط الأوفر من تعمير أمريكا لكنه مظلوم فى كتب التاريخ التى تؤرخ للولايات المتحدة ؛ فردّ عليه فى المقال الثانى مؤرخ من أهل الشمال ، وجعل عنوان مقاله « وا عجبا لعقدة النقص التى منى بها الجنوب ! »

٥ - من الجنوب الى الغرب

نيوأورلينز — الإثنين ٢٥ يناير :

وصلت صباح اليوم إلى نيوأورلينز ، وهى مدنية ذات طابع خاص ، تختلف به عن سائر مدن الولايات المتحدة جميعاً ؛ وطابعها ذاك إنما يستمدُّ معظمه من وجود الحىّ الفرنسىّ بها ؛ فقد كانت تابعة للفرنسيين قبل أن تشتريها الولايات المتحدة من فرنسا فى أول القرن التاسع عشر ، فبقيت بها إلى اليوم روح المدن الفرنسية مما جعلها مختلفة متميزة ، بل جعلها مقصداً لألوف الزائرين ، حتى ليقال إنها المقصد الثانى للزائرين فى الولايات المتحدة كلها ، لا يفوقها فى عدد الزائرين إلا نيويورك .

لم أكد أصل المدينة حتى أسرعت إلى الحىّ الفرنسى لأنفق فى ربوعه أكبر وقت ممكن من مدتى القصيرة التى سأقضيها فى هذا البلد ، فسأقضى به يوما واحدا بغير ليلته . . واجهات المبانى فى هذا الحىّ تبرز منها الشرفات ، ويصطفّ على طولها أعمدة خشبية ، وتزخرف حوافيها إطارات من خشب ، وهى أشياء لا وجود لها فى أمريكا بأسرها ، لأن البيت الأمريكى المألوف الشائع مصنوع من خشب على هيئة ما نسميه بالفلات فى ضواحى القاهرة . . . وكذلك تختلف نيوأورلينز عن سائر المدن الأمريكية بضيق شوارعها ؛ فهى فى ذلك كله مدينة أوروبية قديمة .

سرتُ فى الشارع الرئيسى فى هذا الحى الفرنسى — وهو شارع رويال — فرأيت على جانبيه الدكاكين السياحية ، فليس ما يباع هنا سوى التحف والتماثيل والصور وقطع الأثاث القديم وهكذا ، حتى المكتبات فى هذا الشارع مهتمة بالكتب القديمة .

ومدينة نيو أورلينز بصفة عامة تفوح برائحة الموانى الكبرى ، فهى ليست نظيفة ، وتشم فيها رائحة البحر المنعشة ؛ يخترقها نهر مسسپى عند مصبه فى خليج

المسكسيك ، ومع ذلك فهى بعيدة عن الخليج نفسه بما يساوى ساعة ونصف ساعة بالسيارة ؛ ونهر المسسپي عريض جداً عند مصبه ، ويشبه أن يكون جزءا من البحر ، والميناء مليئة بالبواخر الكبيرة ، وقد علمت أنها الميناء الثانية فى أمريكا كلها ، تفوقها ميناء نيويورك وحدها ؛ ووقوعها عند مصب المسسپي هو الذى أضفى عليها أهميتها ، لأن المسسپي طريق رئيسى يصل البحر بداخل القارة إلى مسافة بعيدة .

بعد أن جُلْتُ وحدى جولة واسعة فى أنحاء نيو أوليانز ، استنفدت ساعات الصباح كلها حتى وقت الغداء ، تغدّيْت ثم اتصلت فوراً بالتليفون بالسيد « ف » الذى أعطانى عنوانه الدكتور « ب » وزوجته فى كولمبيا ، وأوصيانى أن أتصل به لأنه خير من يُطْلعنى على خفايا نيوأوليانز وروحها المتميز ، كما أنهما أرسلا خطابا إلى صديقهما هذا ينبئانه بموعد قدومى .

دعانى إلى منزله ، ومنزله فى الحى الفرنسى ، فذهبت … ضغطتُ على جرس الباب الخارجى — وعلى الباب صف طويل من الأجراس كتب أمام كل منها اسم ساكن من السكان — فجاءنى ردُّ الجرس صوتاً يشبه صوت التليفون ، فرجَّحْتُ أن تكون هذه علامة تدلنى على أن الباب الخارجى قد انفتح ، فدفعت الباب ودخلتُ إلى حديقته الضيقة المرصوفة بالبلاط الكبير القديم ، وسرعان ما خرج السيد « ف » يستقبلنى … سرعان ما عرفت أنه هو مالك البيت ، وأنه قد قسّمه شقّات للإيجار ، وسكن هو فى الطابق الأرضى من البناء .

كانت المنازل فى الحى الفرنسى قد آلت إلى ما يشبه الخراب ، فصدر أمر من حكومة الولاية — ولاية لويزيانا — منذ عشرين عاماً يحرم هدم المنازل الفرنسية الطراز ، احتفاظاً بهذا الطابع التاريخى للمدينة ، الذى يجعل منها مدينة تختلف عن سائر المدن ، فتجعلها بالتالى مقصداً للزائرين … ومنذ صدر ذلك القانون ، أخذ الحى الفرنسىّ فى الانتقال من طور إلى طور ، إذ تنبأ له ذوو البصيرة النافذة

أنه سرعان ما يكون المكان الممتاز من أحياء المدينة كلها، وأقبل أصحاب الأموال يشترون بيوته و يجدّدونها بحيث يحتفظون لها بطرازها الفرنسيّ فى كل شىء، وهو الآن حىٌّ الطبقة الممتازة بمالها أو بثقافتها .

ومضيفى السيد « ف » من هؤلاء الذين استغلوا أموالهم فى تجديد منازل الحىّ الفرنسىّ ، و إذن فالبناء فرنسىّ الطابع ، أحاطه بحديقة صغيرة ، نباتها كله أخضر ، فليس فيها زهرة واحدة ذات لون آخر ؛ واحتفظ على أرض الحديقة بالبلاط القديم ، و بنى سور البيت من الطوب الأحمر الذى كان فى البناء قبل تجديده ، وأبقى فى الأبواب والحواجز الحديدية نفس الأجزاء الحديدية التى كانت فى البناء منذ العهد الفرنسى (كانت نيوأورلينز مدينة أسبانية قبل أن تكون فرنسية ، ثم انتقلت من فرنسا إلى الولايات المتحدة عن طريق الشراء سنة ١٨٠٣) ... وأنبأنى السيد « ف » أنه جعل نبات حديقته أخضر كله لأن الشمس لا تطلّ على الفناء المزروع إلا فترة قصيرة بحيث لا يمكن إنبات الزهور ؛ وقد وضع هناك مجموعتين من مقاعد حول منضدتين ، وطلاها جميعاً باللون الأبيض ، فجاء هذا البياض إلى جانب اخضرار النبات بالأثر المطلوب ، وأصبح المنظر غاية فى الروعة .

و بعد ذلك أدخلنى شقته فى الطابق الأرضى ، فإذا هى غرفة واحدة ألحق فى أحد أركانها دورة للمياه ، وفى ركن آخر مطبخاً لا يسع أكثر من شخص واحد واقف على قدميه ، وفى الغرفة بعد ذلك كل ما يتطلبه الإنسان من سرير ومكتب ومنضدة وصوان ومكتبة .

و بعد قليل خرجنا معاً لنطوف بالحى الفرنسى ... إن السيد « ف » هذا يعرف تاريخ كل عمود وكل نافذة وكل باب فى الحى الفرنسى ؛ فقد وقف بى عند عدة منازل مجدّدة ليشرح لى كيف كانت وكيف أصبحت ... والقاعدة العامة فى هذه المبانى ألا ترى من خارج البيت إلا واجهة ذات شرفة ، فإذا دخلت

وجدت فى الداخل فناء به حديقة جميلة ؛ واللون الأخضر الغامق هو الغالب على جميع الحدائق المنزلية .

السيد « ف » من أهل الجنوب ، أصله من ولاية ألاباما — التى تقع بين ولايتى جورجيا ولويزيانا — ولذلك تراه يتحمس للجنوب كأهل الجنوب جميعاً ... قال لى فى موضوع الكراهية الدفينة بين أهل الجنوب وأهل الشمال : إن سببها هو أن الشمال حين انتصر فى الحرب الأهلية مع الجنوب ، اتخذ إزاء الجنوب موقف الظافر المنتصر ، وضمّ الجنوب إليه كما يُضَمّ البلد الذى غزاه غزاة من الخارج ، لا كما يُضَمّ جزء من البلاد إلى سائر الأجزاء ؛ مع أن الجنوب كان أغنى من الشمال ، وهو الآن ناهض نهضة سريعة ، وله أمل كبير أنه سيستعيد تفوقه على الشمال .

مررنا ببناء كبير — هو الآن مدرسة — فقصّ علىّ السيد « ف » عن هذا البناء قصة لطيفة ؛ فقد كان ديْراً ، وحدث أن كان الفرنسيون وهم ينشئون مستعمرتهم هنا ، أكثر رجالا من نسائهم ؛ فأرسلوا إلى حكومتهم فى فرنسا يطلبون النساء ليتزوج منهم رجال المستعمرة ، حتى لا يندثر الفرنسيون هنا ، فأرسلت الحكومة الفرنسية عدداً من البنات استطاعت جمعهن وإغراءهن بالسفر ، وأمدّتْ كل واحدة منهن بثياب العرس ، وأرسلتهن إلى نيوأورلينز ، فلما جئن هنا ، نزلن فى هذا الدير تحت حراسة الراهبات حتى يتم لقاؤهن مع الرجال ، ويتم اختيار الأزواج للزوجات ... سمعتُ ذلك من السيد « ف » فقلت له : ما أجدر هذا بأديب يتناوله لينشئ على أساسه قصة جيدة .

نيوأورلينز مليئة بالشخصيات الأدبية الهامة فى الأدب الأمريكى ؛ فقد مررنا على المنزل الشتوىّ للسيدة كيز وهى من طليعة أدباء القصة فى أمريكا ؛ وفى هذه المدينة عاش أديب الأمريكيين الأكبر « فوكْنَرْ » الذى نال جائزة نوبل فى الأدب منذ حين قريب ، وفيها يعيش الآن « تنسِّى وِلْيَمز » صاحب كتاب « مركبة للترام اسمها دزاير » الذى أخرجته السينما منذ قريب وكانت له ضجة

كبرى لما أحدثه من ابتكار فى الإخراج والتمثيل ؛ وحوادث القصة تدور فى هذه المدينة ، مدينة نيوأورلينز.

سرنا معاً إلى ميدان رئيسىّ اسمه ميدان چاكسن ، تملأ فضاءه حديقة مربعة ؛ وللميدان ضلعان متقابلان ، ينهض على كل منهما بناء واحد ضخم بنى بالطوب الأحمر ، وصاحبة البناءين عند أول إنشائهما هى البارونة پونتالبا الإسپانية ، فقد أقيم البناءان فى عهد الإسبان ، وهما أقدم بناءين فى أمريكا بأسرها من المبانى ذوات « الشقق » الإيجارية ... وضلع ثالث من أضلاع الميدان به كاتدرائية جميلة البناء بسيطته ، يجاورها عن يمين ويسار بناء ضخم قديم ، وكان كلا البناءين مقراً للحكومة الإسبانية أيام أن كانت هذه الأرض مستعمرة إسبانية ... وأما الضلع الرابع من الميدان فجانب مكشوف على نهر المسسپى ، غير أن النهر نفسه لا يظهر من الميدان ، وعليك أن تخترق خطوط السكة الحديدية وتدور حول مخازن المحطة لتجد نفسك واقفاً فى الميناء الكبير على هذا النهر العريض الفسيح .

رأيت فى ميدان چاكسن ، على رصيف الحديقة الوسطى رسّامين فنانين عرضوا رسومهم مسندة على جانب الحديقة ومسطوحة على الأرض ، مما يذكرك بزملائهم على ضفة السين بباريس . . . رأيت ثلاثة منهم يرسمون « الزبائن » ؛ جلست سيدة أمام أحدهم ، وسيدة أخرى أمام آخر ، ورجل أمام ثالث ... الفن مُذِلٌّ حين يهدى إلى الشوارع ، فما أشبه الفنان وقد جلس أمامه الزبون على الطوار ، بحلاق الأرصفة فى بعض ربوع القاهرة ! الفنّ مُذِلٌّ حين يوشك أن يتخذ وسيلة للسؤال ، حين يعزف الموسيقى أمام المقاهى طلباً للعيش ، أو يغنى المغنى فى مثل هـذه الظروف ، أو يرسم المصور . . . كرامة الفن فى أن يكون التقاؤه بكسب العيش التقاء عارضاً .

ويطل على الميدان مقهى على النظام الفرنسى — أو المصرى أحياناً — قديم قدم العهد الفرنسى ، واحتُفظ به حتى الآن ليزيد المدينة طابعا ؛ وهو مفتوح نهاراً

وليلا لا يغلق أبوابه ساعة واحدة . . . جلسنا هناك أنا والسيد « ف » وشربنا القهوة مرة بعد مرة .

هنا ونحن جالسان على ذلك المقهى بدأ حديث ممتع بينى و بين السيد « ف » سأثبت من تفصيلاته ما استطعت تذكّره ، لأنه بغير شك صورة لأمريكىّ قد يكون ممثّلا فى وجهة نظره وفى روحه وفى مزاجه لكثير من الأمريكيين .

قصّ علىّ طرفا من تاريخ حياته ، فقد اشترك فى الحربيْن (ولو أنه يبدو أصغر من ذلك بكثير) وهو متخرج فى إحدى جامعات الشمال حيث تخصص فى فن العمارة ، و بدأ حياته معدما لا يملك مليما واحداً ، لكنه ادّخر وادّخر ، وحرص على ماله ، حتى أصبح له الآن هـذا البيت الذى رأيته وقيمته مائة ألف من الدولارات وله منه دخل يضمن له العيش المريح حتى لو لم يعمل شيئاً مربحا بعد ذلك .

أخذ يوجّه النقد الشديد للأمريكيين بصفة عامة ، فى بعثرتهم لأموالهم ، قائلا فى انفعال شديد : إنه لا بد من التفرقة بين « الاستثمار » و « الإنفاق » ففى مستطاع الإنسان أن يعوّد نفسه على إنفاق ماله فى مقتنيات تغلُّ المال بدورها ، فلا يضيع المال هباء ؛ فلا ينبغى — فى رأيه — أن يُنْفَقَ مالٌ إلا فيما يعود بمال .

ليس لهذا السيد « ف » سيارة ، وهو الذى يطبخ لنفسه طعامه ، وينظف لنفسه مسكنه بالرغم من ثرائه هذا ؛ و يدهش لهؤلاء الذين يزودون بيوتهم بالثلاجات والأفران والغسالات الكهربائية ، بل يزودونها بآلة غسل الأطباق ؛ مع أنهم يشترون هذه الأشياء كلها بالتقسيط ؛ و إذن فالأمريكى المتوسط مطالبٌ بأقساط شهرية جسيمة قد لا يحتملها ، من أجل أن تكون له هذه الأدوات ؛ فبالله عليك — هكذا وجّه إلىّ السيد « ف » الحديث — أى عقل فى الدنيا يجيز لأسرة مكونة من زوجين بغير أطفال أن تكون لديها غسّالة كهربائية للأطباق ؟

وهنا انتقل بحديثه إلى الرئيس روزفلت ، وكيف أنه أنزل الخراب على أمريكا ، لأنه كان رجلا يميل إلى الاشتراكية ؛ فلكى يغرى الناس بالتصويت

له ، أخذ يعدهم ، ويتورط فى وعوده ، بأن الحكومة ستعمل كذا وكذا ، حتى عَوّد الناس تدريجاً على أن العبء إنما يقع على الحكومة لا على الأفراد ؛ مع أن الحياة الصحيحة — فى رأيه — هو أن يكوّن كل إنسان نفسه — كما فعل هو .

وانتقل الحديث إلى الزواج ، قال إنه كان متزوجاً ، أما الآن فلو عرض عليه الزواج من أغنى وأجمل امرأة فى الدنيا لرفض . . . قال : إننى الآن حرٌّ كالهواء ، أقرأ إلى الساعة الثانية بعد منتصف الليل إذا أردت ؛ أسافر حين أريد وأقيم حين أريد . . . إن مديراً لجامعة من أكبر وأهم جامعاتنا قد ألقى خطبة منذ قريب فى الطلبة الخريجين ، فقال لهم فى صراحة غريبة إن ستين من كل مائة شخص — رجالا ونساء — لا يصلح بطبيعته للزواج ، ولذلك لا ينبغى لهؤلاء أن يورطوا أنفسهم فى النظام الزوجى . . . ويمضى السيد « ف » فيقول : إننى توقعت أن تقوم الجرائد بضجة كبرى ردّا على هذا الحديث الخطير من مدير جامعة مهمة ، لكننى عجبتُ إذ قابلته الصحف كلها بالصمت ؛ وربما كان ذلك لأنها لم تدرك مدى النتائج المترتبة على قوله هـذا ؛ فما يترتب عليه من نتائج ، وهى نتيجة كانت بالطبع فى ذهن المدير الجامعىّ وهو يلقى خطابه ، أن هؤلاء الستين فى كل مائة ، الذين لا يصلحون للحياة الزوجية ، لابد بطبيعة الحال ألا يهملوا غرائزهم الجنسية ، وإذن فلا مندوحة من قيام علاقات جنسية غير مشروعة من وراء ستار . . .

قال لى السيد « ف » بعد حين : تعال معى أطلعك على نموذج من الأماكن التى تستخدم للجلوس فى الصيف ، والتى تقوم عندنا مقام المشارب التى قلت لى عنها إنها موجودة فى باريس وفى القاهرة . . . وأخذنى إلى بناء تدخل فيه إلى حديقة فى فنائه ؛ الحديقة جميلة ؛ وكلها نبات أخضر ، أعنى أن ليس بها زهرٌ مختلف اللون ، إلا صفاً واحداً من زهور كبيرة حمراء ... وكان إلى جانبنا جماعة من الشباب يضحكون ويضحكون فى صوت عال ومرح ظاهر ؛ فقلت للسيد « ف » : هذه جماعة من الغرباء ويستحيل أن يكونوا من أهل هذا البلد ؛ فقال :

لا ريب فى هذا ... قلت : إنى عرفت ذلك من الضحك الذى يضحكونه والصخب الذى يصخبونه ، فقال : أما انا فقد عرفته من نوع الشراب الذى يشربونه ، فهم يشربون ما لا يشربه أهل نيوأورلينز .

وتحدثنا بعد ذلك حديثاً طويلا طلياً عن الخُلُق الأمريكى ؛ كان السيد « ف » فى معظم الأحيان يتكلم وأنا أسمع ؛ فوجدته يقول أشياء تتفق حرفاً بحرف مع مشاهداتى ؛ فقد حدثنى عن مسارعة الأمريكى إلى نسبة نفسه إلى أصله الأوربى ، فيقول مثلا إنه انجليزى أوألمانى أو إسپانى الخ ؛ والسيد « ف » يتهم بذلك أهل الشمال وحدهم ، مع أنى لاحظت المشاهدة نفسها فى الجنوب كذلك ؛ وهو يعتقد أن أهل الجنوب أعرق حَسَباً وأعمق تأمْركاً من أهل الشمال ، ففى الشمال أسْرتٌ كثيرة جداً لم يمض عليها فى أمريكا أكثر من جيل واحد أو جيلين ، فلا عجب أن يظل أصلهم الأوروبى عالقاً فى أذهانهم .

ومما لذّ لى سماعه من السيد « ف » تحليله التفصيلى لعلاقة الأمريكيين بالإنجليز من حيث المشاعر الحقيقية ، فقد زعم لى أنهم يمقتون الإنجليز مقتاً شديداً ، كما أن الإنجليز يكرهونهم ، على الرغم من كل هـذا الرياء والنفاق ؛ ويقول : لا عجب ، فنحن نمقتهم لأنهم يستخفون بنا ، ويظنون بنا السذاجة والتفاهة والحداثة ؛ وهم يكرهوننا لأننا أول من بدأ لهم طريق التدهور ؛ فالثورة الأمريكية هى الفصل الأول من انحلال الإمبراطورية البريطانية ؛ إن البريطانيين — فى رأى السيد « ف » — يتصفون بالبلادة والكسل ؛ جاءت إلى أمريكا أثناء الحرب سيدة انجليزية ، ورأت عندنا أكداساً من البصل ، فأشفقت على نفسها وعلى أمّها و بكتْ ، قائلة إن البصل هنا مكدّس كأنه أكوام من الحصى والتراب ، ونحن فى انجلترا لا نكاد نجد بصلة واحدة ... لكن أحداً من الحاضرين لم يعطف عليها رغم بكائها ؛ فلماذا لا يزرعون ما شاءوا من البصل وغير البصل فى أرضهم التى يتركونها بغير زرع ؟ لقد كنت فى الجزء الأوسط من انجلترا إبان الحرب

ورأيت فدادين الأرض بعد فدادينها متروكة بغير زراعة ، ذلك لأن الإنجليز يريدون من الشعوب الأخرى أن تمدّهم بالطعام كما تمدهم بأدوات الحرب ؛ إنهم لا يريدون أن يعملوا ، بل هم ينتظرون من غيرهم أن يعمل من أجلهم . . . نحن مختلفون عن الإنجليز اختلافاً أساسياً جوهرياً ، فهم يجعلون الأهمية الاجتماعية لصاحب الحسب والأصل . ونحن نجعل الأهمية لصاحب العمل والإنتاج ؛ المهمون في تاريخنا وفي مجتمعنا هم روكفلر وروتشيلد وأضرابهما من الرجال ، لا اللورد فلان ولا الإيرل علاّن ؛ فالأساس مختلف عندنا عنه عندهم ؛ إنه لو زارتنا ملكة الإنجليز — مثلا — فيستحيل أن تجد أمريكياً واحداً ينحنى لها ، لأننا لا نحنى ظهورنا لأحد كائن من كان ؛ بل قد تجد الأمريكى الأصيل البسيط يرحب بها مبتسما قائلا : أهلا يامَلُّوكه ! كيف الحال ؟

واستطرد السيد « ف » يقول : قد تدهش لما سأقوله لك الآن لكنه صحيح ؛ فنحن أقرب إلى الألمان فى روحنا منا إلى الإنجليز ؛ ففى أيام الحرب ، وعلى الرغم من الحرب بيننا و بين الألمان ، كان الأمريكى لا يشعر فى ألمانيا أنه غريب بقدر ما يشعر بالغربة فى انجلترا ؛ لأن البيت العادىّ فى ألمانيا ، والحياة العادية فيها ، هى نفسها الحياة التى تعودها الأمريكى فى بلاده : فالشوارع عريضة ونظيفة ، وفى كل بيت ثلاجة كهربائية وغسّالة الخ ؛ فلما ذهب جنودنا إلى ألمانيا وجدوا هذه الأشياء فى البيت الألمانى ، فوجدوا الصورة التى ألفوها فى بيوتهم ؛ وكذلك وأهم من ذلك ، وجدوا استعداداً عند الألمانى أن يعمل ، وهذا هو فهم الأمريكى للحياة ؛ أما فى انجلترا فلم نجد عندهم طعاماً ولا وجدنا فى بيوتهم شيئاً من المعدّات الحديثة ؛ ولا رأينا الطرق وتخطيط المدن على الطراز الحديث ؛ ثم ما هو أهم من ذلك كله ، وجدناهم شعباً يريد أن يستريح على حساب عملنا نحن وعمل غيرنا من الشعوب ... إنى أحب لك أن تقرأ كتاباً قيما فى هذا الموضوع لكاتب اسمه James Truslo Adams وعنوانه « الأمريكى » ففيه يحلل هذا الكاتب ما بيننا

و بين الألمان من قرابة نفسية وروحية ، وكيف نبعد عن الإنجليز ونختلف عنهم... كان لى صديق بكباشى فى الجيش الأمريكى أيام الحرب ، أرسل إلىّ خطاباً وهو لم يزل محارباً فى ألمانيا ، فلم يتردد حتى فى تلك الظروف أن يمجد لى الألمان بكل قلبه ؛ فهم بمجرد هزيمتهم ، انصرفوا فوراً إلى الأرض يزرعونها وإلى الحياة ينشئونها ؛ قل لى بربّك لماذا كان الإنجليز بغير طعام ولم يزرعوا أرضهم ؟ كنت تعبُرُ بحر المانش آتياً من انجترا إلى فرنسا ، فترى الناس يزرعون ويملأون أسواقهم بالطعام ، ثم تعود فتعبر البحر إلى انجلترا فلا ترى إلا قلّة فى الخيرات وكثرة فى الصلف والكبرياء ! .

وانتقل السيد « ف » إلى الحديث عن الفكر الأمريكى الخاص بهم من أدب وفلسفة ؛ فقال إنهم ليسوا مجرد أتباع مقلدين ؛ فأين فى آداب العالم شبيه بـ « إدجر ألن بو » أو بـ « إمِرْسُنْ » ؟... إن الذى خلق منا شعباً هو أعظم شعب شهده التاريخ ، هو أننا صفوة من عدة شعوب ، فكأنما خرجت من هذا المزيج عجينة فيها أحسن ما فى الأجزاء كلها ؛ هذا إلى أننا بدأنا تاريخنا من نقطة البداية ، فلم يكن وراءنا تقاليد بالية تعوقنا وتعطل سيرنا ؛ وليس بيننا تفاخر بالأُسَر مما يكون من شأنه أن يعرقل مساواة الفُرَص أمام الجميع .

عدنا إلى منزل السيد « ف » ليغيّر ثيابه استعداداً للعشاء الذى تفضل فدعانى إليه ؛ وهناك أطلعنى على كتاب لم يكن يعلم أنى قرأته ، هو كتاب « ثورة الجماهير » للكاتب « أورتيجا إى جاسِتْ »... قال : إن غاية هذا الكتاب هى أن يبين كيف نمى وعى طبقات الشعب بنفسها ؛ فقلت له : إن فى ذلك رائحة ماركسية ؛ فقال : وهل كل ما قاله ماركس خطأ ؟ لقد أعجبنى من روزفلت مرة أنه قال فى إحدى خطبه ، وكنا لا نزال عندئذ فى قتال مع إيطاليا : إن موسولينى بطل حقيقى وإيطالى عظيم لكن إلى حد معيّن من مجرى حياته ، غير أنه جاوز ذلك الحد فبدأ الخطأ ... ومضى السيد « ف » فى كلامه فقال : إنك تستطيع أن تقول شيئاً

كهذا عن ماركس وأضرابه ممن يأتى خطؤهم من تجاوز الحدود .

كان حديثى مع السيد « ف » على مائدة العشاء يدور حول بعض الأدباء الأمريكيين المحدثين والمعاصرين ، خصوصاً من استمدوا إلهامهم من « نيوأورلينز » ؛ فكان ممن ذكرهم « مرغريت متشل » كاتبة « ذهب مع الريح » ، قال : إننا جميعاً هنا كنا نعرف القصة — يقصد الحوادث الحقيقية التى بنيت عليها القصة — ونعرف المناظر ، ومعظمها فى مدينة أتلانتا (بولاية چورچيا) . . . دهشتُ حقاً حين رأيت الحماسة والانفعال الذى يتكلم بهما السيد « ف » كيف أن رجال السينما قد صفعوا الجنوب صفعة قوية على وجهه حين لم يقع اختيارهم على ممثلة من أهل الجنوب لتقوم بالدور الرئيسى فى « ذهب مع الريح » ؛ فما دامت القصة كلها والكاتبة وكل شيء ينتمى إلى الجنوب ، فلماذا لا تقوم بالدور الرئيسى ممثلة من الجنوب ؟ ألأن الجنوب لم يخرج ممثلات من أبرع الممثلات ؟ ألم يخرج الجنوب فلانة وفلانة وفلانة وهن جميعاً من الصف الأول بين ممثلات العالم براعة وقدرة ؟ لكن أهاننا القائمون بصناعة السينما ، ولكى يستروا هذه الإهانة الكبرى جاءوا بممثلة أجنبية ، فلا هى من الجنوب ولا هى من الشمال ؛(هى ڤيڤيان لى الإنجليزية).. هذا فضلا عن خديعتهم للكاتبة مرغريت متشل ، حين أعطوها خمسة وسبعين ألفاً من الدولارات ؛ ولما كانت المسكينة لا يهمها المال أبداً ولا تفكر فيه ، لم تناقشهم الحساب ، وأخذت ما أعطوها إياه ، مع أن هذا الفيلم السينمائى كان ينبغى ألا يقل أجر كاتبه عن مليون دولار . . هنا أبديتُ أنا دهشتى من ضخامة المبلغ ، قائلا : مليون دولار ؟ ! فقال : معلوم ! لم لا ؟ نعم مليون دولار ، إن « تنسّى وليمز » قد أخذ ربع مليون فى كتابه « مركبة الترام المسماة دزاير » . . ألا تعلم أن « ذهب مع الريح » هو أعظم فلم أخرجته هوليوود فى حياتها الفنية جميعاً ؟

وانتقل السيد « ف » بحديثه إلى نقد الأمريكيين فى جهلهم بالعالم الخارجى ، فقال : إن تعليمنا ناقص ، فالأمريكى يوشك ألا يعرف عن العالم الخارجى شيئاً ؛

وكل أمريكى يتوهم أن ما فى أمريكا من أشياء إنما هى منقطعة النظير فى العالم ، تراهم فى جهل وسذاجة يفخرون بضخامة دليل التليفون فى مدينة نيو يورك ، مع أننى لما ذهبت إلى باريس وجدت دليل التليفون هناك ضعف هـذا الحجم . . . الأمريكى يفخر فخر الأطفال بضخامة الحجم ، فتراه يقول إن ارتفاع العمارة عندنا هو كذا طابقاً ، واتساع الشوارع كذا متراً ، وننتج من السيارات كذا ألفاً . . وهكذا .

هنا رددتُ عليه مدافعاً عن العقل الأمريكى — وجزء من الدافع أن أرضيه — فـكان ينصت إلى ثنائي على الأمريكيين فى نبوغهم وقدرتهم ، وعلى فمه ابتسامة الفرح وفى عينيه لمعة الزهو .

مشينا قليلا بعـد العشاء فى شارع كانال الذى هو أوسع شارع تجارى فى أمريكا بأسرها ، وبالطبع يكون أكبر شارع فى نيوأورلينز ؛ فوجدته فى إضاءة الليل يكاد يتّقد اتقاداً من الوهج ، وهو فى هذا الوهج شبيه بشارع برودواى فى نيو يورك . . إننى لا أحب هـذا الوهج الشديد فى الإضاءة ، وكان يعجبنى « الشارع الرئيسى » فى كولمبيا من ولاية كارولاينا الجنوبية ، فلست أدرى كيف كانت تمتزج ألوان الضوء فيه من أحمر وأبيض وأزرق امتزاجاً جميلا .

الثلاثاء ٢٦ ديسمبر :

قام بنا القطار الذاهب إلى « لوس أنجلس » (وهوليوود هى إحدى ضواحيها) على الساحل الغربى ليلة أمس عند منتصفها ، فنمت فى غُرَيْفتى بالقطار فور قيامه ، لأنى كنت متعباً من عناء النهار ، مع أنى كنت أود أن أرى الـكوبرى الطويل الذى يعبر عليه القطار نهر مسيسبي إلى ضفته الشرقية ، إذ يبلغ طوله أربعة أميال ونصف ميل . . . فلما صحوت فى الصباح كنا قد خرجنا من ولاية لويزيانا ، إلى ولاية تـكساس ؛ كان المنظر ساعات الصبح والضحى حقولا زراعية ومراعى ؛

فولاية لويزيانا وجزء من ولاية تكساس هما أشهر بقاع أمريكا فى زراعة القصب وصناعة السكر ، ومن ثمّ أطلق اسم « وعاء السكّر » على ملعب الكرة المشهور فى الجنوب ، الذى يقصد إليه فى مباريات الشتاء ألوف الألوف من شتى أنحاء البلاد . . وكذلك ترى حقول القطن والأرز ، حتى إذا ما انتصف النهار ، دخلنا تدريجاً فى منطقة صحراوية ليست هى بالرمال الصفراء ، بل هى أرض على شىء من الصلابة ، تغطيها شجيرات صغيرة متناثرة رمادية اللون جافة ... فى هـذا المنظر الصحراوى لبثنا ساعات بعد ساعات ، كلها فى ولاية تكساس ، حتى إذا ما غربت الشمس بدأت الأرض تتموج قليلا ، وإذن فهى بدايات جبال روكى .

الأربعاء ٢٧ ديسمبر :

لا بد أن نكون قد قطعنا ولاية « المكسيك الجديدة » أثناء الليل ، لأننى إذ أصبحت ، وعندما كنت أفطر فى مطعم القطار ، وقفنا عند هذه المدينة العظيمة ، مدينة فينكس وهى فى ولاية أرزونا ... الأرض منبسطة سهلاً ، فلا تلّ فيها ولا شبه تل ، وإذن فلا بد أن نكون الآن على سطح الهضبة ، وهو حقول مزروعة ، أو مراع للماشية التى ترى حظائرها بين حين وحين غاية فى حسن النظام والتنسيق ، فتعلم أن رعاية الماشية هنا لا بد أن تكون مورداً ضخما من موارد الثروة .

وقبيل الظهر بقليل وصل القطار عند مدينة « يوما » التى تقع عن حدود ولايتى أرزونا وكالفورنيا ، تقع على نهر كلورادو ، تعبر النهر فتخرج من أرزونا وتدخل فى كالفورنيا ... لكن مدينة « يوما » تثير الخواطر وتثير التفكير ؛ فعندها يقف القطار عشر دقائق ، وينبهك خادم العربة إلى ذلك ، فتنزل إلى الرصيف إذا شئت ...

نزلتُ إلى رصيف محطة « يوما » فوجدت على مسافات متقاربة نساء جالسات على الأرض ، هن من البقية الباقية من الهنود الحمر ، السكان الأصليين ؛

وكل منهن قد رَصَّتْ أمامها قليلا من العقود وما شابهها ؛ هن نظيفات جداً ، تبدو عليهن الوداعة ، لاينظرن إلى أحد ، فكل منهن قد أحنتْ رأسها نحو الأرض ، لاتنظر حتى لمن يشترى من بضاعتها شيئاً ! فقد رأيت سيدة تشترى من إحداهن عقداً ، لم تسألها عن الثمن ، بل أخذت العقد وناولتها نقوداً ، فمدت الهندية يدها وأخذت النقود وعيناها ما تزالان تنظران إلى الأرض ! كل ما هنالك أنها هزَّتْ رأسها بالقبول .

الهنود الحمر — السكان الأصليون للبلاد — يقيمون الآن فى محابس منتشرة على طول الولايات المتحدة وعرضها ، فقد حُصروا مجموعات مجموعات ، وسمح لكل مجموعة محصورة فى محبسها أن تزرع أرضها هناك وتستغلّ ما فيها من موارد الثروة بقدر مستطاعها ، لـكن هؤلاء الهنود (وهم فى أمريكا يسمّون بكلمة « الهنود » وحدها) لا يعدّون من المواطنين ، فليس لهم مثلا حق التصويت والانتخاب .

وبالقرب من مدينة « يوما » هذه التى وقف عندها القطار حيناً ، محبس من هذه المحابس الهندية ... والخاطر المقلق الذى ملأ رأسى عندئذ هو هذا : إنه منذ مائتى عام أو نحوها كان هؤلاء الهنود هم أصحاب البلاد ، لم تكن هناك أمريكا التى نعرفها الآن ! فى مائتى عام أو نحوها خلقت هـذه الأمة العظيمة خلقاً من العدم ؛ فى هذه الفترة الوجيزة جدا ، التى لا تكفى فى مصر لإصلاح شارع واحد فى قرية واحدة ، ملئت هـذه القارة الواسعة تعميراً واستثماراً ومدنيّة وحضارة ! ملئت علماً وفناً وسياسة ؛ إنها غزتْ العالم غزواً ... أتقول إنه لم يكن من العـدل لهؤلاء الدخلاء أن يغتصبوا البلاد من أهلها ، وهذه هى نتيجة الاغتصاب ؟ ! هل نحكم على الحركات التاريخية بنتائجها أم بمبادئها ؟ هـذه أمة عظيمة خلقت ، ولا تدّعى أنها تستند إلى ماضٍ ، اللهم إلا ماضيها الدينى ؛ نعم فقد جاءت ومعها مسيحيتها ، بل جاءت بسبب مسيحيتها ... فهل بعـد ذلك نقول إن النهوض لا يكون إلا بالاستناد إلى تراث الأقدمين ؟ هذا كلام يصلح للإنشاء فى كراسات التلاميذ ؛

أما من يريد أن يكون جادًّا فى تفكيره ، فسيجد الواقع صارخا ببطلانه ... أم نقول إن الثقافة الأوروبية هى نفسها ماضى أمريكا الثقافى ؟ على كل حال ، فحتى على هذا الفرض ، فليس هناك ماضٍ قومى ، إنما هو ماضٍ إنسانى .

إنه يستحيل أن تمر هــذه الخواطر على رجل من الشرق الأدنى ، دون أن يتذكر العرب و إسرائيل ، فمن يدرى كيف ينحرف مجرى التاريخ ، لــكن ليحذر العرب ! ليفتحوا أعينهم إلى الحقائق ولا يدسوا رؤوسهم فى الرمال ؛ فليس مستحيلا فى منطق التاريخ أن يكون الإسرائيليون النازحون إلى الشرق الأوسط بمثابة من نزح إلى أمريكا أول مرة ! ليس مستحيلا فى منطق التاريخ أن يكون العرب بمثابة الهنود الحمر ، يتضاءلون ، ثم ينتهى مصيرهم إلى محابس ينحصرون فيها ، ثم إلى انقراض ؛ فالحياة لمن هو أكثر علماً وفاعلية ونشاطاً ، وليس وراء هذه الحقيقة حقيقة أعلى .

بعد مدينة « يوما » دخلنا ولاية كالفورنيا ، وسرنا عدة ساعات لا نرى إلا صحراء كصحرائنا فى مصر : رمال وكثبان ؛ وبعد حين وحين ترى مجموعــة من النخيل ؛ وقد علمت أن فى هذه الصحراء الرملية تقوم الشركات السينمائية بتمثيل الأدوار التى تحتاج إلى صحراء و إلى عرب ... و إنى أكتب هذه السطور ، بل هذا السطر بالذات ، فى اللحظة التى وقف فيها القطار عند محطة « پام سپرنجز » (أى عيون النخيل) وهى مشتى مشهور ؛ وقد بدت فى الأفق الغربى البعيد جبال عالية ، تغطى قمم بعضها ثلوج بيضاء ، تبدو غريبة فى هــذا الجو الدافئ داخل القطار ، وأمام هذه الشمس الساطعة خارجه ... فلعلها أن تكون الحافة الغربية من جبال روكى ، بل لعلها أن تكون على وجه التخصيص قمة سان برنار دينو التى هى فى هذا المكان من جبال روكى ، وتغطيها الثلوج صيفاً وشتاء .

نزلت فى محطة «لوس أنجلس» ، المحطة فناء على الطراز الأندلسى الإسلامى ، فأثر الإسپان — على ما يبدو — لا يزال قويا فى هذا المكان ، إذ كان فى أيدى

الإسپانيين قبل أن يؤول إلى الولايات المتحدة ... فالضاحية التى وقفنا بها قبيل وقوفنا عند المحطة الرئيسية ، اسمها « الهامبرا » — وهى الكلمة الإفرنجية لكلمتنا العربية « الحمراء » ؛ والمدينة نفسها اسمها « لوس انجلس » وهى العبارة الإسبانية التى معناها « الملائكة » . . . ردهة المحطة وغرفة الانتظار بها قد بلغتا من العظمة والفخامة حداً يجعل ألفاظ التفخيم تافهة بغير معنى .

لم أكد أقذف بحقيبتى فى الفندق الذى نزلتُ فيه لأقضى هذه الليلة فى لوس انجلس ، حتى خرجت كالنهم إلى الشوارع أطوف مسرعاً ببعضها .. وكانت الساعة عندئذ الخامسة بتوقيت الساحل الغربى (وهى تكون الآن الثامنة مساء فى كولمبيا على الساحل الشرقى ، وفى مصر الثالثة بعد منتصف الليل) .

وأهم ما استوقف نظرى العابر فى هذه المشية السريعة ، هذا العدد الضخم من الواقفين على جوانب الشوارع من رجال ونساء ؛ وقفوا وظهورهم مسندة إلى جدران المحلات التجارية ، ينظرون متفرسين فى المارّة ، وعليهم جميعاً علامات التعطل وأمارات الملل والضجر ؛ وانتهى بى الطواف إلى متنزه صغير فيه تمثال لبيتهوفن ، وفى ركن من المتنزه ازدحم الناس جماعات جماعات ، ووقف فى كل جماعة خطيب ، كأنها « هايد بارك » أخرى .

إننى لا أشك فى أن عدداً كبيراً من المزدحمين فى هذا الميدان يُكِنُّون فى صدورهم استعداداً للجريمة ، فذلك بادٍ فى ملامحهم : ترى الواحد منهم وقد أمال قبعته على جبهته ونظر بعينه إلى أعلى من تحت إطار القبعة ، ووضع سيجارة مهملة فى فمه المعوجّ قليلاً إلى أحد جانبيه ... يبدو الاستهتار بل اليأس على كثيرين منهم ؛ فالظاهر أن كثيرين من هؤلاء قد جاءوا « لوس أنجلس » يبحثون عن عمل ... لم أخْل من خوف خفيف وأنا أقتحم هذا الزحام ... كان هناك جماعة احتدَّتْ المناقشة بين أعضائها ، فوقفت بينهم أسمع ؛ وكان المتكلم حين وقفتُ زنجياً ؛ كان يتكلم إلى ثلاثة آخرين : زنجى آخر ورجل وامرأة أبيضان ؛ فقال

الزنجى بحرارة وانفعال إن الله إذا أراد له ألا ينتحر فليبعث إليه بشىء من الخبز ، أما أنه لا يرسل خبزاً ثم لا يسمح بالانتحار فاستبداد منه ... فردّ عليه الزنجى الآخر داعياً إياه إلى صدق الإيمان بالله ، وإلى النظر إلى الأمور من جانبها المضىء ، قائلا له : إنك كمن يبحث فى هذا العالم عن ثقوب يضع فيها عنقه ، ولكن اعلم جيداً أن من يضع عنقه فى ثقب من هذه الثقوب اختنق وقضى ... هنا تكلمت المرأة البيضاء بحرارة تؤيد الزنجى الأول فى يأسه ؛ وعاد الزنجى الأول إلى استئناف حديثه ، موجهاً الكلام إلىّ ، وممسكا ذراعى بيده ، فضغطتُ بذراعى على محفظة نقودى ، وما كاد يترك ذراعى حتى انصرفت .

الخميس ٢٨ يناير :

اشتركت منذ الصباح فى رحلة إلى هوليوود التى هى ضاحية قريبة من ضواحى لوس أنجلس ... مرّت السيارة الكبيرة على الفنادق تلتقط الزائرين المشتركين فى الرحلة ، حتى إذا ما تكامل العدد ، سارت بنا نحو غايتنا ، والميكروفون أمام سائق السيارة ينبئ الركّاب بما أراد أن ينبئهم به عن الطريق ومعالمه : قال عن منظر مررنا به إن مخرجى السينما كثيراً ما يستخدمون هذا المكان حين يريدون مناظر الرڤييرا لأنه شبيه بها ... وهكذا أخذ يعلّق لنا عن كل ما نراه على جانبى الطريق حتى وصلنا إلى هوليوود .

ظننت أنى سأجد هوليوود مكاناً صاخباً بالملاهى وبالنجوم الحسان ، وإذا أنا فى منطقة أهدأ ما تكون المناطق ، فلا مارّة فى الطريق ولا ملاهى ولا مقاهى ولا حسان ولا شبه الحسان ! إننى لا أرى شيئاً إلا مبانٍ وطيئة امتدت على جوانب شوارع فسيحة ، والصمت شامل والهدوء كامل ، كأننى بين حىّ هادئ رحل أهلوه إلى مشتى أو مصيف وأغلقوا أبواب ديارهم .

كان سائق السيارة يسمّى الأماكن التى نمر بها : هذا ستديو والت دزنى ، وهذا

ستديو كولمبيا ، وهذا منزل « أورسُنْولز » ، وذلك منزل «بُبْ هوپ » وهكذا.

ولما وصلنا إلى ستوديو يونيڤرسال دخلنا إليه بالسيارة لنطوف فى أرجائه ؛ فهو أيضاً مكان هادئ كأنما هو مكان مهجور ؛ وكل ما رأيناه هناك « مناظر » معدّة للإخراج السنمائى ... الحق أنى لم أكن أتخيل أن الخداع السنمائى يبلغ هذا الحد البعيد : فهذه بحيرة صغيرة جداً شبيهة بالبحيرة التى تحفّ بجزيرة الشاى فى حديقة الحيوان بالقاهرة ، و إلى جانبها مجموعة من الغاب المزروع ونخلة أو نخلتان ، وهنا تؤخذ مناظر أواسط أفريقيا ! ! . . . وترى ركناً آخر على سفح جبل كل ما فيه ثلاثة منازل أو أربعة ، هى منازل صغيرة جداً ، بل قلْ هى نماذج للمنازل ، ثم يقال لك هذا هو المنظر الذى مثلت فيه رواية كذا ! . . . ترى فنطاساً فيقال لك إن فى هـذا الفنطاس تمثّل مناظر ما تحت الماء من غواصات وغيرها ! . . . ترى عربة قطار صغيرة جداً وقاطرة صغيرة جداً كذلك ، وإذا بهذه « اللعبة » هى القطار الذى يستخدمونه إذا أرادوا قطاراً ؛ فى ركن من أركان الاستديو أكداس من ألواح الخشب كأنها بقايا بيت مهدم ؛ هذه الألواح الخشبية هى التى يقيمونها لتكون الشوارع والمدن ! . . . ترى هناك بيتاً صغيراً من الطوب الأحمر ، هو الكنيسة التى يمثلون فيها حفلات الزواج ؛ إذا أرادوا ثلجاً متساقطاً أسقطوا فى الهواء رقائق الخبز المقدَّد بعد طلائه لوناً أبيض فتتطاير الرقائق خفيفة فى الهواء كما يتطاير ثلج الشتاء ... كل شيء غاية فى البساطة ، و إنى لأدهش دهشة لا حدّ لها كيف يمكن تأليف المناظر العظيمة التى يؤلفونها فى الأفلام السنمائية من هذه البسائط الساذجة ؛ فالظاهر أن الخداع السنمائى أكثر مما كنت أظن بألف ألف مرة .

خرجنا من الاستديو وقصدنا ما يسمونه « وعاء هوليوود » وهو مُنْخَفَضٌ على هيئة الوعاء ، تعقد فيها الحفلات الموسيقية الكبرى حيث تستخدم جدران « الوعاء » لجلوس المستمعين على مقاعد تتدرج مع تدرج الجدران .

عدتُ إلى مدينة « لوس أنجلس » أجول فى أرجائها ؛ فدخلتُ المكتبة العمومية ، و بناؤها شديد الشبه بنادى الأطباء فى القاهرة ؛ يجد الداخل على يساره غرفة للمجلات امتلأت مقاعدها بالقارئين ؛ وعلى يمينه غرفة للصحف اليومية امتلأت مقاعدها كذلك ؛ ثم تدخل إلى بهو أوسط فترى جدرانه مغطاة برفوف عليها أحدث الكتب صدوراً ، وكل مجموعة من رفوف وُضعت إلى جانبها مقاعد تمكّن من الاطلاع السريع على هذه الكتب الجديدة ؛ و بعدئذ دخلت غرفة فسيحة خصصتْ للمؤلفات التى كتبت باللغات الأجنبية (أى غير الإنجليزية) فتتبعت كل ما أذكره وما لا أذكره من لغات الأرض ، لكنى لم أجد بينها كتابا واحداً باللغة العربية كأننا لسنا من هذا العالم الذى نعيش فيه ... وهكذا جعلت أنتقل فى المكتبة من غرفة إلى غرفة لأجدها مليئة بالقارئين ، ولأجد اليسر كل اليسر فى القراءة ، فالكتب كلها على رفوف مكشوفة ، وللقارئ أن يستعرضها كيف شاء ، وأن يأخذ منها ما شاء ، ثم يجلس بما اختار من كتب حيث شاء فى القاعة ، و يقرأ ملء شهوته ، و يترك الكتب حيث هى على المنضدة ، حتى تمرّ العاملة تدفع أمامها عربة صغيرة ، لتلتقط الكتب المتروكة وتردّها إلى أماكنها .

« لوس أنجلس » بما فيها ضاحية هوليوود مدينة غير طبيعية ، فيها أشياء كثيرة تدل على أن أهلها مجتمع مصطنع ، أعنى أنهم مجموعة من سكان لا يجمعهم روح الانتماء إلى مدينة واحدة ؛ هم جماعة تأتى إلى المدينة باحثة عن عمل أو منجزة لعمل ، ثم تمضى عنها ، وليسوا هم كأهل كولمبيا (بولاية كارولاينا الجنوبية) مثلا يضربون فى المكان بجذور عميقة ، حيث يسكنون بيوت آبائهم وأجدادهم ؛ فى كولمبيا مجتمع طبيعى ، ولذلك تحسّ فيه حرارة الحياة ، وأما هنا فى لوس أنجلس فالمدينة أشبه بالاستوديو السينمائى الذى شهدته فى هوليوود ، تقوم فيه المدن المصطنعة قياما سريعاً بغية أداء غرض معين ، والأمر كله من أوله إلى آخره « تمثيل » ... لكن «لوس أنجلس» مع ذلك مدينة عامرة بما فيها من ازدحام الناس ونشاط العمل .

الجمعة ٢٩ يناير :

وصل بى القطار فى الصباح الباكر إلى محطة سان فرانسسكو ؛ وفى دخول القطار إلى حظيرة المحطة لمحت ماء المحيط الهادى لمحة سريعة ، ورأيت مركباً كبيراً فكانت هذه أول نظرة ألقيها على المحيط الهادى ، وكانت السماء غبشاء بسحاب الصبح وضبابه ... محطة سان فرانسسكو لا جمال فيها ، وهى شبيهة بمحطة پادنتُن فى لندن ؛ وهناك مشيت فى غمرة المسافرين إلى حيث ذهب تيارهم ، فانتهيت معهم إلى غرفة انتظار قبيحة المنظر ، مقاعدها خشبية مطلية باللون الأزرق ، لا تصلح استراحة حتى فى محطة مصرية ؛ ومن هناك ركبنا معدّية بخارية كبيرة عبرت بنا الخليج إلى حيث مدينة سان فرانسسكو ... وهو الخليج الذى يصل طرفيه كوبرى أوكلاند المشهور ، لأنه أطول كوبرى فى العالم ، طوله ثمانية أميال وربع الميل ؛ وكانت المعدّية تسير بنا عبْر الخليج بحذاء الكوبرى ؛ وكانت مياه الخليج عندئذ هادئة جداً فكأنها لوح مصقول من زجاج أزرق ، فهل كان ذلك لأن الخليج مستور بالجبال ، أم لأنها ساعة الصبح الباكر حين يهدأ البحر ، أم لأن المحيط « هادئ » بطبعه دائماً ؟

أول ما فعلته فور وصولى إلى الفندق الذى نزلت فيه —فندق سان فرانسز— أن جلست فى البهو أدرس خريطة البلد ، لأصمم لنفسى طريقة السير ، فطريقتى دائماً هى السير على الأقدام فيما استطعت أن أطوف به من أجزاء المدينة التى أزورها .

كان أول مكان قصدت إليه فى سان فرانسسكو بقعة يتلاقى عندها شارعان كبيران ، شارع « ڤان نس » وشارع « ماك ألستر » ، فها هنا مجموعة من الأبنية العامة ، فأولا هنالك ما يسمونه « بناء الحكومة » وهو يشغل ضلعاً بأسره من ميدان مربع تتوسطه حديقة جميلة فى وسطها نافورة بديعة حطّ على حافاتها وحول

جدرانها عشرات من الحمام ومن طيور الماء البيضاء ؛ وقفت وسط الحديقة ونظرت مبهوراً إلى واجهة « دار الحكومة » فرأيت بناء فخما تعلو وسطه قبة عالية كبيرة كقبة الكابتول فى وشنطن ؛ ومدخله مكون من عدة أبواب حديدية تمتد فوقها شرفة ، والأبواب والشرفة مذهبة الأطراف على نحو جميـل ... دخلت البناء ، ووقفت تحت قبته الرفيعة ، فى البهو المصقول الرائع ، الذى قام فى كل من أركانه الأربعة نجفة كبيرة على حامل ؛ والنجفة وحاملها مذهّبان بما يتناسب مع زركشة القبة من الداخل ، كما يتناسب مع أبواب المدخل .

عدت فعبرت الميدان إلى الجانب المقابل لدار الحكومة ، فهناك بناء المكتبة العامة ؛ تدخل فيلاقيك بهو ، وترى أمامك فى صدر البهو سُلّماً عريض مسطوح الدرجات تعلوه أعمدة ، وسقف السلّم مقوّس مزخرف ببروز فى حجر البناء نفسه .. اصعد هذا السلّم مسحوراً مبهوراً لتجد أمامك غرفة البطاقات (الفيش) : هى قاعة فسيحة نظيفة مصقولة لامعة ساطعة هادئة منظمة تتدلى من سقفها نجفة كبيرة جداً من البلور ؛ ومن غرفة البطاقات تدخل غرفة المطالعة ، وهى بدورها قاعـة طويلة لا تقل فى طولها عن خمسين متراً ، رصّتْ جدرانها برفوف الكتب ، وجلس على مقاعدها قراء متناثرون هنا وهناك ، فما نزال فى ساعة مبكرة من الضحى ؛ والإضاءة فى غرفة المطالعة مصدرها ثلاثة أشرطة تمتد بامتداد القاعة : ضوء هادئ ، وذوق هادئ .. البناء كله مصمم على أساس الذوق الهادئ ، فالجدران لونها لون الحجر الجيرى بغير طلاء ، والبلاط بنى اللون فى اصفرار ، إنه مصقول مصقول مصقول ؛ كل جزء فى الأرض مرآة من الحجر ...

هناك وقفت متذكراً غرفة البطاقات فى مكتبة باب الخلق بالقاهرة ، حيث جلس الموظفون أمام مناضد تكدست عليها أوراق قذرة ، وحيث أحاط بالجدران صواوين قذرة ، وملأ الأدراج بطاقات قذرة ... وقد يقول قائل : على رسْلك يا أخى ، إننا شعب فقير ، فلا تقارن بين أمريكا ومصر ، وأنا أجيب قائلا :

ما شأن الفقر بالحاجز الخشبي الأدكن القذر القبيح الذى أقاموه فى غرفة البطاقات هناك ليحجز جزءاً من القاعة خاصاً بالسيدات ، حتى أصبح المكان كله كومة من قبح الذوق وقلة الثقافة وقذارة الطباع وتأخر التفكير ؟ ! إن هذه الأماكن العامة هى غرفة الاستقبال بالنسبة إلى الشعب كله ، أعنى أنها من البلد بمثابة غرفة الاستقبال فى المنزل ، هى أنظف ما فيه ، وأجمل ما فيه ، هى العنوان ، هى الذوق العام ، هى الأمة كلها عند الزائر الغريب ، لأن الزائر لا يدخل البيوت و إنما يزور الأماكن العامة .

خرجت من المكتبة وعدت فعبرت الميدان راجعاً إلى دار الحكومة ، فاخترقت بناءها لأخرج فى الشارع من الناحية الأخرى ، وهناك تجد عند خروجك بناءين توأمين حديثين بينهما حديقة لها بوابة واسعة مذهَّبة تتناسب مع الزخرفة الذهبية التى تزخرف دار الحكومة المقابلة لها ... وأحد هذين البناءين التوأمين دار الأوبرا ، والآخر يسمى « بناء المجاهدين » ، وكلا البناءين قد أقيما لتخليد ذكرى شهداء الحرب ؛ وفى « بناء المجاهدين » اجتمع مندوبو الدول عقب الحرب العالمية الثانية ، حيث أعدوا الوثيقة التى على أساسها أنشئت منظمة الأمم المتحدة .

و بعدئذ سرتُ حتى بلغت « متنزه البوابة الذهبية » ، وظننت مخدوعاً أننى سرعان ما أعبر هذا المتنزه سائراً على قدمىّ لأبلغ حافة المحيط ؛ فمن ذا أدرانى أن « متنزه البوابة الذهبية » تبلغ مساحته أكثر من ألف فدان ؟ وأنه يمتد طولا ثلاثة أميال ونصف ميل ؟ .

فى المتنزه متحف لنباتات المناطق الحارة ، ومتحف للأسماك ، ومتحف للتاريخ الطبيعى ؛ ومتحف للآثار والفنون ، وحديقة يابانية للشاى ، وقد كنت أريد أن أطوف بهذه الأماكن كلها ... لكنى مشيتُ ومشيتُ ومشيتُ ولم أبلغ شيئاً ، حتى لقد ظننت أننى ربما كنت أدور فى مماشى المتنزّه فلا أتقدم ، وأردت أن أسأل أول من ألاقيه من مارّة ... لا أحد فى الطريق يمشى لأسأله ، كل ما تراه

عقداً متصل الخرزات من سيارات تنساب فى الماشى ... وأخيراً هذا رجل هناك بين الشجر يتنزه ، فقصدت إليه أسأله ، فوجدته أصم لا يسمع ، فكتبت له السؤال على الورق ، فراح يحدّق بعينه التى كاد يلصقها بالورق ، ثم اعتذر عن عدم إمكان رؤية المكتوب ، وهو فى اعتذاره لم ينطق ، بل أشار بيده إشارات دالّة على ما يريد ، وإذن فهو كذلك أبكم ... أصم وأعمى وأبكم ، هذا هو الرجل الوحيد الذى صادفته ماشياً فى الحديقة يتنزّه .

استعنتُ لله واستأنفت السير ، وما لى وما يؤدى إليه السير ؟ إننى أخترق جنة على الأرض ، فهذا المتنزه لا بد أن يكون وحيد نوعه فى العالم ! لقد كانت هذه البقعة من الأرض حتى سنة ١٨٧٠ كثباناً رملية صحراوية جرداء ، وبفضل رجل واحد ، أقاموا له تمثالا فى وسط المتنزه ، هو « چون مكلارن » أنبتت هذه الجنة على الأرض ؛ انظر إلى مدى ما يستطيع رجل واحد أن ينشئه ! ! ويقال إن فى الحديقة أكثر من أربعة آلاف نوع من أنواع النبات ، جيء بها من كل أنحاء العالم .

وأخيراً وصلت إلى مكان للتاحف من هذا المتنزه الفسيح ، أولها متحف « دى ينج » للآثار والفنون ، طفته مسرعاً ، هو متحف على كثير من الطرافة ، فمثلا تجد غرفة كل ما فيها من معروض هو أن سقفها منقول من كنيسة بأسبانيا ، وغرفة أخرى نافذتها منقولة من كنيسة بأوروبا ، وثالثة جدرانها هى نفسها جدران غرفة فرنسية من العصر الفلانى ؛ وفى المتحف غرفة مصرية فيها بعض الأوانى الأثرية ، وفيها مومياء وجدت فى الفيوم ، وهى من عهد البطالسة وأهداها إلى المتحف « دى ينج » الذى سمى المتحف باسمه .

ورأيت فى طريقى إلى متحف الأسماك تماثيل هنا وهناك لرجال الموسيقى والأدب : تمثال لبيتهوفن ، وتمثال لـ « ڤردى » (صاحب أوپرا عايده) وتمثال جميل لـ « سيرڤانتيز » (مؤلف دون كيشوت) أقيم على كومة من الحجر ، وركع

أمامه فارسان لعلهما يصوران دون كيشوت وسانكو بانزا ...

ثم دخلت الحديقة اليابانية لأستريح وأشرب الشاى ، فقد صممتُ خطتى منذ بداية الصباح ، أن أجعل هذه الجلسة راحة بين جهادين ... الحديقة يابانية فى نباتها ، و يابانية فى تماثيلها ، وفى الأعمدة المنتثرة فى أرجائها ، وفى الكبارى المقامة على قنواتها ، وفى تمثال كبير لبوذا أقيم فيها ... وأخيراً دخلت « كشك » الشاى ، وهو كشك أمامه فضاء مربع صغير ، تعلوه مظلة يابانية ، رصت تحتها مناضد حمراء السطوح سوداء القوائم ، وحولها مقاعد كأنها مناضد صغيرة بنفس التقسيم والتلوين ؛ وتجيئك من الكشك فتاة يابانية بشاى على الطريقة اليابانية .

السبت ٣٠ يناير :

ذهبت إلى الحىّ الصينى بسان فرانسسكو ... هو حىٌّ بأسره ، اللافتات مكتوبة بالكتابة الصينية (وتحتها ما يساويها بالإنجليزية) حتى الكنيسة هناك ، وجمعية الشبان المسيحيين كتب اسمها بالصينى ؛ ومعظم المبانى صينية الطراز ، أو قل إن معظمها قد طلى بألوان ورسوم يبديها على هيئة الطراز الصينى فى البناء ؛ وأهم شارع هناك — شارع جرانت — تراه عامراً بالمطاعم والدكاكين الصينية ... تركت الحى الصينى مصمماً أن أعود إليه لجمال وقعه فى نفسى .

الحقيقة إن سان فرانسسكو بصفة عامة هى الآن معشوقتى بين بلاد العالم التى رأيتها ؛ وإنه ليخيل إلىّ أنها أخف بلاد الأرض دما ، وأحلاها طعما ... ليس إعجازها فى ضخامة مبانيها ، لأن مبانيها ليست ضخمة ؛ ولا فى كبر حجمها واتساع رقعتها ؛ لكنها مدينة ذات طابع جذاب ؛ ولا أدرى أين على وجه الدقة موضع الجاذبية منها ؟ أهو شوارعها الصاعدة الهابطة مع سفوح الجبل ؟ أهو موقعها على شاطىء المحيط ؟ أهو هذه المطاعم الكثيرة والمراقص الكثيرة والفنادق الكثيرة ، وكلها بالإجماع حسن الذوق ؟ أهو فى كثرة زائريها ، وللزائرين روح

مرحة يشيعونها فى الشوارع والدكاكين والفنادق ! أم هو فى هذه الأشياء كلها مجتمعة ؟ السعيد السعيد من أراد له الله أن يقيم فى سان فرانسسكو .

تركت الحى الصينىّ مؤقتاً ، ذلك الحىّ الذى خلع على سان فرانسسكو ما يوهم بالقِدَم وبالتالى خلع عليها مسحة من جلال الزمن ، فتميزت بذلك من سائر بلدان الولايات المتحدة التى طابعها الأول هو الحداثة …

وقصدت إلى كوبرى سان فرانسسكو الجبار ، كوبرى أوكلاند ، ظاناً أننى مستطيع أن أسير عليه لأستمتع بلمسه ، وهو كوبرى يكاد يبلغ طوله ما يساوى المسافة بين وسط القاهرة وهرم الجيزة ، يرتكز فى وسطه على صخرة واعتماده بعد ذلك على التوازن وارتكاز نصفيْه أحدهما على الآخر … وبعد أن سرتُ تجاهه نحو ساعة ، التمست طريقى مهتدياً بالخريطة حيناً وبالسؤال حيناً ، وجدت ألا مكان به للمشاة ! … وبينما كنت أتحدث وأنا فى طريقى إلى الكوبرى مع رجل استفسرته الطريق ، جاء رجل أسود وخاطب محدِّثى قائلا : اسمح لى بكلمة واحدة … فقاطعه الأبيض قائلا : لا مال … عاد الأسود يقول : اسمح لى بكلمة واحدة … فقاطعه الأبيض قائلا : لا مال … فانصرف الزنجى ، ومشيت أحدث الأبيض فقال لى هـذا : مساكين هؤلاء الزنوج ، إنهم مرضى ، هذه هى العلة الأساسية لتدهورهم ؛ قد تسمع من كثيرين قولهم بأن الزنوج لا يصلحون للعمل ، وأنهم بغير كفاية ، وما إلى ذلك ، لكن لا ، هم مرضى لا أكثر ولا أقل ، ولو عولجوا لصلح أمرهم .

صممتُ أن أذهب إلى طرف المدينـة الشمالى ، إلى حيث شاطىء المحيط ، وركبتُ سيارة عامة إلى هناك .. «الكورنيش» عند نقطة نزولى من السيارة العامة شبيه جداً « بالكورنيش » فى الإسكندرية عند سيدى بشر ؛ لكن الشارع ضعْف شارع الإسكندرية اتساعاً ؛ هناك «لونابارك» ودكاكين ومطاعم ومحلات للهدايا ولعب الأطفال … المكان بصفة عامة لا يليق بجمال سان فرانسسكو …

وعلى شارع المحيط آناً بعد آن ترى منظاراً مقرّباً مثبتاً على قائمة ، فتضع فيه قطعة من النقد إذا شئت أن تستخدمه لرؤية المحيط عند أبعاد لا يأتي إليك بها نظرك المجرد .

كنتُ فى نشوة أن أرانى سائراً إلى جانب المحيط الهادى ، وتمنيت عندئذ أن أتذكر القصيدة الإنجليزية « عند أول نظرة إلى المحيط الهادى » ... جزء كبير من شارع المحيط يحف به حائط الجبل صخراً خشناً لا أظنه يصلح للصعود ، على جزئه الأعلى خضرة وشجر ، وترى فى حضن الحائط الجبلىّ طواحين هوائية ... و بعد مشية قصيرة وصلت إلى « بيت الصخرة » الذى يقال إنه معروف فى العالم كله بجودة طعامه وحسن موقعه ... دخلتُه ، ومن المصادفات السعيدة أن دخل فى اللحظة نفسها عروسان بثياب العرس ، ومعهما مجموعة الأصدقاء تحمل طاقات من الزهر الجميل ، فاستبشرت بذلك .

على مقربة من « بيت الصخرة » وفى وسط ماء المحيط ، صخرتان كبيرتان تعرفان باسم « صخرتا سباع البحر » لأنهما تموجان بما عليهما من سباع البحر ... وأمام « بيت الصخرة » فى الشارع تمثال كبير لبوذا ، لكنه بوذا بثياب الحرب ! ولا أفهم لهذا معنى إلا أن يكون المقصود أن هذه هى البوذية التى جاء بها الصينيون إلى هذه البلاد ، بوذية كفاح ، أو شىء كهذا ... وكذلك يقوم إلى جانب التمثال عمود طويل جداً يمثل الفن الهندى القديم (أعنى فن الهنود الحمر ، سكان البلاد الأصليين) وهو عبارة عن أمساخ ركّب أحدها فوق الآخر حتى يتكون من سلسلتها عمود طويل .

وزرتُ الميناء حيث عشرات السفن أحجاما مختلفة ، وأردت أن أعود من الميناء إلى وسط المدينة بالترام ، ففى سان فرانسسكو ترام « أثرى » يحتفظون به ليكون مَعْلَما من معالم المدينة ، وهو الترام الذى يطلق عليه « عربات الجبل » لأنه يُشَدُّ بحبل معدنىّ ضخم ممتد تحت الأرض تسمع كركرته تحت القضبان ؛ الحبل

يتحرك تحت الأرض بقوة الكهرباء ، ويكفي لسائق الترام أن يزيح مفتاحا قابضاً ، لتمس العربة ذلك الحبل المتحرك ، فيسير مع حركته .

ركبتُ هذا الترام في شارع صاعد فكنت كأنني في عربة من عربات « اللونابارك » ؛ والشارع صاعد إلى قمة تسمى « تل نُبْ » وأصل التسمية أنه على هذه القمة كان يسكن أثرى الأثرياء الذين أنشأوا الخطوط الحديدية في أمريكا ، ولما كانوا يسكنون القصور الفخمة هناك ، أطلق الناس على هذه البقعة اسم « نابُبْ » (التي هي كلمة كانت تطلق على أمراء الهند) ثم اختصرت الكلمة مع الزمن فأصبحت « نُبْ » ولا يزال التل معروفا بهذا الاسم ، على الرغم من نزوح الأثرياء عنه .

عدت إلى الفندق عصراً لأستريح ، وطلبت مفتاح غرفتي رقم ٥٦١ ، فبحث الرجل عنه ولم يجدْه ؛ فلما أكدت له أني تركته عنده في الصباح أعطاني مفتاحاً احتياطياً ، وطلعت إلى غرفتي — أو على الأصح ما ظننتها غرفتي — رقم ٥٦١ ودخلت فوجدت الأثاث مختلفاً في وضعه وترتيبه عن أثاث غرفتي كما تركتُها ، ثم لم أجد من أمتعتي شيئاً ! ففزعت وأسرعت إلى الخادمة أسألها عن أشيائي في غرفة ٥٦١ ؟ فقالت : إن ٥٦١ غرفة سافر صاحبها اليوم وهي خالية ؛ فهرولت جازعا إلى المصعد ، ونزلتُ إلى الإدارة ، لكني فجأة رأيت أن أتأكد أن هذا هو رقم غرفتي ، فوجدت بعد البحث أني أخطأت الرقم ، وأن غرفتي هي ١٠٦١ ؛ فأخذت المفتاح الصحيح وطلعت لأجد غرفتي وأشيائي سالمة كاملة ... فافرض — وهو فرض كان قريب الوقوع — أنني دخلت الغرفة ٥٦١ بالمفتاح الاحتياطي الذي أخذتُه ، فوجدتها مسكونة بأصحابها ، فمن ذا يصدّقني عندئذ أنني أخطأت رقم غرفتي ؟ إن الحياة الواقعة فيها من المصادفات ما قد يظنه الواحد منا مستحيل الوقوع ، ثم تراها تأخذ في العقابيل والعقابيل ، وكثيراً ما يكون الواقع أبسط جداً من الظنون ،

خرجت قبيل الغروب قاصداً إلى ما يسمونه بالقمتين التوأمتين ، وهما جبلان

متجاوران متشابهان ، تغطيهما البيوت إلا عند القمتين اللتين تركتا خضراوين بما عليهما من شجر ... صعدتُ الجبل بالسيارة العامة فى طريق يدور صاعداً حول السفح الصاعد ، وعدت بالسيارة نفسها ، فقد اكتفيت أن أنظر منها إلى سان فرانسسكو فى ضوء الغروب العنبرىّ اللون : منظر تنحبس له الأنفاس فى الصدور ؛ السفوح كلها مغطاة بالمنازل التى يغلب عليها اللون الأبيض ؛ إن المنازل تموج مع موج الجبال ارتفاعا وانخفاضاً . . ها هنا إلى جانبى ، وأنا على مقربة من القمة العالية ، منازل صغيرة جداً ؛ فى هذا المكان المرتفع ، ومن هـذا المنزل الصغير المنعزل ، خرجت سيدة تحمل طاقة من الزهر لَفَّتْها بقرطاس من الورق ... أقسم بالله أنى عندئذ ما تمنيت فى الدنيا شيئاً إلا أن أسكن منزلا من هذه المنازل سكنى الإقامة الدائمة ، مهما يكن عيشى بعد ذلك من الشظف ؛ لقد قال الخيّام إن أعز ما فى دنياه هو ظل شجرة منعزلة فى الفلاة ، ليس معه فيه إلا رغيف ودنّ خمر وامرأة ... وأنا أعدِّل قليلا فى أمنية الخيام ، فأعزّ ما فى الحياة عندى هو أن أعيش فى بيت صغير كهذا ، على هامش مدينة جميلة كهذه ، ويكفينى بعد ذلك رغيف ، ولست بحاجة إلى دنّ الخمر الذى اشتهاه الخيام ، بل لست بحاجة إلى المرأة التى تمناها ، إلا أن تكون امرأة أحبها ، فما عادت كل امرأة تصلح للزمالة فى مثل هذه الحياة البسيطة التى أرجوها لنفسى .

وقصدتُ بعد القمتين التوأمين إلى « برج كُويتْ » على قمة تسمى « تلّ التلغراف » ... وقصة هذه القمة والبرج الذى يقوم عليها ، هى أنه فى أول نشأة المدينة ، أعنى عند أول انضمامها إلى الولايات المتحدة ، كان على هذا الجبل مكان لمراقبة السفن الداخلة فى الخليج ، وحدث ذات يوم أن أقبلت على المدينة قافلة من السفن تحمل نزلاء جدداً ، فأسرع المراقبون من فوق قمة الجبل إلى تبليغ أهل المدينة ، فتنبه هؤلاء وصدّوا الخطر الداهم ، ومن ثم سمّى المرتفَع بتلّ التلغراف ؛ ثم جاءت بعد ذلك سيدة ثرية اسمها « كويت » وأقامت هذا البرج العالى فوق

هذه القمة ، فسمّى البرج باسمها .. وفى البرج مصعد كهربائى يصعد إلى قمته حيث يمكن للرائى أن يشرف على سان فرانسسكو بأسرها ؛ لـكنى لما وصلتُ إلى مكان البرج ، كان الليل قد أقبل ، فلم أصعد إلى قمته ، لأن المصعد كان قد انتهت ساعات عمله ؛ واكتفيت بوقفتى على قاعدة البرج حيث أطللت على سان فرانسسكو ، فكانت بأضوائها بهجة أى بهجة ؛ ورأيت من مرتفعى ذاك الجسرين العظيمين : كوبرى أوكلاند يمتد على جانبيه عقدان طويلان من مصابيح ، وفى الناحية الأخرى من المدينة رأيت كوبرى البوابة الذهبية ... إن هذين الجسرين لمن الأعمال الهندسية التى تشهد بجبروت الإنسان فى هذا الـكون .

وعدتُ إلى فندق ماراً فى طريقى بميدان بورتسموث ، وله أهمية تاريخية وأهمية أدبية ؛ فأما أهميته التاريخية فهى أنه أول مكان نصب فيه العَلَم الأمريكى عند استيلاء الولايات المتحدة على سان فرانسسكو سنة ١٨٤٦ على يدى رجل يدعى مونتجومرى ؛ وأما أهميتـه الأدبية فهى أن روبرت لويس ستيفنسن — مؤلف جزيرة الـكنز — كان كثيراً ما يقيم هناك ، ولذلك أقاموا له تمثالا فى الميدان (وبهذه المناسبة أذكر أن الصخرة التى تتوسط كوبرى أوكلاند فيرتكز عليها جانبا الـكوبرى فى توازن وتساند ، تسمى جزيرة الـكنز) ... وكذلك أوحت سان فرانسسكو إلى أديب أمريكى عظيم بكثير من أدبه ، وأعنى به « مارك توين » .

سأخلّف سان فرانسسكوا صباح الغد وفى القلب حسرة ؛ إنها مدينة تُحَبُّ ؛ هى كالمرأة الجذابة فى غير عهر ؛ كالمرأة حين تضحك فتملأ المكان مرحا دون أن تقهقه فى تسفّل مرذول ؛ كان يخيّل إلىّ دائماً وأنا سائر فى طرقاتها ذات الأضواء البهيجه أن أهلها فى عيد ، إذ لا يمكن أن تـكون هذه هى الحياة الرتيبة الـكئيبة التى ألفها الناس فى سائر أنحاء الدنيا خلال ساعات العمل والـكفاح ؛ ومع ذلك فهى المدينة الثانية — بعد نيويورك — من الوجهة المالية فى أمريكا كلها ؛ بها

حيٌّ مركزه شارع مونتجومرى ويسمى على سبيل المجاز شارع وول ، ليقابل بذلك نظيره شارع وول فى نيويورك ، هذا مركز المال على الساحل الشرقى ، وذلك مركز المال على الساحل الغربى .

الأحد ٣١ يناير :

تركت الفندق فى سان فرانسسكو فى الصباح الباكر ؛ لأن القطار يغادرها قبل الساعة الثامنة ، و بينى و بين المحطة مسافة طويلة فيها عبورٌ للخليج ... كان القطار الذى جئت به من لوس أنجلس إلى سان فرانسسكو يدعى « البومة » ولعل هذه التسمية راجعة إلى أنه يقطع الطريق فى ظلمة الليل ، إذ يغادر لوس أنجلس ساعة الغروب و يصل إلى سان فرانسسكو ساعة الشروق ؛ أما القطار الذى سأسافر به اليوم من سان فرانسسكو قاصداً إلى مدينة سياتل فاسمه « شاستا فى ضوء النهار » — و « شاستا » اسم بحيرة فى الطريق ، وكذلك اسم سلسلة جبلية من أعلى الجبال فى روكى ؛ و « ضوء النهار » جزء من الاسم مقصود لأن عربات القطار قد صُمِّمتْ على أساس أن يرى المسافر كل ما تمكن رؤيته من الطريق الجبلى الذى سنمرّ فيه .

وصلتُ إلى مكانى من القطار ، وهو فى العربة الأخيرة التى تسمى « الصالون » والعربة كلها عبارة عن شرفة من زجاج لاتساع نوافذها ، وليس بها مقصورات ولا حواجز ؛ كل ما فيها صفان من المقاعد ذوات الأذرعة ، تدور على محاور فى قواعدها ، فبأقل جهد يستطيع الجالس أن يدور بكرسيّه ليتجه به إلى أى وجهة شاء ، حتى يرى المنظر كله من يمين وشمال وأمام ووراء .

غادرنا سان فرانسسكو حين كان ضباب الصبح الكثيف يحول دون الرؤية ؛ لكن ما هى إلا أن طلعت الشمس رويداً ، وانجاب الضباب ، وتمتعنا بنهار

مشرق كالبلور الصافى ، فكانت فرصة نادرة مكنتنى من رؤية الطريق الجبلى الذى كنت أتوق إلى رؤيته .

فى هذا القطار وسائل كثيرة للراحة والمتعة ، فعدا « الصالون » الفخم الذى كنا نجلس فيه ، كانت هناك طبعاً عربة المطعم ، ثم عربة للشراب ، ثم عربة ثالثة يسمونها المقصف حيث تشرب القهوة وتؤكل الوجبات الخفيفة لمن أرادها .. هذا القطار هو « أمريكا » من نواح كثيرة ، من حيث العلم والراحة فى الحياة والفخامة والغنى .

ظللنا مسافة طويلة بعد مغادرتنا لسان فرانسسكو ومياه الخليج عن يسارنا وحافة الجبل عن يميننا ؛ و بعد قليل كنا ننساب فى أرض زراعية إلى مدى البصر ، لا أثر فيها للجبال ولا ما يشبه الجبال ، فالمنظر شبيه بما يراه المسافر فى الدلتا المصرية ؛ ألسنا فى جبال روكى ؟ أين هى جبال روكى !

فلما قضينا أربع ساعات أو خمساً ، تغير المنظر ، وبدأنا نزحف فى وسط الجبال إلى نهاية الرحلة ... الجبال أول الأمر يغطى قممها قليل من بياض الثلج ، كأنه جير متناثر ، و بقية السفوح تغطيها أشجار الصنوبر ... اقتربنا من بحيرة شاستا ، والجبال تطوقها من كل أقطارها ، من أمام وخلف و يمين وشمال ، وكلها أخضر بما عليها من شجر يغطى السفوح كلها من القمة إلى الوادى ؛ نفذنا خلال الجبل فى نفق معتم طويل ، وخرجنا منه لنعبر بحيرة شاستا على كوبرى قيل إنه أعلى كوبرى فى العالم ، إذ يزيد ارتفاعه على ستمائة قدم ... المنظر ونحن على الكوبرى عبر البحيرة ومن حولنا الجبال من كل ناحية ، بعضها مثلوج القمم ، منظر سويسرىٌّ صرف ، وانتهينا من البحيرة لننفذ خلال جبل آخر من نفق يخترقه ، ولم نخرج من النفق إلا لندخل نفقاً ثانياً فثالثاً .

هذه هى جبال روكى كما كنت أتمنى أن أراها ، فالقطار يزحف عليها زحفا و يخترق بعضها اختراقا ؛ كل الفرق بين ما تخيلته وما رأيته هو أنى كنت أتخيل جبال

روكى صلعاء الصخور ، فوجدتها مغطاة بالشجر فى معظم أجزائها .

القطار لا يستقيم له الطريق خمس دقائق كاملة ، فهو يتلوى كالثعبان ، ينثنى ثم يعتدل لينثنى من الناحية الأخرى ؛ الانثناء قد يبلغ أحياناً من الحدّة أن يتقابل طرفا القطار ، فتكون القاطرة مقابلة للعربة الأخيرة التى هى عربة الصالون التى أجلس فيها ، خصوصاً فى موضع عند منبع نهر ساكرامنتو ... كنا على فترات متقاربة نقطع نهراً ضيقاً سريع الجريان ، هو نهر ساكرامنتو ، يعبره القطار من يمينه إلى يساره ثم من يساره إلى يمينه .

إننى فى نشوة مما أرى ، فكم مرة رأيت هذا المنظر وأشباهه فى السنما وفى الصور ، لكنه لم يحرّك النفس جزءاً من ألف ألف جزء مما تحركها الطبيعة الحيَّة — ذلك هو الفرق بين الطبيعة الحيَّة الطازجة والطبيعة المحفوظة فى العلب ، ولأنحرف قليلا عن وصف رحلتى لأقول إن هذا هو بعينه الفرق بين ثقافتنا وثقافتهم ، وعقليتنا وعقليتهم ؛ هم يفكرون « على الطبيعة » — كما يقول المهندسون — ونحن نفكر تفكيراً « مجففاً » ؛ ومن ثمّ كانت الأصالة عندهم والتقليد عندنا ؛ ثقافتنا طبيعة محفوظة فى علب تعفنت من طول ما حفظت ، وثقافتهم تساير الطبيعة وتواجهها فتتجدد معها فى كل ربيع .

هنالك فى جوف الوادى بيت قائم وحده ؛ إننى لأستغنى عن كل ما لدىّ من حبى لوطنى واعتمادى على وظيفتى وما أملك من مال قليل بل من ثياب وأثاث ، لأعيش فى هذا البيت المعتزل ؛ أنا صادق فى هذه الرغبة ، فإذا مررتُ بمدينة كبيرة لا يطوف ببالى أمنية كهذه ، لكنها أمنية تطوف كلما رأيت بيتاً قائماً فى الخلاء وحده بعيداً عن كل آهل ومأهول .

تصور روح الكشف التى دفعت نفراً قليلا من الناس إلى ارتياد هذا الجزء الغربى الجبلى من القارة الأمريكية ؛ ولم تكن بهم حاجة إلى مال ، فقد كانوا ذوى ميسرة فى أوطانهم من الساحل الشرقى ؛ لكنه الكشف وروح المغامرة ...

لهذا أتوقع أن أجد اختلافاً كبيراً فى أخلاق الناس هنا فى الغرب عنها فى شرق الولايات وجنوبها ... أهل الغرب لا يزال يطلق عليهم حتى الآن اسم « رواد الحدود » لأنهم ارتادوا هذه الأصقاع ، فكان عليهم أن يقاتلوا الهنود الأصليين من سكان البلاد ، كما كان عليهم أن يذللوا هذه الطبيعة المستعصية إلا على ذوى الإرادة الحديدية القوية .

إنه لا عجب فى أن يكون من أقوى ما يطبع الروح الأمريكى روح المغامرة ؛ فكيف بدءوا حياتهم ؟ ألم تكن بدايتهم هجرة من أوروبا فراراً من الاضطهاد الدينى وحرصاً على حريتهم ؟ جاءوا إلى هذه الأرض الجديدة لينشئوا لأنفسهم حياة جديدة فى بلد جديد كانوا يجهلونه ؛ وكان عليهم أن يرتادوه وأن يمهدوه ... بدأت المغامرة فى الخلق الأمريكى منذ البذور الأولى ، ثم أتمّها هذا النفر من رواد الحدود الذين زحفوا من شرق البلاد إلى غربها ، وفى أقل من مائة عام صنعوا هذا كله .

وأعود فأقول ما أبعد الفرق بين الرائد الكاشف وبين من يمشى بعد ذلك فى الطريق الممهدة ! إن الإنسان ليقاتل الطبيعة أول الأمر حتى إذا ما أذعنت له ، عاد بدوره فأذعن لها وسكن إليها سكون العابد فى محرابه ؛ فذلك البيت الصغير المعتزل هناك فى جوف الوادى ، لا يكون إلا لعابد خشع للطبيعة وهى متشحة بكل هذا الجلال .

القطار ما يزال ينثنى ويعتدل ثم ينثنى ؛ إنه يدور حول السفح فى شبه دائرة كأنه لعبة الطفل .

الثلج يزداد كثافة كلما سرنا نحو الشمال ؛ كان المنظر بادىء ذى بدء أكثره خضرة وأقله بياض ، فأصبح الآن أكثره بياض وأقله خضرة .

أمامى الآن جبل يختلف عن كل ما مررنا به من جبال ؛ لأنه جبل عارى الصخور مدبب القمم ؛ فى أعلاه قمم ثلاث كل منها مربع الشكل مدبب الأطراف ؛

إنه يشبه أن يكون قلعة من قلاع العصور الوسطى ... سألتُ إن كان لهذا الجبل اسم ، فقيل لى إن اسمه « جبل القلعة » ... القطار الآن ينثنى أحدّ انثناءة له فى الطريق حتى ليكاد ينطبق على بعضه نصفين ، وتسمى هذه الانحناءة « بالقنطرة » وهى عند منبع نهر سا كرامنتو ، وليس ببعيد أن تكون « القنطرة » كلمة مأخوذة من مثيلتها فى اللغة العربية ، جاءت إلى هنا على ألسنة الأسبان .

يسير القطار مع نهر سا كرامنتو عند منبعه فى انعراجاته وانثناءاته ؛ إذ لا يسعه غير هذا ، فالنهر عند منبعه مجرى ضيق فى واد عميق ، تحفُّ به جدران الجبل من ناحيتيه ، فليس أمام القطار إلا بطن الوادى عند مجرى النهر ...

زادت كثافة الثلج حتى لترى أطراف الأشجار العليا بارزة من أكداس الثلج كرءوس الحراب ، و بقيتها غريق فى الثلج ، كما يحدث لأعواد الذرة فى مصر حين يدركها فيضان النيــل ، فيغرقها الماء إلى شواشيها ... عجيب منظر الثلج يملأ الدنيا عاليها ووطيئها رغم إشراق الشمس بكل هذا الصفاء والوهج ؛ إننى لا أكاد أصدق أن الدنيا خارج القطار باردة كل هذا البرد الذى يملأ الأرض والجبال ثلجاً ؛ إن بينى و بين الثلج المتراكم لوح من زجاج ، أرى الثلج خلال زجاج النافذة وأنا فى مكانى الدافىء ، ألا إنه لبرهان أقوى برهان على أن رؤيتك للشىء لا علاقة لها بإحساسك بذلك الشىء ، فهكذا الغنى والفقر والصحة والمرض ؛ الغنىُّ يرى الفقير و يعلم أنه موجود ، ويظن أنه يعطف عليه وأنه شاعر بشعوره حاسٌّ بإحساسه ، مع أن ذلك ضرب من المحال ، إلا أنه يوهب الإنسان عبقرية لا حدّ لها فى مشاركة الناس مشاعرهم و إحساسهم ؛ و إلا فهل يمكن لى الآن فى مكانى هذا الدافىء أن أرتعش من البرد لمجرد أننى أرى الثلج خارج زجاج النافذة ؟ هذا مستحيل ، مهما حدَّقت النظر فى الثلج الذى لا يبعد عنى إلا بوصات قليلة .

القطار يغطس فى الأنفاق المظلمة ثم يطفو ، ثم يغطس و يطفو ، كأنه الطائر على سطح البحر يطير ثم يهبط ليغمس فى الماء لحظة ثم يعود إلى الظهور ليطير ...

على شفة بارزة من سفح الجبل امتد طريق السيارات ، تراها جارية واحدة بعد واحدة تلمع فى ضوء الشمس ... ليس فى أمريكا كلها مكان مهجور مهما بدا فى الظاهر أنه كذلك .

القطار ما ينفكّ فى انثنائه ودورانه ؛ إننى لا أحبّ لونه الأحمر لأنه شبيه بلون قطارات البضائع فى مصر ، ولولا هذا لقلت إن الإنسان حين يحلم برحلة فى قطار تبلغ حد الكمال الذى ليس بعده كمال ، فلا يمكن أن يطير به خيال الأحلام إلى ما هو أبلغ من هذا وأروع وأبدع ... كيف يمكن فى الدنيا أن تكون الرحلة بالقطار أجمل من هذه الرحلة : هذا الصالون ذو المقاعد الدوّارة وجدران الزجاج ، وعربة المطعم وعربة الشراب وعربة المقصف وجزء من عربة للمكتبة ؛ ثم المناظر التى نخوض فيها خوضاً منذ ساعة الظهر حتى أظلم الليل ! ثم هذه الشمس الساطعة التى جعلت الهواء شفافاً لامعاً كأنه كتلة من البلور ، وهذا الثلج ، وهذا الشجر الغارق فى أكداس الثلج ... إن تصور ما هو أروع من ذلك مستحيل على الخيال ، إلا أن يكون خيالا يشبه خيال هؤلاء الذين خلقوا هذه الأشياء من عدم : فالجبال كشفوها وشقوها ومهدوها ، والقطار صمموه وأعدّوه وأجْرَوْه باسم العلم والعقل المفكر منساباً فى أمن وثقة وطمأنينة نفس وراحة جسم .

لا يزال الثلج يزداد انتشاراً وكثافة كلما سرنا نحو الشمال ؛ كان المنظر عند أول دخولنا جبال روكى — عند مدينة « رِدِنْج » الزراعية أخضر صرفا ؛ ثم أصبح أخضر مبقّعاً بأبيض كأنه جير ، وهو الآن أبيض مبقّع بنقط خضراء هى رءوس الشجر الغارق فى أطباق الثلج الكثيف .

الظاهر أننا قد هبطنا الآن بعد ارتفاع ، لأننا دخلنا فجوة كالصحن الكبير ، تخلو من الثلج أو تكاد ، فهاهنا قلّ الشجر وزادت الصخور الكالحة الجرداء ؛ فجوة الصحن الكبير تحتنا هناك عميقة بعيدة ، وقد تكونت على فوهتها أشرطة من سحاب أبيض كأنها مجارى الماء ... إن هذه الفجوة الكبيرة من الأرض

المنخفضة وعليها هذا السحاب ، شبيهة بوعاء كبير يغلى به ماء ، ثم انكشف عن الوعاء غطاؤه فجأة فتكوّرت فوقه لفائف صاعدة من البخار المتكاثف ؛ و بطانة الصورة عند الأفق الخلفى هى سلسلة الجبال التى خلّفناها وراءنا بثلوجها على القمم والسفوح .

لا نزال ساعة العصر ، وقد غفوتُ ربع ساعة صحوت بعدها لأجد الثلج غزيراً والضباب كثيفاً تتعذر معه رؤية شيء ... لا بد أن نكون قد دخلنا — فى هذا المتحف الطبيعى الكبير — إلى غرفة أخرى بعد أن خرجنا من غرفة كانت قليلة الشجر معدومة الثلج ... لكن الوقت لم يطلْ حتى انجاب هذا الضباب وظهر الخبىء ؛ وهو مسطح من الماء المتجمد ، هو سطح بحيرة كلَامَاث ؛ وهو مسطح سرنا خلاله ساعة أو نحوها كله لوح واحد من الثلج كأنه أرض أُعُدَّت للانزلاق ؛ و يحيط بهذا المسطح الثلجى جبال من كل النواحى ، غطاها الثلج (ألا يكفى اللغة العربية فقراً ألا تعرف كيف نميز فيها بين هذين النوعين من الثلوج "Snow" و "ice" — فالبحيرة سطحها لوح من ice ، والجبال من حولها يُغطيها snow ، لكن كله عند العرب « ثلج ») .

وأعود فأقول إننى لا أتصور كيف يمكن أن تكون الدنيا خارج القطار بهذا البرد كله ؛ إن عربات هذا القطار ليست فقط مُدَفَّأَة تدفئة صناعية ، بل أعدت على نحو يجعلها تحتفظ بدرجة واحدة من أول الرحلة إلى آخرها ، فآلة التدفئة فى القطار تزيد من درجة التدفئة أو تقلل ، كلما نقصت درجة الحرارة الخارجية أو زادت ... ومما هو جدير بالذكر أيضاً أن زجاج النوافذ فى هذا القطار معدَّة بحيث يستحيل أن يتراكم عليها ضباب ، لكى تكون الرؤية واضحة دائماً .

جاء الليل ولم يعد ما نراه ؛ و بدأ الملل يدبّ فى نفسى بسرعة لأن الرحلة طويلة ، وقد كانت المناظر الطبيعية أثناء النهار تلهينى عن طول الطريق ، أما وقد أقبل الليل بسواده ، فلم يعد إلا أن أنصرف بنظرى إلى الداخل ، إلى داخل نفسى ،

فأتتبع الملل وهو يزداد ... وصلنا بورتلاند فى منتصف الثانية عشرة مساء ، بعد أن قضينا فى القطار ست عشرة ساعة ، فانتقلتُ إلى القطار الآخر الذى سيقلّنى إلى « سياتل » بحيث يصل إليها فى ساعة مبكرة من صبح الغد ؛ وكان لى بهذا القطار الثانى « غريفة » ؛ فلم أكد أنتقل إليه حتى أنزلت سريرى فى غريفتى ونمت نوما عميقاً .

الاثنين أول فبراير :

وصلت مدينة « سياتل » فى الصبح المبكر ، وظللت بها النهار بطوله ، إذ غادرتها فى التاسعة مساء إلى « سپوكان » التى أصلها صبيحة الغد .

لما وصلتُ إلى « سياتل » ودخلتُ غرفة الانتظار بالمحطة ، كانت الدنيا أشبه ما تكون بساعات الفجر ؛ فضباب معتم ، ومصابيح موقدة ... أين أذهب فى هذه الساعة المبكرة ؟ جلستُ فى غرفة الانتظار أكتب مذكراتى ، وما كادت أضواء الصبح تشيع فى الفضاء ، حتى خرجتُ أسعى فى المدينة طائفاً ؛ وكان أول ما استوقف نظرى لافتة كبيرة تضىء مصابيحها وتنطفىء ، فإذا أضاءت أبانت بضوئها ما يدل على الوقت وعلى درجة الحرارة ، وكان المكتوب عندئذ الساعة ٥٠ ر ٨ ودرجة الحرارة ٤٢ (فهرنهايت ، وهى تساوى ٥ مئوية) .

أخذت خريطة المدينة من إحدى محطات البنزين ، ووقع نظرى صدفة على مبنى المكتبة العامة ، فدخلتها ونشرت الخريطة على منضدة فى قاعة المطالعة لأدبّر لنفسى طريق السير أثناء النهار ، ثم خرجتُ مستعيناً بالله على مشى متصل طول النهار .

سياتل ! من ذا يسمع فى مصر عن سياتل إلا المختصون فى الجغرافيا ؟ ومع ذلك تعال فانظر كيف تقف الأنفاس لما ترى ! مدينة واسعة شاسعة نظيفة ، ليس بها بناء واحد يدل على غير العظمة والثراء . الثروة ، الثروة ، الثروة ! هذا هو

ما تنطق لك به سياتل : عشرات الألوف من الناس تسير مسرعة فى الطريق ؛ فهنا لأول مرة فى أمريكا أرى ما يقولون عنه من أن الناس فى هذه البلاد يسرعون الحركة و يشغل العمل رءوسهم وخواطرهم ... عشرات الألوف من الناس ليس فيهم واحد أو واحدة على ثيابه أو ثيابها آثار البِلى أو ما يشبهه ؛ حتى نيو يورك لم تكن كذلك ، وشنطن لم تكن كذلك ... قف دقيقة هنا ، على هذه الناصية ، وانظر : عشرات الألوف من الناس تسير مسرعة ، لا تسمع إلا وقع أحذيتهم على الأرض ؛ معاطف ، قفازات ، قبعات ؛ معاطف ، قبعات ، تلفيعات من الصوف حول الأعناق ؛ معاطف ، قبعات ، مظلات فى الأيدى ؛ معاطف ، قبعات ، أقراط جميلة فى الآذان ... أريد أن أرى معطفاً واحداً ، قبعة واحدة ، قفازاً واحداً ، تلفيعة واحدة ، عليها آثار البِلى ؛ أريد أن أرى من هذه الألوف شخصاً واحداً مشعثاً ممزق الثياب ... لا بد أن تكون الثروة هنا بالهيل والهيلمان .

مشيت ثلاث ساعات أو نحوها ، من شارع إلى شارع ، أنظر وأتعجب ؛ الفنادق الفاخرة من الطراز الأول لا يكاد يحصرها عدد ؛ المحلات التجارية العظيمة من الطراز الأول ليس لها حصر ؛ كل شارع من هذه الشوارع التى تعد بالمئات لا تعرف كيف يمكن أن يكون أكثر من ذلك دلالة على الغنى .

ركبت سيارة عامة قاصداً إلى الجامعة ، جامعة وشنطن ، فمررت فى طريق ببحيرة الاتحاد ؛ هى بحيرة تنحدر شواطئها ، وتقوم المنازل على هذه الشطئان المنحدرة ... لبثت فى السيارة ساعة ، ذهبت كلها فى ركن صغير من أركان البلد ؛ ومن هذا تعلم كم تمتد سياتل ، وهى لا تمتد فى عشش الترجمان ولا فى تلال زينهم أو شوارع المدبح و بولاق ! إنما تمتد فى هذه الشوارع العريضة ، فى هذه الأبنية الضخمة الجبارة .

عدت إلى وسط المدينة ساعة الغداء ، وكانت حركة المرور قد زادت فى الشوارع ؛ نسبة الجمال هنا عالية إلى حد يبعث على الدهشة والعجب ؛ الجميلات

اللائي ليس في أجسامهن خطأ واحد تبدُّهن بالألوف . . أين كان عقلي حين كنت أقول إن المصريات أجمل ؟ ! أين في مصر كلها هذه المجموعة من الفاتنات اللائي هن للجمال البشري نماذج ؟ إنه من الصواب أن يقال إن في المصريات جميلة حينا بعد حين ، أما الجمال بهذه الكثرة فلا وجود له في مصر ، في أي مكان منها . ماذا تقارن ؟ أتقارن مجموعة السائرات في شارع فؤاد بالسائرات هنا في واحد من هذه الشوارع ؟ إذن لقد أصابت عقلي لمسةٌ من الجنون والهذيان والخبل !

نسبة الجمال هنا مرتفعة إلى درجة نادرة ؛ نضمّ الجمال إلى الغنى في هذا البلد العجيب ! أنا لا أعرف من الناحية الاحصائية كم يكون ثراؤها ، لكني كون أعمى البصر والبصيرة إذا لم تكفني نظرة واحدة هنا لأقول إن هذا البلد غارق إلى ذقنه في الذهب ! وليس عندي شك بعد أن تفرستُ في الوجوه ما تفرست ، أن أهلها يختلفون عن الناس في البلاد الأخرى ، هنا الجدّ بادٍ كالشمس الواضحة : سرعة المشي في الشوارع ، وانعدام التلكع والتسكع والتلكؤ ؛ إنك لا ترى من يقف مسنداً ظهره إلى الحائط ناظرا إلى المارة كما ترى في « لوس أنجلس » ؛ ولا تجد من يبدو عليه أنه قد جاء للتنزه والتمتع كما تجد في « نيو أورلينز » أو « سان فرانسسكو » . . هنا عمل ، عمل ؛ هنا جدّ ، جدّ ، جدّ ؛ هنا ثروة ، ثروة ، ثروة … وهنا جمال فاتن في النساء — هذه هي « سياتل » .

ودخلت مطعما للغداء ؛ المطعم ذو غرفتين ، إحداهما فرشت باللون البنيّ كلها ، مقاعدها وسجادها وموائدها ومفارشها وطلاء جدرانها وزخرف سقفها ؛ والأخرى باللون الأخضر . . وفي هذا المطعم ثلاث فتيات ، لبسن جميعاً « مرايل » بُنيّة من لون واحد وطراز واحد ، وتحت المرايل فساتين بيضاء من لون واحد وطراز واحد . . كل الدلائل دالة على أن هؤلاء الفتيات الثلاث هن اللائي يملكن المطعم ويخدمن فيه ؛ تعرف ذلك على الفور من طريقة وضع المال في آلة الحساب ،

فـكل منهن تقوم بهـذه العملية ؛ وتعرف ذلك أيضاً من طريقة خدمتهن ... لو ذهب هؤلاء الفتيات الثلاث إلى مصر ، كُنَّ فيها من أروع الجميلات لون بشرة وحسن تقاطيع وتصفيف شعر ونظافة ورشاقة وخفة دم وأدبا . . ومع ذلك فروح الجدّ بادية فى كل لمحة منهن وكل لفتة وكل حركة .

خطر ببالى خاطر غريب وأنا فى هـذا المطعم ، وهو أن أقارن بين البلاد الأمريكية التى زرتُها ، ممثلا إياها بأشخاص ، ليتضح الفرق بينها ، و بعد محاولة يسيرة وتفـكير قليل ، قلت : « نيو يورك » هى أمين يحيى من حيث الغنى والصقل والتمدن على الطراز الحديث ، مضاف إلى ذلك اشتغال بالتجارة على نطاق واسع يدرّ الربح الـكثير ؛ و « وشنطن » هى « ن . ه » ديوانىٌّ مهندم ، لـكن لا تجارة ولا صناعة ولا إمعان فى علم أو فن ؛ و « كولمبيا » (فى ولاية كارونيا الجنوبية) هى « م . م . ج » غنى زراعى مع تلفُّع بالتقاليد الإقطاعية ومفاخرة بالأرض و بالحسب والنسب والأسرة ؛ و « ينو أورلينز » هى « توفيق الحـكيم » جو ثقافى فرنسى مع بحبوحة فى المال وشىء من غرابة الفنان ؛ و « لوس أنجلس » هى « أ . و » ثراء ضخم لـكنه لا يبعث على الاحترام والتوقير ؛ وحياة ممتزجة « بالتمثيل » والتـكلف المصطنع الذى لا يصدر عن طبع أصيل ؛ و « سان فرانسسكو » هى « شفيق غربال » ثقافة فى ذوق المهذب المتمدن الهادئ الذوق ؛ فلا هو بالذوق الصاخب ولا هو بالمشعث المتروك على فطرته ؛ ففى سان فرانسسكو مكتبات كثيرة مما يدل على غزارة الثقافة فيها ، فضلا عما فيها من معازف موسيقى ومسارح تمثيل ؛ وأخيراً « سياتل » هى « عبود » غنى مقرون بالعمل الجادّ المربح فى التجارة والصناعة وعالم المال .

٦ - فى الغـــرب

الأربعاء ٣ فبراير :

[من مدينة بلمان بولاية وشنطن فى أقصى الشمال الغربى للولايات المتحدة — حيث أقمت أستاذاً زائراً بجامعتها فترة الربيع] .

دعانى الدكتور « د . و » إلى حفلة مسائية فى داره ، كما دعا كثيرين من أساتذة الجامعة ليعرف بعضنا بعضاً . ولو حلَّلْتُ هذا الاجتماع وحده وقارنته بنظيره فى مدينة كولمبيا (ولاية كارولاينا الجنوبية) لتبين الفارق البعيد بين أهل الجنوب وأهل الغرب ؛ إنهما روحان مختلفان كل الاختلاف ... إننى أقارن النظير بنظيره فقد كان الدكتور « ش » فى كولمبيا قد جمع أربع اجتماعات فى داره ، دعا فى كل اجتماع منها عـدداً من الأساتذة ليعرفونى وأعرفهم ؛ وإذن فلنقارن اجتماع الليلة بتلك الاجتماعات لنتبين الفروق :

(أولا) المدعوون هنا الليلة جميعاً كانوا مصحوبين بزوجاتهم ؛ أما الدكتور « ش » فى كولمبيا فلم يَدْعُ الزوجات ؛ بل أكثر من هذا ؛ وهو أن زوجته عندما كانت سمعت أول نقرة على الباب ، وعرفت أن القادم هو من المدعوين ، أسرعت إلى داخل الدار كأنها امرأة فى حريم شرقى ، مع أنها كانت موظفة إلى عهد قريب فى الجامعة نفسها ، وعلى علم تام بالأساتذة المدعوين ؛ وإذن فهناك فى الجنوب تزمُّتٌ وطول تفكير وتدبير فى مسألة اجتماع النساء بالرجال فى الدعوات والحفلات ، متى يكون ومتى لا يكون .

(ثانياً) قُدِّم لنـا الليلة أنواع الشراب المختلفة ليطلب من شاء ما شاء منها ؛ وأما فى كولمبيا ، فى الدعوات التى أقامها الدكتور ش فى منزله ، فلم يقدم إلا القهوة فقط ؛ كأنما تقديم الشراب يزيل الكلفة وهم هناك لا يريدون إزالة الكلفة بسرعة ... هذا الفارق عندى هو من أهم الفوارق ؛ فإن الكلفة والتكلف

والمجاملة والتصنع لم تَزُلْ بينى وبين رجال الجامعة فى كولمبيا حتى تركتها ؛ لم يحدث أبداً أنى اندمجت مع أحد منهم ، كما اندمجت هنا فى بلمان مع أعضاء قسم الفلسفة منذ الدقيقة الأولى ؛ فالناس هنا فى الغرب يتصرفون التصرف الذى لا تكلف فيه .

(ثالثاً) كان الحديث تلقائياً حراً فى اجتماع الليلة ، وأما فى اجتماعات كولمبيا فقد كان الحديث يدور دوراناً مدبَّراً حول أسئلة عن مصر ؛ ذلك لأنهم لم يريدوا هناك أن يجعلوها جلسة صداقة وود ، فمثلا كان يستحيل عليهم أن يتبادلوا النكات ما دمتُ غريباً بينهم ، مع أن اجتماع الليلة لم يخل من النكات المرحة مثال ذلك : قال أحدهم إن فى جامعة سمَّاها ، تمثالين لأسدين على سلَّم المدخل ، وكانوا يقولون وهم فى تلك الجامعة إن هذين الأسدين يزأران لو مرّتْ بينهما فتاة عذراء (يعنى أنه لا عذراء بين الفتيات) ... فقال أستاذ آخر : هذا شبيه بما كنا نقوله كذلك فى جامعتنا ، فهناك تمثال لرجل جالس ، وكنا نقول إن التمثال ينهض واقفاً لو مرت به فتاة عذراء ... هذه نكات كانت تقال فى اجتماع الليلة مع وجود الزوجات ، بل كان الزوجات يشتركن فى التعليق والضحك .

(رابعاً) طبعاً دار حديث طويل عن الشرق الأوسط بمناسبة وجودى ؛ فيكفى أن تسمع الأسئلة الدقيقة المستنيرة التى كانوا يسألونها ، والتى تدل على أنهم ليسوا فى عماء وجهالة كالتى رأيتها فى كولمبيا بالنسبة للعالم الخارجى ، لتعلم الفرق البعيد بين إقليم وإقليم ، بين الجنوب من ناحية والغرب من ناحية أخرى ... يسألونك هنا مثلا عن حركة الإخوان المسلمين ، وعن حركة الدروز فى سوريا وعن قوة الشيشكلى أو ضعفه ، وعن عزم الباكستان أن تكون دولة دينية ، أعنى دولة ثيوقراطية ، وعن مصر هل تنوى أن تفعل ذلك فى دستورها الجديد ؟ وآثار ذلك إذا كانت له آثار ؛ وإذا ورد ذكر الإسلام ، فمنهم من كان يعلّق تعليق الفاهم فيقول أحدهم مثلا إن الفرق بين المسيحية والإسلام هو فرق فى المسيح لا فى الله ، فالديانتان إلٰهما واحد بعينه ، لكن المسلمين يفهمون المسيح فهماً يختلف عن فهم

المسيحيين ... وهكذا وهكذا ، فما أبعد هـذا الجو المستنير بمثيله فى كولمبيا حين كانوا يسألوننى أسئلة كلها سذاجة وقلة اهتمام بأمور الدنيا الخارجية .

الخميس ٤ فبراير :

ذهبت بعد الغداء مع الدكتورة سنثيبا شستر أستاذة الفلسفة إلى مكان تسجيل الطلبة للنصف الثانى من العام الدراسى ، فوجدته منظراً يكاد يبعث على الضحك ؛ ففى الملعب الكبير المسقوف مُدَّتْ مناضد على شكل حـدوة الحصان ، وجلس ممثلو الأقسام المختلفة فى الجامعة ، وكتب أمام كل منهم لافتة باسم القسم ، مثلا « فلسفة » أو « طبيعة» أو «لغة انجليزية» الخ ؛ ويأتى الطالب فيسأل ممثل القسم الجالس : ماذا أستطيع أن أتلقى عندكم من أشواط دراسية ؛ فيوضح له ممثل القسم أنواع الدراسات التى عنده ... والذى أضحكنى هو أن المنظر كان أشبه بمنظر الدلاّلين الذين ينادون عل بضاعة يريدون بيعها ؛ فممثلو الأقسام حريصون كل الحرص على أن يلتحق الطلبة بأقسامهم ، ولذلك هم يعرضون ما عندهم بشكل فيه إغراء للطالب ... ويسأل الطلبة أحيانا أسئلة تُضحك ، فمثلا جاء طالب إلى ممثلة قسم الفلسفة الدكتورة شُستر ، وكنت واقفاً إلى جوارها ، فسألها : ماذا فى القسم من دراسات تصلح لى ؛ فقالت له : كذا وكذا وفلسفة إسلامية ؛ فسأل فى دهشة : فلسفة إسلامية ؟ ! ما هذه وما عساها أن تكون ؟ (يلاحظ أن الفلسفة الإسلامية أضيفت إلى الدراسات هذا النصف الثانى من العام بمناسبة وجودى فقط وستزول بعد سفرى) فقالت له الدكتورة شُستر : هى دراسات عن الإسلام ، ومن المفيد لنا أن نعرف عن ثقافات العالم المختلفة الخ الخ ، فسألها الطالب : وما موعد هذه المحاضرات ؛ فقالت له : أيام الاثنين والأربعاء والجمعة من الساعة الواحدة والثلث ، فصفر الطالب وقال : واحـدة وثلث ! إنى أكون عندئذ أنزلق على الجليد : لا ، هذا لا ينفعنى ، ماذا عندكم غير هذا ؟! وهكذا وهكذا ، والطالب لا يعجبه

شيء فى قسم الفلسفة فيستعرض أقساماً أخرى ليرى ماذا يروق له لينتقيه . . . وترى الأساتذة فى قلق أضحكنى ، فمثلا إذا كانت هناك مادة لم يتقدم إليها أحد ، وجدت ممثل القسم مشغول البال ، يبحث جاداً عن طلبة لها ، ويوصى زملاءه فى الأقسام الأخوى أن ينصحوا الطلبة بالتقدم إلى هذه المادة المهجورة ، وهكذا .

الجمعة ٥ فبراير :

دعانا الدكتور « د . و » وزوجته إلى مشاهدة رواية تمثيلية . . المسرح غرفة من فندق ، وهو شيء لم أشهد له مثيلا ، ولو أنه يقال إنه نوع من المسارح انتشر فى الولايات المتحدة ، وخصوصاً الولايات الغربية ، ويسمونه « مسرح الحَلْبَة » وذلك أن تصفَّ المقاعد صفوفاً على جوانب ثلاثة من جوانب الغرفة ، ويترك الجانب الرابع مؤدياً إلى الأبواب التى يدخل منها الممثلون ويخرجون ، والمسرح هو وسط الغرفة ، فإذا انتهى فصل أطفئت الأنوار كلها لحظة قصيرة ثم أضيئت على الفصل الثانى .

أحسستُ بغرابة فى أن يكون التمثيل قائما بين صفوف الجالسين ، ولكنى كذلك أحسستُ عمق الأثر وصدقه ، لأنك سرعان ما تنسى أنك إزاء مسرح وتمثيل ، لانعدام الوسائل المصطنعة ؛ فالأمر فى حقيقته لا يزيد ولا يقلّ عما لو كنت جالساً فى بهو فندق وأمامك الناس يتكلمون ، هم فى حالهم وأنت فى حالك لكنك تسمع ما يقولون وترى ما يصنعون لقربهم منك ؛ وإذن فهذا النوع الغريب من المسرح التمثيلى تنقصه ما فى المسرح المألوف من جو مسرحى خاص ، لكنه فى مقابل ذلك يزيد عن المسرح المألوف فى عمق الأثر وصدقه .

الرواية التى شهدناها رواية مشهورة ، عنوانها « وُلِدَتْ بالأمس » وخلاصتها أن فتاة لعوبا مَغْرية كانت جاهلة ساذجة ، فاستغلها ثرىٌّ يجمع ثراءه بالغش مستعيناً

فى ذلك برشوة عضو فى الكونجرس ؛ وعَنَّ للثرىّ أن يعلّم غانيته هذه حتى تصلح للمجتمع الذى يتحرك فيه ، فجاءها بمعلم خاص ظل يعلمها حتى جاوزت الحد المطلوب إلى حدّ جعلها تفهم حقائق الأمور وتثور عليه وتفضحه ... و يقال إن للرواية أساساً حقيقياً فى عهد الحكومة الماضية ؛ إذ استطاع رجل أن يثرى ثراء ضخما برشوته لأصحاب النفوذ .. وحدث أن أحبت الفتاة معلمها وأحبها المعلم فتزوجا ؛ و إذن فهى قائمة على نفس الأساس الذى تقوم عليه رواية « بجماليون » لبرنارد شو ؛ وعلى كل حال فالموضوع قديم قدم اليونان : حب الفنان لفنه ، ففى أسطورة بجماليون الأصلية أحب النحات تمثاله الذى نحته ؛ و بعدئذ راح رجال الأدب يستمدون من الأسطورة تخريجات أخرى ، من أشهرها أن يكون الفنان معلماً وأن يكون الأثر الفنى متعلمة ، وأن يقع الحب بين الفنان وأثره ، أى بين المعلم وتلميذته .

والممثلون والممثلات فى مسرحية الليلة كلهم من الهواة ، ولعل هذا أعجب مافى الأمر كله ، لأن تمثيلهم قد بلغ حداً من الجودة يستحيل أن يبلغه إلا ممثلون وممثلات من الطراز الأول ؛ وليس يخامرنى شك فى أن الفتاة التى مثلت دور الغانية سيكون لها فى عالم التمثيل شأن كبير .. وقد سألت فعلمت أنها تعمل بائعة فى نادى الاتحاد — اتحاد الطلبة — وهى فى الوقت نفسه طالبة .

ذهبنا بعد مشاهدة التمثيل إلى منزل الدكتور « د . و » وظللنا نتحدث إلى قرب الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ؛ إننى كل يوم أزداد إيماناً بالفارق البعيد بين الغرب والجنوب فى وجهات النظر ، فقد تحدثنا الليلة فى مشكلة الزنوج ، فوجدتهم يستبشعون الفصل اللونى السائد فى ولايات الجنوب .

وسألنى الدكتور « د . و » : هل توقعون فى مصر يمين الولاء ؟ قلت له : ولاء لمن ؟ قال : لبلادكم ؟ قلت : ولاء المصرى لمصر متضمَّن فى كونه مصرياً ، فقال متهكما على ماهو سائد فى أمريكا اليوم : نعم ، وكان ولاء الأمريكى لأمريكا

متضمَّناً فى كونه أمريكياً ، ثم تبدلت الحال معنا وأصبح الأمريكى فى حاجة إلى أن يوقع يميناً بالولاء لبلاده .

السبت ٦ فبراير :

قرأت فى مجلة « العالم الأمريكى » مقالين كل منهما غاية فى الامتياز وكل منهما غاية فى جرأة التفكير . . أما أحدهما ففكرة جريئة فيما تعودت ألا أسمع عنه فى ولايات الجنوب شيئاً إلا دلائل الخوف والجزع ، وهو مسألة « الولاء للوطن » التى حدثنى عنها أمس الدكتور « د . و » ؛ فكل أستاذ جامعى فى هـذه البلاد (وقد يكون كل موظف حكومى على الإطلاق) يوقع وثيقة ولاء لبلاده ، يتعهد فى الوثيقة أنه لم يكن فى يوم من الأيام ، ولا هو الآن ، ولا ينوى أن يكون فى المستقبل ، منتمياً إلى أى نشاط شيوعى ؛ و بغير هـذا « الولاء » لا يجوز أن يظل فى منصبه .

أول المقالين الجريئين اللذين قرأتهما اليوم هو فى هـذا الموضوع ، وعنوانه « الولاء والحرية » ، يقول فيه كاتبه — وهو أستاذ فى جامعة هارڤارد — إن هـذا « الولاء » حبس للحرية الفردية ، وقد قام الدستور الأمريكى ، بل المجتمع الأمريكى بأسره بادئ ذى بدء على حرية الفرد ، وكل شىء بعد ذلك إنما يستمد وجوده من تلك الحرية الفردية ؛ ولن تكون للأفراد حرية إذا سيقوا جميعاً فى مجرى فكرى واحد تنطمس فيه أوجه الاختلاف بين الأفراد ؛ و إلا فما الفرق بيننا و بين روسيا الشيوعية فى ذلك ؟

نعم إنى أعيد هنا ما لاحظته فيما مضى ، وهو أن الأمريكيين فى جزع وفزع ورعب وخوف من الشيوعية ، و يستحيل على الأجنبى أن يحس إحساسهم هـذا إلا إذا جاء ليعيش بينهم حيناً ، و يرى كيف يتكلمون فى هـذا الموضوع همساً ، يتكلمون وهم يتلفتون يميناً و يساراً خشية أن يسمعهم سامع دخيل ... قد لا يكون

معنى ذلك أنهم راغبون فى شيوعية ، لـكن معناه أنهم ساخطون على هذه الحركة العنيفة التى يقوم بها ما كارثى فى البلاد كلها درءاً للشيوعية ، مما اقتضاه أن يطغى على حرية الأفراد ، وكل حرية عزيزة على الأمريكى ، ولا يرضى بغيرها بديلا .

وأما ثانية المقالتين ، فكانت هجمة عنيفة على الذوق الفنى فى أمريكا ، إذ يزعم الكاتب أن الفن لا يجرى فى عروق الأمريكيين ، بل هم يضيفونه إلى حياتهم إضافة الزائدة .

دعيت إلى القهوة عصراً فى منزل الدكتور ُبتَرْ مع السيد « ش » وزوجته الدكتورة الفيلسوفة « س . ش » . . . والدكتور ُبتَرْ كان رئيساً لقسم الفلسفة فيما مضى ، وهو الآن متقاعد ، يبلغ من السن حول الخامسة والسبعين ، وكذلك زوجته تبلغ مايقرب من هذه السن .

منزل الدكتور ُبتَرْ أمنية يتمناها أى إنسان فى الدنيا له شىء من الثقافة وحسن الذوق ؛ رأيت منه بهوا وغرفة المكتب وهى التى جلسنا فيها . . البهو فسيح نوعا ما ومؤثث فى بساطة وجمال ليس بعدهما زيادة لمستزيد ، وأما غرفة المكتب فصغيرة ُبطِّنت جدرانها بالخشب ، وفى هـذه البطانة الخشبية ذاتها رفوف تدور مع جدران الغرفة الأربعة ، ملئت كلها بالكتب ، وأربعة مقاعد أو خمسة مختلفة الشكل واللون والحجم اختلاف التباين الجميل ؛ وقد أوقدت نار المدفأة وأضيئت المصابيح الخافتة ذات المظلات المنقوشة فى هدوء ورقة .

قالت الدكتورة « س . ش » إن هذا المنزل فى رأى كثيرين من الناس هو « المسكن » الوحيد فى مدينة پلمان ، أما بقية البيوت « فمنازل » (إننى أستعمل كلمة « مسكن » لتقابل لفظة home ولفظة « منزل » لتقابل لفظة house) ... وهنا وجدتُ أنا الفرصة سانحة لأعبّر عن شديد إعجابى بجمال الذوق فى كل شىء

حولى ، و بالروح الدافئة النابضة التى تشيع فى كل جزء من أجزاء المكان — ثم سألتُ : ما الذى يجعل « المنزل » « مَسْكنا » ؟ فأجابتنى السيدة ُبِترْ (صاحبة الدار) قائلة : أظن أن أهم عامل هو أن يكون المنزل قديما فى بنائه وفى أثاثه ... وهنا هبط علىّ ما يشبه الوحى ، وعرفت لماذا تخلو منازلنا المصرية من الروح ؛ عرفت لماذا تتصف منازلنا بهذه البرودة التى تقشعرّ لها الأجسام ؛ ذلك لأنها — على عكس ما قالت السيدة بتر — قد فُرِشَتْ بالجديد اللامع البراق ! إننى كلما رأيت « مسكنا » من هذه « المساكن » الدافئة بروحها ، انتقل خيالى فجأة إلى « منزلى » بالقاهرة ، وأحسست البرودة تسرى فى مفاصلى وعظامى ، أحسستُ بالبرودة تسرى على سبيل الحقيقة لا على سبيل المجاز .

السيدة ُبتَرْ — مثل زوجها — غزيرة الثقافة جداً ، فلا همَّ لهذين الزوجين الكهلَيْن سوى القراءة وخدمة الدار ! أى والله ، فلا خادم عند هذين الكهلين ولا خادمة ، تراهما يسعيان فى أنحاء دارهما يعدّان للضيوف ما يعدّانه ، وينظفان ويغسلان ويمسحان ثم .. يقرءان ! ! ومن لطيف ما قالتْه السيدة بتر أنها تعلمت من خبرة الحياة أن بعض الرجال يؤذيهم أن تأمرهم امرأة ؛ فإذا أرادت امرأة من رجل أن يؤدى عملا فعليها أولا أن تستوثق من أن الرجل ليس من أولئك الذين لا يحبون الائتمار بأمر أنثى ... وهنا علّق السيد « ش » بأنه رجل من أولئك ؛ مع أنه المثل الوحيد الذى شهدته فى حياتى لرجل يقيم فى المنزل بلا عمل إلا أن ُيعدّ الطعام و ينظف الدار ، على حين تقوم زوجته الدكتورة « س . ش » بكسب الرزق لهما معاً !

و بعد أن فرغنا من زيارة الدكتور بتر وزوجته ، انتقلنا — السيد « ش » وزوجته وأنا — إلى دار هذيْن حيث دعوانى على العشاء .... لهما قط يعزانه إعزازا يدعو إلى العجب ؛ وقد أجلسته الدكتورة « س » على حجرها ، وراحت تربِّت له بكفّها ، وتقصّ علىّ قصة القط العزيز ... أخذتْه صغيراً ،

ولما شب وعرف لذائذ الحياة الليلية أخذ يموء ويصرخ لنطلق سراحه بالليل ، فأشفقنا عليه وفتحنا له الباب وذهب إلى ما لست أدرى أين ، والظاهر أنه فى الليلة الأولى قد غرق فى المتعة طيلة الليل فلم يعد الينا إلا مع الصبح ، وعاد متعبا ورقد على الأرض منهوكا يغطّ فى نعاسه طول النهار ؛ وما هو إلا أن ظهرت عليه بعد حين كل الدلائل الدالّة على « عقدة أوديب » — أى الدالّة على حبه لأمّه حب الذكر للأنثى — فقد حاول مرات عدة أن يتصل بأمّه ، لكن أمّه استعصت عليه وكانت تفلت منه هاربة إلى حيث لا يستطيع اللحاق بها ، ولم يلبث أن دارت معارك دامية بينه و بين أبيه ، كان يعود بعدها دائما مهزوما يقطر الدم من جراحه ... (وهنا تنظر الدكتورة الفيلسوفة إلى قطها مخاطبة إياه قائلة : كان ينبغى أن تتعلم بالخبرة بعد معركة أو معركتين) ...

هنا سألت الدكتورة الفيلسوفة إن كانت حقاً ترى أن « عقدة أوديب » لها أثرها فى الأدميين (و بالطبع لم أفهم حديثها عن القط إلا على سبيل المزاح) فهل تدل مشاهدة الحياة اليومية على أن الرجل يشتهى المرأة التى هى على طراز أمّه ؟ أم هى نظريات لا تتفق والواقع الملحوظ ؟ فقالت الدكتورة « س » إن العجيب فى هذه النظرية هو أنها تتأيد بالايجاب والنفى معاً ؛ فإذا كان الرجل يشتهى الأنثى على غرار أمه ، كانت النظرية صادقة ، و إذا هو اشتهى الأنثى من طراز مختلف كانت النظرية صادقة أيضاً ، لأنه فى هذه الحالة يشعر بتحريم شديد نحو أمه ونحو سائر من يشبهها من نساء ، إلى حد يفقده الرغبة فى طرازها ، وما التحريم الشديد إلا دليل على وجود الرغبة الشديدة فى أول الأمر ، رغبة لم يقتلعها من نفسه إلا تحريم شديد ... ولذلك نرى بعض الناس تشتد شهوتهم للغرباء عن جنسهم ، بمعنى أن تتقرر رغبة الرجل لامرأة من وطن غير وطنه ، إمعاناً منه فى البعد عن طراز أمه ؛ وكذلك قد تشتد شهوة الرجل إلى امرأة تختلف عنه لوناً ؛ ومن ذلك ما يقال عن جورج وشنطن أن فى أوراقه الخاصة ما يدل على أنه فى

الوقت الذى لم يستطع فيه الاقتراب من امرأة بيضاء مع شدة إعجابه بكثير منهن ، أشبع شهوته الجنسية فى نساء سوداوات .

الأحد ١٤ فبراير :

جاءتنى فى الصباح السيدة « ج » لتأخذنى إلى « مدرسة الأحد — فى الكنائس أيام الآحاد يجتمع الأطفال فى أعمار مختلفة ليتلقوا دروساً ، ويسمون هذا النظام فى الكنيسة « بمدرسة الأحد » — فهى متطوعة للتدريس فى كنيستها أيام الآحاد ، وأرادت أن تعرضنى على أطفالها نموذجا لرجل جاء من أرض الإنجيل أو ما يجاورها . . الأطفال فى فرقتها تقع أعمارهم فى التاسعة أو العاشرة ، وكان هناك أربعة من رجال وسيدات ، عدا السيدة « ج » ؛ كلهم منوط بهم الإشراف على هذه الفرقة الدراسية . . الغاية فى جمع الأطفال هذا فى الكنيسة هى تعويدهم ارتياد الكنيسة منذ الصغر ، ولما كانت الصلاة أمراً قد يتعذر أداؤه وفهمه وتقديره على هذه الأعمار الصغيرة ، رأيتهم يجمعون الأطفال فى فصول دراسية ملحقة ببناء الكنيسة ذاتها ، بل رأيت كنائس ملحقاً بها أبهاء للعب الأطفال الذين هم دون سن الدراسة ، فترى هناك الكرات والعرائس والعجلات وما إلى ذلك ، ومجموعة الصغار يلعبون ويصيحون .

وقفت السيدة « ج » أمام مجموعة أطفالها — وكانوا حول الثلاثين طفلا ، ويجلسون على تخوت مدرسية — وأعلنتهم أن زائراً معهم اليوم ، جاءهم من مصر القريبة من أرض الإنجيل ، وأن هذا الزائر سيحدثهم عن بعض ما رآه بنفسه فى البلاد المقدسة .

وعندئذ بدأ مدرس يعرض الصور بالفانوس السحرى عن القدس وتل أبيب ويافا وغيرها من بلاد فلسطين ، وكنت كلما طاف برأسى شىء خاص بإحدى هذه الصور مما قد يلذ للأطفال أن يعلموه تحدثت عنه ... ومن الصور التى عُرِضَتْ صورة

أسماها «البوابة الذهبية» وقال لهم مدرسهم إن هذه البوابة مغلقة ، أغلقها المسلمون ، وهم يقولون إن الوادى الذى ينتهى إلى هذه البوابة مشدودٌ فيه سِلْكٌ رفيع ، وسيمشى الناس على هذا السلك يوم القيامة ، وعندئذ ستنفتح البوابة لمن يستطيع الوصول .. فأثارت هذه القصة اهتمام الأطفال ، وأخذوا يسألونه : أين هو السلك ؟ هل مشى على السلك أحد ؟ من الذى أغلق البوابة ؟ وكيف ستفتح البوابة حين تفتح ؟ وما سُمْك السلك على وجه الدقة ؟ الخ الخ . . فلما أزهقوا المدرس بأسئلتهم وهو فى كل رد يرد به على سؤال يقول لهم : هــذه عقيدة المسلمين وعلينا أن نحترم عقائد الناس ؛ أقول إنهم حين أزهقوا المدرس بأسئلتهم قال لهم : مهما يكن من أمر هذه القصة فنحن باعتبارنا مسيحيين لا شأن لنا بها ؛ وكل ما يجوز لنا أن نقوله إزاءها هو أنها عقيدة المسلمين ، وأننا نحترم عقائد الناس لــكننا لا نلتزم بها .

فلما انتهى من عرض صوره قال لهم : ربما تفضل زائرنا الآن بالتحدث إليكم . فقمت وقلت لهم : ما دامت قصة السلك قد أثارت اهتمامكم فأحب أن أقول لــكم إن السير على سلك رفيع أو ما يشبه السلك الرفيع ، يراد به الرمز إلى العمل الصالح ، وانفتاح البوابة لمن يستطيع الوصول رمز لدخول الجنة جزاء العمل الصالح ؛ فالعمل الصالح كثيراً ما يكون عسيراً صعباً لأن الإنسان يقاوم به شهواته ورغباته ، ولذلك شبهوا أداءه بالمشى على سلك رفيع . . . فوقفت السيدة « ج » وقالت : إذن فهذا شبيه جداً بما قاله المسيح و ورد فى الإنجيل ، وهو أن الطريق إلى الجنة ضيق ، وأما الطريق إلى جهنم فواسع عريض .

وأخذ الأطفال بعد ذلك يمطروننى بأسئلة عن مصر : عن الهرم وأبى الهول والجمال والصحراء والجيزة وأوراق البردى ومقابر القدماء الخ .

ثم جاءنى مدرس يلحّ علىّ فى أن أصعد معه إلى الطابق الأعلى لأتحدث إلى تلاميذه وهم أعمار تتراوح بين الثالثة عشرة والخامسة عشرة ، وقد علمت أن هؤلاء الأيفاع يُعَدُّون لمهمة التبشير . . لفت نظرى فى هذا المدرس أنه رث الثياب إلى

درجة لم أرها على أمريكى آخر ، فحذاؤه ممزق فعلا ، وبذلته بالية ووجهه يدل على إهمال وفقر ، ولغة كلامه لا تدل على أن صاحبها قد ظفر بشىء من التثقيف .

صعدت إلى فرقته وقوامها ستة أولاد وأربع بنات ؛ أما البنات فقد جلسن هادئات فى ركن من الغرفة ، وأما الأولاد فعجب من العجب ، هم شرذمة من المجرمين ! كل واحد منهم بغير استثناء جلس جلسة فيها كثير جداً من الشذوذ والتحدى ، فوقفت أمامهم أبتسم ، فأى نبات يا ترى سيخرج من هذه البذور ؟ أهو النبات الصالح الذى يعدونه للتبشير بالمسيحية بما فيها من سماحة وحب ؟ إنهم فريق من الأطفال المشردين الذين بدأوا حياتهم بالجريمة وإن كانت خبرتى الطويلة بالتلاميذ قد علمتنى شيئاً ، فلا شك عندى فى أن هؤلاء الأولاد الستة جميعاً ستنتهى حياتهم بالجريمة كما بدأت ... ومع ذلك فشتان بين أسئلتهم التافهة وأسئلة الأطفال الصغار فى الطابق الأسفل .

ولما فرغت من هؤلاء وأردت الخروج جاءتنى فتاتان من الفتيات الأربع اللائى كن فى هذه الفرقة وسألتنى سؤالا عجيباً — وكان مدرسهن واقفا معى — وهو : إذا كان آدم وحواء قد أنسلا ولدين هما قابيل وهابيل ، ثم قتل قابيل هابيل فمن أين أتى قابيل بزوجة يتزوجها ليستمر النسل ويتكاثر البشر ؟ . . فضحكت وقلت لهم إنى لست حجة ولا شبه حجة فيما ورد فى الإنجيل من قصص ، فربما يكون هذا الذى أشرتما إليه نقصاً فى تكوين القصة ، ولكننى أرجح أن هذه الأسماء : « قابيل » و « هابيل » . . رموز لقبائل بأسرها ، لا أسماء لأفراد ؛ وقتل قابيل لهابيل معناه فتك قبيلة بقبيلة ، وإذن فبقاء قابيل هو بقاء قبيلة بأسرها فيها الرجال والنساء يتزاوجون ويتناسلون . . . فبهذا التفسير ننقذ القصة التى وردت فى كتابكم وكتابنا .

الثلاثاء ١٦ فبراير :

دعانى السيد « هـ . هـ » وزوجته أن أقضى معهما المساء ؛ فذهبتُ إليهما فى صحبة السيد « ش » ؛ ففتحت السيدة « پ . هـ » الباب ورحَّبت ، وكان زوجها واقفاً على مقربة منها مُرَحِّباً ؛ كلاهما فى سن الخامسة والثلاثين أو ما يقرب منها ؛ أما السيدة « پ » فمن أجمل وأروع نساء الدنيا أجمعين ؛ هى أميل إلى الطول ، مليئة الجسم إلى حد الكمال ، لها بشرة شفافة رائقة ، ووجه باشٌّ سمح ؛ ثم هى كثيرة الضحك فى خفة دم ونشوة روح .

جلسنا نتحدث ، وما هى إلا أن قدمت لنا « پ » ما صنعته من قهوة وشاى وكعك ... بدأ حديثنا بالهنود الأصليين وما بقى منهم فى المحابس التى تحصرهم هنا وهناك ، وذلك بمناسبة ذكرنا لبعض البلاد التى تحمل أسماء هندية ؛ فالكثرة العُظمى من البلدان والأنهار والجبال لا تزال تحمل الأسماء الهندية القديمة ؛ فسألتُهم : أين آثار هؤلاء الهنود الأصليين ؟ فكان السؤال غريباً عليهم ، وقالت السيدة « پ » إنه من العجب أن هذا السؤال لم يطرأ لها من قبل ؛ وأجمعوا على أنه ليس للهنود الأصليين من أثر ؛ فسألتُ قائلا : وكيف يمكن عقلا أن يترك نظراؤهم فى المكسيك آثار معدنية لا بأس بها ، والهنود فى هذه البلاد لا يتركون شيئاً ؟ فعللت السيدة « پ » هذه الظاهرة بكثرة الخيرات فى أرض الولايات المتحدة ، مما صرف سكان البلاد الأصليين عن كل أوجه النشاط ، كما هى الحال — مثلا — فى القبائل البدائية فى أفريقيا الوسطى .

وانتقل الحديث إلى المقارنة بين الاستعمار الفرنسى والاستعمار الإنجليزى ، بمناسبة ما قلتُه لهم مما كنت أقرؤه لتوّى قبيل زيارتهم ، من أن الفرنسيين الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة خالطوا الهنود الحمر وتزوجوا منهم فى أول الأمر ، ثم وقفت هذه الحركة حين تمت السيادة للإنجليز ... وجعلت أحدثهم فى استفاضة

عن الاستعمار الإنجليزى وكيف أنه أنكب ما نكب به تاريخ البشر ؛ فوجدتهم متشككين فى صواب هذا الحكم ، وكان الحديث عندئذ بينى و بين السيدة « ب » ، فقلت لها : خذى أية قبيلة بدائية مما خضع للإنجليز مائة عام أو مائتين ، ثم اختارى أى مقياس للتقدم تشاءين ، اختارى المستوى الاقتصادى ، أو الثقافى أو ما يحلو لك أن تختارى ، وطبّقِى مقياسك هذا على هؤلاء الناس ، لتعلمى أنهم اليوم كما كانوا عند أول استيلاء الإنجليز عليهم ، عرياً وجهلا وفقراً وهمجية ؛ فماذا صنع لهم الإنجليز إذن ؟ ... ولم أدع الفرصة تمضى حتى شرحت لهم كذلك فظائع الفرنسيين فى بلاد المغرب . ليعلموا كيف يمنع حماة الحرية الإنسانية دخول الصحف العربية والكتب العربية فى بلاد المغرب ، بل كيف منعت فرنسا إعانة القمح التى أرسلتها مصر إلى مراكش منذ بضع سنين حين اجتاحتها مجاعة ، لأن الفرنسيين يفضّلون أن يموت المراكشيون جهلا وجوعاً على أن يشعروا بأواصر القربى بينهم و بين سائر البلاد العربية .

وانتقل الحديث بعد ذلك إلى نقد التربية والتعليم فى أمريكا ؛ وكان السيد « ش » من أقسى الناقدين . زاعماً أن مستوى الجامعىّ فى أمريكا أدنى منه بكثير فى انجلترا وفرنسا وألمانيا ، وهى بلاد عاش فيها سنوات طويلة جداً من عمره ... وقد ذكروا جميعاً أن حكومة الولايات المتحدة قلقة من الضعف العلمى بين الطلاب ، فهنالك سطحية علمية بين المتعلمين لا شك فيها ... ثم عاد السيد « ش » إلى الحديث ، وقارن الأمريكيين بالألمان وعمقهم فى البحث ، قائلا إن الألمان لا يزالون يحافظون على النظرية التى سادت العصور الوسطى — وهى النظرية الصحيحة فى رأيه — من أن واجب رجال العلم أن يبحثوا العلم فى ذاته ، بغضّ النظر عن جانبه التطبيقى ؛ أما هنا فى أمريكا فقد ألهاهم التطبيق وسرعته عن التعمق فى البحث النظرى لذاته .

فاعترضتُه قائلا : وكيف يمكن التطبيق بغير سابق علم نظرى ؟ لكننا لم نوفّ

هذا الاعتراض حقه من الحديث ؛ ثم سألتُ قائلا : بماذا نعلل نزوع الألمان إلى التعمق العلمى ؟ فأجابنى السيد « ش » بقوله : إنها فى الحقيقة نزعة إلى التصوف ؛ فلماذا يزهد الحكيم الهندى عندكم (السيد « ش » يعلم جيدا أنى مصرى ولست بهندى ، لكن الشرق كله كثيرا ما يختلط فى الأذهان بعضه مع بعض) فينصرف عن شواغل الدنيا إلى جمع الحكمة لذاتها ؟

ولعل أعلى قمة ارتفع إليها حديثنا كانت حين انتقلنا إلى الأدب الأمريكى ، وهل له مميزات خاصة به ، وقد سألنى هذا السؤال السيد « ه . ه » بمناسبة قولى لهم إن الفن الأمريكى لا يتميز عن الفن الأوربى ، فهو امتداد لمدارسه واتجاهاته ؛ فقلتُ : إنى فى الحقيقة لم أقرأ من الأدب الأمريكى إلا مجموعة من قصص قصار ، بالإضافة إلى التعليقات النقدية التى تنشر عن الكتب الجديدة ، وأستطيع أن أقول فى حدود هذا العلم الضئيل إن الأدب الأمريكى له مميزاته ، التى من أهمها أن يدور التحليل حول أشخاص عاديين فى ظروف عادية من الحياة ، وسرعان ما انتقل الحديث إلى المسرحية ، لأننى ذكرتُ شيئا مما قرأته عن مسرحيات يوجين أدنيل : وهنا دارت المناقشة الجيدة بين السيد « ش » فى ناحية ، و بينى أنا والسيد « ه . ه » وزوجته « ب » فى ناحية أخرى : فنحن نقول إن المأساة قد أصبح لها معنى جديد يختلف عن معناها على يدى شيكسبير ، وهو أن يكون البطل رجلا عادياً أو امرأة عادية ، ولم تعد هنالك ضرورة إلى أن يكون البطل ذا مكانة عالية فى المجتمع ، نتيجة للديمقراطية السائدة التى سوَّتْ بين الأشخاص فى القيم إلى حد كبير ، حتى إن اختلفوا فى المناصب والثروة ··· لكن السيد « ش » أجاد الدفاع عن وجهة نظره إجادة منقطعة النظير : قائلا إننا لم نعد نكتب المأساة على نحو ما كتبها شيكسبير عجزاً منا لا بسبب تغير الظروف الاجتماعية : إنه يستحيل على المأساة أن يتم معناها الأدبى إلا إذا كان البطل « نبيلا » ثم هوى : فليست المسألة مسألة اختلاف فى معنى الكلمة بحيث نقول إن كلمة « مأساة »

كان معناها كذا أيام شيكسبير ، وأصبح معناها كذا فى أيامنا : بل لبُّ المسألة هو أن فى الفطرة الإنسانية نزوعا غريزيا نحو « النُّبْل » تعجب به ثم تأسى له حين يهوى : إننى إذا قرأت مأساة عن رجل مثلى فكل ما يحدث هو أن أعطف عليه وأشاركه الشعور بالحزن : لـكن الوجدان الأساسىّ فى المأساة هو سقطة الرفيع — وليست ذلك مجرد عطف على ما أصابه ومشاركته فى حزنه — بل هو ميل فى الطبيعة الإنسانية نحو أن ترتفع وأن تأسى إذا هَوَتْ . . إننا نحن المسيحيين قَدَّسْنا المسيح لأنه أشبع بقصته ميلا فطريا فينا ، وهو رغبة التكفير عن الخطيئة: وكذلك بطل المأساة يشبع فينا ميلا فطريا على هذه الصورة عينها ... لقد أجاد شيكسبير تصوير فولستاف — مثلا — كما أجاد تصوير هنرى الرابع فى مسرحية واحدة ، فلماذا لم يجعل فولستاف بطل الرواية ؟ كان هذا مستحيلا عليه لأنه ينقض فكرة المأساة فى صميمها : فمصير فولستاف مهما ساء ، لا يشبع فينا ما يشبعه مصير هنرى الرابع — كأنما المتفرج على الرواية يقول لنفسه : أنا مثل فولستاف ، فليس مصيره بما يهمنى ، لـكن أين أنا من هنرى الرابع ؟ فلأتعقَّبْه بنظرى إلى حيث هو فى ارتفاعه حتى ، إذا ما هوى كان لهوِيِّه حسرة تختلف فى طبيعتها عن مشاركة فلولستان فى أساه إذا تأسّى لسوء أصابه .

فقال السيد « هـ . هـ » : خذ مثلا رواية « من هنا إلى الأبد » فالبطل فى هذه الرواية جندى بسيط ، وأصابه ما أصابه من عنت ، فترى المتفرج يحزن لمصابه أشد الحزن ، لأن ذلك الجندى رياضى ونحن شعب يمجد الرياضة : وإذن فمعنى العظمة قد تغير فى أنظارنا ، نتألم للرياضى يصيبه السوء أكثر مما نتألم للملك يهوى عن عرشه ... فوافقتُه أنا بقوة لأننى شاهدت الرواية وأدركتُ فيها هذا المعنى ، أما السيد « ش » فقال إنه لم يشهدها ، ولذلك يحسن بنا أن نبحث عن مثل آخر .

ثم أضفتُ أنا نقطة نظرية إلى الموضوع ، فقلت : إن التحليل النفسى منذ فرويد قد ساعدنا على كشف الخبيء من النفس البشرية ، فكنا بمثابة من هتك

الستر عمن كانوا موضع رفعة ، وبهذا يسقط جانب هام من مقومات . المأساة عند شيكسبير ، حين عرفنا أن الرفيع فى ظاهره قد يكون مدفوعا فى حياته بأحط الدوافع . . . لكن أحدا لم يعلق على هذا الرأى ، وانتقل الحديث عن مصر فى ثورتها الحاضرة .

الأحد ٢١ فبراير :

أزحت الستار عن النافذة فرأيت سحابا من فوقه سحاب ، وفوق السحاب سحاب ... ظللت فى غرفتى حتى جاءنى الدكتور « هـ . و » ظهراً ليستصحبنى إلى داره فى سيارته حيث دعانى إلى الغداء مع أسرته ؛ وقد كانت جاءتنى الدعوة عن طريق زوجته التى تحضر لى محاضراتى فى الفلسفة الإسلامية .

وجاء مع الدكتور « هـ . و » ابنه الصغير ، فى نحو التاسعة من عمره ، أعجبنى طلاقته فى الحديث وجرأته ؛ قال لى حين ركبت معهما السيارة إن مدرستى بالقرب من منزلك وأنا أقطع الطريق بين منزلنا والمدرسة مشياً ؛ فسألتُه وكم من الزمن يستغرق منك هذا الطريق ؟ فقال : خمس عشرة دقيقة لو كنت ماشياً ، وخمس دقائق لو كنت جارياً ، وأكثر من خمس عشرة لو قابلنى فى الطريق أحد أصدقائى واستوقفنى ليتحدث إلىّ فى شىء ! ... فلم يسعنى إلا أن أضحك لهذه الإجابة العجيبة يجيب بها هذا الطفل الصغير .

قال لى الدكتور « هـ . و » — مشيراً إلى ولده هذا — عندما وصلنا إلى داره واستقبلتنا زوجته : عندنا ثلاثة أطفال ، هذا أوسطهم ، وأصغرهم مريض فى الفراش ، وأما أكبرهم فمشغول الآن فى بيع الجرائد ، وعشمى أن يوفق إلى الحضور فى موعد يتيح له أن يراك ... هذا الولد الأكبر الذى يبيع الجرائد عمره اثنا عشر عاما ، هو تلميذ فى مدرسة ابتدائية ، لكنه يستغل فراغه فى توزيع الجرائد ، فإذا لاحظنا أنه ابن أستاذ ، بل رئيس لقسم بأسره من أكبر أقسام الجامعة لمسنا فارقا

من أهم الفوارق وأعمقها بين هذا الشعب العامل النشيط و بين أى شعب آخر ، دع عنك مصر وسائر بلاد الشرق التى لم يخلقها الله للعمل .

كان مدعواً معى مدرّس فى الجامعة شاب وزوجته ، وكان أهم ما تحدثنا فيه بعد الغذاء الروح الفنية بين الأمريكيين بالقياس إلى شعوب أخرى كأهل الصين واليابان — وقد كان الدكتور « هـ . و » يدرّس فى الصين لبضع سنوات ومعرفته بالشرق الأقصى واسعة عميقة دقيقة .

فذكرتُ لهم فيما ذكرتُ من ملاحظاتى أن الأمريكيين لم ينشئوا فناً خاصاً بهم ، وأنهم تابعون للاتجاهات الفنية الأوروبية ، بل اجترأتُ بعد طلب المعذرة من السامعين أن أكون صريحاً ، فقلت إن الفن لا يتغلغل عميقاً فى حياة الأمريكى ؛ فالأمريكيون بصفة عامة يضيفون الفن إلى حياتهم إضافة من خارج دون أن تمس منهم القلب والصميم ، فترى الرجل منهم وقد أثرى وجمع الملايين ، دون أن يعيش حياة فيها التفات جادّ إلى الفن ، تراه يشترى بكذا مليوناً من الدولارات صوراً أو تماثيل يهديها إلى هـذا المتحف أو ذاك ، كأنما يكفّر بهذا عن خطيئة إهماله الطويل للفن فى حياته العادية اليومية ؛ وضربتُ مثلا آخر يوضّح هذا الاتجاه ، وهو إقامة « المناسك » فى شمال مانهاتن فى نيويورك ، إذ جاءوا بجدرانها وسقوفها وسائر أجزائها من مواضع مختلفة بأوروبا وأقاموها على أرضهم ليكون لهم كما للبلاد القديمة أثر قديم ! وكذلك ذكرتُ نبأ الدّيْر القديم الذى اشتراه ثرىٌّ أمريكىٌّ من أسبانيا ونقله حديثاً جداً إلى فلوريدا بعد أن فُككتْ أجزاؤه حجراً حجراً ونُقلت وأعيد بناؤها ، ثم جعلت متحفاً يدخل إليه الزائرون بأجر معلوم ليستعيد الثرىُّ ماله وزيادة ... وسألتُ الحاضرين قائلا : هل وجود هذين البناءين على أرض أمريكية يدلّ على روح فنى فى أمريكا ؟ ! إنهما أضيفا إليها من الخارج ، ولم تنبع من نفوسهم الداخلية تعبيراً عن خوالجهم ومشاعرهم ، وهكذا الفن فى أمريكا يُشْتَرَى أكثر مما يكون جزءاً من الحياة ؛ إنه لا يستساغ شفطة

شفطة مع أيام الحياة وساعاتها ، بل يُجتلب اجتلاباً بالجملة كأنه سلعة من السلع التى تباع فى أسواق الجملة .

ذكرتُ فى هذه المناسبة مقالا قرأته عنوانه « أمريكا والفن » لكاتب أمريكى ناقد اسمه « لويس كرونِنبِرْجَرْ » يقول فيه إن الأمريكيين ليسوا شعبا فنيا كأهل الصين واليابان وفرنسا ؛ وذلك لأن الأمريكىّ منبسط وليس هو بالمنطوى على نفسه ؛ فانبساطه النفسىّ يخرجه من حدود نفسه ، ومن ثم يكون رجل أعمال ولا يكون فنانا ؛ يكون مخترعا للآلات لكنه لا يكون راسما للصور ولا ناحتا للتماثيل ؛ فذلك أمر طبيعى ما دام الأمريكىّ يرى أمامه قارة واسعة تنتظر من يكشف كنوزها ويستغلّ مكنونها ؛ وإذن فهو مشغول بالمغامرة والكشف فى خارج نفسه ، وليس هناك ما يدعوه إلى الانطواء على دخيلة نفسه ... إن الفن لا يوجد إلا حيث تقل الموارد الطبيعية ، فعندئذ « يتفنّن » الإنسان فى القليل الذى عنده ؛ خذ مثلا المرأة الفرنسية ، فهى أقدر نساء الدنيا اختيارا للزينة والثياب ، وذلك لأنَ الطبيعة قد سلبتها جمال الفتيات الطبيعى ، الذى تراه مثلا عند الانجليزيات والأمريكيات ، فراحت « تتفنن » فى القليل الذى عندها ... عند الأمريكيين وفرة طبيعية ، فليسواهم بحاجة إلى أن يستعيضوا عن الطبيعة فنا ، وعن المادة الحقيقية صورة ، وعن الموضوع الحىّ خيالا ووهما .

فوافق الحاضرون على ضحولة الحياة الفنية فى أمريكا ، وأخذ الأستاذ الداعى وزوجته يشرحان لنا كيف يكون الفن جزءا من حياة الصينى أو اليابانى ؛ ومما يدل على هذا الاندماج التام بين الحياة والفن أنهم يكتبون كتاباتهم العادية بفرجون الفنان ؛ فإذا اشتريت من الدكان شيئا ، وكتب لك البائع « فاتورة » بما اشتريت ، كتبها بفرجون وبنوع من المداد يستحيل إزالته وتكاد تكون القاعدة أن يخطّ الكاتب خطوطه بالفرجون دون أن يخطئ فى خطّ واحد ... إن الصينى إذا رسم ، فلا يأخذ ألوانه وعُدّته ليجلس بها أمام ما يريد تصويره ؛

بل تراه يجلس وحده فى المنظر الذى يريد تصويره ، يجلس هناك ناظرا متأملا أياما ، بل أسابيع ، حتى إذا ما امتلأ بموضوعه ، رسم الصورة فى بضع دقائق ؛ فتراه يجلس على الأرض فى غرفته ، ويخطط بالفرجون ، فإذا الصورة هناك ، صورة الطبيعة التى شربها شربا ، لا كما هى فى الواقع المحسّ ، بل كما امتزجت فى نفسه .

وجاء ذِكْر الفن العربى ، فقال لى الشاب مدرّس التاريخ : إننى زرت أسبانيا ولفت نظرى فى الآثار الفنية العربية هناك أن ليس بينها رسوم تصور الحياة ، أعنى أننى لم أر على الجدران أو السقوف رسما لطائر أو حيوان وكل ما رأيته هناك من الطبيعة المرسومة النجوم وما إليها ، فبماذا تعلل ذلك ؟ فكنت فى إجابتى صريحا ، لم تأخذنى النعرة الوطنية الدينية ، فقلت : أولا كان الدين يحرم إخراج الأحياء فى نحت أو تصوير ، وثانيا وهو الأهم ، لم يكن العرب بأصحاب ذوق فنى إلا فى شعرهم ؛ كانوا صنّاعا ولم يكونوا بفنّانين ، يستخدمهم السلطان أو الغنىّ ليبنوا له المسجد أو المنزل ويزخرفوه له ، فلم يكن عند الفنان شىء خاص يضطرب فى نفسه ويريد التعبير ؛ كان الفنان « يصنع » كأى صائغ أو نجار . . . نعم كانت صناعته على درجة كبيرة جدا من المهارة ، لكنها صناعة على كل حال ، تتم فى الخارج ولا ترنُّ بأصداء النفس الداخلية .

الجمعة ٢٦ فبراير :

قرأت فى مجلة « أتلانتك » لشهر مارس مقالا جيدا جدا فى موضوعه ، كتبه « هارولد ستوك » الذى كان مديرا لجامعتى نيوها مبشير ولويزيانا ، وهو الآن عميد لكلية الخريجين فى جامعة وشنطن بمدينة سياتل : والموضوع هو موقف الجامعات إزاء الطلبة الذين يشتركون فى الألعاب الرياضية اشتراكا يصرفهم عن المحاضرات العلمية .

وقبل أن ألخص هذا المقال الممتاز من حيث طرافة الفكرة ، لا بد أن أذكر ما يستحيل أن يعرفه من لم يأت إلى هذه البلاد ، وهو مدى اهتمام الناس بالمباريات الرياضية ؛ سيقول القائل : لكن أليست هذه هى الحال أيضا فى انجلترا مثلا ؟ فأجيب قائلا : لا وألف مرة لا ؛ فقد كتبت فى يومية سابقة ، يوم أن قامت مباريات الكرة بين جامعة كارولانيا الجنوبية فى كولمبيا و بين كلية كِلِمْسُنْ فى نفس الولاية ، كيف وجد الناس يومئذ فى المطاعم والدكاكين والشوارع يتحدثون عن المباراة ونتيجتها كأنهم يتحدثون عن أخبار حرب قائمة ، أو كما يتحدث المصريون فى القرى عن أسعار القطن وقت حصاد القطن . . .

ففى هذه البلاد ملاعب عامة يجتمع فيها المتبارون من الجامعات ، وأهمّ هذه الملاعب يقع فى ولايات الجنوب ، وذلك لدفئها فى الشتاء ، فبذلك تجتذب ألوان الناس من أنحاء أمريكا كلها ليقضوا عطلة فيها متعة الجو الدافىء ومتعة التفرج على المباريات ؛ ومن أهم هذه الملاعب أربعة : وعاء الورد ، ووعاء السكّر ، ووعاء القطن ووعاء البرتقال . و إنما يطلقون على الملعب « وعاء » لأنه يشبه الوعاء فى تكوينه ، فله قاع هو أرض اللعب ، وجدران منحدرة حول القاع هى التى تُرَصُّ على جنباتها صفوف المقاعد ؛ ثم يصفون «الوعاء» بأهم محصول فى منطقته، ومن ثمّ يصفون « وعاء القطن » و « وعاء البرتقال » الخ . . ومما يعين على تقدير أهمية المباريات الرياضية بين الجامعات أن مدرّب الفرقة يتقاضى عادة أكبر راتب فى الجامعة كلها ، قد يساوى فى راتبه مدير الجامعة وقد يفوقه أحيانا، ذلك لأن الجامعة تعلق أهمية كبرى على كسبها للمباريات لما فيها من كسب مالىّ وذيوع للشهرة ؛ ولذلك ترى الجامعات تتنافس منافسة حامية على اجتذاب الرياضيين المعروفين إليها ، حتى لقد يصل الأمر إلى رشوة هؤلاء اللاعبين بالمال .

كتب هذا الكاتب مقالته الجريئة فى تفكيرها ، ليردّ بها على ألسنة النقد التى لا تفتر فى كل جامعة بين الأساتذة والطلاب جميعا ، معبّرة عن القلق الشديد

الذى يساورهم : لماذا يعامَلُ اللاعبون فى الجامعة معاملة فيها محاباة ؟ لماذا تتساهل الجامعة معهم عند تقدير مستوياتهم العلمية ؟ وهكذا . . فقال هذا الكاتب ما خلاصته : إننا يجب أولا أن نضع أمامنا مقدمة أولية نبنى عليها تفكيرنا ، وهذه المقدمة هى أن اللاعبين الرياضيين فى الجامعة قد تغير وضعهم عن ذى قبل ؛ فبدل أن كانت المباريات المدرسية مقصوداً بها تربية الطلاب ورفاهيتهم ، أصبحت اليوم وسيلة لتسلية الجمهور ، كأى فرقة مسرحية . . الجمهور الأمريكى الآن يدفع ملايين الدولارات ليتفرّج على المباريات بين الجامعات وأصبحت هذه الملايين جزءا رئيسيا فى الإنفاق على التعليم ، ثم أصبح من واجبات الجامعة الإجتماعية أن تقدم للجمهور هذه التسلية ، و إذن فالنتيجة هى أن نفرق فى أذهاننا تفرقة تامة بين اللاعبين الرياضيين فى الجامعة و بين سائر الطلبة ؛ أعنى أن اللاعبين الرياضيين لا يعدّون طلابا و إن كانوا يعدّون من أبناء الجامعة التى ينتسبون إليها ؛ فليس كل من ينتمى إلى الجامعة طالبا ، فهناك الأستاذ ، وهناك الإدارىّ ، وهنالك من يقوم بأبحاث علمية دون أن يكون فى هيئة التدريس ولا فى جماعة الطلبة ، وهنالك الرياضى الذى يلعب باسم الجامعة ليشهد الجمهور اللعب فتكسب الجامعة مالاً من جهة وتهئ للجمهور تسلية يحبها من جهة أخرى .

إن موقف الجامعة من الرياضيين يختلف فعلا عن موقفها من الطلبة الآخرين ، فلماذا نحاول جعل الفريقين نوعا واحدا ؟ تقبل الجامعة الطالب العادى لتعلّمه ما لم يكن يعلم ، لكنها تقبل الرياضى لأنه بالفعل يعلم ما يعلمه من مهارة فى اللعب ؛ الطالب العادىّ يتعلم فى الجامعة شيئا سيفيده و يفيد المجتمع بعد تخرجه لا أثناء وجوده طالبا فى الجامعة ، أما الرياضى فيمارس شيئا ينفع المجتمع أثناء وجوده فى الجامعة لا بعد تخرجه ؛ بل قد يبطل النفع بعد التخرج ؛ وظيفة الجامعة هى أن تخدم الطلبة العاديين ، أما الرياضيون فهم الذين يخدمون الجامعة التى ينتسبون إليها . . فنتيجة هذه الفوارق كلها هى أن الطلبة العاديين نوع ، والرياضيين نوع

آخر ؛ تراعى فى النوع الأول مبادئ التربية ، وتراعى فى النوع الثانى مبادئ الأعمال فى سوق التجارة ؛ إن الألعاب الرياضية مورد كسب كبير لمعاهد التعليم ، فقد كسبت معاهد التعليم هذا العام (١٩٥٣ / ٥٤) من المباريات مائة مليون من الدولارات ؛ إن الجمهور لا يعلم ، وربما هو لا يريد أن يعلم من الذى عُيِّن مديرا للجامعة فى بلده ، لكنه يهتم كل اهتمام لمن يعين مدرِّبا للفرقة الرياضية ؛ الفرقة الرياضية فى الجامعة كأى فرقة مسرحية مثلا ، تلعب للناس ، فتكسب الشركة التى تلعب الفرقة باسمها ؛ وإذا لم يكن الأمر كذلك ، فلماذا تعقد الجامعات الأمريكية أكبر مبارياتها فى ملاعب الجنوب فى فصل الشتاء ؟ أليس معنى ذلك أنها تضع عينها على المشاتى التى يقصدها الناس فتلعب لهم هناك فى مشاتيهم لتستدر منهم مالاً ؟ إذن فهى تنظر إلى الأمر نظرة مدير الملهى حين يتعقب المتفرجين فى مصايفهم أو مشاتيهم ؛ فخطأ كبير أن نطالب القائمين بهذه « الملاهى » الرياضية باسم الجامعة بتحقيق شروط هى نفسها الشروط التى نطالب بها الطلبة العاديين ،

فإذا كان رجال التربية قد حيَّرهم التوفيق بين مقتضيات التربية وبين حياة الرياضيين من طلاب الجامعات ، فذلك لاضطرابهم فى التفكير وغموضهم فى تحديد الأغراض ؛ أما إذا وضَّحوا الأمر لأنفسهم على هذا الوجه ، زال الإشكال ؛ فالتربية ومبادئها للطلبة العاديين ، والمطلوب مبادئ أخرى لنوع آخر من الناس ، هم اللاعبون الرياضيون ؛ إنهم يظنون أنه ما دام اللاعبون قد أتوا مع سائر الطلاب من المدارس الثانوية ، ودخلوا معهم جامعة واحدة ، وهم يتساوون مع هؤلاء فى السن ، فلا بد إذن أن يكون الجميع صنفاً واحداً خاضعاً لشروط بعينها ؛ لكن لا ، فبين النوعين فرق فى العمل الذى يؤدَّى وفى الغاية المقصودة ؛ إن كان المطلوب من الطلبة العاديين أداء امتحانات والحصول على درجات الخ ، فالرياضيون لم يأتوا

إلى الجامعة طلباً للعلم كسواهم ؛ إنهم ليسوا بحاجة إلى علم ، بل تدريب ... لماذا يقلقنا المستقبل العلمى لشاب دخل الجامعة ليلعب الكرة ؟ قبلته الجامعة على هذا الأساس ، وهو التحق بالجامعة على هذا الأساس ؛ فالجامعة والطالب متفقان معا على الهدف ، فما مبرر القلق على تحصيله العلمى ؟ فلنتذرع بالشجاعة فى تفكيرنا ، ونعترف بأن الجامعة قد قبلت اللاعب الجيد لأنه لاعب جيد لا لأنه طالب جيد ؛ وعلى هذا الأساس ينبغى أن تكون معاملته بغير قلق أو تردد .

ولو أراد لاعب رياضى أن يكون طالباً علمياً إلى جانب ذلك ، فلا مانع طبعاً ، لكننا عندئذ نحمّله تبعة ذلك ، سنطلب منه ما نطلبه من اللاعبين ، فإذا وجد أن التدريب المطلوب يستحيل أن يساير المحاضرة والمذاكرة ، فعليه أن يختار : إما لاعب أو طالب — وقد يقول قائل : ماذا تريد ؟ أتريد أن نقبل هؤلاء اللاعبين بغير شرط ؟ والجواب هو : الشروط لقبولهم يضعها مدربو الألعاب ومنظمو المباريات ولا شأن لهيئة التدريس بها .

الطبيب الجيد هو الذى يراجع تشخيصه للمرض إذا وجد أن الدواء لم يفلح ، والعالم الجيد هو الذى يراجع النظرية العلمية إذا وجد أنها لا تفسر الظواهر التى يريد تفسيرها ، وكذلك رجل التربية الجيد هو الذى يغير رأيه فى قواعد التربية إذا وجد أن ظروف الحياة قد تغيرت ، وقد تغيرت الظروف فى أمريكا من حيث أن الفرق الرياضية ؛ أصبحت فِرَقا لتسلية الجمهور ، فعلى هذا الأساس الجديد ينبغى أن نعيد إليها النظر .

* * *

تقع بين محاضرتىّ ساعة من فراغ ، قضيتها فى نادى الأساتذة أشرب فنجاناً من القهوة ، فلما كنت فى طريقى إلى هناك ، قابلت الدكتور « ف . ب » هذا العالم الجليل الشيخ ، الذى كان رئيساً لقسم الفلسفة ثم تقاعد ، وهو يحضر لى محاضراتى بغير تخلف ؛ قابلته فى طريقى إلى نادى الأساتذة ، فدعوته أن يحتسى

معى فنجاناً من القهوة ... وكان بين ما قاله لى ونحن جالسان فى النادى : إننا نحن الأمريكيين نعيش تحت ضغط فكرى لم نشهد له مثيلا ، إن رجلا واحداً مثل ما كارثى بمحاكاته وتحقيقاته قد أحدث فينا جميعاً نوعاً من الرعب والفزع ، فأصبح كل إنسان منا جباناً فى تفكيره السياسى ، فلا يجرؤ أحد مثلا أن ينطق بكلمة عن الشيوعية ... ثم مضى الدكتور الفيلسوف يوجه النقد المر للحالة الفكرية التى تسود أمريكا ، ووصفها بالتفاهة والسطحية ، قال : إن نفسى لتموع كل صباح حين أقرأ الصحيفة اليومية ، تموع نفسى مما أرى فى الصحيفة من تفاهات وسخافات ؛ ... ثم أشار إلى صحيفة فى يده ، وكان فى صدرها عنوان بالخط الكبير ، هو : « لنعدْ إلى الله . هكذا يقول أيزنهاور » (وهى عبارة وردت فى خطبة ألقاها أيزنهاور أمس) قال الدكتور : انظر مثلا إلى هذا العنوان « لنعد إلى الله — هكذا يقول أيزنهاور » وحلِّلْها تجد سخف العقل كامناً وراءها ؛ فهل نعود إلى الله لأن أيزنهاور يقول لنا ذلك ؟ هل ترجح كفة الإيمان بالله لأن أيزنهاور قد آمن ؟ أم ماذا يريد هـذا الصحفىّ الذى نشر عنوانا ضخما كهذا يستوقف به الأنظار ؟ بل ماذا يريد أيزنهاور نفسه بعبارة كهذه يسوقها فى خطاب سياسى ؟ أهو حاكم أم قسيس واعظ ؟ أم أن الأمر كله تهريج فى تهريج ؟ !

وقلت للدكتور « ف . ب » فى مناسبة أخرى من سياق حديثنا : إننى أزداد إيماناً بأن المرأة أقوى من الرجل شخصية مهما بدا من الظواهر التى تدل على غير ذلك ؛ وبرهانى هو : إفرض أن رجلا وامرأة يحب أحدهما الآخر بقدر متساوٍ ، ثم اختلفا على أمر ، أليس الأرجح جداً أن يذعن الرجل آخر الأمر للمرأة فى رأيها ؟ فقال الدكتور ضاحكا : حدث منذ قريب أن اختلفت مع زوجتى على لون السجادة التى نشتريها : هى تريدها خضراء ، وأنا أريدها حمراء ؛ واشتد الخلاف بيننا واحتدّ العناد رغم تفاهة الموضوع ؛ فلما رأيت الأمر بينى وبينها يسير من سىء إلى أسوأ ، وافقتها على اللون الأخضر ، وسميتُ تصرفى هذا عندئذ

« توفيقاً بين وجهتى النظر » مع أنه لا توفيق هناك ، فهزيمتى صريحة ونصرها قاطع .

السبت ٢٧ فبراير :

يوم مشمس جميل . جلست ساعة الضحى مع شاب أمريكى فى مقصف نادى الاتحاد ؛ فأنبأنى بأنهم افتقدونى ليلة أمس فى الاجتماع الأسبوعى الذى ينعقد فى منزل الدكتور « ف . ب » فأسفت لذلك أسفاً شديداً ، لأنى نسيت الموعد ، فلم يكن أحب إلىّ من هذا الاجتماع بما يسوده من دفء العاطفة وارتفاع التفكير ... سألته : وماذا كان موضوع المناقشة ليلة أمس ؟ فقال : قرأ علينا أستاذ الاجتماع بحثاً فى ضرر الموجة المكارثية التى تطغى على البلاد الآن وتهدد حرية الرأى فيها تهديداً خطيراً ؛ وهنا تحدثت مع الشاب — هو مدرّس ويحضر فى الوقت نفسه رسالة الدكتوراه — فى مدى الحرية التى يجوز أن يسمح بها لسواد الناس فى تبادل الآراء ؛ وكنت متحفظاً فى رأيى لأننى ضيف على البلاد فلا يجوز أن أقول ما عساه أن يعدّ نقداً جارحاً ؛ غير أنى ذكرت له مقالة قرأتها فى مجلة « بوست » لهذا الأسبوع ؛ كتبها المحرر نفسه ليفتتح بها العدد ، ورد فيها أن أستاذاً فى جامعة منسوتا قد ألقى بحثاً علمياً فى الاقتصاد انتهى فيه إلى أن الأسعار يجب أن تحدَّد فى بعض الحالات ؛ فشمّ بعض أولى الأمر فى هذا البحث رائحة الشيوعية ، فقدموه إلى لجنة جامعية تحاكمه ، لكن الجامعة انتهت من المحاكمة بإعلان براءة الأستاذ الباحث ، معلنةً بأنها تريد أن تجعل نفسها مركزاً لحرية البحث العلمى ، وبعد أن انتهى محرر المجلة من عرض الأمر على هذا النحو . أدلى برأيه ورأى مجلته ، وهو أن الجامعة قد خلطت الأمور وضلّتْ سواء السبيل ، فحرية الرأى — فى نظر المحرر — حق مباح ندافع عنه ، لكن لا إلى الحدّ الذى يجعلنا نعتنق مبادئ تنتهى آخر الأمر إلى هدم الحرية نفسها التى ندافع عنها ، ولهذا فرأى المحرر هو أن الأستاذ كان ينبغى فصله من الجامعة جزاء ما أذاع من نتائج خطيرة على الحرية!

لا شك عندى أن هذا تعنت وتزمت ، وقد كان آخر ما أتصوره عن أمريكا أن يقيد فيها الرأى العلمى إلى الحد البعيد .

***

جاء إلى غرفتي ساعة العصر الدكتور « ك » وهو صاحب المنزل الذى أسكن غرفة فيه ، وسألنى إن كنت أحب أن أرافقه هو وزوجته فى رحلة بالسيارة إلى مدينة لِوِسْتُن — وهى تبعد عن مدينة بلمان ثلاثين ميلا — فرحبت بالدعوة شاكراً .

هذه أول مرة يحدثنى فيها الدكتور « ك » منذ قدومى ، مع أننى أسكن معه فى منزل واحد ! إنه شاذ بغير شك ، وكنت قد بدأت أكرهه لأنه لم يتعمد زيارتى طول هذه المدة ، بل كنت ألاحظ أنه يتجنب لقائى إذا وجد أن المصادفات قد تؤدى إليه ! . . هو خنزيريُّ الملامح ، يقفز فى مشيته قفزاً لا رشاقة فيه ، وكنت حكمت عليه من هيئته بالغباء ؛ لكنى وجدته اليوم أثناء حديثى معه خلال رحلتنا بالسيارة ، من أحدّ الناس إلتفاتا إلى ثنايا الحديث ، ودقة فى المعلومات ، ومنطقاً فى الردّ والاعتراض .

جلسنا — الدكتور « ك » وزوجته وأنا — فى الكرسي الأمامي من السيارة ، والشمس لا تزال مشرقة والجو ما زال شفافاً والرؤية فسيحة الأفق ؛ الأرض أمواج من تلال هى رؤوس الجبل ؛ والذى لم أكن أتخيله قبل أن أراه ، هو أن تكون هذه الأمواج الجبلية كلها مزروعة قمحاً ، ولم تألف عيني أن ترى القمح مزروعا على سفوح جبلية ليس فيها أدوات الرى ولا قنوات الصرف ؛ فالمنظر يختلف اختلافا بعيداً عن منظر حقول القمح عندنا فى مصر .

تحدثنا فى موضوعات عدة ، منها أن سألنى الدكتور « ك » عن رأيى فى انجلترا وسياستها ، قائلا إنه شخصياً من المدافعين المتحمسين عن كل ما هو إنجليزى

فقلت له فى انفعال شديد إن انجلترا فى سياستها الاستعمارية هادمة للمدنية ، وأخذت أعرض الأمر كما أراه ، لولا أن زوجته انحرفت بالحديث ، ولا أدرى أكانت متعمدة أم جاء ذلك عفواً ، فسقط الموضوع وبدأنا غيره وغيره .

انتهزتُ فرصة إدراكى لدقة هذا الرجل فى معلوماته ، فسألته عن أمر كنت أحب أن أزداد به علماً ، وهو : إذا كان الأمريكيون خليطاً من مهاجرين أوروبيين ، فما الذى جعل المهاجرين الفرنسيين والهولنديين والأسبان يتكلمون الإنجليزية ، بحيث أصبحت الإنجليز هى لغة الأمريكيين قاطبة ؟ فقال : جاء الأمر تدريجاً ، فمرّ على ثلاث درجات : خطوة كان كل قبيل يتكلم لغته الأصلية ، وخطوة ثانية كان الأطفال يتعلمون فيها الإنجليزية فى المدارس ويتكلمون اللغة الأصلية فى المنازل ، وإنما يتعلمون الإنجليزية فى المدارس لكثرة المهاجرين الإنجليز كثرة عددية بالنسبة لسائر المهاجرين ؛ وخطوة ثالثة أصبحت الإنجليزية فيها هى لغة المدارس والمنازل فى آن معاً ... على أن هناك بعض جماعات ظلت إلى زمن قريب جداً تتكلم اللغة الأصلية ، وقال : سأشير لك الآن فى طريقنا إلى بلد سنمرّ عليه اسمه « يونْيَنْ تاون » سكانه من المهاجرين الألمان ، ظلوا يتكلمون الألمانية إلى أن كنت أنا طالباً فى المدرسة الثانوية ؛ والناس فى ولاية نيومكسكو إلى الآن يتكلمون الأسبانية فى كثير من المواضع ، بل إن قانون ولاية نيومكسكو يجعل الأسبانية لغة رسمية إلى جانب الإنجليزية ؛ كذلك فى ولاية لويزيانا لا يزال كثيرون هناك يتكلمون الفرنسية وخصوصاً الكهول .

أشرفنا فجأة على حافة وادٍ عميق جداً ، وواسع ، يلتقى فيه نهران : نهر « سْنيك » (الثعبان) ونهر كلير ووتر (الماء الصافى) فترى من الارتفاع الذى كنا عليه التقاء النهرين ، كما ترى مدينة « لِوِسْتُنْ » فى قاع الوادى ؛ الفرق بين المرتفع الذى كنا عليه ، وجوف المنخفض الذى سنهبط إليه ألفا قدم ؛ والانتقال فى المنظر مفاجىء حتى ليدهش الرائى الذى لا يتوقع أن يرى ما رآه ؛ والنزول من

القمة إلى الوادى يكون على طريق هو معجزة فى تعبيد الطرق : طريق يدور مع السفح فى دوائر وانثناءات ، هابطاً تدريجاً مع دورانه وانثناءاته حتى تصل إلى بطن الوادى ، وعندئذ تدرك انتقالا مفاجئاً فى درجة الحرارة ، ففى الوادى دفء شديد بالنسبة إلى القمة التى هبطنا منها .

ودُرْنا بالسيارة فى أنحاء البلد ؛ كانت « لِوسْتُنْ » غريبة فى عينى حتى لقد أحسست أنى انتقلت إلى عالم آخر لا إلى بلد قريب ، ولعل هذا الشعور مصدره طريقة النزول إليه منزلقين على طريق يذهب ويجىء فى حضن الجبل ، ووقوعه فى جوف إناء من الأرض فسيح القاع جدرانه جبال محيطة بقاعه ... مدينة لوستن قريبة جداً من أحد محابس الهنود الأصليين ؛ فالهنود الأصليون محصورون فى محابس منتثرة هنا وهناك فى أرجاء الولايات المتحدة ؛ وليس معنى انحصارهم فى محابسهم أنهم محرم عليهم الخروج والسفر ، بل معناه أن الحكومة قد اختصت كل مجموعة من مجموعات الهنود الأصليين بمساحة من الأرض يستغلونها دون أن يلتزموا بالضريبة ، ولا يجوز لأحد من البيض أن ينافسهم فى أرضهم تلك ولا ما يقع فيها من أنهار وأشجار وغيرها ، وفى مقابل هذه الحقوق يضيع على الهنود حقهم فى التصويت ، أو بعبارة أخرى يضيع عليهم حقهم فى أن يكونوا مواطنين ؛ غير أن لكل هندى — كما أفهمنى الدكتور « ك » فى هذه الرحلة — الحق فى التنازل عن امتيازاته تلك إذا أراد أن يكون مواطناً له ما للأمريكيين وعليه ما عليهم ، والكثرة الساحقة منهم يؤثرون امتيازاتهم على أن ينخرطوا فى سلك المواطنين .

رأيت ونحن ندور بالسيارة فى أنحاء البلد ، أفراداً من الهنود يسيرون فى الطرقات ، لكنى رأيتهم بالثياب العادية المألوفة نساء كانوا أو رجالا ، وكنت أظن أن الهنود الأصليين لا يرتدون إلا الملابس التى أراهم فيها حين أراهم فى السنما مثلا ، فسألت الدكتور « ك » : أين الريش الذى يتميزون به على رءوسهم

كما ألفناهم في الصور ؟ فضحك وقال : إنهم لا يلبسون ثيابهم الوطنية الأصلية إلا فى مناسبات ، وهم عادة لا يلبسونها إلا إذا تقاضوا أجراً لقاء ذلك ، كأن يلبسوها مثلا لمخرج سينمائى أو نحو ذلك ، و إذن فهى مورد كسب لا أكثر ولا أقل .

وعدنا فصعدنا بالطريق المثنى إلى القمة التى هبطنا منها ، وسرنا فى مرتفعنا شطر مقرنا « بلمان » ؛ وفى طريق عودتنا فتح الدكتور « ك » موضوع الإنجليز واستعمارهم مرة أخرى ، فحدثت بينى وبينه طول الطريق مناقشة بدت فيها سرعة البديهة بالنسبة لكلينا ، فالدكتور « ك » على غبائه البادى فى ملامح وجهه وطريقة مشيته ، عسير فى مناقشته ؛ غير أنى أعتقد أننى كنت أقوى منه حجة ، لا بسبب ضعفه فى المناقشة ، بل بسبب ضعف القضية التى يدافع عنها ، وقضيته هى أن الانجليز قد بلغوا فى استعمارهم حد الكمال ؛ ومن أضعف جوانب مناقشته المثل الآتى ، أسوقه لأدل به على مدى التحيز فى نظرة الإنسان مهما كان عالماً كالدكتور « ك » .

قال : سأترك الآن قناة السويس ، لأن عاطفتك متصلة بها ولا تصح فيها المناقشة ، وأنتقل إلى جبل طارق ، فهل ينكر أحد أن انجلترا قد صانت هـذه النقطة الهامة لصالح العالم كله ؟

قلت : أنا لا أحب الكلمات العائمة المبهمة ، فما معنى « العالم » فى هذا السياق ؟ أيشمل « العالم » الصين والروسيا مثلا ؟ .

قال : لا ، بل الولايات المتحدة .

قلت : كأن تعريف العالم عندك هو بلدك الذى تعيش فيه ؟ .

قال : وما الضرر فى أن أنظر إلى الموضوع من وجهة نظرى ؟ ألا يجوز أن تكون هى أيضاً وجهة نظر « العالم » ؟ .

قلت : إنك تذكر كلمة « العالم » مرة أخرى ؛ هل تظن أن الإسبانى ينظر بنفس هذا المنظار ؟ .

قال : لا ، استثن الإسبان ، تجد غرب أوروبا كله يرى الرأى نفسه .

قلت : ولماذا تجعل غرب أوروبا والولايات المتحدة هما « العالم » ؟ .

وانتقل بنا الحديث إلى الهند ، فقال : إن هنوداً ممن كانوا يسخطون على الإنجليز وهم يحكمونهم ، يعترفون الآن أن الفضل فى تقدم الهند راجع إلى الإنجليز .

فقلت له : لست هنديا لكنى لا أوافق على رأى هؤلاء الهنود ، لأنه يكفى أن تذهب انجلترا إلى الهند وهى وحدة تاريخية جغرافية ، وتخرج منها وهى شعبان يتقاتلان ؛ الهند و باكستان ؛ فقد أبرزت انجلترا ما بينهما من خلاف دينى ، وأغرقت ما بينهما من نقط اتفاق لا تعد ولا تحصى .

قال : لكن هل من شك فى أنهم تركوا هناك القانون الانجليزى ؟ .

قلت : كأن المدنية عندك مرهونة بالقانون الإنجليزى ، وإذن فالولايات المتحدة نفسها بهذا المقياس ليست متمدينة ، ولا فرنسا متمدينة كذلك ؟ .

وهنا وصلنا إلى المنزل ، فشكرت لهما هذه الرحلة التى كانت فى الحق ممتعة من حيث مناظر الطريق ، لكننى لا أستخف دمهما ، وخصوصاً الدكتور « ك » وقد حدَّ هذا بالطبع من متعة الرحلة .

الأحد ٢٨ فبراير :

مرّ علىّ فى الصباح الدكتور « ج » ليأخذنى إلى الكنيسة المنهجية التى دعيت أن أقول فيها للمجتمعين « موعظة » الأحد ؛ وكانت « موعظتى » هى شرح مبادئ الإسلام ! وطريقتى دائماً فى كل الأماكن التى شرحت فيها مبادئ الإسلام أن أبين بوضوح أن اليهودية والمسيحية والإسلام كلها فروع من جذع واحد ، حتى لا يخلط السامعون — كما هم يخلطون — بين الإسلام والديانات المهجية ، ظانين ألا ديانة جديرة بالاحترام إلا المسيحية أولا واليهودية ثانياً ؛ و بعد

أن أشرح كيف تتشابه هذه الديانات السامية الثلاثة ، أبين كيف أن الإسلام إنما جاء يسد النقص الذى فى الديانتين الأخريين ، من حيث أنه جعل الدين عاماً لا خاصاً كما هو عند اليهود ، ثم جعل الله واحداً لا ثلاثة كما هو عند المسيحيين .

ودارت مناقشة بين الفراغ من كلمتى ، فسألتنى سيدة فى نحو الأربعين من عمرها ، سمحة الوجه وعليها بساطة الطهر ونقاؤه (وقد علمت بعد خروجنا من الكنيسة أنها فقدت زوجها منذ خمس سنوات ، ولها خمسة أطفال ، وهى مدرسة لمادة التدبير المنزلى فى أحد أقسام الجامعة لتعول هذه الأسرة الكبيرة) سألتنى قائلة : إذا كان الإسلام قريباً كل هذا القرب من المسيحية كما شرحت لنا ، فكيف تعلل هذا التفاوت البعيد بين الثقافة المسيحية والثقافة الإسلامية ؟ فقلت لها : إننى يا سيدتى رجل فلسفة بصفة عامة ، ورجل منطق بصفة خاصة ، ومدقق فى معانى الألفاظ بصفة أخص ؛ فماذا تعنين بعبارة « ثقافة مسيحية » ؟ الثقافة مُرَكَّبٌ من علم وفن وموسيقى وأسلوب عيش وطريقة بناء للبيوت وارتداء للملابس الخ الخ ، فهل تريدين أن تَصِفِى كل هذا المركَّب المعقد بكونه مسيحياً ؟ ثم ماذا يكون المعنى بعد ذلك ؟ أما إذا أردتِ أن تقولى إن هناك اختلافا فى المركَّب الثقافى بين البلاد التى أضيفت إليها العقيدة المسيحية والبلاد التى أضيفت إليها العقيدة الإسلامية ، أجبتك بأنه خلاف لا دخل للمسيحية أو للإسلام فيه ؛ فلو بدَّلنا الموقف وأعطيناكم الإسلام وأخذنا المسيحية ، لظلت خيوط المركَّب الثقافى فى الجانبين على ما هى عليه تقريباً ؛ أنا لا أقول ألا أثر للدين فى تشكيل وجهة النظر ، بل أقول إن المسيحية والإسلام فى هذا سواء ، فلا اختلاف فى النتيجة بين أن يشرب المجتمع جرعة من مسيحية أو جرعة من إسلام ، ما دام كل منهما فى أساسه ديناً يعتقد فى إله ذى صفات متفق عليها بين العقيدتين .

قالت : لكننا نلاحظ أن المسيحية دفعت الشعوب المسيحية إلى رفع مستوى

معيشتها ، على حين أن الإسلام لم يفعل ذلك فى شعو به فقلت لها : أى شعوب مسيحية تقصدين ، هذه التى دفعتها العقيدة المسيحية إلى رفع مستوى معيشتها ؟ أتكونين مسيحية أكثر من المسيح ذاته ؟ والمسيح لم يأبه بمستواه الاقتصادى ! إنه لم يفكر فى أن تكون له ثلاجة كهربائية وسخان كهربائى وسيارة ! أم المُثُل العليا المسيحية كما تمثلت فى الرهبان والزُّهاد والأديرة والصوامع ؟ وهؤلاء بالطبع هم المسيحية فى أصفى وأنقى صورها ؟ فهل كانت العقيدة دافعة لهم أن يرفعوا مستوى معاشهم ؟ وأنت طبعاً تقصدين برفع مستوى المعيشة هذه البحبوحة المادية من مال ومتاع ؛ إننى لأكاد أقول إنك تزدادين مسيحيةً كلما نزلتِ بمستوى معيشتك ! تزدادين مسيحيةً كلما خشنت ثيابك وهزل مسكنك وقل طعامك كما وكيفا ، تزدادين مسيحية كلما قاومتِ رغبات الجسد — هكذا قال قادة المسيحية من رسل وفلاسفة — وما إشباع رغبات الجسد إلا ما تسمِّينه أنتِ رفعاً لمستوى المعيشة ... إن مستوى المعيشة فى أمريكا قد ارتفع لعوامل فى أرضها من معادن ونبات وحيوان ، لا لأن أهل أمريكا مسيحيون . .

إذن ياسيدتى فلا الإسلام أفقر أهله ولا المسيحية أغنت أصحابها ، بل العكس أولى ، فالمسيحية إن دعتْ إلى شىء من ذلك فهى تدعو إلى الزهد والرهبانية ، والإسلام إن دعا إلى شىء من هذا القبيل فهو يدعو ألا رهبانية ، وأن الدنيا جديرة أن ينظر إليها الإنسان كأنما هو سيعيش فيها أبداً .

قالت : وماذا تقول فى أثر الإسلام فى معاملة المرأة من حيث الحجاب وما إلى ذلك ؟ أليس ذلك ثقافة إسلامية ؟

فقلت : لا ، هذه ثقافة اجتماعية ؛ كان الأمر كذلك قبل الإسلام ، وكان يكون كذلك بغير الإسلام ؛ إنك لو رأيت مسيحياً يأكل بالشوكة والسكين فلا تقولين إن المسيحية دعته إلى ذلك ، بل تقولين إنه أسلوب عيش اجتماعى يأتى عليه أى دين فلا يغيره ... وعلى كل حال فاعلمى أن ليس فى أصول الإسلام

سطر واحد يقضى حتما بحجاب المرأة ، وأن زوجة النبى قد خرجت معه للقتال ، فليس الإسلام مسئولا عن أصول اجتماعية لم يقرها بل عمل على زوالها .

فاعترضت سيدة أخرى ، راجعةً بالحديث إلى نقطة رفع المستوى المعاشى بسبب العقيدة ، قالت : لكنك أفهمتنا أن الزكاة من أصول الإسلام ، وهى إعطاء نسبة معينة للفقير ، فإذا لم يكن الدين عاملا على رفع المستوى الاقتصادى ، فلماذا نعطى الفقير إذن ؟

فقلت لها : إن أقل ما أجيب به هنا هو — على رأى أرسطو — ألا أخلاق بغير حدٍّ أدنى من ظروف مادية ؛ فلكى يصلِّى المتدين فلا بد له من أنفاس يرددها فى الصلاة ، وهذه لا تكون بغير طعام وشراب ؛ فهذا الحد الأدنى هو الذى نراعيه حين نحث على طعام المسكين .

وانتهى الاجتماع وكان لكلمتى ومناقشتى وقعٌ عميق جداً فى نفوس السامعين رأيته فى نظرات الدهشة وفى تحية الإعجاب التى حيونى بها وأنا منصرف .

الجمعـــة ١٩ مارس :

كنا فى منزل الدكتور « ف . پ » عصر اليوم ، فى الاجتماع الأسبوعى الذى يعقده فى داره كل أسبوع ؛ ومتكلمة الاجتماع اليوم هى الدكتورة « س . ش » وموضوعها « العقيدة المسيحية » وذلك ليحدث شىء من التقابل والتوازن مع كلمتى التى ألقيتها فى الاجتماع نفسه يوم الجمعة الماضية عن مبادئ الإسلام ... دار الدكتور « ف . پ » كعهدى بها قد بلغت حد الكمال من حيث الروح التى تشيع فيه أثاثا وكتبا وسقوفا وجدرانا ؛ كل شىء فيه فواح بالعاطفة الإنسانية فى أسمى معانيها وفى شتى نواحيها ، فيه دفءُ القلب إلى جانب الفكر والدراسة ؛ فإذا نسيت تجاربى كلها فلن أنسى السيدة « پ » وقد أحنت الأيام ظهرها تجلس على كرسيها كأنه العرش ، وأمامها أدوات القهوة والشاى ، ونتقاطر إليها هذا يطلب

قهوة وذلك يطلب شايا ، والدكتور الكهل العالم المتواضع « ف . پ » يدور على الحاضرين بوعاء الفطائر التي خبزها هو اليوم بيديه ! .

كانت الدكتورة الفيلسوفة « س . ش » غاية في جرأة التفكير في كلمتها عن المسيحية ؛ فبدأت بقولها إن المسيحية ديانة تعدد لا ديانة توحيد ، وهي لا تعنى فقط تثليث المسيحية ، بل أضافت إلى ذلك كيف يتحدث المسيحيون عن قدّيسيهم ، فهذا قديس خاص برعاية الزرع ، وآخر بالملاحة وهكذا ؛ ثم أخذت تشرح أساس الأخلاق المسيحية كما كانت في العصور الوسطى — وهي أنقى عصورها — وهو الزهد والتواضع وحب الإنسان لأخيه ؛ وسألت قائلة : هل هـذا هو ما يتخلق به المسيحيون فعلا ؟ وهنا راحت تذكر نتائج المسيحية على الحضارة الإنسانية ، فبدأت بقولها إنها كانت سبباً في في الحروب أكثر منها سبباً في السلام ، وأخذت تذكر الحروب والشناعات التي حدثت في أوروبا باسم الدين ؛ ثم انتقلت إلى أثرها على العلوم فقالت إنها كانت نكبة على التقدم العلمى ، وراحت تذكر أمثلة تفصيلية للاضطهاد في دائرة العلم والعلماء ، ثم شرحت فكرة ذكرها فرويد في أحد مؤلفاته ، وهي أن ثلاثة أرباع القوى العقلية عند الناس قد ضاعت بسبب الدين ، ذلك أن الطفل يندفع إلى السؤال عن شيئين في طفولته ، وهما الله والجنس ، فيصده الدين عن المضى في كليهما مضيا صريحاً ، فلا هو يبيح حرية السؤال عن الله بصراحة ، ولا هو يبيح له حرية السؤال عن العلاقة الجنسية وأعضائها ، وبهذا تنطمس الرغبة الطبيعية عند الطفل في السؤال والبحث ، ويتعلم منذ طفولته — بسبب التضييق الديني — أن ينخرط مع الناس في خرافاتهم ؛ واستطردت الدكتورة في ذكر رأى فرويد من أن الدين قد سبب للناس من الشقاء بقدر ما سبب لهم من السعادة ألف مرة ، لأنه كان سبباً في الكبت الجنسى وما يترتب عليه من آثار عميقة تحطم الشخصية وتلويها ... لكن الدكتورة المتحدثة عادت فذكرت للدين بعض فضائله ، ومنها أن الكنيسة قد أتاحت للانسان فرصة انضمامه

إلى جماعة تتعاطف ولو إلى حين ، فيكسبه ذلك شعوراً بالطمأنينة ، ثم كانت العقيدة الدينية حافزة أحياناً على البحث العلمى ، بدليل ما ذكره نيوتن فى كتابه « أصول الطبيعة » من أنه إنما أدى بحثه هذا ليكشف به عن خصائص الله ؛ ثم كان للعقيدة الدينية أثر فى الفنون تراه فى كاتدرائيات العصور الوسطى وتصويرها ونحتها ... ثم عادت الدكتورة إلى هجومها مرة أخرى ، قائلة وهى تختم كلمتها : إن المسيحية قد علمت الناس النفاق ، بأن جعلتهم يعتقدون أنهم ذوو أخلاق معينة ، مع أن حياتهم العملية هى أبعد ما تكون عن هذه المبادىء ؛ ولو عاش المسيح اليوم فى أمريكا لحكم عليه بالسجن متهما بعشرين تهمة ، لأن أخلاقه ستكون متضادة مع القانون الأمريكى فى كثير من نواحيه ؛ والكنيسة المسيحية فوق هذا كله تمنع تطور الأخلاق ، لأننا إذا اعتقدنا أن هناك مبادىء خلقية معينة لا تتغير ، أنكرنا بالتالى ما يقتضيه تطور المجتمع من تطور خلقى ، وكذلك الكنيسة عقبة فى سبيل الديمقراطية الحقيقية ، وضربت مثلا لما تعنيه ما يجرى فى الانتخابات الأمريكية من أن المرشح الفلانى لا أمل له فى الدائرة الفلانية ، لأنه كاثوليكى وأهل الدائرة بروتستانت ، أو لأنه بروتستانتى وأهل الدائرة من الكاثوليك وهكذا ، وإذن فالمواطن الأمريكى متأثر فى أداء واجبة الانتخابى بأشياء لا علاقة لها بكونه مواطناً أمريكيًّا ، وذلك بسبب عقيدته الدينية .

كنت أتوقع بعد كلمة الدكتورة « س . ش » أن أسمع مناقشة حامية ، لكن الذى أدهشنى هو أن كل من تكلم بعد ذلك من الحاضرين — إنما تكلم ليضيف إلى مساوىء العقيدة الدينية سيئة جديدة ؛ ومن أحسن من تكلموا شابٌّ اتهم الديانات بأنها تجعل من الناس مرضى فى نفوسهم ، لأنها تصيبهم بالعلل العصبية بما تخلق فيهم من عقدة نفسية بالخطيئة ، فتراهم يمتنعون عن العيش عيشاً سعيداً بما غرس فيهم الدين من تحريمات لا مبرر لها .

* * *

كانت الليلة موعد الحفلة الراقصة الكبرى التي أقامها طالبات السنة الثالثة من الجامعة بشتى أقسامها لا نتخاب ملكة الجمال فيهن ، وبالبداهة من ينتخب هم الطلاب الذكور ، وقد تمت عملية الانتخاب أمس ، لتعلن النتيجة في هذه الحفلة التي تقام الليلة ؛ إنها حفلة مشهورة بين حفلات العام كله ، بأنها لا تقتصر على الجامعة بل تشمل ألوفا جاءوا من أنحاء الولاية كلها ؛ وأنا أستعمل « ألوفا » لأعينها ، فقد قدروا أن من جاء إلى الحفلة الليلة عشرة آلاف راقص وراقصة .

كان لمن شاء أن يشتري تذكرة للفرجة دون الرقص ، على أن يجلس في شرفة الصالة الفسيحة ، فاشتريت تذكرة ، وجلست في الشرفة أنظر من أعلى إلى هذه الألوف المتزاحمة من فتيات وفتيان في أبهى حلة يرقصون ... منظر نادر الوجود في الدنيا بأسرها ؛ الفتيات كلهن بغير استثناء قد لبسن فساتين السهرة أشكالا وألوانا ، والكثرة العظمى من تلك الفساتين تكشف عن نصف الظهر بالكتفين وجزء كبير من الصدر ، وفي ضوء المكان الخافت ، ظهرت هذه الأعالي العارية من ظهور وأعناق وصدور وأذرعة كأنها شهد وورد ! بل لا أدري ماذا أقول ؛ فما الشهد وما الورد حتى نقارن به هذه الأجساد البشرية الجميلة الشفافة التي تتدفق شبابا وحياة وفتنة وروعة ؟ ! وكان معظم الطلاب قد ارتدوا حلل السهرة أيضاً ... حين كانت تعزف الموسيقى أنغاما ناعمة خافتة ، كنت أسمع حفيف الفساتين يضيف إلى الموسيقى نغما آخر هو في ذاته أجمل من الموسيقى ؛ لكن الأدوار الموسيقية العالية كانت تغرق ذلك الحفيف ، وتستبدل به فتنة أخرى ، هي حركة الرقص السريعة التي تذكرك — إن كنت قد نسيت — أنك من هذه الشرفة إنما تطل على شباب في عِزّ الشباب ! ... كان « نيتشة » عليل البدن ، قصير النظر ، وقد وقف ذات يوم إلى جانب الطريق ، حين مرّت أمامه فرقة من الجيش الألماني تدق الأرض دقا بأقدامها القوية ، فتحسّر على نفسه وعلى بدنه العليل الهزيل ، الذي لا يستطيع أن يمشي مثل هذه المشية الفتيّة العنيفة ، وعندئذ تمنى للانسان

ألا يكون إلا هكذا قويا ، ومن ثم نبتت فى رأسه فكرة فلسفته كلها ، وأعنى بها فكرة « الإنسان الأعلى » ... وقد تذكرت ذلك وأنا أنظر من شرفتى إلى هذه المئات من الشباب الجميل ، يتلاصق حبًّا ، وتنظر العيون إلى العيون غراما ؛ تذكرت وتحسرتُ أننى لست واحداً من هؤلاء ، ثم تمنيت للدنيا كلها ألا تكون إلا هكذا شباب وجمال وحب ؛ قارن هذه المجموعة بأية مجموعة أخرى فى أى وجه آخر من أوجه الحياة : عمال فى مصنع مع عاملات ، طلبة فى جامعة مع طالبات ، متفرجون فى مسرح مع متفرجات ؛ شارون فى متجر كبير مع شاريات ... فلن تجد ما هو أروع فى هذه الجماعات كلها من هذه المجموعة : مجموعة الراقصين والراقصات ، فى هذه الثياب ، وفى هذا التصور ، وفى هذا الشباب ... إن الذى قال إن الدنيا قد خلقت للعمل قد كذب ، أو خلقت للدراسة قد كذب ؛ إنما خلقت الدنيا للحب ، الحب فى إبّانه ، على شرط أن يكون المحبون من أصحاب الجمال وصاحباته إنى لا أتوق أن أرى حبيبين سوداوين ، فها هما زنجى وزنجية بين ازدحام الراقصين ، ها هما يرقصان ، لكنى لا أتمنى أن أكون هكذا .

وقفت الموسيقى ، وصاح صائح مع ضربات طبلة دوّتْ فى المكان : « ملكة السنة الثالثة لهذا العام ... » أنصتت الآذان لتسمع من ذا يُعْلَنُ عنها « ملكة » ... ثم أكمل الصائح صيحته ناطقا بالاسم ، هى « مارثا » فدوّى المكان بتصفيق حاد كادت ترتجّ له الجدران ؛ طبل يدوّى وزمارات تزمر فى فى انفعال ؛ الجو كله قد امتلأ بالفرح كأن نبياً جديداً قد أرسلته السماء ليهدى الناس فوق الأرض !

وعجبتُ أنا حينا كيف لم تنتخب « سوزان » — أنا لا أعرفها فليست من طالباتى ، لكن رأيت إعلاناتها فى الأسبوعين الأخيرين تسدّ الفضاء ؛ تعترضك فى الطريق وعلى الجدران وفى فصول الدراسة وعلى موائد المقصف والمطعم ، وفى المذياع تسير به السيارات تشق سكون مدينة بلمان الهادئة « صاحب الوجدان

ينتخب سـوزان » ، وغير ذلك من العبارات التى أجادت صياغتها لتجىء مجموعة منغومة ، جاعلة من اسمها « سوزان » مرة ، و « سوزى » مرة أخرى و « سو » مرة ثالثة ... فمن ذا قد تحجر قلبه بعد هذا كله . ولم ينتخب « سوزان » ؟ إذن فلأرقب لأرى كيف تكون « مارثا » الظافرة بعرش الجمال ...

هاهم الراقصون والراقصات قد أفسحوا طريقاً ، وفجأة رأيت عربة العرش مارقة من وسط الزحام ، لست أدرى من أين جاءت ؛ عربة زخرفوها بستائر من قماش مرصع باللوامع وزينوها بالزهور ، وجلست « مارثا » على حافتها الخلفية عالية ظاهرة ، وجلس أمامها أربع وصيفات ممن كن ينافسنها أمس فى عرش الجمال وكان يدفع العربة من الخلف شابان بثياب السهرة السوداء ؛ البنات الخمسة كلهن بثياب السهرة البيضاء ؛ الكل يصفق لمارثا وهى مارة فى الطريق الذى أفسحوه لعربتها التى سارت بغير صوت كأنها صنعت من الهواء ! دارت العربة حول القاعة الفسيحة ، حتى ذهبت إلى حيث فرقة الموسيقى ، وهنا أخذ المذيع يذيع اسمها من جديد ، ثم وضع على رأسها تاجا جميلا من الزهر الأبيض ، ثم ناولها أشياء مختلفات ، الواحد تلو الآخر ، هذه كأس وهذا ما لست أدرى ماذا ، ودقت الطبلة دقات اهتزت لها القلوب ، وعلا صوت الموسيقى ، وبدأت العربة فى دورة جديدة حول القاعة ؛ هذه المرة كانت الملكة قد تم تتويجها ، « مارثا » فى هـذا الجمال النادر هى الليلة ربة الجمال ؛ ضع هذا الجمال الإلهى فى ثوب غاية فى الرونق ، ثم ضع على هذا كله تاجا جميلا من الزهر الأبيض ، وأجلس أمامهـا أربع فتيات ، هنّ فتنة ، لـكنهن دونها ، لأنهن جلسن عند قدميها ، وهن اللائى كن منذ يوم واحد يسابقنها و ينافسنها فى الجمال ؛ رأيت هذه المرة « سوزان » بين الوصيفات ، رأيتها بكل إعلاناتها وصخبها قد جلست الآن ساكنة عند قدمى « مارثا » خضوعا لجمالها وخشوعا .

وانتهت الدورة وعاد الرقص إلى مجراه ، وكانت الساعة قد بلغت منتصف

الليل ، فخرجت وتركت هذه الدنيا الزاخرة الحافلة بالشباب وبالجمال وبالفن الذى تبدى فى الشباب وفى الرقص وفى الموسيقى والغناء ؛ وستظل الحفلة قائمة إلى الثانية بعد منتصف الليل ؛ خرجتُ ، وشاء الله أن يبدأ المغنى أغنية وأنا فى طريقى إلى الباب ، بدأت بهذه العبارة : « أنَّى لى امرأة تقبّلنى ، امرأة تضمنى إليها ضماً لصيقاً ، ثم تسرق قلبى وتمضى ! » .

السبت ١٧ أبريل :

استعرت من مكتبة الجامعة كتاباً عن « الثورات » لهارولد لاسكى ، وجلست فى مقصف نادى الاتحاد وأمامى القهوة ، وعزمت على القراءة هناك طول الصباح حتى يحين موعد الغداء — فالحرم الجامعى اليوم قاع صفصف من الأساتذة والطلاب جميعاً ، لأننا فى إجازة الربيع ... ولكنى ما كدت أفتح الكتاب حتى جاء زميل أمريكى شاب لا أعرف اسمه ولو أنه كثيراً ما يقصدنى ليجلس معى ، وهو مدرس فى مدرسة ثانوية ، وفى الوقت نفسه يحضر للدكتوراه فى علم الاجتماع .. استأذن وجلس هو الآخر وفنجان قهوته أمامه .

بدأنا الحديث بأن علّقتُ على أغنية كانت تذاع فى الراديو ، فقلت إنى أحب كثيراً من الأغانى الأمريكية حباً لا أحسه حتى فى أغانينا المصرية ، فإنى أجد فى الأغانى الأمريكية تعبيراً بسيطاً قوياً عن اللمحات الإنسانية اللطيفة التى يحسها كل منا إحساساً سرعان ما يزوغ ويفلت ويستعصى على التعبير إلا أن يمسك به أديب أو فنان ؛ فقال : إنى قلما ألتفت إلى معانى الكلمات فى الغناء ، فلطالما سمعت هذا الدور الغنائى ولم أتنبه للكلمات إلا الآن إذ استوقفت أنت انتباهى لها ؛ إننى درست الموسيقى دراسة منظمة ، وأهوى العزف وأجيده ، ولذلك ترانى ألتفت إلى النغم وأشغل به ؛ قلت له : هذا كثيراً ما يحدث عندما يفتنك النغم عن المعنى ، فلطالما وقعتُ أنا على آيات قرآنية مترجمة إلى الإنجليزية ، فأجد أنى لم أتنبه إلى

معناها إلا وهى فى ترجمتها الإنجليزية ، ذلك لأن حلاوة نغمها فى أصلها العربى كان قد شغلنى عن الوقوف عند معناها .

واستطردت فى حديثى فقلت إن الأمريكى بصفة عامة لدنٌ فى التعبير عن نفسه ، فهو صريح بسيط شفاف ، قلما يضمر التواء ؛ الأمريكى فردٌ قائم بذاته ، ونسبة الفردية فيه لا يكاد يكون لها مثيل فى الشعوب الأخرى ، وذلك لحداثة هذا الشعب ؛ فلم تقو فيه روح « القومية » بعد بحيث تغمر الفرد فى موجها .

قال : هذا حق يؤسف له ، فقد وهنت الروابط والضوابط الاجتماعية التى تحدد سلوك الفرد ، فنمت شخصيته نمواً أكثر مما ينبغى لها ، ولذلك كثرت الجريمة بين الكبار ، وكثر التشرد بين الناشئين ؛ تفككت أواصر الأسرة إلى حد كبير فلم يعد للوالدين حكم على الولد ، وفقدت الكنيسة صفة القيادة الروحية ، فانفرط العقد وبات أفراداً .

فقلت له : إنك تروى هذه الأشياء على أنها علل وأمراض ، وأما أنا فبحكم اتجاهى الفكرى أرحب بكل مايقوّى فردية الفرد وكل مايهدم المجتمع ، إن كان تماسك المجتمع على حساب الأفراد ؛ اننى لا أستطيع أن أتصور حقيقة واقعة إلا وجودى الشخصى ، وكل ماعدا ذلك إن هو إلا وسائل لتقوية ذلك الوجود ؛ إن تزوجتُ فلكى أجد المتعة فى الزواج ، وإن صادقت فلكى أجد التسلية عند الأصدقاء ؛ أريد أن أنمو مبتور الروابط بكل شىء غير نفسى بقدر ما يكون ذلك مستطاعا ؛ أريد أن أنمو كما تنمو هذه الشجرة ، تنمو إلى الحد الذى تمكنها منه طبيعتها بلا قسر ولا كبت ولا ضغط ؛ كل ما عدا وجودى الشخصى شبح ليس له وجود : أمّه ، دولة ، إنسانية ، كنيسة ، إلى آخر هذه السلسلة الطويلة من الأشباح التى يخيفوننا بها كما يخيفون الأطفال من أشباح العفاريت ؛ لذلك لا أفهم أبداً أن يطلب من الفرد أن يضحى بنفسه ، فمن أجل من يضحى ؟ ولماذا يكون وجود غيره أفضل من وجوده هو ؟ إننى كثيراً ما أمر فى هذه البلاد على أنصاب

من الحجر ، أو حوائط من الجرانيت ، مكتوب عليها قوائم مذهبة بأسماء من ماتوا في الحرب ، وعادة يكون عنوان هذه القوائم هو هذا : « هؤلاء قد وهبوا أرواحهم طواعية » هذا كذب ، لم يهب إنسان واحد منهم روحه طواعية ؛ ذهب كل منهم إلى الحرب وهو فى حسرة عل ترك حبيبته أو زوجته أو أولاده .

قال محدثى : الحق أن هـذا كله صحيح ، وأنا أشعر به مثل ما تشعر تماماً ، لـكنى لا أرى كيف يمكن أن ينمو الفرد دون أن تحيط به سياجات ثلاثة (وهنا نزع منشفة من الورق الموضوع على المنضدة ورسم رسماً يوضح به ما يعنيه) فهاهنا فرد ، وحوله هذه الدائرة ترعاه التى هى الأسرة ، وحول الأسرة هـذه الدائرة ترعاها وهى الـكنيسة ، وحول الـكنيسة هذه الدائرة الـكبرى وهى الدولة : فرد ومن حوله أسرة فكنيسة فدولة ... فأمسكت بدورى الورقة والقلم ، وقلت مشيراً إلى رسمه : أما الأسرة فتبقى للرعاية لا لامتلاك الولد ، هذا إذا بقيت ، لأنى لا أعرف لصالح من تبقى الأسرة ، ألصالح الرجل الذى يريد أن يتصل بألف امرأة ، أم لصالح المرأة التى تريد أن تتصل بألف رجل ، أم لصالح الطفل الذى قلما يشعر نحو والديه بالحب الخالص إلا فى الظواهر التى تخفى وراءها ما تخفى مما كشف فرويد الستار عنه ... وأما الـكنيسة فتزول ، لأن الأخلاق المستمدة من الديانات وإن تكن قويمة فى ذاتها إلا أنها تبث بين طوائف الناس حزازات فلا فرق فى الأخلاق بين دين ودين ، لـكن أنواع الـكنائس المختلفة هى التى توحى بوجود الفوارق بين الناس ؛ وأما الدولة فهى مجموعة أفراد تحكم ، ولو قويت شخصيات المواطنين كان ذلك ضامناً ألا تقوم حـكومة إلا وفق إرادتهم ؛ لو قويت شخصيات المواطنين لما استطاعت حكومة أن تضحك عليهم باسم القومية والوطنية ، وما إلى ذلك من أسماء هى أقرب إلى سحر الـكهان .

قال : إنك تشـير بزوال الـكنيسة ، مع أنك لو رأيت كيف تكون الـكنيسة متنفساً للناس لعجبت ؛ فلقد شاهدت بنفسى ناساً يذهبون إلى الـكنيسة

حيث يبكون أو يتمرغون على الأرض ، لأن فى أنفسهم أشياء مكبوتة ، والكنيسة وحدها هى المكان الذى يمكنهم فيه أن يُجَنُّوا دون أن يضحك على جنونهم أحد .

فقلت له : هذا معى لاضدى ؟ فلو كانت الحياة العادية اليومية قائمة على تعبير الإنسان عن نفسه تعبيراً حراً ، لما كان فى الأنفس مكبوت بحيث يحتاج الناس إلى كنيسة يذهبون إليها ليتمرغوا على أرضها من شدة الضيق ، إننا نخاف الناس بحكم نظامنا الاجتماعى ، ولو كان نظاما فردياً لما خاف أحد أحداً ، ويلاحظ أنه كلما تأخرت الأمة فى مدارج الرقى ، اشتد خوف الناس بعضهم من بعض ؛ إن رجلا فى مصر لا يجرؤ على الخروج بقميص كهذا (وأشرت إلى رجل جالس على مقربة ، يلبس قميصا هو غاية فى الخروج عن المألوف) ... واذهب إلى المجتمعات البدائية تجدها مكبلة بأكبال من حديد تحدد للأفراد طرائق سلوكهم بحيث لا يحيد واحد منهم عما رسمته القبيلة من سلوك ؛ إنهم كمجتمع النحل والنمل ... إننى لأعجب من هؤلاء الكتاب الذين يُعَيِّرون الإنسان أحياناً بمجتمع النحل أو النمل فى دقة نظامه ؛ نعم إن النحلة لا تخطىء لأن قانونها الطبيعى يرسم لها طريقة سلوكها لكنها لافردية لها ولا شخصية ؛ إن الإنسان إنسان بمقدار ما يعصى ، لأنه إنسان بمقدار ما هو فرد متميز ، والتميز اختلاف عن الخط المرسوم ؛ وليس مصادفة أن ترى الفنانين فى معظم الأحيان « شواذ » فى سلوكهم ، لأنهم أعرق فى الإنسانية من الإنسان العادى ... إنه لا شك فى أن الأمريكى يتمتع بحرية فردية لا يحلم بها أبناء الأمم القديمة ، وكلما أوغلت الأمة فى القدم ، تراكمت على رءوس أبنائها أطباق من تقاليد يصعب على الأفراد اطِّراحها ... لكنكم أيها الأمريكيون ستفقدون هذه الحرية الفردية قريبا ، لأن الكتَّاب فى بلادكم لا ينفكون يشعلون فيكم روح القومية ، وروح « التأمرك » كما يسمونها ؛ فإذا نمت فيكم روح

القومية ضاعت حتما روح الفرد ، وعبثا ما يقال من أنه يمكن التوفيق بين الطرفين لأنهما نقيضان لا يجتمعان .

الجمعة ٧ مايو :

كنت فى نادى الأساتذة صباحا أجلس مع أستاذين كانا يتحدثان عن سقوط « ديان بيان فو » (فى الهند الصينية) ؛ وانتهى الحديث إلى ذكر « أخلاق الحرب » والاختلاف فى فهمها بين الشرقيين والغربيين ؛ فقال أحدهما — وهو شاب — إن أخلاق الحرب تختلف فى نظر أهل الشرق الأقصى عنها فى نظر الغربيين (ولعله صب حديثه على الشرق الأقصى لوجودى ، وإلا لجعل حديثه عاما على الشرق أقصاه وأدناه معاً) ، فالشرقيون فى رأيه لا يفهمون أبداً ما معنى أن يكون عليهم واجب نحو أسرى الحرب ؛ قال : إننى عندما كنت هناك تحدثت إلى كثيرين منهم فوجدتهم جميعاً يعتقدون بأن الحرب قتل ، فلماذا يشغلون أنفسهم بعبء الأسرى طعاماً وثياباً ورعاية ؟ مع أنهم من الأعداء ؟ فأجاب زميله قائلا : نعم إن الشرقيين لا يفرقون بين الجندى باعتباره إنساناً والجندى باعتباره عضواً فى جيش محارب ، وإنه إذا ما كان فى موقف يزيل عنه العضوية فى الجيش المحارب ويجعله إنساناً صرفا وجب عندئذ تغيير النظرة إليه . . فعاد الأستاذ الشاب إلى الحديث فقال : إن أخلاق المدنية الغربية المسيحية هى أنه إذا قابلك قاطع طريق مسلح ورفعت له ذراعيك استسلاما امتنع عن قتلك ، فإن كان هذا هكذا ، فالحصن الذى يستسلم أو الطائرة التى ترسل إشارة إلى أرض العدو بأنها ستهبط عجزاً واستسلاماً ، وجب الامتناع عن إيقاع الأذى بجنود الحصن أو ملاحى الطائرة ؛ إننى لما كنت أتحدث فى ذلك إلى أهل الشرق الأقصى ، وجدتهم يجيبوننى بالقنبلة الذرية التى ألقاها الأمريكيون فوق هوريشيا ، ويذكرون لى كيف فتكت تلك القنبلة بمئات الألوف دفعة واحدة ؛ وهم يذكرون

ذلك ليدلوا على أننا نحن الغربين كذلك نقتل الناس غير المحاربين ما دمنا فى قتال وهم لا يدركون أنه بدل أن نرسل جنديا يحارب جنديا ، فقد اكتفينا بإرسال جندى ليحارب مدينة بأسرها ؛ وذلك لأنهم لا يزالون يتصورون أن الحرب هى نزال بين جندى وجندى … وهنا توجه الأستاذ الشاب إلىّ يطلب رأيى فى هذا كله — ولم يكن لى رغبة ساعتئذ فى الحديث — فقلت له : إن مسألة « أخلاق الحرب » بأسرها مسألة اعتبارية ، فلم ينزل وحى من السماء يقول إنه ينبغى أن أن تكون للحرب أخلاق هى كذا وكذا ؛ وما دام الأمر كذلك فقولوا أنتم ما شئتم ولأهل الشرق الأقصى أن يقولوا ما يشاءون ؛ هذا من جهة ومن جهة أخرى أنت تتحدث كأنما الأمر من ناحية الغربيين كله براءة وشهامة ، واتخذت هورشيما علامة على عدم فهم الشرقيين لروح القتال الحديث ، وفى موقفك تناقض صريح ؛ لأنه إن كان الغرب يساير روح القتال الحديث فى أن يرسل جنديا واحدا كما تقول ليهلك مدينة بأسرها ، فيها المحاربون وغير المحاربين ، إذن فالغرب باتجاهه هذا قد ناقض « أخلاق الحرب » التى تزعم أنها من مبادئه ، ولم يصبح فرق بينكم و بين أهل الشرق الأقصى فى فهمهم للقتال بأنه قَتْـل . . . وانتهى الحديث فجأة لبدء موعد الدروس .

الجمعة ٢١ مايو :

بعد الظهر بقليل بدأنا الرحلة إلى مصيف رجال الجامعة ، وأصفه بهذه الصفة لأنه مكان منقطع فى غابة بعيدة ، ليس فيه إلا كابينات للأستاذه ؛ بدأنا الرحلة ، والراحلون هم الدكتور « و » وزوجته وطفلاهما وشاب هندى يحضر للدكتوراه فى الكيمياء الزراعية وأنا ، والجهة المقصودة هى « بريست ليك » (أى بحيرة القسيس ، وسميت كذلك لأن قسيسا معروفا عاش هناك معتزلا وذاع اسمه وصوته ، فنسبت إليه البحيرة والنهر الذى يخترقها) — و بحيرة القسيس هذه تقع فى الطرف

الشمالى من ولاية أيداهو الملاصقة لولاية وشنطن والبحيرة قريبة جـدا من حدود كندا .

وصلنا البحيرة بعد خمس ساعات فى السيارة أو يزيد ، وهناك عند نقطة التقائنا بالبحيرة ، تركنا السيارة لنركب زورقا بخاريا يملـكه أيضا الدكتور « و » ونقلنا إلى الزورق معظم ما حملناه معنا من طعام ، وقد حملنا مقدارا كبيرا يكفينا أربعة أيام فى ذلك المـكان النائى المنعزل ؛ وأبحرنا فى الزورق البخارى شمالا نحو ساعة كاملة ، قطعناها فى أجمل مكان شهدته عينى ، فالبحيرة ضيقة طويلة ، طولها ثلاثون ميلا ، ولا يزيد عرضها فيما أظن عن ميل واحد ، وتحفها من جميع جهاتها جبال مشجورة بكثيف الصنوبر الفارع ، والقمم لم تزل معممة بثلوجها ... إنى لأعجز عجزا تاما عن وصف هذا الجمال الطبيعى الذى لا يطوف بأحلام حالم ... ماذا أقول ؟ يستحيل أن يوجد فى الدنيا مكان يدنو من هذا المكان جمالا ؛ وإنى لأقارنه بمنطقة البحيرات فى شمالى انجلترا ، فأجده يفوقها ، لأن الجبال هنا تغطيها أشجار الصنوبر الـكثيفة ، أما هناك فالجبال إما عارية أو تغطيها خضرة خفيفة ...

فى هذه الجنة لبثنا أربعة أيام كنت فيها كالحالم ... وعدنا يوم الثلاثاء ٢٥ مايو والمطر هاطل والبحيرة هائجة مائجة والسماء ملتفة بالضباب ؛ إن الجبال عند رحيلنا قد اتخذت صورة أخرى غير الصورة التى استقبلتنا بها حين كان الجو رائقا صافيا ؛ الجبال عند رحيلنا كانت كأنها من ظلال ، لا أرى منها إلا سوادها ، فلا خضرة الأشجار بادية ، ولا أبيض الثلج عند القمم ظاهر .

الأربعاء ٢٦ مايو :

المطر نازل طيلة النهار ، ثم تحول إلى ثلج مدة ساعتين أو ثلاث من ساعات الظهر ؛ عجيب أن ينزل الثلج فى آخر مايو ! جلست طول الصباح فى نادى الأساتذة أقرأ مقالا ممتعا فى مجلة نيويوركر الصادرة يوم ١٥ مايو ، نبهتنى إليه

السيدة « ت » التي تحضر لى محاضراتى فى الفلسفة الإسلامية ... هو مقال طويل يقارن فيه الكاتب الأصل العبرى للأنجيل بترجماته إلى اللغات الأوربية ، قائلا إن للغة العبرية خصائص يستحيل ترجمتها إلى الانجليزية مثلا ، مع أنها خصائص دالَّة وهامة فى تلوين اللغة تلوينا معبِّرا ، وراح يحلل هذه الخصائص وإذا بى ألاحظ انطباقها على اللغة العربية ؛ وهى لفتات من الكاتب قوية جدا عميقة جدا ؛ ولا بد أن اقرأ المقال مرة أخرى قراءة أدق ... وأهم ما اهتممت له فى المقال هو الفكرة التى عرضها الكاتب فى علاقة اللغة وفكرة الناس عن الزمن ، فليس فى العبرية لحظة حاضرة ، كل ما فيها ماض أو مستقبل ؛ فلما قرأت ذلك أدركت من فورى أن ذلك أيضا فى اللغة العربية ، ليس هناك « فعل » يدل على اللحظة الحاضرة ، لأنه حتى الفعل المضارع عندنا لا يشير إلى اللحظة الحاضرة بمقدار ما يشير إلى فعل لم يتمّ بعد ، فالمتحدث بالعربية لا يضع نفسه فى لحظته الحاضرة ثم ينسب الحوادث الماضية والمستقبلة بالنسبة إلى تلك اللحظة ، كما نرى فى اللغة الإنجليزية مثلا حين نستخدم « الفعل المضارع الكامل » أو « الفعل الماضى الكامل » ... على أن هذه ملاحظات سريعة ، لا تدل على شيء مفيد إلا إذا فكرت فى الموضوع تفكيرا مفصلا شاملا ، فأرجو أن أتمكن من دراسته يوما ما .

بعد أن فرغت من محاضرتى فى الفلسفة الإسلامية اليوم ، دعانى أعضاء الفرقة التى أحاضرها بما فيها من طلبة ومستمعين ، إلى حفلة صغيرة أعدوها توديعا بمناسبة انتهاء الشوط الدراسى ؛ وهناك قام الدكتور « هـ » أستاذ الأدب الانجليزى ، وقد حضر لى جميع محاضراتى بغير استثناء ، فألقى كلمة تقدير اهتزت لها نفسى ، ثم قدم لى هدية كتاب « محاورات الفرد نورث وايتهد » الذى صدر هذا الأسبوع ، وقد وقع الحاضرون على غلافة من الداخل ، بعد أن كتب نيابة عنهم الدكتور « هـ » عبارة على الغلاف سأعتز بها ما حييت . . . إننى والله كلما تذكرت ما لقيته فى هذه البلاد من تقدير يكاد الدمع يسح من عينى ، فقد عشت فى وطنى ما عشت ،

وجاهدت فيه ما جاهدت ، ولم أجد إلا بخسا واستصغارا واستخفافا ؛ حتى لقد فقدت الثقة فى نفسى ، وقد جئت إلى أمريكا فأعاد الناس إلىّ ما فقدته فى أرض الوطن .

الأحد ٣٠ مايو :

أراد لى الله أن أرى الجنة قبل أن أغادر مدينة پلمان ، رأيتها مرة فى « پريست ليك » ورأيتها اليوم مرة أخرى فى صورة أخرى ؛ إذ قضيت اليوم كله فى مكان يسمونه سويسرة الولايات المتحدة ، حيث تنهض جبال يطلقون عليها اسم «الألب الصغيرة» — وهو مكان يقع فى ولاية أورجون التى تجاور ولاية وشنطن من جهة الجنوب ، و يبعد عنها ما تبعد الإسكندرية عن القاهرة .

فقد مرّ علىّ الأستاذ منو جرينوفلد بسيارته الساعة الخامسة صباحا ، فسرنا مارّين أولا بمدينة « لوستن » التى كنت قد زرتها مرة وكتبت عنها ، وأغرب ظواهرها أنك ترى نفسك فجأة قد أقبلت على حافة منخفض عميق واسع يهوى عن سطح المرتفع الذى أنت فيه ألفى قدم ؛ وفى هذا المنخفض تقع مدينة « لوستن» ، تنظر إليها من أعلى فكأنك تنظر إلى مدينة فى قاع بعيد ، وطريق السيارات الهابط إلى هذا القاع يلف على سفح الجبل فى ثنيات تروح وتجىء فى حضن الجبل .

تركنا لوستن — وكنا لا نزال فى ساعة مبكرة من الصباح — ولبثنا نسير على أرض هى موجات ضخمة مغطاة بالخضرة التى لا شجر فيها ، والخضرة هنا فى معظم الحالات قمح فى طريق النمو ؛ فهذا الإقليم — كما قيل لى مرارا — يعد أغنى بقاع أمريكا فى محصول القمح .

و بعد مسير قليل صعدنا جبلا على نفس الصورة التى هبطنا بها إلى لوستن ، أعنى أننا صعدنا فى طريق يلتوى و ينثنى على سفح الجبل ، ليصعد الصاعد متدرجا حتى بلغنا القمة ، والقمة هضبة مسطحة تنسيك أنك فى منطقة جبلية ؛ على هذه

الهضبة المسطحة المستوية التى تمتد ما امتد البصر ، والتى زرعت كلها قمحاً ، سرنا نحو ساعة ، وصلنا بعدها إلى جنة الله على الأرض ، ولبثنا فى هـذه الجنة سائرين فى السيارة نحو ساعتين ، حتى بلغنا المكان المقصود وهو بحيرة « والُوا » ومن حولها جبال الألب الصغيرة .

فى هـذه الجنة الأرضية مررنا على ما يسمى « متنزه فيلد » وهى حديقة بستانيُّها هو الله ! لم تنسقها يد البشر ، ومع ذلك يستحيل أن تقبل عليها ولا ينفتح فوك من دهشة وتقول كما قلت أنا — دون سابق علم — إن هـذا المكان فيه علامات التنسيق والتشذيب كأنه حديقة مصنوعة لا جزء من الطبيعـة المرسلة ، وعندئذ تعلم كما علمت أنا من زميلى إنه فعلا يسمى « متنزه فيلد » لأنه كالمتنزه الذى أتقن تنسيقاً وتشذيباً وتهذيباً . . . وتدخل فى مماشى هذه الحديقة الإلهية ، فترى الحكومة قد أضافت إلى الطبيعة إعداداً ينفع المتنزهين إذ أعدت مكاناً للطبخ ومكانا للأكل وأمكنة للنوم وهكذا .

استأنفنا طريقنا فى هذه الجنة الفيحاء ، فطريق السيارة ممهد على السفح عند وسط الجبل ، فعن يسارنا ينهض حائط الجبل إلى قمته ، وهو مغطى كله بأشجار الصنوبر الضخمة العاتية ؛ وعن يميننا مباشرة واد عميق ، وعبْر الوادى أمواج من الأرض الخضراء ، لكن الخضرة هنا ليست قمحاً ، بل حشائش ، وظهور الموج يلاحق بعضها بعضاً تبدو كأنها ظهور الخيل نظر إليها من الخلف وهى تعدو زرافات ؛ ولولا أن تشبيه الأرض الخضراء بالمخمل قد ابتذل حتى فقد معنـاه ، لقلت إن المنظر عبْر الوادى شبيه جداً بمساحة واسعة من المخمّل الذى كأنما يغطى تحته أشياء ذات أطراف وزوايا ، لأن المخمّل ينثنى هنا و يلتوى هناك ، وعنـد انثنائه والتوائه يتغير لون الخضرة كما يتغير لون المخمل تماما حين ينثنى و يلتوى ... هذا الوادى الذى لم يخلق الله أجمل منه فى الدنيا ، يسمى وادى جراند روند ؟ . .

ها هو ذا طريق السيارات يهبط بنا إلى جوف الوادى ، يهبط بنا درجة درجة على

السفح ، حتى بلغنا القاع لنبدأ فى الصعود من جـديد درجة درجة على السفح المقابل من الناحية الأخرى ؛ وصعدنا إلى سطح هضبة مستو ، لـكن الهضبة هنا مغطاة كلها بالشجر ؛ وقد شُق طريق السيارات بين كتلة الشجر خطا مستقيما يمتد أميالا ؛ فتسير وعن يمينك و يسارك جداران من الشـــجر ؛ وفجأة ينتهى جدار الشجر الذى على يسارنا ، ونرى لوحة تنبه المسافر إلى بقعة جميـلة ينبغى الوقوف عندها ، فوقفنا .

هى نقطة بارزة تطل منها على « وادى يوسف » — فمن يوسف هذا ؟ . هو زعيم من زعماء الهنود الحمر ، حارب الأمريكيين حر باً يشهـدون له فيها بالبراعة التى انقطع نظيرها فى تاريخ الحروب ، من حيث قدرته على الانسحاب السريع ثم الالتفاف السريع ، ثم التفكير فى مائة خديعة وخديعة يوقع بها عدوه فى حصار مفاجئ لايتوقعونه .

عدنا فاستأنفنا الطريق بين جدارى أشجار الصنو بر على هـذا المنبسط الأرضى العالى ، و يسمونه « متنزه والُوا » ؛ حتى إذا ما خرجنا من هذه الغابة انبسطت أمامنا أمواج وطيئة من الأرض الخضراء ، بما عليها من قمح ... و بدت فى الأفق البعيد جبال الألب الصغيرة ، التى ترتفع فى بعض أجزائها اثنتى عشر ألفاً من الأقدام ؛ لـكن ساء حظنا فكانت القمم العالية ملتفة بالسحاب ، فلم نر فيها إلا أسافلها الخضراء بشـجر الصنو بر ... كان السحاب أحياناً يشف فى بعض الفتحات الصغيرة ، فيكشف عن بقع مضيئة من القمم العالية ، الناصعة بثلجها الأبيض .

سرنا متجهين نحو الألب الصغيرة ، حتى بلغنا مدينـة « إنتر برايز » وهى على ارتفاع خمسة آلاف قدم ، وصلناها فى الساعة العاشرة صباحا ، أى بعـد خمس ساعات بالسيارة ؛ نزلنا بها وشر بنا قهوة ثم عدنا نسير عدداً قليلا من الأميال مارين بمدينة صغيرة اسمها « يوسف » ، وأخيراً بلغنا بحيرة « والوا » التى تحيط بها

جبال الألب الصغيرة ... ها هنا جنة الله التى وعد المؤمنين ! ليس جمال المنطقة هنا من نوع الجمال الذى شهدته فى « بريست ليك » على الرغم من أن التكوين واحد : بحيرة حولها جبال مشجورة بالصنوبر ؛ ولكن « بريست ليك » جمالها فى حوشيتها وعزلتها ، وأما هنا فقصد كثير من الزائرين ، ولذلك تجد الطرق ممهدة معبدة ، وتجد مطعما ودكاناً يبيع الصور التذكارية ، وتجد الحكومة قد أعدت مكاناً للطهى ومكاناً للأكل وهكذا .

تركنا السيارة عند حافة الغابة ، وتخللنا الأشجار نحو مسقط ماء مشهور ؛ بين حين وحين يصادفك فى قلب الغابة « كابينة » يسكنها مصطاف ؛ ليست الكابينات متلاصقة ، بل ليست متقاربة ، إنما تبعد الواحدة عن الأخرى مسافة بعيدة ؛ ترى الكابينة قد أحاط بها الشجر ، بل تراها هى نفسها خضراء كأنها نابتة من الأرض كالشجر الذى حولها ، فتحسبها عشاً للعصافير . . . أأقول « تحسبها » ... ؟ بل هى عش للعصافير ، فانظر من ذا خرج من هذه الكابينة عند مرورنا ... فتاتان رائعتان هما عصفورتان ! .

الأرض داخل الغابة طرية بما عليها من بلل ؛ الدنيا كلها من حولنا مبللة ببقايا الندى أو بأوائل المطر ... سرنا محاذيين نهيراً متدفقاً سريع الجريان جداً ، رائق الماء كأنه البللور ، ظهرت الصخور على قاعه كأنها تحت لوح من زجاج . . وبعد ميل أو ميل ونصف ، قطعناها فى صعود تدريجى داخل الغابة ، وصلنا مسقط الماء ؛ فهذا النهير يسقط ماؤه فى الفضاء نحو ستين قدما خارجا لا تدرى من أين ، لأن السحاب الذى يلف قمة الجبل يخفى أجزاءه العليا كلها ، فلا تستطيع أن تتعقب النهير إلى منبعه بالنظر ، فيفجؤك ماؤه متدفقاً من بين الصخور والسحاب ، هابطا فى الهواء ستين قدما ، محدثاً بذلك صوتاً يملأ السمع .

وعدنا إلى بلمان ساعة الغروب ، فكأنه آدم نزل من الجنة إلى الأرض .